يوسف عز الدين

وعادت الذكرى

بطرائفها وغرائبها

دار الإبداع الحديث للنشر
١٩٨٩

يوسف عز الدين

وعادت الذكرى

بطرائفها وغرائبها

١٩٨٩

الإخراج الفني ،
تصميم الغلاف :
سعد عبد الوهاب

الإهداء

إلى الزملاء الذين عاشوا معى
فى المحيط نفسه وتذوقوا فيه
ما تذوقت . الذين وردت
أسماؤهم فى طى الكتاب

يوسف عز الدين

مقدمـــة

أمذكرات . . . . .
أم . . . . . اعترافات . . ؟

المذكرات والاعترافات أدب كثر فى الساحة الفكرية بصور جديدة فهو مزيج من التجارب الذاتية والاعترافات الفردية . اختلطت ما بين القول الصريح فى القصد والجرأة فى تصوير المذكرات أو الاعترافات . فاختلطت المذكرات بالاعترافات خوفاً من التقاليد والعادات الاجتماعية .

وتحتاج المذكرات والاعترافات إلى قدر كبير من الصدق وعمق التجارب وبراعة الأسلوب وقوة النسج لابراز المعاناة الإنسانية والخبرة الفردية ووصف ما يشاهده المبدع من أحداث مرت به وأثرت فيه .

وقد كتب العرب والغرب كثيرا فى أدب المذكرات والاعترافات مثل ابن بطوطة وابن فضلان ولكن العربى المسلم قلما يذكر تجاربه الفردية التى تغض قدره الاجتماعى . وأكثرها تحمل الطابع الجغرافى والفكرى والتاريخى ولكنه أكثر صدقاً من الغربيين الذين كتبوا عن الشرق فى رحلاتهم التى تحشد بالمبالغات والخرافات والأساطير لاثارة العالم الغربى التى لا يحتاج إليها السائح المسلم .

ولا يمكن للشرقى المسلم أن يجارى الغربى بصراحته وصدق تجاربه الفردية لأن المجتمع الشرقى تربطه أواصر وتقاليد ومثل متعددة ويكون محيطه وأسرته وأهله مسؤ ولين عن الأغلاط والأخطاء التى يرتكبها صاحب المذكرات .

وهذا الكتاب جزء من المذكرات وجزء من الاعترافات التى صادفتها فى حياتى طالباً فى لندن حاولت أكون صادقاً مع نفسى واضحاً فى قولى بالرغم مما سألقاه من المجتمع بعد نشر

هذا الكتاب ولم أحذف جانباً منها أو أنمق جانبا آخر . نشرتها كما وجدتها تمثل الشاب الطامح الغريب الصادق الهمة الذى يحتك بالغرب بمثله وتقاليده وعاداته ولكن هذه المثل والعادات لم تنسنى شخصيتى عربياً ومسلماً وشرقياً حافظت عليها وكأنى قابض على الجمر مجاهداً بكل قوة وبكل صبر على عدم الانبهار الروحى والانحدار النفسى والضياع النفسى .

لا أشك فى أن هذه المذكرات لا تخرج عن إطار مذكرات طه حسين وأحمد أمين وزكى نجيب محفوظ فى (الأيام) و(حياتى) و(قصة نفسى) إذ من المتعذر علينا أن نجارى جان جاك روسو وجان جانيه واندريه جيد وسيمون دى بوفوار فى اعترافاتهم لأنى لم أقم بما قام هؤلاء به ولم أنحدر كما انحدر هؤلاء فقد صانتنى مثلى الشرقية وتربيتى الاسلامية وتقاليد المجتمع العربى من أعمال قام بها الغربيون .

ومن هذا المنطلق كتب أكثر العرب وأبناء الشرق بما لا يخدش الحياء والمركز الاجتماعى فى قومه . صنت نفسى عن الابتذال واستفدت من التجارب .

وقد يتفنن الكاتب فى الشرق العربى باعترافاته بوضع قصة أو مسرحية أو رواية يصب فيها تجاربه الفردية وفى اطار الأدب القصصى يضع اعترافاته بوضوح وصدق وصراحة اعتمادا على أن الكاتب حر فى خياله أو أنه عاش على أجنحة الأمانى ورفات الأحلام فلا يخدش سمع التقاليد ولا يؤذى عين عاداته .

إن الاعترافات بالعلاقات الغرامية تجريح لأسرار الأنثى التى يحترمها رجال العرب والاسلام والشرف وانتقاص للعلاقات الفردية . التى خرج على هذه المثل بعض الكتاب وسار فى هذا السبيل بعض النسوة اللواتى اعترفن فى قصص بأسلوب مبتذل فيه تدنى الروح وهبوط الجسم مما لا يقره الشرقى والعربى والمسلم . تأثرا بالتيار الغربى الذى سيطر علينا بكتب الجنس والعنف وفى هذا الأدب يعرّى الانسان نفسه ويفضح روحه بعد أن أمن من أن المجتمع لن يغمزه أو يؤثر فى مركزه وأن مجتمعه يقبل كل هذه الاعترافات ويرحب بها .

وبروح الحذر الصادق اللهجة كتبت هذه المذكرات وما ابتعدت عن صدق اللهجة والصراحة فى القول لأنى ما عملت أمرا أخاف عليه من سطوة المجتمع أو أثر الخصوم والحساد والنقاد وما أكثر هؤلاء الذين يتصيدون فى الماء العكر . ومن كتاب المذكرات من يجارى الساسة فى كتاباته ولا يخرج عن سطوة الرأى العام تقرباً وزلفى وحباً فى المنافع وما أنا من هؤلاء .

ومن كتاب المذكرات جمهرة معاصرة مثل عباس محمود العقاد وابراهيم عبد القادر المازنى وأنيس منصور ويسود الصدق على أكثرهم ولعّل أجرأهم وأصدقهم أنيس منصور فى كتاباته ومذكراته .

أرجوا أن تعيد هذه الخطرات التى حفلت بالمذكرات والاعترافات أيام الدراسة وذكرياتها بحلوها ومرها للزملاء الذين عاشوا معى ومرت بهم مثل هذه التجارب . وفى هذه الخطرات فائدة للمؤ رخ الذى يؤ رخ فى هذه الفترة بدراسته هذه الفترة وعالم الاجتماع الذى سيجد فيها التطور الاجتماعى فى العالم والسياسى يدرس فيها التغيرات العامة التى طرأت علينا .

وأرجو من الله السداد والعفو والمغفرة وهو الغفور الرحيم .

العين ١٩٨٧

يوسف عز الدين

الفصل الأول

أول الخطى للغربة

ما حال بغداد هذا اليوم ؟ . .

حيرة وقلق . . واضطراب فكرى وتوقع لمجهول لا نعرفه ؟ علامات السخط والغضب عند كل انسان . . حتى عند الموظفين الكبار الذين يديرون دفة الأمور نسمع منهم نقدا للدولة وأعمالها . . ليت شعرى إذا كان المسؤول الكبير ينقد نظام الحكم فمن سيكون معه ؟ إنه نظام أصيب من داخله وخارجه بالسوس .

الجو قد شحن بالبغضاء والحقد والتشكيك بكل ما تقوم به الحكومة . . ونحن نردد الإشاعات دون أن نغربلها ، وكلما كانت الإشاعات كبيرة كانت تسرى بين الناس بسرعة أكبر . . وتتضخم ويضاف إليها الجديد .

حاولت الدولة الإصلاح فبنت السدود والمدارس ورصفت الطرق وأنشأت الصوامع (سايلوات) لخزن الحبوب . لأن الإنكليز كانوا قد استأثروا بكل خيرات العراق وهو النفط ، ولم تعط العراق غير حصة ضئيلة محدودة بشلنات . . لم تكن كافية لإصلاح بلد عاش فى فقر وجهل ومرض عدة قرون . . ولما كثرت واردات العراق . . أنشأت الدولة مجلس الاعمار ودرست حاجات العراق دراسة واسعة . . ووضعت الخطط للإصلاح العام . . لتبنى دولة حضارية متقدمة .

ان عائدات النفط جاءت متأخرة . . والشعب العراقى مستعجل ، من طبعه كراهية الحكم وأجهزة الحكم . . رد فعل لعناء طويل من الإهمال والذل . وقد تجسم هذا الكره فى الفترة التى حكم فيها الانكليز العراق عمليا ووضع من أبناء البلاد وزراء ونوابا وأعيانا . . ليقع عليهم اللوم والعتاب فى الأخطاء .

ولم يكن الحكم قادرا على أن يعين جميع الناس فى المناصب كلها ، ولم تستفد الدولة من طبقة المتعلمين كلها التى بدأت تنشر روح البغض وتنظم القصائد ساخرة من هذا النظام ،وقد

(١) فى بغداد : ١٩٥٤/٨/٣١م .

ساعد الحكم الانكليزى فى بث الحرية التى ظهرت خلال الحكم على انتشار روح النقد والسخرية من رجال الحكم نفسه .

تكدست روح البغضاء عبر ثلاثين سنة ضد الدولة وضد المؤيدين لها . . وجاءت الحرب العظمى الثانية بأفكار تقدمية جديدة فزادت فى حدة ثورة الرأى العام ضد النظام القائم . وفتحت الأعين على المساوىء . . واستغلت الأحزاب الحرية المحدودة فأوغرت الصدور بالبغضاء وابراز المصائب الكثيرة حتى أصبحت ظاهرة نقد الحكومة دليلا على شجاعة الناقد وبطولة القائل وطريقا للبروز والظهور . . وتعلق الشعب بالمعارضين الذين يتحدون الدولة ويهاجمون أعمالها . . وظن الشعب الذى لم يعرف الحرية طوال حياته أن هؤلاء حقا أبطال وأنهم من ذوى الشجاعة . . وصدّق هؤلاء بالدور الذى ألبسوه لهم . . وكانت المعارضة تلبس الحق ثوب الباطل بالإشاعات .

كنا نسمع أن بناء سد (بخمة) وسد (دوكان) بنيا لتنزل فيهما الطائرات المائية الانكليزية . . وأن المدارس الكبيرة الجديدة التى انتشرت فى بعض مدن العراق بنيت لتكون ثكنات للجيش الانكليزى . . وأن تعبيد الطرق لتسهيل سير الدبابات الانكليزية . . والغريب جدا أننا كنا نمر أمام مخزن للحبوب (ساليو) ونراه بأعيننا يعمل بجدارة عظيمة وتصعد فيه كميات من أكياس الحنطة أو الشعير . . ونردد بلا شعور إشاعة سمعناها بأن هذا المخزن فيه أغلاط فنية فرض على العراق بناؤه لأن الشركة انكليزية !! أرادت ذلك .

والأدهى أن رجال المعارضة فى المجلس النيابى يفترون على الدولة ويكذبون ، فقد حدثنى أحد وزراء العهد الملكى بأن أحد نواب الموصل من حملة الشهادات العالية قال له ــ وكان عضوا فى مجلس النواب ــ بأن مدرسة ابتدائية بنيت فى سنجار بمبلغ (٨٠) ألف دينار ، ولما سمع الوزير قال إنها كلفت (١٢) ألف دينار ، وكلاهما من الموصل وظن الوزير أن صاحبه اقتنع بالحقيقة التى ذكرها الوزير وعند حضور النائب جلسة المجلس أعاد القول نفسه ، ولما عاتبه زميله قال له لابد أن نعارض . . !! حتى بالكذب قال صاحبه مستغربا . . ولكن النائب المعارض . . بقى مصراً !! (١) . . هذا شأن يؤسف له

والحق أن مجلس الاعمار قام بأعمال كبيرة وخطط للعراق ودرس إمكاناته ووضع الموازنات للإصلاح والتطور الصناعى والزراعى ولم يغفل شيئا رآه يفيد تقدم العراق الا وخطط له ، وبقيت هذه الدراسات دهرا يعتمد عليها وتنفذ حسب ما خطط لها .

---

(١) قال عبد الجبار الحومرد ان المدرسة بنيت بهذه المبلغ الكبير وقد أكد له الدكتور عبد الرحمن الجليلى وفخرى الفخرى بان هناك مبلغاً موحدا لهذه المدارس ما بين ١٠ - ١٥ الف دينار

ان المسؤ ولين لم يحسنوا الاعلان والدعاية للمشروعات الحيوية التى خطط لها مجلس الاعمار ولم ينشروا أعمالهم بين الناس وكان خصوم الدولة والسياسيون الطامعون فى الحكم أكثر افتراء وكذبا واختلاقاً على الدولة . . وكانت الدول الطامعة فى العراق تغذى روح النقمة والثورة فى أبناء الشعب ، وتشحن الرأى العام ضد النظام لأن الثورة طبيعة العراق والطمع من أهم صفاته النفسية . والحرية رائده . . .

وقد كانت مظاهر الحكم الديمقراطى الذى فرضه الانكليز على العراق متنفسا للحقد والبغضاء والكراهية بعدأن منعت الانتخابات و تدخلت الدولة فى ترشيح الأعضاء فأصبح مجلس تزكية لا يعبر عن رغبات هذا الشعب مما زاد فى نفوس الطبقة المتعلمة الجديدة المبعدة عن المشاركة فى الحكم الألم وقوى فى روحها التحدى والبغض . . وزادها تحديا ونقمة تجاهل الحكم قوتها وآراءها الجديدة .

ان تفكك أجهزة الحكم وبقاء بعض القيم البدوية والأسرية كانت منافذ ينجو منها المخربون وتنفذ من خلالها المؤ امرات ضد الحكم . . وبالرغم من اكتشاف أكثر من مؤ امرة فقد كان تسامح الدولة وتدخل الأقرباء والأصدقاء يحول دون أى إجراء يوقف تصدع هذا الكيان . .

أصبح الحكم بين فريقين لا ثالث لهما أصحاب النفوذ الرسمى الذى توارثوه من الدولة العثمانية ومنهم الوزراء والأعيان والنواب ومن يرضون عنهم . وأصحاب الثروات الجديدة التى نمت بعد الحرب العظمى الثانية كالتجار الكبار . . اتحدت مصالحهم مع طبقة الموظفين الكبار . .فهم قادرون بالنفوذ المالى على السيطرة . أما طبقة الحكام فكانت قادرة بالنفوذ الرسمى من السطوة وتنفيذ المنافع وحجزها عمن سواها من أبناء الشعب .

أن تجاهل آراء الطبقة المتوسطة الجديدة التى بدأت تنتشر مع المثقفين الذين تعلموا فى الخارج وعادوا لمواطنهم بعد أن اتسعت مداركهم وكبرت طموحاتهم ولم يجدوا لهم مكانا فى السلطة ألب على الحكام صفوة الناس .

وقد وقفت السلطة أمام المد الفكرى الجديد بكل طاقتها واتهمت كل مفكر ومعارض لم يؤذن له بالمعارضة بأنه شيوعى وأنه مخرب . . فخدمت الفكر المعارض لأن المطالبين بالاصلاح كانوا من كل الطبقات الواعية . . ومختلف الآراء السياسية ، وبدون أن تعى السلطات العراقية ما تعمل . ونشرت احساسا بين أفراد الشعب ـ بأن الفكر الشيوعى هو فكر إصلاحى لأنها كانت تتهم المفكرين على اختلاف مشاربهم بالشيوعية عندما يطالبون

بالإصلاح والتطور ، وبأن الشيوعية فكر إصلاحي عني بالطبقات المسحوقة ، وتلقف المعارضون هذا الرأى واستفادوا منه وكان خير دعاية للدول الشيوعية بين أبناء الشعب .

واستحوذ ورثة السلطة القديمة على مقدرات العراق ولم يفسحوا لغيرهم مكانا وحاولوا ازدراد أكبر لقمة من مائدة الحكم والسلطة والمال . فقد قال أحد الوزراء لصديق يعتب عليه أخذ الهدايا والرشى ويسهل الأمور . . لقاء نفحات المال : هذه الدولة تحترق والسعيد من يأخذ أكبر حصة من هذه الأسلاب . . ثم صار الوزير رئيسا للوزراء . . فقلت لمحدثي : كان حريا بك أن تقول له:السعيد من يطفىء هذه النار ويشارك فى إخمادها لا أن تردد هذا القول معجبا به !!

ثم هل أنت متأكد من أن هذا القول سليم وصحيح وأنه لم يختلق على لسان هذا المسكين ؟ والشعب العراقى ورث كراهية الحاكم حتى أصبح من مميزاته هذه الكراهية .

بهت المحدث . . وكأنه لم يسمع من قبل من يناقشه ، فقد اعتدنا أن نعجب بمثل هذه الاشاعات وكبرها . . لأننا نكره الدولة والحاكم .

وكانت الأحزاب التى حرمت من الحكم أكثر ضراوة فى المعارضة ، واشد هجوما على الدولة وبخاصة جماعة الأهالى وحزب الاستقلال المعارضين فقد أججا الحقد والبغضاء ضد الدولة بعد أن خسروا مقاعد الحكم ونحى عنها بعض المثقفين الجدد الطامعين فيها من أعضاء هذين الحزبين .

ان المفكر الحقيقى يحس بالتدنى الحضارى والفكرى الذى عم أرجاء العراق ولا يقدر أن يدفع عن وطنه الحقد المتردى ، فقد تفاقم ولابد أن يكون للعراق مخرج جديد يقوى رابطة الانتماء بالفكر الحر . . فقد ظهرت بادرة عدم الانتماء تسرى فى النفوس . . وأدت إلى الغربة الروحية التى سلبت المفكر الحر التفكير فى مصير وطنه . . وبأنه غريب عن المحيط الاجتماعى والأسرى . . ولا يتأثر بمشكلاته البيئية الفكرية بعد أن كثرت التيارات الوافدة وقام صراع بين هذه التيارات مع ما فى العراق من مثل . . فانقسم العراق إلى أهل اليسار وأهل اليمين ، ومنهم المتعصب ومنهم الحيادى . . يناقشون الآفات الاجتماعية والفكرية والاقتصادية ، وكثر عدد الغرباء روحيا بين أبناء الوطن وتلك آفة قاتلة بعدم إحساس المواطن بالانتماء والا سارع فى إخماد الحريق لا أن ينهب ما أمكن نهبه من خيرات وطنه وسط هذا الدمار .

على هذا النحو تركت العراق وأنا فى طريقى أكمل دراستى وأرجو من الله ألا يعمّر هذا البلد الخير المعطاء .

نحو استانبول :

لاشك بأن القطار أرخص سبيل للسفر . . وفى الصيف يسافر العراقيون إلى تركية وبخاصة أولئك الذين تعلموا فيها ، فان أكثر قادة الموظفين دربوا فيها وكانوا يصفونها لنا ونشأ أبناؤهم على هذا الإعجاب ، ولأول مرة سوف أسافر سفرة طويلة . . وأمتع النفس بالنوم فى العربة فقد سمعت لأول مرة شيئا اسمه عربة النوم (فاكون لى) لم يكن للإنسان أن يأخذ سريرا أو يؤجر فراشا ينام فيه فى القطار ، لم يكن قطارنا الذى يذهب إلى بغداد من (بعقوبة) إلا عربات مقاعدها من الخشب مثل المصطبات التى توضع فى الحدائق العامة . . وفى يوم من الأيام رأينا هذه المقاعد وقد غطيت بحصيرة من الخيزران فسميناها نعمة جديدة هبطت علينا . . من السماء . . وأخذنا نتحدث عنها لغرابتها . .

أما الدرجة الثانية فما فكرنا فى الدخول إليها ولكننا كنا ننظر إليها من بعيد ولا نجرؤ على الاقتراب منها عندما يصل القطار الذاهب إلى كركوك أو خانقين ونرى الفراش الوثير فيها وجمال المصابيح والستائر المسدلة ، وعندما يرى أحدنا خلسة هذا المنظر يصفه لنا بانبهار عميق ، وإعجاب كبير ، ويتمنى أن يركب فى الدرجة الثانية ، ولم تكن أحلامنا تفكر فى السفر فى الدرجة الأولى لأنها فوق المستوى الفكرى الذى لا يمكن أن يتصوره أو تحلق عقولنا الصغيرة المحدودة حوله . وكنا نتحدث ونتساءل . . من يركب الدرجة الأولى ومن يركب فى الثانية ؟! كنا نرشح المتصرف (المحافظ) للدرجة الأولى وقد ندخل معه مدير الشرطة لما له من سطوة وسيطرة على اللواء (المحافظة) . ونخص الدرجة الثانية للمديرين مثل مدير المعارف ومدير المال ومدير الواردات وأحيانا ندخل رئيس البلدية معهم . .

هكذا كنا نفكر ونحن أطفال عندما نذهب إلى محطة القطار للتفرج على المسافرين . . . وعلى مسيرة القطار وعلى عرباته المختلفة ، ونمتع النظر عندما يرسل سحابة من الدخان نتابعها بأعيننا حتى تتضاءل فى الفضاء .

وعندما نويت السفر إلى لندن حجزت لى مكانا فى قطار (طوروس) وفى الدرجة الثانية . . وفراشا أنام عليه . . لأشبع تلك الرغبة الكامنة فى قرارة اللاشعور . وكانت نظرات الغبطة والإعجاب من الأحبة ترمقنى وتحوطنى من كل جانب . . وتسير معى فى كل خطوة . . لأنى أسافر إلى أوربا ، أو هكذا خيل لى لما انتابنى من الفرح .

وقد جاء جمع غفير من الأهل والأصحاب وازدحمت المحطة على قاعدة التوديع وأنا فى

ذهول بين الفرحة الغامرة والخوف من المجهول والسفر إلى دنيا لا أعرف صورتها الا فى الكتب والمجلات .

كيف أترك زوجى وأولادى . . وبلا شعور نظرت إلى السماء وقلت (انهم وديعة عندك ويارب ما ضاعت لديك الودائع) . وغالبت مشاعرى وأحاسيسى وكتمت دموعى

كان القطار يجمع أصنافا شتى من البشر والغايات مختلفة متباينة هذا ذاهب لاستشارة طبيب لأنه يشكو من آلام ولا يثق بأطباء العراق وعلاجهم ، وهذا ذاهب للاصطياف والفرجة . . وقتل وقته بالعبث واللهو . وذلك ذاهب إلى أسرته التى تسكن خارج العراق . . وكنت الوحيد فى هذه العربة الذى يذهب يطلب العلم ويسافر للبحث وتصيد الوقت للدراسة والاستقصاء . . فى أوربا .

جلست على المقعد الوثير الذى كنت أحلم به وأنا طفل ونظرت إلى الحجرة التى حجزت لى وتفرست فى الستائر المعلقة . . والباب الذى يمكن أن أغلقه متى أردت . ولا يمكن لإنسان أن يدخل . . دون استئذان .

وتذكرت أكداس البشر فى الدرجة الثالثة من بائعات اللبن . . والفلاحين الذين يجلبون بضائعهم من الحليب والبيض والدجاج والتمر والرمان فى السلال والأكياس . . من القرى والأرياف ، وكم من مرة تنفلت الدجاجات من أربطتها وتركض وسط العربة أو تطفر من الشباك وتهلع الفلاحة على دجاجها وتقع صرة البيض ويندلق البيض مع الصفار على أرض العربة .

أنا فى قطار الترف الذى يجب أن تظهر فيه بأنك من طبقة خاصة وتتصرف تصرفاً محدودا .

بدأ قطار الشرق السريع أو قطار طوروس يلهب الأرض فى سيره ويسابق الريح فى عدوه هكذا خيل لى أو هكذا تمنيت . . كانت السماء صافية الأديم . . بليلة النسمات حلوة الآمال . . تركت اذن حر العراق وودعت بغداد . . ولكنى ودعت قلبى . . وتركت عواطفى . . ورهنت أحاسيسى وحبى . . وحلو آمالى وعظيم شوقى ، وبلا شعور رددت قول الأخطل الصغير) :

بغداد ما حمل السرى منى سوى شبح مريب
جفلت له الصحراء والتفت الكثيب إلى الكثيب

ليت شعرى لو أن احدى الكليات استجابت لرغبتى وعينت فيها ، هل كنت أترك العراق ؟ فى سبيل هذه الورقة الواسعة الشهرة السحرية الأثر ؟! رب ضارة نافعة . .

ان ما عانيته من موظف البعثات من لؤم وخبث طوية . . عندما حصلت على الأجازة الدراسية . . وموقف الكليات منى وأنا أحمل شهادة الماجستير بشرف من جامعة الاسكندرية كانا باعثين قويين دفعانى إلى السفر إلى لندن وبسرعة . . خوفا من الغاء أجازتى الدراسية وخوفا من نوايا هذا الموظف ، وبعد أن يئست من التدريس فى الكليات . . (لم تكن هناك جامعة) . لم أتأخر فى اجراءات السفر . . وكم يعانى الانسان فى بلد ليس له مثل خلقية عميقة . . وتقاليد شريفة ؟ كان أخوف ما أخاف منه عدم الحصول على جواز السفر .

ذهبت إلى مديرية الجوازات . . وانا أحس بالألم والرعب من دخول هذه المديرية وكأن الموظف أو المعاون هما اللذان يمنحانك الجواز ، وتظهر على وجهه علامات الغلظة والخشونة عندما يقوم بأعماله الرسمية ، ومن حسن الصدف أعرف أحد هؤلاء فسرت فى نفسى السكينة والهدوء . . ولكن زاد هلعى عندما طلب منى أن أذهب إلى ما سماه (المنع) . فهو صاحب المصير الحتمى للسفر . .

كان المراجعون صفا طويلا . . وكان أمام الموظف دفتر يقلب فيه الصفحات حتى تهرأت . . وبان اصفرارها وبقع سوداء من كثرة الاستعمال ، هل عندى سجل فى المنع ؟ هل سيسمح لى بالسفر ؟

لا ندرى كيف يمنع المواطن من السفر . . ولا نعرف القواعد التى تسير عليها الدولة فى المنع ؟ فقد تذهب إلى طلب الجواز وترى نفسك ممنوعا من السفر ؟ دون أن تدرى السبب ؟!

ولا يمكن لك أن تسأل لأنك لست من أصحاب النفوذ الرسمى أو المالى وليست هناك قواعد لاحترام الانسان . . فإذا اعتدى عليك بالكلام فيجب أن تسكت لأن المثل العراقى يقول :

« ادفعها بقصبة أحسن من أن تدفعها بمردى » . .

الحرية الفردية أول ما يقتل فى موظف الدولة وهو يقتل حرية الفرد فى أبناء أمته ويجور عليها حتى تعلم الشعب على الاستكانة والذل والهوان من كثرة ما أسىء إليه واعتاد على الاساءة إليه وألف الهوان . . وساوى بين الحكام ، فكلهم جاء للسيطرة والحكم

والسطوة ، فسرت المقولة : « كل من يتزوج أمى أسميه عمى » . . انه الخوف والانتهازية وضياع الشخصية .

إنها مقولة تدل على مقدار سحق الشخصية الفردية والكرامة الانسانية ،فقد تساوى لديه الحكام . . لأن الجميع لن يرحمه . . ويحترمه ويعمل لرفع شأنه !!

والغريب أن أجد الشعور بالاذلال ظاهرا فى القرن التاسع عشر وأنا أحضر لدراسة الماجستير فقد وجدت أحرار العراق والمفكرين يصرخون بمر الشكوى من الزمان والدهر والحقيقة انها شكوى من الولاة والحكام . . الذين ساموه ذل الحكم وعسف السلطان .

فقال الشاعر العراقى :

دع العراق وما فيه لساكنه ... وارحل وخلّ لئام القوم تأويه
ولا تقل وطنى فيه ولا سكنى ... ما آفة المرء الا حب ناديه

وقال :

دع الزوراء ان رمت المعالى ... وسر عنها تجد عنها بديلا
فان الحر لا يرضى بأرض ... يرى فيها مهانا أو ذليلا

ألا يتغير العراق ؟ ألم يطرأ عليه شىء جديد يحترم حرمة الفرد وحريته ، واحترام الشعب وتقدير رأيه ؟كل من جاء إلى العراق رأى أنه على الصواب وأن جموع الشعب خراف وعبيد عليهم الطاعة .

هل هو انعكاس لحكم الاستعمار الذى احتقر الشعب وأذله وقدم أهل الزلفى والنفاق الذين زادوا فى إذلاله للحفاظ على مكاسبهم التى أخذوها دون حق طبيعى ؟

وحلقت فى الفضاء . .وغرغت فى تفكير لا ساحل لبحره . . ! استغرقت فى حلم كريه وكابوس ثقيل . . حتى وقف القطار وكأنه نبهنى من حلمى وعدت من خيالى إلى الحقيقة فان المسيرة الرتيبة التى حلقت معها إلى أجواء الخيال والعودة إلى التاريخ اهتزت بوقوف القطار .

هذه (تل كوجك) وفيها ساعة ذات وجهين ، وجه يتجه إلى العراق ، ووجه يتجه إلى سوريا . . وفى كل وجه وقت يخالف الوقت الثانى . . لعن الله ذا الوجهين . . ما أكره صورته . . وما أتعس ضميره . وقد تكون الساعة خيرا من أصحاب الوجوه الكثيرة . . والألوان المتنافرة التى جمعها بعض البشر . .

وزادنى ألما هذه الحدود المصطنعة . . ودخول القطار فى سورية والخروج منها والعودة

إليها . . وفي كل مرة يأتي موظف الجمارك وشرطة الجوازات يفتشون عن البضائع التي يحملها المسافر . . وإذا أساء فهو يسيء إساءة بالغة لذلك يلجأ بعض المسافرين لرشوة هؤلاء الموظفين ، ولم أجد أشرس وأجشع من موظفي الحدود في سورية . . ان موظف الكمرك سارق ولكنه يسرق وكأنه يعطيك ،ويعتدى ويجب أن تشكره ، ومن الطريف أن أحد اخواننا الأدباء كان قد عومل معاملة سيئة فقال لموظف الحدود . . سوف أذهب إلى ديوان شوقي وأحرق كل نسخي التي مدح فيها دمشق وسورية . . فقد صوركم بأجمل الصور حتى قال :

(فان الشرق أوله دمشق) ، لما عاناه من تدني ضمير موظف الجمارك في حدود سورية .

كان القطار كثير الوقوف في المحطات . . ولا نعرف سببا لهذا وكأننا جزء من الغنائم أو الأغنام التي لا ضرورة من افهامهم ، لم يقف القطار غير أنني لاحظت أنهم يغيرون القاطرات التي تسحب العربات في بعض المناطق . . وتبديل هذه القاطرات أمر غريب . . فهل يدفع للدولة مبلغ لهذه القاطرات . . أم أن الشك بالسائق هو الأساس .

أما كفانا ماعانينا من موظفي الجمارك والشرطة في نصيبين والقامشلي وجوبان بك واخترين وميدان أكبس وصلاحية وتل كوجك حتى تضاف إلينا متاعب ومصاعب ثقيلة أخرى ، ان الشعوب الشرقية لو كان لها مكان في فكر الدولة لما تجرأت على ارهاقها ، ولو كان للشعب كرامة لما قدرت الدولة على اهانتها . . انها شعوب تعودت الذل ومن لا يأخذ حقه لن يمنحه الحاكم حقا ، وقد سعدت أن وجدت أحد طلاب العلم معي . . فقد كان مشاركي في العربة أحد الطلاب الذاهبين إلى الدراسة في جامعة الاستانة لدراسة الطب ، وكان رقيق الخلق مرن الصفات مازال يحمل روح الطالب المجد . . فكان مدعاة لراحتي وعدم إزعاجي إنه من أهل الموصل . . المجدين .

وفي جواري كان أحد رواد التعليم السيد هاشم الألوسي (رحمه الله) كان مديرا عاما . وكان مفتشا اختصاصيا . . وسعدت به فالألوسيون يمتازون بصفتين كريمتين ، رقة الخلق وحب العلم ، فقد أنجبت هذه الأسرة رواد الفكر وعلى رأسهم أبو الثناء الألوسي صاحب روح المعاني ، ونعمان خير الدين ، ومحمود شكري أستاذ الرواد من أمثال الرصافي وغيره .

كان الرجل لطيفا جال بي جولات في تاريخ العراق وكان له علي فضل كبير عندما فتح لي مكتبته واستفدت من مخطوطات أسرته الكريمة . . عندما كنت أحضر الماجستير .

فلما عدت إلى العراق بعد أن حصلت على الليسانس بدأت أحضر لدراسة الماجستير

أبحث فى الشعر العربى فى العراق ، وقيل لى إن أحد المحامين عنده مخطوطات كثيرة يمكن أن تستفيد منها ، ولم يكن بحثى يحتاج إلا إلى مخطوطة (حديقة الزوراء) ففيها بعض الحوادث التاريخية التى تفيد فى ربط التاريخ بالشعر وفهم الأحداث التى نظم فيها الشاعر .

ذهبت إلى الرجل وأخبرته برغبتى فى قراءة (الحديقة) لكنه رحمه الله تردد كثيرا وماطل أكثر . . ثم وعدنى أن أقابله فى (مقهى بلقيس) على نهر دجلة فذهبت والغبطة تملأ جوانحى . . وأخذت ألعن أولئك الذين رسموا صورة سيئة فى ذهنى عنه . فوجدته فى المقهى وجلست وتكاد الفرحة تقفز من عينى . . وكلمات الشكر والثناء تتسابق من لسانى . . ولكن الرجل لم يرد على . . وان أفرحته كلمات الثناء . . وبعدها فتح الحقيبة وأخرج الكتاب . . ومددت يدى لأتناوله . . لكنه ظل ممسكا به وأجلسنى إلى جواره ممسكا بالمخطوط وأرانى العنوان . . وأخذ يقلب الصفحات . . أمام عينى . قلت أريد أن أستفيد منه . . وأن أقرأ فيه . . مادمنا فى المقهى ، وبعد أن قلب الصفحات أغلق الكتاب وأعاده إلى الحقيبة . . قلت له . . ما الفائدة التى جنيتها من هذا الكتاب ؟ ولم يصغ لرجائى ورجاء أصدقائه الذين كانوا معه فى المقهى فى أن أتصفح الكتاب . . وكأنه خشى أن أسرق من سلة اللآلى لؤلؤة أو أن ينقص من الكتاب حرفا . الويل لشح العلم . . كان الألم أخذ منى مأخذه . . عند زيارة هاشم الألوسى رحمه الله . . ولما أخبرته بالأمر . . قال : غدا تعال هنا وستجد ما تريد . . وعدت فى اليوم التالى فجاء الكتاب واستفدت منه ، وفتح لى مكتبة الأسرة فى داره .

سبحان الله شتان بين الرقة والغلظة ، والكرم والبخل ، كلاهما ذهب إلى رحمة الله هذا يرف عطر ذكره وذاك اسكت عنه .

رحم الله الاثنين فقد مات الأول ولم يترك له صديقا كريما يرحم ذكراه وبقيت ذكرى الألوسى عاطرة . .

ومن طريف ما رواه لى الألوسى عن الألوسى الكبير لما أراد الذهاب إلى استانبول أرسلت زوجته معه ولدها (توفيق) . . ليراقب والده ويمنعه من الزواج . . فكتب فى أحد كتبه هذه الحادثة وعلق عليها !

بأى مال
وبأى أ . .

ان وقوف القطار المتكرر أضجر الناس . . ولكنه منحهم حرية وانطلاقا فقد كان سببا

للشكوى والحديث والتساؤل وترك الناس ملابسهم الرسمية وتحللوا منها وخرجوا (بالمنامات) فقد اشتد الحر داخل هذه الغرف .

وبلا شعور قال الآلوسى :

آه . . يا ليتنى نائم على السطح . . أعب من الهواء الطلق والنسيم العليل . . ضحكت مع أبى همام وقلت له سوف تحس بروعة البرد فى تركية وتتمتع بلذة الطقس بعد هذا الحر المطبق على صدورنا فى القطار .

وسار القطار وبدأت نسمات الهواء تدخل بترحيب وغبطة وعناق فقد فتحنا أيدينا وكأننا نضمها إلى صدورنا . . وابتسمت الوجوه وعمت الفرحة القلوب ونسى الجميع ما حاق بها من حر .

كان القطار يخترق الجبال ويهبط الوديان فالتفت إلى الآلوسى وقال رحمه الله الرصافى ، وقلت ما يقول : فأخذ ينشد بصوت جميل وعبارة عذبة :

وقاطرة ترمى الفضا بدخانها ... وتملأ صدر الأرض فى سيرها رعبا
تمشت بنا ليلا تجر وراءها ... قطاراً كصف الدوح تسحبه سحبا

انه انبهار الجيل الرائد بالاختراعات الجديدة التى جاءت إلى المشرق وأيقظت الشعب الشرقى من نوم عميق ، وتنبه إلى خطر الغرب وقوته على مثله وحياته ، ولكنه لم يكترث وغط فى فرقة وعراك مع أهله وجيرانه . .

إن كثرة زيارات أبى الهيثم إلى تركية جعلته فقيها فى كل شىء وكتب لى أسماء الأطعمة والأشربة وما أحتاج إليه من الكلمات التركية الضرورية . التى أعرفها . . فقد درست التركية فى الجامعة ولكن لم أعرف كيف آكل وكيف أشرب . . إن أستاذنا من الأدباء الكبار وبدأ معى فى دراسة الشعر التركى فى عصوره الزاهية . . ودرسنى شعرهم .

قلت يا سيدى أريد أن أتعرف على مبادىء اللغة التركية أولا ثم درسنى أدبها . . كيف أتذوق أدب أمة لا أعرف مبادىء حروفها ، وبالفعل فإن الرجل سريع الاستجابة . . ودرسنى بعض ما طلبت .

ولكن لم يكن الطعام البلدى والحديث اليومى من بينها فكان أبو همام خير مرشد ، ومن الطريف أن هناك أكلة تركية اسمها (امام بايلدى) أى الامام المغمى عليه . . ولعل هذا الرجل أكلَ (الباذنجان المحشى) وكان لذيذ الطعم حتى اتخم وأغمى عليه . . أو أن الباذنجان أثر على عقله فأفقده توازنه . . !!

خط بغداد برلين :

كان مد سكة حديد برلين أحد أسباب الحرب العالمية الأولى لأن غاية الألمان كانت ايصال الجندى الألمانى إلى بغداد فالبصرة . . أى تهديد طريق الهند بعد أن اتسعت تجارة الدولة الرأسمالية واحتاجت إلى الموارد الأولية الرخيصة وتصريف بضائعها .

خاف الانكليز والفرنسيون قبل انجاز الخط فأعلنت الحرب ودفعت الدولة العثمانية بواسطة حزب الاتحاد والترقى إلى المشاركة فيها فكانت القاضية على أكبر دولة اسلامية .

ولما دخل الانكليز العراق واحتلوها مدوا خطوطا من البصرة إلى بغداد وإلى كركوك . . وكان الخط (متريا) وهو أضيق من خط بغداد الموصل الذى بدأ الألمان فى تأسيسه والحق أن خط الموصل كان أمتن وأقوى من الخط المترى ، وبعد الاحتلال البريطانى أكمل الخط حتى وصل إلى الموصل .

ولما أنشأ الألمان خط الحج الذى يبدأ فى دمشق وينتهى فى المدينة المنورة أوعز الانكليز إلى جنودهم بهدم هذا الخط ولم تقم له قائمة مع أن هذا الخط بنى من أموال . . المسلمين ومن تبرعاتهم وهو أيسر السبل للوصول إلى الحج . . ولا أدرى لم لم يستأنف سيره مع أن الدول العربية تدعى الاستقلال التام عن النفوذ الأجنبى . . ويوفر هذا الخط لها الكثير ولاسيما الطريق بين دمشق وعمان ، ويفيد أكثر مناطق الجزيرة العربية .

ومازلنا نستفيد من خط طوروس أو الشرق السريع الذى أنشأه الألمان . . ونمتع أنفسنا فى هذا (الفاكون لى) بفراشه النظيف ومقاعده الوثيرة . . وحجراته المزينة بالصور الجميلة . . وفى كل حجرة من حجراته جرس لطلب الخادم . . ولكن هذه الأجراس وقف مفعولها بعد أن تركنا العراق . . فقد أصمّ الخادم أذنه . . وكأنه نام فى سبات عميق . . ولم ينفع حتى غضب الركاب وثاروا عليه .

والحق أن الخدمة فى عربات النوم فى العراق رائعة فقد كان الخادم يحس بالواجب ويؤديه باسما وعندما يتسلم ربع ما تسلمه خادم . . يشكر ويبتسم ويفرح .

كنت أطل من الشباك لأرى أين يسير هذا القطار ورأيت الفلاح التركى مازال يستخدم المحراث والثور لحراثة الأرض ويظهر فقره واضحا . . ولا يقل فقرا عن فلاح

العراق الذى مازال يستعمل المحراث البابلى . . وكل أدوات الزراعة والحرث والتذرية ماتزال تعتمد الفدان البابلى الذى يجره الحيوان كالثور والبغل والحمار ، والطريف أن رأيت الجمل فى مصر يسحب المحراث .

أما واردات الفلاح من هذا التعب الشديد والارهاق المستمر. فمحدودة بعد أن زرع الانكليز القطاع وحولوا شيخ القبيلة إلى اقطاعى . . واستبد بعض الشيوخ بأبناء القبائل دون أن يفكر بأن الأرض ملك جميع القبيلة ، وأن أبناء القبيلة من أصل واحد . (١)

واتخذ بعضهم سجونا لحبس الفلاح وجلده اذا تمرد أو تخلف عن العمل . . فأصبح الفلاح

كالعيس فى البيداء يقتلها الظما
والماء فوق ظهورها محمول

(١) تطورت الزراعة فى العراق تطوراً كبيراً واخذ المزارع يعتمد على الآلات الزراعية بعد أن تأسس مصنع لهذه الادوات فى الاسكندرية القريبة من بغداد

الانفاق :

ان الجهد الكبير الذى بذله المهندس الألمانى فى تسهيل مرور القطار بين هذه الجبال مدعاة تقدير . . فقد حفرت الانفاق الكثيرة على اختلاف فى طولها ونـظمت الطرق فى الـوهاد والـوديان . بـرغم الصعـوبـات الكبيـرة ومشقـات العمـل بـالارادة الصـادقـة والاخلاص العميق .

كان القطار يسير بالفحم الحجرى الذى يرسل دخانا كثيفا ولا يعرف المسافر لأول مرة معاناة استنشاق الدخان الداخل إلى العربات . فقد كان يصيب الركاب بالدوار لأن الرئة لا تقدر على تنقية الهواء بسرعة إذا ما تتابعت هذه الانفاق بسرعةلذلك كان أبو هيثم يجلس قرب أحد الشباكين وأجلس أنا قرب الثانى . . وقبل دخول النفق كنا نغلق الشباكين معا فلم نحس بالمعاناة وأحسسنا براحة نفسية وكسبنا عافيتنا اضافة إلى اغلاق الشبابيك وفتحها كان مدعاة تسلية وحركة ونشاط لنا طول طريق هذه الانفاق . .

ان طول الطريق والمكان المحدود فى عربات القـطار فرض عـلى المسافـرين سرعـة التعارف ورفع الكلفة بين الغرباء فتعرفت على مهندسين من الألمان كانوا يعملون فى وزارة الاعمار وعادوا إلى بلادهم وخير سبيل لقتل الوقت ونسيان الحبس الاختيارى الذى فرضه السفر لمدة أربعة أيام . اضجرتنا وفجرت الحديث لقتل السأم الراكد فى قـرارة النفوس السجينة بعد أن حددت الحركة وتغير نظام الانسان اليومى . وفرضت عليه عادات جديدة فى الأكل والشرب والنظافة وبدلت عاداته وأسلوب حياته ليساير هذا المجتمـع الجديـد المؤقت .

وأصبح ركاب العربة اخوانا وأصدقاء وبدأوا بالحديث الجاد ثم تطورت الأحاديث وسارت النفوس على سجيتها بعد أن وجدوا موضوعا مشتركا هو القطار والانفاق والألمان الذين شقوا هذا الطريق . . وماعاناه البشر من مشقات فى فتح الطريق . . وتمهيده .

لم يعد هناك فروق بين الجنسيات فالتركى والألمانى والانكليزى رفقة السفر . . وقد حمل هؤلاء ذكريات جميلة عن العراق وأحببت أن أتعرف على الانطباعات التى تركتها حياة العراق فى نفوسهم .

المرأة والآثار فى العراق

وكانت السيدة أسرع من الرجل فى الحديث . . وقالت من الضرورى جدا أن تدير المرأة وجهها فى العراق نحو الاصلاح الاجتماعى بالدرجة الأولى قبل أن تتجه إلى الحياة السياسية وتطالب بحقها . . لأن الحضارة والمدنية لا تقومان الا على دعامة قوية من اصلاح المجتمع وانشاء جيل متعلم مدرك لواجبه الاجتماعى . . والحضارى . . ومن الضرورى أن تعنى المرأة بثقافتها لتستفيد منها فى خلق بيت نظيف مرتب يسعد فيه الزوج ويتعود الطفل فيه على الأساليب الحضارية . . والتطور الاجتماعى .

ليس انجاب الأطفال هو واجب المرأة وحده إنما التربية السليمة وخلق الرجل الجديد وقد لاحظت فى العراق أنه هم المرأة فى الدرجة الأولى . . ثم نظرت إلىّ واعتذرت وقالت هذه تجربتى ــ الأولاد فهى تظن أن ولادة الأطفال يربط الرجل بها وتلك مقولة ورثتها عن أمها . . وفاتها أن الحياة تطورت كثيرا إنما عليها أن تعنى بزوجها أولا . . فقد لاحظت بعض السيدات المتزوجات بعد الانجاب تهمل ملابسها وشكلها وزينتها ووجدت الرجل يبحث عن غيرها . . حيث الرشاقة والحنان والدفء والجمال .

أنا لا ألوم الرجل . . وضحك زوجها وربت على كتفها . إذا تزوج عندكم أكثر من زوجة . . ثم نظرت إلى زوجها ثانية . . فإنه يتزوج زواجا شرعيا يحمى الأطفال والزوجة ولكن ما نراه فى الغرب من الزواج غير الشرعى وما يجر على الأطفال من محن يرجع إلى تعدد الزوجات فى دياركم . . تململ الرجل . . وقال . .

هل أنا من هؤلاء . . . فقالت برقة وعتاب :

لو قدرت لما تخلفت . . فاردف الرجل قائلا :

أقدر ولكنك لم تدعى لى وقتا للتفكير أولا ثم ان الرعاية الحلوة والعناية بى دعتنى أبعد التفكير فى غيرك . . وخشيت أن يتحول الحديث بين الزوج والزوجة الذى بدأ فكاهة إلى قضايا جادة ونحن فى سفر فبادرت بسؤال آخر وجهته للرجل وقلت له :

ما أجمل شىء رأيته فى العراق ؟

أمور كثيرة حلوة فى العراق . .

الصحراء المترامية . . والشمس المشرقة . . والقمر المنير انها كلها جديدة علينا . . قلما نرى ليلة صافية الأديم تزدهر فى سمائها النجوم . . ولم نفكر يوما بالنظر إلى السماء . .

لكن نومة السطح . . وما فيها من جمال وإيحاء نفسى . . من أجمل نعم الله عليكم . . . .
ثم أردف قائلا :

الآثار فى العراق إذا ما زرتها تحس بالتاريخ يتكلم والحوادث تهمس وأنت تمر بها . . وتتصور عظمة الحضارة العربية والإسلامية وشموخها . . فى البقايا القليلة من آثارها .

ذهبنا إلى سامراء ورأينا قصر العاشق وبالرغم من الإهمال الظاهر على الآثار . . إلا أننا أحسسنا بالحضارة العربية والترف الذى وصل إليه أبناء العراق فى العصر العباسى . .

وذهبنا إلى بابل وذهبنا إلى نينوى . . وإلى مقبرة زبيدة . .
قلت له انه قبر زمرد خاتون . .

قال لا يهم من دفن فيه فنحن نهتم بالآثار القديمة فى العراق وما أكثرها . . فى جميع العراق .
الغريب أنكم تهتمون بالآثار القديمة كالبابلية والآشورية وتهملون آثاركم العربية . . وتراثكم الإسلامى .

إنها خطة واضحة ومدبرة . . فالاستعمار بذر بذور الإقليمية ففى مصر يعنى بالآثار الفرعونية وفى الشام يعنى بالآثار الفينيقية وفى ليبيا يعنى بالآثار الرومانية.

إنها خطة مدروسة لتقطيع أوصال الأمة العربية وإيهامها بأنها أمم مختلفة وشعوب متباينة . . وسيأتى اليوم الذى يدرسون الموصل وبغداد والبصرة والرياض ومكة والمدينة والرباط ويقولون إن هذه المدن لها آثارها ولغتها وأدبها . . تختلف فيما بينها .

فقد بدأت حملة مسعورة لدراسة الأمثال العامية والأغانى العامية وألعاب الأطفال . . وكل المأثورات فى القرى والأرياف فلغة الكويت ولغة قطر ولغة العراق ولغة نجد ولغة مكة ولغة مصر وليست هذه جديدة فقد جاءت مع الاستعمار ليقطع أوصالها . .

أحس الرجل بأنى تحمست أكثر من اللازم وأراد هو وزوجه أن يخففا عنى وبدأ بالحديث عن حكومات ألمانيا فى القرون القديمة . . ولهجاتها وآدابها . .

قلت هذا صحيح فقد وحّد نابليون هذه الامارات لتكون دولة وها أنتم دولة واحدة . .
قالت دولتان . . وبحسرة ومرارة واسى .
قلت هل ترضى أن تتوحد الدولتان . .
قال نعم ونحن ألمان لا نفترق وان فرقتنا الظروف ! . !

فقلت ما رأيك بهذا العدد الكبير من الدول العربية ؟!
كنا دولة واحدة فأصبحنا دولا أنتم تتحدون ونحن نتفرق . .
قال الرجل . .
الحق معك فالعرب أصحاب الحضارة السامقة والمدنية التى علمت العالم وأخرجته من الجهالة إلى نور العلم . . انقسمت إلى دول قلت بمرارة . .
(وخير الناس ذو حسب قديم أقام لنفسه حسبا جديدا)
وترجمت لها معنى بيت الرصافى بما وسعتنى ركة الانجليزية
سألت الرجل :
هل سمعت بالعراق قبل أن تراه ؟
قال : فى طفولتى كنت أقرأ عن الحريم والترف وهارون الرشيد وألف ليلة وليلة . . ولما كبرت واتجهت إلى دراسة الآثار . . كنت أحس بالحضارة العراقية واستدرك قائلا معذرة عن هذا التعبير ، فى آثار البابليين والآشوريين المنتشرة فى بلادنا ومتاحف الغرب .
قلت : نعم : علمت أن من أوائل من حضر إلى العراق جماعة من الألمان وقد أخذوا الشىء الكثير من الآثار معهم . .

قال : أشهد أنها لكثيرة ليس فى ألمانيـة وإنما فى كـل المتاحف العـالمية ففى المتحف البريطانى ستجد الكثير منها ومتحف اللوفر ومتاحف العالم الأخرى ثم بدأت بعـد ذلك أدرس الآثـار العربيـة الإسلاميـة . . فكـونت فكـرة عن حضـارات الشـرق والعـرب والمسلمين . .

وأكون صريحا معك أن الاهمال واضح على الآثار ودراستها فى العراق . . محدودة إذ لا يوجد وعى آثارى فى بلادكم .

وتحدثنا عن كتاب كروزول فى الآثار الإسلامية لأنه كان فى الإسكندرية عندما كنت طالبا وسافر معنا هو وزوجته إلى أسوان وهناك علمت لأول مرة بأنه عالم آثار فاضل ثم اطلعت على كتابه الضخم . . ولعله الأول من نوعه فى الآثار الإسلامية . .

كان العالم لطيف الخلق متواضعا فعندما كان يسأل عن الآثار الفرعونية يضحك وهو يشرح لطلابه فينصت له الأساتذة لانه درسهم . . فهو أدرى من غيره بهذه الآثار .

ثم يضحك ويقول :
أنا جئت هنا للدراسة والاطلاع ، وهكذا شأن العالم المتواضع والخلق الجميل . .

أردت معرفة انطباع رفيق السفر عن بلادنا وقلت له :
ما الذى ضايقك فى العراق . .
قال الاتكالية الواضحة على تصرف الشعب العراقى . . فهو يتكل على الدولة والحكومة فى كل شىء . . فى التعليم والهاتف والسكك وكل الأعمال العامة . . وكنت أتمنى أن ينهض الشعب ويؤسس هو مؤسساته التى تخدمه لأن النمطية والديوانية (الروتين) تسيطر على كل عمل تقوم به الحكومة فى دياركم . .

وقد سمعت أهل العراق يرددون دائما كلمة (ان شاء الله) فى كل أمر من الأمور . . انها كلمة تخدر الشعب . . فإذا كسرت السيارة . . قال ان شاء الله ستمشى . .

وإذا سقط الحمار فى الماء . . قال إن شاء الله سيخرج . . كيف يخرج الحمار من الماء وهو يحمل ثلاثين كيلو على ظهره وتخلّل الماء فى حمله .

فإذا لم تساعده فى الخروج فليقل آلاف المرات ـ ان شاء الله فلن يخرج . .
نظر فى عينى عدم الرضاء وعدم التصديق .
قال ألم توافقنى على ذلك . . قلت لا . . لأنك فهمت الأمر فهما بعيدا عن الواقع .

إن كلمة (ان شاء الله) احتراس من الأحداث . . يريد أن يقول لك إذا سارت الأمور سيرها الطبيعى فسوف أصلح السيارة وأخرج الحمار من الماء . .

ماذا يعمل صاحب السيارة المكسورة . . إن ذهب ولم يجد المصلح وما يصنع صاحب الحمار إذا لم يجد من يساعده . . فى إنقاذ الحمار من النهر . .

إنه يعمل ولن يتأخر لأن الدين الإسلامى صريح فى الدعوة إلى العمل فهو يقول (وقل اعملوا)

أليس من الضرورى أن يحتاط الانسان للأمر ؟ ان صاحب كلمة (ان شاء الله) جاد كل الجد وسوف ينجز عمله . . ولكنّه حذر خائف . لأن الظروف التى مر بها العراقى . . ومفاجآت الأحداث . . تركت فى نفسه الخوف والحذر من كل شىء . .

وكلمة ان شاء الله تدل على القلق والحيرة أكثر من دلالتها على الاتكالية . . وأردف أحد الحضور وكأنه يريد أن يخرجنا من هذا النقاش وقال . .

ألا تريد أن تسمع ما رأيناه فى العراق وتعلمناه منه !
شكرت الله على أن فى العراق ما يعلم الغربى . . قلت ماذا ؟

قال . . طيبة الشعب . ولطف معشره . . وكرمه . . برغم الفقر ، وأردفت الزوجة . . الباعة فى السوق كانوا يحتفون بى ويرحبون أجمل ترحيب ويبيعون لى بأرخص الأثمان . . ضحكت فى سرى فإن البقال عندما يرى هذه السيدة بوجهها المضىء وشعرها الأصفر وحمرة الشفاه . . والذوق الجميل فى اللباس . . هل يملك نفسه الا أن يجاملها فى البيع وربما أعطاها مجانا . .

فالعراقى تسحره المرأة وتسلب عقله . . وتسيطر على روحه فكيف إذا كانت مثل جمال السيدة الألمانية الريانة العود الطرية الجسم ؟! الشذية العرف . ؟

ثم قالت . .

تعلمت الأطعمة العراقية . . وكيف تطبخ . . مثل الكبة والكباب وطبخ الخضروات .

وقال زوجها . .

ان أجمل شىء هو النخيل بقاماته المديدة وسعفه الحانى وعذوقه المتهدلة . . بألوانها الصفراء والحمراء . . ويزيد البلد جمالا انسياب الرافدين . وصفاء الماء فيهما .

قلت له سبقك إلى هذا الاعجاب شاعر عربى اسمه المعرّى حينما قال :

وردنـا مـاء دجـلة خـير مـاء   وزرنـا أشـرف الشجـر النخيـلا

وحدثه عن حياة المعرى وعن رفضه أكل اللحوم . . وفلسفته .

قال :

اذن هو نباتى . .

وضحك وقال . ما كنت أظن أن فى بلاد العرب شاعرا نباتيا . .هل أن النباتية موجودة عندكم .

كان الحديث ذا شجون . وشجون وكنت أتمنى أن تسجل أحاديث كل زائر للعراق . . فهو يرى مالا نراه نحن أبناء البلد . . وسوف ينقد بصراحة وبسخرية دون خوف الرقيب أو الشرطى السرى ويمكن أن تصنف هذه النقدات . . وتبوب إذا كان فى العراق من يحس الانتماء لبلده . . وبضرورة تطور حياته . . وتقدمها ولكن للأسف . . لا تزال ترن فى سمعى .

العراق يحترق والسعيد من ينهب أحسن الموجود . .

محطة حيدر باشا :

انها آخر المطاف فى السفرة . . محطة عالمية يتحرك منها القطار إلى الشرق . . وتنتهى

سفرة الشرق فيها . . ومن يريد أن يستمر فى السفر عليه أن يذهب إلى الجانب الآخر .

كان الأخ عبد الهادى بهية مثلا كريماً للخدمة فقد أحضر لى سيارة (تاكسى) وذهبنا إلى الفندق . .

وقابلت صديقا فى مقهى العراقيين بجوار جامعة استانبول فأجر لى حجرة قرب جامع السلطان أحمد .

كان هذا الصديق يدرس معى فى جامعة الاسكندرية وشاء أن يغير مكان دراسته إلى استانبول ليدرس الطب ، كان سعيدا ومسرورا بالحياة فيها وقد تزوج سيدة تركية أعانته على مرارة الغربة وما أسرع ما تتزوج الفتيات التركيات من أبناء العرب .

استانبول : مدينة الاحلام :

واستانبول بلدة جميلة تجمعت فى دائرة ليست كبيرة فقد كان البحر يمنعها من التوسع فشوارعها ضيقة ترتفع وتنحدر . . وبسرعة عرفت اتجاهاتها ففيها شواهد لا يضيع الإنسان معها . . القبور الكثيرة . . والمساجد المنتشرة . . والمكتبات الفنية وجامعة استانبول . . مراكز ثابتة تدل على المدنية الذاهبة وتكون إشارات واضحة للتائه .

تقسمت إلى قسمين . . ثم إلى أقسام أخرى وخير وسائلها غير السيارات البواخر التى تربطها بوسط المدينة . . وهى تختلف اختلافا كبيرا عن غيرها من المدن التركية .

فالجمال صفة واضحة على نساء استانبول . . فقد كانت أجمل نساء العـالم تستورد إليها . . تارة بالنهب وطورا بالشراء وآونة بالأسر والقليل منها بالزواج . .

وكانت الجارية أو الأمة أو المحضية لا تبقى غير ليلة واحدة مع السيد المطاع وتصبح من الحريم . . والسعيدة من تضم إلى أحد المحظوظين الذين يعملون بالقصر مثل الوزراء والقواد والولاة وعلماء الدين . فسوف تتمتع بالحياة . . أما من تبقى بالحريم فستكـون كالربيطة تأكل وتشرب وتلبس أحسن الثياب . . ولكن لن تستكمل أنوثتها . . لـذلك كثرت شائعات الجنس بين الحريم . . ومنع دخول بعض المواد إليهن كالخيار إلا إذا قطع والشموع إلا إذا كانت صغيرة إلى آخر ما يتصوره حاكم الحريم .

ان محاربة نداء الطبيعة ضد الإنسانية . . وقد فرض الإسلام الزواج وأوصى بالمعاملة الحسنة لذوات اليمين . . وأكد على إعتاق رقاب العبيد .

ولكن كم من هؤلاء تدبروا حكمة القرآن الكريم وتعاليم الدين ؟

إن الزواج بخيرة نسوة العالم وأجملهن من المقربين نشر هذا الجمال بين النسوة . . فى استانبول . . عندما كثر أبناؤهم وبناتهم فى المدينة .

ثم إن المستوى الاجتماعى والخلقى الذى مرت فيه السيدة فى استانبول من بائع الرقيق إلى السيد الأول ثم الثانى حتى وصلت إلى استانبول أفقدها الوازع الخلقى فهى لا ترى ما تراه الحصان من رادع اجتماعى نفسى بعد أن مرت برجال كثيرين وتداولتها الأحضان المختلفة وانتشار هذه النسوة سبب تحللا اجتماعيا بين كثير من نسوة استانبول . . اللواتى نشأن فى مجتمع الحريم .

والشعب التركى شعب هادىء الطبع . . ولكن إياك أن تثيره فلن يهدأ ولا يمكن اقناعه بسهولة ويسر فى أى أمر يراه حقا ؟ لذلك فالإيمان فى قلوبهم أعمق من إيمان العرب . .

والعقيدة الإسلامية أبعد أثرا فى نفوسهم ؟ ولم أجد من يغالط فى البيع والشراء . . أو يزيد عليك فى السعر سواء كنت فى المطعم أو الفندق . . أو المقهى لأنك غريب فقد لاحظت معاملتهم العادلة . . ومساواتنا بالأتراك فهم أحسن بكثير من إخواننا وأشقائنا اللبنانيين فى المصيف . . الذين يغتنمون كل فرصة للمغالطة وزيادة الحساب . . وتكرار الطعام الذى تأكله يظن بأنك جاهل ومغفل وهو الذكى المتعلم

يريد أن يسلبك أموالك بالحق وبالباطل . . وبكل صفاقة ووقاحة . . كما قال المثل العراقى :

(مجدى وعليجته قطيفة)

فقد كنت فى برمانا فى (عين الصحة) ومعى أسرتى فأكلنا غذاءنا ولما جاء بالحساب وجدت زيادة غريبة . . قلت ما هذه الزيادة أجاب بعد أن أعيته الحيل .

ثمن جلوسكم على الكراسى ؟

تصور مطعما يحاسبك على جلوسك على الكراسى ويستوفى أجرة الجلوس . .

قلت لم لم تقل لنا حتى نجلس على الأرض ؟

لم يكترث لهذه النكتة . . وأخذ المبلغ ومشى . .

العراقيون فى استانبول

اتخذ العراقيون أمكنة يتجمعون فيها فى استانبول منها واحد بجوار كلية الطب وآخر

فى الجانب الثانى قرب تقسيم فى مقهى (مرمرة) وأظنها قد اتخذت مكانا آخر . . ونقلوا معهم لعبة الطاولى (النرد) يقضون أيامهم فى هذه اللعبة ومنهم من يلعب (الدومنو) وكانهم فى إحدى المقاهى العراقية فى شارع الرشيد .

لم يستفيدوا من هذه الحضارة . . لم يزر أكثرهم المساجد والمتاحف أو يتفرج على جمال البحر وقضاء أوقاته فى جزر استانبول الجميلة . . مع أن استانبول فيها من المقاهى الرائعة على ضفاف البسفور والمطاعم النظيفة وحمامات السباحة أينما يذهب الإنسان . . فى جوار المدينة . وفيها من المكتبات التى تتكدس فيها أنفس الكتب العربية والمخطوطات النادرة .

إن أهم فائدة من فوائد السفر . العلم والثقافة وسعة الاطلاع بالاختلاط بالناس ودراسة أخلاقهم وعاداتهم وشاعرنا الشافعى يقول

تغرب عن الأوطان فى طلب العلا ... وسافر ففى الأسفار خمس فوائد
تفرج هم واكتساب معيشة ... وفضل وآداب وصحبة ماجد

مازالت المدينة متحفا جميلا فيها من الآثار الرومانية والاسلامية الشىء الكثير . .

وقد كثر الزواج بين الطلاب والتركيات لأسباب كثيرة منها التقاليد الاجتماعية البالية فى العراق وارتفاع المهور ومطالب الزوجة الكثيرة . . وكان من نتيجة ذلك زيادة العوانس وبخاصة بين طبقة المتعلمات . . لأن العراقى يخاف أن يتزوج سيدة أكثر علما منه . . وبطبعه يريد أن يكون هو المتسلط وهو القوام عليها . .

إن وجود المرأة مع الرجل فى استانبول . . وسهولة الزواج منها أدى إلى إقبال الشباب على هذا الزواج .

ويظهر العراقى بأن المرأة الأجنبية أكثر خدمة للرجل وأكثر تفانيا من العراقية ؟!

والحق أن الرجل فى العراق وبخاصة الطلاب فى سن المراهقة تأسره المرأة بجمالها فهو يراها تميس فى أعطافها الفتنة وتنفح فى جسمها النشوة . . وترقص على ثغرها الضحكة والبسمة . . وقد فتن بالنظافة والأناقة . . ودفعه الملل والغربة وسهولة الزواج إلى الاقتران بالتركية .

فهو يذكر قذارة الدار وإهمال الأثاث وقبح المنظر عند النسوة المتزوجات . . وقد كلحت وجوههن وصرخ الألم من المحيا . . فما يعود الرجل من عمله إلى الدار حتى يهرب إلى المقهى . . ولعل هذا هو السر الذى كثر رواد المقاهى فى العراق فى عز الحر يجلسون فى المقاهى . . وفى عز الشتاء يقضون أوقاتهم فيها .

إن المرأة العراقية لو فهمت زوجها . . وأسعدته لما تركها إلى المقهى . . أو ارتمى فى أحضان غيرها . . وأخيرا طلقها بعد أن يئس من إصلاحها . .

المرأة ترى من واجب الرجل وحده إسعادها . . ونسيت أنها سبب شقائه فكيف يسعد الشقى الآخرين ؟ إنها سبب شقائه . . وهل يصرخ المعنى بغير الألم ؟

إن بسمة واحدة من سيدة عاقلة . . تسعد زوجها كل اليوم . . وضحكة من زوجة مفكرة تملأ حياة زوجها بالهناء والرضا وتدفعه إلى التفانى فى عمله واسعادها . . معا .

هل فكرت الزوجة العراقية بأناقتها وزينتها ونظافتها وتنسيق بيتها عندما يعود الزوج المكدود ؟

إن ظاهرة تخلف الفكر عند المرأة . . والآلام التى رآها الطلاب فى بيوتهم . . . والتأخر الذى تعانيه منه أمهاتهم كان سببا قويا فى كثرة الزيجات التى أراها من التركيات .

وقد شجع قلة المهور وسهولة الاتصال بالأسر . . والمجتمع فى استانبول . . على كثرة هذه الزيجات . .

وكل ما أرجوه إذا ما عاد الطالب الذى سيكون طبيبا أو مهندسا أو أستاذا . . . أن يسعد فى العراق كما سعد فى استانبول . . لأن المرأة التركية أكثر حرية من العراقية وقد تفرض سيطرتها عليه . . لأنها ذاقت التصرف الفردى وتمتعت بالحرية الشخصية . . فقد كنت أسمع فى العراق شكوى دائمة من الذين تزوجوا من غير العراقيات . . لاختلاف العادات وتغير المجتمع وتنوّع التقاليد .

أنا و استانبول

تحقق الحلم وأصبحت الأمانى واقعا ملموسا . . أنا إذن فى استانبول وفى أقرب مكان للسلطان والعزة وقصور السلطة . . أنا فى محلة قريبة جدا من المكتبات التى سمعنا عنها . . وترددت أسماؤ ها فى المصادر والكتب التى درستها .

كان والدى رحمه الله يحدثنى عنها . . وكان لحديثه فى نفسه نشوة عميقة ولذة حبيبة إنها مرابع الذكريات ومراح الشباب . . وكان يردد بعض الأغانى التركية والأناشيد التى درسها وهو ضابط . . وألفت أذنى التركية وبرغم معرفته اللغة الفارسية والكردية فقد كان الأدب التركى أقرب إلى نفسه . . ويؤكد على ضرورة دراسة الفارسية حتى يقدر الأديب على فهم الأدب التركى . . ما كنت أوليه أذنا صاغية إذ لم أكن أفهم هذا الحب وأنا ما أزال صبيا .

ولكن كانت هذه الأناشيد والأغانى تؤثر بلا شعور فى نفسى لذلك درست التركية بعد أن يئست من مدرس اللغة الفارسية فهو فقد كان الرجل يدرسنا الفارسية بالإنكليزية وهو بالأصل من سويسرا . . كيف يتعلم عربى الفارسية بالانكليزية من أستاذ يتكلم الألمانية . . إنه بلا شك كان عالما من علماء فرعه ولكن أن تدرس لغة جديدة . . لابد لها من مشوقات وقد كان الأستاذ ابراهيم صبرى يدرس اللغة التركية وقد وافق وقته مع وقتى فدرستها عوضا عن الفارسية .

لذلك لم أضل الطريق باللغة المحدودة التى أعرفها وتظهر الصعوبة عندما أتحدث مع عامة الناس وآمالاتهم التى لا أعرفها .

تحقق حلمى الطويل . . أنا بكل كيانى وجسمى ومشاعرى فى استانبول . انها بلد جميل فالمساجد الرائعة بمناراتها الشاهقة فى الجو والمكتبات الكثيرة التى زخرت بالمخطوطات العربية الثمينة ترقد فى عزلتها تئن من جور الأيام وكثرة الإهمال . . كم من يد طالب علم كان يقلّبها فى اليوم وكم أستاذ جليل قرأ فيها وعلق على جوانبها . . لا يزورها اليوم إلا عدد من المختصين فتسعد بلقاء الباحث وتطرب للقاء المسلم وترحب بالعربى الدارس .
أسير على قدمى إلى المكتبات وكأنى أرى أحبة سمعت بهم وقرأت عنهم وأزورهم لأول مرة فتزداد المتعة مع كل مخطوط وأنتشى مع كل ورقة وسطر فى مكتبات بايزيد والسليمانية وأيا صوفية . .

أيها التاريخ سجل علينا اهمالنا ويا ذرى المجد طأطئى الرأس خجلا من العرب .
كنت أمرّ فى الساحة على حوض كبير زخرف بناؤه وبذل جهد فى إقامته قرب جامع السلطان أحمد أنه حوض (الشربت)الذى كان يرتوى منه المحرمون أيام العيد بوضع الماء العذب والسكر والثلج . . إنه مجّسد بقى يدل على نفحة خير من نفحات السلطان يزجيها للرعية .

كنت أظن المدينة أكثر جمالا . . وتصورتها أحسن تنسيقا . . ورسمت لها فى مخيلتى صورا من الفخامة والجلال والجمال أبعد مما رأيت فقد كانت المدينة التى تتدفق عليها سيول الهدايا . . وخير التحف من الأثاث والرياش والأدوات والمختار من النساء والغلمان . . بالملايين والملايين وكانت تسيل فى شوارعها سيول الذهب . . وجدتها أصغر مما تصورت .

إنه الخيال الواسع اصطدم بهذه الشوارع الضيقة . . التى لم تعبدّ وإنما رصفت بالصخور والحياة العامة متأخرة . . فقد أصبح الشعب فقيرا . . ولم أتصور أن أجد هذه القذارة فى بيوتها وشوارعها . .

قرأنا عن أسماء الولاة والباشوات وهم صفوة الدولة وما كان يحفهم من ترف فرسمت فى الأذهان أن (الاستانبولى) لابد أن يكون مترفا ونظيفا وأنيقا . وسوف تكون استانبول مدينة كبيرة وواسعة وزاهية .

وهنا تحقق لى أن تخلف العراق لم يكن مقصودا ولم يخطط لهذا التخلف لأنه بلد عربى إنما كان التخلف مسيطرا على كل الانبراطورية فالحاكم ساوى بين الرعية . . فى التخلف والتدهور .

ولكن أين ذهبت الأموال . . وأين صرفت أكياس الذهب ومن استفاد من تدفق خيار الأشياء ؟ وأنفس المتع ؟!

المقابـــر

وظاهرة المقابر داخل استانبول واضحة فما كنت أمر بشارع الا وتطل عليه هذه المقابر بشواهدها ويصرخ التاريخ حزينا على نسيان بناته وقد أهملت هذه المقابر ولولا إطلالة الشواهد من وراء الشبابيك لما عرف مكانها . وقفت من وراء الشباك الحديدى أتطلع إلى هذه الشواهد الغريبة . . فقد نحت عليها ألوان شتى من أغطية الرأس . . فهذا طربوش جديد الشكل . . وذلك طربوش له زر كبير . . وشاهد ثالث نحتت فوقه عمامة تختلف عن عمامة بجانبه . .

ولابد أن اختلاف أغطية الرأس كانت شعارا يدل به على رتبة صاحبه . . أو مقامه فى المجتمع أو الدولة . .

وبالغت بعض الأسر بأن رسمت الأوسمة والنياشين وطراز اللباس الذى كان يرتديه صاحبه ليعرف من هذا أنه كان باشا فى الجيش أو كان قاضيا أو وزيرا أو مشيرا . . فما ينفع الموتى النحت على الشاهد إنما العمل الصالح والذكر الحسن إنها فخر للأحياء ولا تنفع الموتى . . ولاترد عنه اللعنة أو تزيد فى الرحمة غير أعماله الخيرة الباقية .

لم أحس وأنا أقضى هذه الأيام بأنى غريب عن هذه الديار . . لأنى لم أجد اختلافا فى معاملتى عن أهل البلد . . وتلك ميزة جميلة لا تحس بأنك غريب . . فإن بعض الشعوب تحس بأنها تنظر إليك بريبة وخوف وحذر أو أنها تستعلى عليك وتراك أقل منها منزلة كإخواننا فى لبنان من خدم المطاعم . . فإذا تكلمت بلغة أجنبية . . وبخاصة الفرنسية ترى علامات الاحترام على وجوههم مع التقدير والإعجاب . . وإلا كنت مواطناً من الدرجة الثانية لأنك تتكلم العربية .

الحساء (الشوربة) وهدوء الشارع

من أبرز ما يلاحظ أن الغذاء الشعبى هو الشوربة . . فتراه فى كل شارع ولها مطاعم كثيرة . . فهى مثل مطاعم الفول المدمس فى مصر ومثل الكباب فى العراق . . والمعكرونى فى ايطاليا .

وسرنى هذا الهدوء الذى أحس به وأنا أسير على أقدامى فى الشوارع برغم كثرة السيارات وضيق الطرق فلا تسمع صوت المنبه فقد فرضت الدولة غرامة كبيرة على من يستعمل المنبه . . وقد كنت أسير قرب بايزيد وسمعت ضربات عنيفة على باب السيارة فالتفت فوجدت السائق ينبه أحد المارة . . فقد استعمل باب السيارة وضربها بعنف حتى يسمع الماشى . . ولم يستعمل المنبه .

أين هذا من أصوات المنبه فى الوطن العربى . . فأنت تسمعه فى نصف الليل عندما يريد أن ينادى صديقا له . . دون أن يفكر بالطفل النائم والمريض المضنى والمتعب الذى قد خلد إلى الراحة من عناء العمل . .

ولما بدأت أدوات المذياع تظهر . . أخذ أصحابها يرفعون من أصواتها وبخاصة فى الصيف والناس نيام على سطوح منازلهم . . وجاءت موجة مكبرات الصوت . . فى التعازى والنوادى والمقاهى . . بلية من بليات المجتمع الجديد الذى يريد أن يتحضر فانتكس . . فهل تعّلم العرب آداب هذه الأدوات الجديدة ؟

الحضارة . . هى الأسلوب الممتاز للحياة . . لا تؤذى الآخرين وتسعد نفسك بما وهبك الله من المال . . وتمتع نفسك وحدك بالموسيقى والأنغام من أداتك .

أما نحن فالسعادة فى إعلان ما عندنا . . بأسلوب بدائى ساذج يؤلم الآخرين . . بل يدعو إلى المباهاة والمفاخرة . . وتلك البدائية والتأخر الحضارى .

العــرب والترك :

هل سيأخذ العراقيون هذا المثل الرائع من الأتراك إذا ما ساقوا سياراتهم فى شوارع بغداد ؟

عدد المصطافين من العراق كثير جدا . . لكنهم لا يعرفون الاستفادة من أوقاتهم وقد لاحظت حب الأتراك للعراق والعراقيين . . والأسف أنهّم يكرهون العرب ويعتقدون أنهم خانوهم خلال الحرب العالمية الأولى وقتلوا أبناءهم وهم مسلمون وكان جزاء ذلك أنهم

يسمون كل شيء أسود (عرب) وكنت مع صديق تركى وأراد أن ينبه على وجود شيء أسود أو كلب أسود نظر إلى واعتذر وقال هى اللغة معذرة .

وقال (بوعرب) أى أسود قبيح . .

وظاهرة كره العرب ورثت من جمعية الاتحاد والترقى . . والماسونية والصهيونية . . فقد غرستها فى نفوسهم وبالتالى ولدت الضغائن والأحقاد وأرسلت الأتراك إلى المناطق الحارة . . وجيوش العرب إلى الثلوج وكانت المجازر التى عرفها التاريخ من قبل جمال باشا فى عاليه ودمشق . .

فقد أثار الغرب العرب على الأتراك وأثار الأتراك على العرب . . ونشر القومية الطورانية . . وحارب الفكرة العثمانية . . فتحول العثمانيون إلى أتراك . . واعتز العرب بقوميتهم وثرائهم وحضارتهم . . انه رد فعل . . مدروس جاز على العرب والأتراك .

والغريب أن دعاة الطورانية ثلاثة . أو قادة الحركة هم طلعت باشا وأنور باشا وجمال باشا . . قيل إنهم لم يكونوا من الأتراك . . لكنهم كانوا أدوات بيد الغرب دون أن يحسوا بالفخ المنصوب لهم إلا بعد أن تقسمت الدولة وضاعت من أيديهم السلطة . . ودخل الأجانب الديار .

نسى الأتراك أو جهلوا أنهم والعرب والأمم التى عاشت فى ظل الامبراطورية العثمانية ضحية لمؤامرات الغرب لاستلاب الخيرات وفتح الأسواق وأنهم خرجوا من الحرب بالاستقلال المحدد فى شبه جزيرة الأناضول .

وبقى العرب فى حمأة التمزق يعيشون فى غمار التفرقة والاقليمية يسيرون دون أن يعرفوا وغرقنا فى مشاحنات وخصومات لا نهاية لها .

أهل استانبول :

يختلف أهل استانبول شكلا عن سكان الأناضول . . فقد كان لكثرة الجوارى والأجنبيات من مختلف أنحاء العالم أثر فى تغيير سحنة أبناء استانبول . . فأصبحت أكثر جمالا . . وأقرب إلى الوجوه الغربية مع سحنات الشرق العربى . .

وأبناء الأناضول الذين لم يخالطهم الدم الغريب سوف يعجب الزائر من شكل هذه الوجوه . . فقد مر بنا القطار فى الأناضول . . فنظر صاحبى الألمانى وسألنى هل هنا جالية صينية أو يابانية . . قلت لا أظن بوجود هذه الجاليات . . ونزلنا نستطلع الأمر فسمعتهم

يتكلمون باللغة التركية . . قلت له لا تنسى أن أصل الأتراك من أواسط آسيا . . فالوجوه والأنوف لا تزال على أصالتها وجه مدور وعين صغيرة وأنف أفطس . .

ضحك صاحبى . . بعد أن تنبهنا إلى ما وهمنا فيه . . ولو تذكرنا التاريخ ما وهمنا :

التمر والزبيب :

وكنت يوما أمر فى شوارع الأستانة ونحن فى عز الصيف فرأيت فى إناء زجاجى جميل تمرا وإلى جانبه خارج الزجاجة رأيت زبيبا من أجمل أنواع الزبيب . . ضحكت للمفارقة نحن نضع التمر خارج الزجاج ونضع الزبيب فى القنانى لأنه أغلى من التمر . .

والغريب أن البائع لا يعرف أن التمر إذا وضع فى الزجاج يتغير طعمه ويتأثر شكله الخارجى . . وبالفعل كانت التمرات قد تقشرت فى شهر آب والجو فى استانبول رطب جدا . وكان سعر التمر ٢٥٠ قرشا وهو من أردأ أنواع التمر الذى اعتاد العراقى تقديمه للحيوانات أو عصره لاستخراج الدبس منه . . أما سعر الزبيب الممتاز فقد كان ١٣٠ قرشا .

ضحكت وتساءلت . . أين أهل التمر ليعرفوا قيمته . . وليعرفوا مقدار الاعجاب به . . وهو من الزهدى الرخيص . . أين الخستاوى والبرحى . . والسكرى والخضراوى والأنواع الجيدة منه . . !!

حدثنى صديق رحمه الله قال . .

مررت ببائع وقد وضع التمر بمكان عال مرتفع فى دكانه حتى لا تناله الأيدى . . قلت له كم سعر كيلو التمر ؟ .

نظر إليه بكل احتقار وامتهان . . وكان صاحبنا يتقن التركية لأنه تعلم فيها ويسافر إليها كل سنة . . ولما أحس الرجل بترفع هذا البائع أرسل رسالة مستعجلة إلى بغداد ورجا أسرته أن ترسل له صندوقا من التمر على شرط أن توضع بعذقه وبعد فترة من الزمن أرسلت الأسرة . . أنواعا جيدة من التمر . . بعذوقها .

قال : ذهبت إلى البائع مرة أخرى . . وقلت له بكم تبيع كل تمرك . . فازداد غضبا وقال لى . .

انك جاهل . . لأنك لا تعرف قيمة هذا التمر . . ضحكت وبكل هدوء . . فتحت له الصندوق . . وقلت له . . تفضل جرب هذا . . هذا هو التمر . . وما عندك طعام

حيواناتنا منه . . فدهش . . وأبلس . . ولم يقدر أن يتكلم وكأن صاعقة نزلت عليه . . فهو لم ير التمر بهذه الأشكال ولم يره وهو مازال فى (خرموشه) وعذوقه طوال حياته .

فقام من مجلسه وأراد أن يقبل يدى . . وأدخلنى دكانه . . واعتذر اعتذارا شديدا . . وتحول الكره إلى حب . . لما أهديته منه شيئا . . اشترطت عليه . . أن يأكله . . ولا يبيعه . .

وبالفعل مازال اخواننا فى العراق عندما يسافرون إلى تركية ويزورهم أصدقاؤ هم فهم يقدمون لهم التمرة الواحدة والتمرتين ويخرج الى أصدقائه ويحدثهم عن حلو التمر وطعمه . .

الحرف اللاتيني

أصبحت الحروف اللاتينية حروف الثقافة والدراسة فى جميع أنحاء تركيا بعد فرضها من مصطفى كمال عندما فرضت أوربا عليه أن يدير ظهره للإسلام والعرب والشرق . . وبتر تاريخاً طويلاً من الأدب والفكر العثمانى وكان سببا فى جهل الجيل الجديد قراءة كتبهم القديمة بخطها العربى فضاع أهم تاريخهم .

إن الإعلانات التى علقت على الحوانيت وأسماء المحلات والشوارع والفنادق والمطاعم كلها كتبت بالحروف اللاتينية . . إلا ما بقى من آثار قديمة محدودة بقى بحروفه العربية وخطها الجميل الرائع .

إن تعلم اللاتينية والكتابة بها واتخاذها وسيلة للتعبير أفقدت الأتراك تاريخاً ضخما . . وأدبا ممتازا . . وأمات التراث الطويل ولكن مازال بعضهم يحس بالحنين الغريب إلى الخط العربى ومنهم من يجيد الخط العربى ويحسنه خيرا من العربى وفى استانبول خطاط مشهور يكتب باللغة العربية . . ويجد سوقا جيدة . . ويتلمذ عليه العرب وكان المرحوم هاشم الخطاط من أبرز من تتلمذ عليه وأجازه فقد رأيت الأجازة عنده . فقد سمى نفسه (حامد) واشتهر به .

كنت فى مكتبة البلدية أطالع أحد الكتب العربية . . وعلى حين غرة جاءت فتاة تحمل جريدة (ثورة الفنون) وأخذت تسألنى عن معنى كلمة تركية . . قلت لها أنا لا أفهم من التركية كثيرا . . وإنها لغة الأدب والفكر عندكم . . قالت ظننت الكلمة عربية لأننا بعدنا عن جذور لغتنا استعملنا الحروف اللاتينية وأدخل على لغتنا مصطلحات الغرب لكى يتخلصوا من العربية . . فوقعوا فى كلمات أكثر جهلا فقلت لها انتظرى قليلا سوف أحل لك اللغز . . قالت هل هو لغز ؟ قلت كل شىء غير مفهوم لغز حتى نعرفه . .

وجلبت قاموس (اخترى) وكشفت عن الكلمة . . وبدأت أقرأ لها فضحكت وقالت :

علمتنى شيئا جديدا أعرف به اللغة التركية . . ثم قالت عربى لا يعرف التركية يعلم التركية لغتها . .

قلت يا سيدتى . . الذكاء وحسن التصرف . . والمعرفة المسبقة .

وقد رأيت بعض الطلاب الأتراك يدرسون هذه اللغة وكأنها غريبة عنهم يرسمون السطور حرفا حرفا وبعناية غريبة بوضع ورق شفاف . . كما يرسم الأطفال الخرائط . . ثم يأخذونها معهم لتترجم لهم . . فى بلادهم . من أناس عرفوا هذه اللغة والخط .

عندما بدأ الأتراك البحث عن الكلمات التركية القديمة وأرادوا التخلص من اللغة العربية التى فى لغتهم شكلوا لجنة سموها لجنة تطهير التركية وقال أحدهم نريد (تطهير لغة) فقال له أحد أعضاء اللجنة وهو الأديب المشهور سليمان نظيف وكان فى العراق فى وقت من الأوقات وله صلات وثقى بالأدباء العرب .

إن كلمة تطهير عربية هل يمكنك أن تأتى بكلمة تناسب هذه اللجنة ؟! لكن السياسة وضغط الغرب ومحاربة الإسلام والعرب كان من أهم بنود المعاهدة التى عقدت بين مصطفى كمال والحلفاء . . وبالفعل حاول هؤلاء قطع كل صلة بالشرق والعرب والاسلام وجعلوا حتى العطلة الأسبوعية يوم الأحد بدلا من الجمعة ليبرهنوا على أنهم أكثر من الغرب غربية .

إن هناك اتجاها فكريا وتيارا قويا لمسته يطالب بعودة اللغة العربية إلى الكتابة والصلاة بها . . ولكن عيون الغرب وجواسيس الدولة الذين لا يريدون التقارب مع العربية أقوى من هولاء . . ثم إن هولاء أنشأوا جيلا جديدا تعود على هذه الحروف وغسل دماغه من الإسلام والعرب حتى انقلب كثير منهم على العربية والعرب . .

والغريب أن أحد العرب سأل واحدا من هؤلاء الشبان لم ابتعدتم عن اللغة العربية وقد كان جوابه دليلا على أثر السياسة الغربية وعمق تغلغلها فى النفوس قال :

الحمد لله الذى أبعدنا عنها . . لأننا لو بقينا نكتب فيها لكنا حميرا هذا اليوم . .

قال صاحبى إنه يريد أن يقول انها لغة صعبة لا يمكن أن يتعلمها ويتقنها . . قلت له ليس الأمر كما تظن . .

فما كان من الآخر إلا أن قال له :

هل كان أجدادك الأتراك الذين فتحوا العالم ونشروا الاسلام . . فى مشارق الأرض ومغاربها حميرا ؟

ابلس المتكلم ولم يجب . . وكانت صدمة لم يتوقعها . . واعتذر بعد أن فهم بأنه لقن فى الدراسة مثل هذه الأمور .

الجيل الماضى مازال متمسكا بالعربيـة ويبذل جهـده فى سبيل إحيـائها وقـد رأيت الحماسة والإيمان يوم العيد . . عند الصلاة . . فقد أذيعت صلاة العيد من المذياع ورتل القرآن الكريم باللغة العربية ويشهد الله أننى ما سمعت أجمل من ترتيـل هذا القـارىء ألا قليلا وبرغم لهجته البسيطة فى القراءة فقد أجاد الترتيل وأعطى الحروف حقها وكنت أحس بالقلوب ترتفع من بين الشفاه حارة وهى تنادى باسم الرسول الكريم . . إنه الإيمان العميق بالاسلام يصيح بوجـد عجيب . . يا محمـد يا حبيبى . . وبصـوت منغم يجعل القلوب تخشع لعمق ما يردده هذا الصوت من صدق الأحاسيس وارتجاف الحناجر عندما يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله . . .

ما أحسست بهذه الحرارة . . وهذا الصدق الصافى والايمان العميق يصدر عن أفئدة صادقة حرى كما سمعتها يوم العيد من أفواه المسلمين فى استانبول . .

وكان إمام المسجد وهو يرتل الدعاء باللغة العربية تنبض كلماته بالحرارة وتنبع ألفاظه بالصدق والايمان . . كان الإمام يتحدث بالتركية ليشرح خطبته وكان مجودا فما لحن أو أخطأ أو ارتبك فى خطبته وهو يتكلم العربية والتركية .

أما آن للعرب والمسلمين أن يشعروا بصدق هذه الشعوب ويوحدوا صفوفهم ويقربوا الفجوة بين جيلين جيل الإسلام المخلص فى دينه والجيل الذى غرس الغرب فى قلبه حب حضارته وكراهة كل موروث عربى أو إسلامى . . ؟!

إن ما سمعته من تلاوة عطرة وإنصات وخشوع واحتفاء بالقرآن الكريم . . وما رددته هذه الحناجر الملتهبة التى فاضت بالإيمان والسعادة والوفاء . . أكبر دليل على حب الأتراك للعرب والدين الإسلامى . . ورغم الرقابة الشديدة . . على الشعب التركى من الغرب وأعداء العرب والإسلام . لا تدخل بيتا من بيوتهم إلا وتجد الآيات الكريمة مكتوبة باللغة العربية والأدعية المختلفة وقد علقت على الحيطان تبركا ، ولا تقتصر هذه الظاهـرة على البيوت فقد وجدتها فى المطاعم والفنادق والمحلات العامة . . إنه الإيمان . . فهل يمكن أن نستفيد أم أننا فى نوم عميق ؟!

شعار الرأس والاحتجاج

يلفت النظر فى استانبول وجميع أنحاء تركية فى السهل والجبل والريف والمدن وبين جميع الطبقات بين المثقف وبين الأمى والعامل والحمال انهم يلبسون اللباس الغربى ويعتمرون أغطية الرؤوس الغربية .

ففى بغداد نجد السدارة وهى شعار يلبسها الموظفون والأفندية ، وإن بدأ حسر الرأس يتوغل بين جيلنا . . والعمائم المختلفة فهناك العمامة السوداء والبيضاء يعتمرهـا رجال الدين بلا طربوش ونجد العمامة التى تلف حول الطربوش ، فـالبيضاء لـرجال الـدين والصفـراء للتجار والخضـراء للعاملين فى العتبـات المقدسـة من آل الرسـول . . ولفّـة (الشماغ) الذى مازال على نقوشه البـابلية يلبس عـلى الطاقيـة ويسميها أهـل العراق (عرقجين) ولا أدرى من أين جاءت الكلمة فالعرق كلمة عربية (جين) هى الصين ولعلها جاءت من الصين ؟ وعليها تلف الغترة أو الشماغ بأشكال هندسية متباينة . فدّل توسطها رأسه على التواضع وكبر السن ، وذلك أمالها نحو اليسار أو اليمين ، وتسمى لفة (عدام) أى لفة الانسان الذى يتوقع الإعدام أى أنه رجل شجاع شرس . . وما تزال العقل بأنواعها الرفيع والغليظ المقصبة على قلتها منتشرة بين أبناء الشعب وبخاصة البقال والعطار والعامل والبناء ، الذين يعيشون فى القرى والأرياف .

والطربوش وتسميه فى العراق (فينة) نسبة إلى مدينة فينا النمساوية إذ قد كانت تصنع فيها . . وتصدر إلى الشرق . .

إنها أشكال غريبة وألوان متعددة يضاف إليها ملابس الشرطة والجيش وكأنك على حد قول أحد الغربيين تعيش فى حفلة تنكر . .

وقد قيل إنَّ السلطة التركية منعت الناس من اعتمار أى شىء سوى أغطية للرأس حددتها لهم . . ومنع الأئمة فى المساجد ومن يعمل فى خدمة الدين من ارتداء العمامـة والجبة خارج المسجد كما منعت المسيحيين من رهبان وقسـاوسة من استعمـال ملابسهم التقليدية خارج الكنيسة .

وقد كنت أشاهد رجلا يمر كثيرا من المحلات التى ارتادها وقد أطال شعره وكأنه شعر سيدة حتى وصل إلى كتفيه وتبين لى بأنه أضرب عن ارتداء ما فرض عليه من ملابس الغرب وأعلن احتجاجه بإطالة شعره .

أما المركز الأوربى لمدينة الأستانة فهو (تقسيم) وهى كلمة عربية منها تتفـرع أكثر الشوارع . . وهى ساحة كبيرة فيها تمثال لمصطفى كمال . . وعلى جوانبه تماثيل صغيرة أو صور بارزة تصور قادة تركية الذين عملوا معه مثل عصمة اينونو وجلال بايار . . وغيرهم .

ووراء هذا التمثال قاعدة ضخمة عالية يصعد إليها بدرجات أعدت لتكون مكانـا

يوضع عليها تمثال عصمة اينونو . . ولكن القاعدة قد غطيت من جميع جهاتها بالخشب فاختفى ماوراءها . .

وقد قيل إنَّ الدولة أرادت وضع تمثال لرئيس الجمهورية الحالى واحتج الشعب على ذلك فقدألف أن يمجد مصطفى كمال إنها الوثنية التى سيطرت على شعوب الشرق وعبادة الفرد التى ابتلى بها أصحاب العقول المحدودة التى لا تقدر على السمو والارتفاع عن الفرد إلى السماء وما فيها . .

ان عبدة مصطفى كمال ما كان يتصورون أن يشمخ تمثال أكبر من تمثاله لذلك كانوا يرسلون رسائل التهديد بنسف التمثال متى وضع تمثال عصمة اينونو على القاعدة . . ولا يريد أن يسمع إلى جانبه اسما آخر . . إنها حماقة . . من هؤلاء . . تركوا له التحكم فى مقدرات الشعب فى ماله وحياته وفكره . . وتحددت أفكارهم فى نصب يقام أو نصب يعلو . .

وقد ذهب المتحدث إلى أبعد من ذلك وقال ان القاعدة قد نسفت بالفعل . . قلت له مادام الشعب يكرهه لماذا لا يثور عليه . . وينسفه ؟

الآستانة متحفا

استانبول هى بيزنطية اتخذها العثمانيون عاصمة وسميت بلد الاسلام (اسلامبول) وحرفت اللفظة وتقع بين أوربا وآسيا ويفصل البحر بين هذين القسمين والواقع أنها ثلاثة أقسام هى :

طوب قابى وهى استانبول الأولى وفيها الآثار الرومانية والإسلامية فى الوقت ذاته ففيها أشهر مساجدها وجوامعها ، أما الثانية فهى الحديثة (بيرا) وفيها حركة التجارة وعلى جسر غلطة يمكن الوصول بين القسمين ، أما القسم الثالث فهو اسكدار وفيه محطة مشهورة لأنها ارتبطت بالخط الحديدى الذى وصل بقطاره انبراطور النمسة فما تذكر المحطة إلا ذكرت ألمانية معها ، وهى القسم الواقع فى آسيا وبحر مرمرة وفيها جسر (البدم) يعبر مضيق البسفور .

مدينة الآستانة متحف فى كل ركن من أركانها فالتاريخ وأحداثه تجدها فى الطرق والأزقة وتمتع برؤيتها وبسطورها العربية القديمة ولا سيما فى المساجد الكثيرة والجوامع المتناثرة .

ومن أشهرها جامع أيا صوفيا وكان كنيسة ، ولما فتح المسلمون الأستانة اتخذوها مسجدا ولاخفاء آثار الوثنية والتخلص من الصور غطيت جدرانها بالجبس وأخفيت صورها المسيحية والوثنية اليونانية .

وقد بقيت هذه الصور سليمة تحت الجبس وقد حفظها من عوامل الزمن . . فقد سقطت بعض هذه الأغطية الجبسية وتنبه الآثاريون إلى وجود الصور القديمة التى رسمت فى عهد المسيحية . . وأخذوا يزيلون الجبس عنها بسهولة فظهرت أساطير اليونان وقصصهم والقصص المسيحية التى رسمت أيام بيزنطية بوضوح وأضيف إلى تاريخ الفن اليونانى والمسيحى صفحات جديدة وفيها قال أحمد شوقى :

كنيســة صــارت إلى مسجــد
هديــة السيــد للسيــد
كانت لعيسى حرماً فانتهت
بنصرة الروح إلى أحمد

ولما أعلن مصطفى كمال قطع علاقته بالاسلام والشرق حولها إلى متحف .

والمعروف أن كثيرا من المسلمين كانوا يبتعدون عن الصلاة فيها لوجود صورة العذراء والمسيح والقديسين . . وقد أضيف إليها أربع منائر سامقة ولا تزال بعض الآثار اليونانية منتشرة فى ساحاتها الخارجية والحديقة والطريف أن الأسلاك الشائكة ربطت حول التيجان المرمرية الراكعة وأحيانا تثقب هذه التماثيل الرائعة وتدمر لربط السلك فيها .

ومن طرائف ما يروى فى استانبول أن السلطان أحمد أراد بناء جامع كبير يضاهى هذه الكنيسة عمارة وفخامة وأكبر منها سعة . . فأرسل للمهندس وأمره بما أراد ثم أردف أن تكون فيه منارة من الذهب .

ولم يكن المهندس قادرا على رد السلطان ومناقشة الأمر معه لأن منارة الذهب سوف تكلف كثيرا فهداه فكره إلى التقارب الموجود بين (التون) ذهب و(التى) عدد ستة . . فأنشأ المسجد وعلى جوانبه ست منائر . .

ولما جاء السلطان ورأى المنائر الست أعجب بذكاء المهندس ولم يناقشه فى الأمر خوف الافتضاح ، كيلا يقال إنه لم ينفذ أمر السلطان . . وأجازه وشكره ، وفى أياصوفيا مكتبة عامرة بالمخطوطات العربية الكثيرة فقد قال لى المشرف أن بها ٦٣٠٠ مخطوطة فى مختلف العلوم

والفنون وقد مررت ببعص هذه المخطوطات وسجلت أسماء بعضها ومنها المذهب الرائع والمجلد الفاخر . . وفيها نوادر المخطوطات . . وفيهـا الكثير من الكتب ذات الخطوط الواضحة الأنيقة ولا يحتاج تحقيقها إلى عناء كبير . . وبالرغم من أننى جئت أبحث عن الفترة التى أدرسها فقد أخذتنى روائعها ومنها ما يعود إلى القرن الرابع خطا والقرن الثانى أصلا من دواوين الشعراء الجاهليين والأمويين والعباسين فيها مجامع من الكتب الأدبية والتاريخية فى مجلدات كثيرة وهى كاملة وقد حقق بعض هذه المخطوطات ونشر ولكن الأكثرية الساحقة منها بحاجة إلى تحقيق ودراسة . . ولم أجد مخطوطة بعد القرن الحادى عشر .

وبالرغم من وجود بعض القوائم لهذه الكتب إلا أنها لا تزال بحاجة إلى عناية فى وضع بطاقات فيها هوية الكتاب ووصفه . . وما يحتاج إليه الباحث من معلومات . .

المكتبات العامة :

وليست ايا صوفيا وحدها المكتبة الغنية فهناك مكتبات عديدة مشهورة منها :

١ ــ مكتبة بايزيد
٢ ــ مكتبة البلدية
٣ ــ مكتبة السليمانية
٤ ــ مكتبة راغب باشا
٥ ــ مكتبة كوبرلى . .

إلى جانب مكتبات عديدة فى جامعة استانبول وطوب قبو . . ومكتبة نور عثمانية . . عشت مع هذه المخطوطات ومؤلفيهـا بسعادة فقـد أخذتنى لـذة عجيبة فى تصفح هذه المخطوطات العـربية . . وحمـدت الله على العنـاية التى أولاهـا الأتراك للتـراث العربى الإسلامى . . وتظهر فى دراسة هذه المخطوطات الطبيعة البشرية من التزلف والنفاق فقد كانت تهدى أحسنها كتابة وأجملها تجليدا وورقا للسلطان أملا فى المال وتقربا للسلطة . . ورأيت فى هذه المخطوطات أجمل نسخ من القرآن كتبها أشهر الخطاطين . . وقد ساعد على انتشار نسخ هذه الكتب كثرة ما بناه السلاطين والولاة والأغنياء من مساجد وجوامع وربط وتكايا . . فقد كانت هذه المؤسسات سبيلا إلى وقف بعض الكتب عليها وإنشاء مدرسة لتعلم الدين الإسلامى ودراسة الفقه والشـريعة وبـالتالى دراسـة الأدب والنحو واللغـة العربية .

إن وقتى المحدد حال دون زيارة كل المكتبات ولكنى حاولت الاطلاع على مكتبة بايزيد

ووجدت فيه نسخة من روح المعانى أهداها أبو الثناء الألـوسى إلى السلطان وفى المكتبة مجموعات خـطية جـاءت من بغداد أرسلهـا نامق بـاشا أثنـاء ولايته . . وهـو معروف للعراقيين .

وحوت مكتبة البلدية مطبوعات وجرائد ومجلات كانت تصدر فى الأستانة وهى أهم ما أريد الاطلاع عليه . . وللأسف أن بعض هذه الدوريات ناقصة بعض الأعداد .

وقد استفدت من مكتبة البلدية وبما فيها من الجرائد والمجلات الموجودة فيها . .

فقد قدم لى أمين المكتبة الأخ الفاضل أورخان أمين المكتبة كل ما فى طاقته لخدمة البحث الذى أريد القيام به . وقد شجع كثيرا من أصحاب المكتبات الخاصة على التبرع بمكتباتهم وأعد لوحة شرف فى صدر القاعة سجـل فيها أسماء هؤلاء الأجاويـد وسمى القاعات بأسمائهم والانسان مفطور على حب الخلود والمباهاة والزهو فوجـدت قاعـات بأسماء عثمان أركن ويحيى رجائى وغيرهما .

كانت هذه المكتبة مدرسة حولت إلى مكتبة عامة وفيها قـاعة سميت بـاسم المؤرخ التركى المشهور جودة باشا صاحب أهم كتاب فى تاريخ تركية المسمى (تاريخ جودة) .

وقد عرض على أمين المكتبة العدد الأول من (تقويم وقائع) الصادر فى ١٢٤٧ . .

وبالرغم من أن تنسيق الكتب كان جميلا ويدل على ذوق جميل وقد أعدّ لها فهرس لجميع كتبها باللغة العربية بثلاثة أجزاء تفضل المدير بإهدائها لى وخص الجزء الأول والجزء الثانى بالكتب العربية . إلا أن هذه المكتبة لم توحّد أو تصنف تصنيفا علميا تعين الباحث على إيجاد ما يريد ويختصر له الوقت . . لأن الدارس لابد له أن يقرأ جميع الفهارس لعدة مكتبات مثل قاضى عسكر جلبى واسماعيل حقى الأزهرى والمكتبة الحميدية وقليج باشا يني جامع وأكثر المكتبات الخاصة اهديت من اصحابها إلى المكتبة وبعض هذه المخطوطات بخط المؤلفين .

وقد خصصت قاعات للباحثين والدارسين والأساتذة .

كنت أخصص جميع ساعات النهار للبحث فى المساجد والجوامع والمتاحف لأنى أريد أن أعيش الحياة التى عاشها هؤلاء أو أتصور الشكل الذى كانت عليه استانبول . . عندما أسست هذه المكتبات الثمينة .

كنت أسمع حكايات كثيرة من أهل استانبول عن حياة القصور فقد حدثت عن سيدة كانت قد أهديت من السلطان إلى أحد أفراد الحاشية ودخلت إلى الحياة العامة بأشياء غريبة

وعجيبة . . بعيدة من خيال الشعراء والكتاب كانت تعلمتها من حياتها فى قصر السلطان .

روايــة ومقلـــب :

ومن طريف ما حدث لى . . أننى مررت على سينما فوجدت إعلانا عن رواية أمريكية لممثل هزلى مشهور قلت إنها ساعة راحة نفسية أسلى بها القلب والممثل معروف بالفكاهة والتسلية .

اشتريت بطاقة بعد أن تفرست فى الصور المعلقة وتأكدت من أنه الممثل الأمريكى والإعلانات باللغة الانكليزية .

وجلست فى الكرسى المخصص لى . . وقد كانت مرقمة والصالة هادئة كل الهدوء فلا صياح ولا ضجيج ولا مناداة على بيع مـواد مختلفة . . إنهم ذوو خلق لـطيف وأدب جم .

انها بداية موفقة فى دار عرض تركية . . وبدأ العرض ففوجئت بالممثل يتكلم اللغة التركية . . قلت لا بأس فقد تفهم بعض الجمل ولتذهب الأخرى . . نسمع الأغانى فهى مسلية فات اللحم علينا أن نتسلى بالمرق . .

وكانت مفاجأة أخرى . . فقد كانت الأغانى باللغة التركية أيضا .

وبذلك ضاعت حلاوة النكت . . وخسرت جمال صوت المغنية العذب وعندما لم أفهم ما تقول . وسلمت أمرى الى الله وتركت العرض . . وأنا أرى فى وجه الحضور علامات التعجب والدهشة تقول : لم يترك هذا المشاهد العرض ؟ والممثل كبير والمغنية معروفة وفى بداية العرض ؟

طرفة الحلاق والعراقى :

ومن الطرائف التى وقعت لأحد اخواننا فى العراق . . الذين طلبوا منى أن أدلهم على حلاق رخيص ونظيف . . قلت له حلقت فى المكان الفلانى . . بمقدار ليس كبيرا .

رجانى أن آخذه إليه . . وصلت معه إلى باب الحلاق ولما استقر به الجلوس . . قلت له . . سأعود إليك بعد ساعة فلا تترك محلك حتى أعود إليك . . كيلا تضيع .

ولما عدت وجدته مازال بين يدى الحلاق . . حسبت بأن كثرة الزبائن هى التى حالت دون حلاقته .

وجلست وطال انتظارى ورأيت الحلاق يدلـك كتفيه ووجهـه ورأسه ثم انتهى من حلاقته وخرجنا وفى الشارع قال :

هل يجوز أن يحلق واحد بأكثر من ثلاثة أرباع الدينار ؟

قلت ويحك إن مئة وخمسين فلسا زائدة عليه . . بل ان المئة فيها إكرام له . . لأن تركية رخيصة . . ولا يمكن أن ندفع فى العراق أكثر من مئة فلس . .(١)

قال هذا الذى حدث . .

قلت دعنا نعود إليه فقد سرقك .

قال لا . . وإنما

كان يقول شيئا بالتركية لا أعرفه . . وفى كل مرة أقول له أيوت (.نعم)

فقد قص شعرى ثم قال كلمة . .

قلت آوت

ثم حلق وجهى . .

وسألنى سؤ الا

قلت : اويت

قلت له ويحك ما قال لك . .

قال لا أدرى ما قال لكنه . .

غسل رأسى بالصابون وقص شعرى وحلق وجهى ولكن الشىء الذى أريـدك أن تشرحه لي . . معنى كلمة (مساج)؟!

قلت : أيوت : ثم

ضحكت ضحكة عالية . .

قلت انه دلك وجهك ورأسك وكتفيك قال نعم قلت انه المساج . .

فصرخ قائلا :

لعنة على الحلاق ولعنة على المساج . . .

فقد أراحنى ولكنه كوانى فى أجرته .

قلت السفر متعة وفائدة وتجارب إنها تجربة تفيدك .

طوب كابى سراى . . ومتحفه

إذا أردت أن تعرف تاريخ الأمة وتلم بحضارتها بأسرع طريقة وأوضـح أسلوب

(١) أجرة الحلاق فى العراق الآن أكثر من دينار .

للمعرفة فعليك بزيارة متاحفها . . ففيها كل هذا التاريخ . . وهذا ديدنى منذ كنت طالبا فقد زرت المتحف المصرى ومتحف الآثار الاسلامية فى القاهرة . . وعرفت الشىء الكثير . . وبخاصة أن بعض المتاحف لها كتب تشرح وتوضح للزائر تاريخا موجزا للأثر . . وللأمة وحضارتها .

وقد كان رائدى الأول أن أمر بهذا المتحف الذى جمع فيه المشرفون أنفس ما يمكن أن يوضع وأغلى الآثار حضاريا . . إنه متحف الامبراطورية العثمانية يقرأ فى كل أثر من هذه الآثار العوامل النفسية والسياسية والفكرية . . فيجد الهدايا الغريبة المتنوعة الأصناف والأشكال والملابس التى غالى الخياط فى تزيينها بأنواع فاخرة من الأحجار الكريمة والمجوهرات النادرة التى تغنى واحدا مثلى طوال العمر . . وتظهر حب التعالى عند الحاكم بما يضعه على جسمه وعلى كتفه وصدره من إشارات وأوسمة . . يأخذ بريقها بالألباب . . دون أن يقدم لأمته غير الخراب . .

وتظهر الزينة على سروج الخيل ومقابض الأسلحة وغمد السيف والقوس والنشاب . . تاريخ واضح للبشرية وتطور السلاح للفتك وتخلص الإنسان من أخيه الإنسان . بتهم شتى وحجج متنوعة يغذى بها الجنود فيدخل الحرب مؤمنا بأنه يقاتل فى سبيل هدف سام وغاية نبيلة . . إن اختلاف التهم وإصدار الفتاوى وغسل الدماغ أمور موجودة فى كل عصر وفى كل معركة حتى يعرف الجيش الحقيقة يكون قد فنى ومات خيرة رجاله وقد تعرف بعد الحروب وقد لاتعرف.. بعد أن أبيدت نفوس بالباطل وزهقت أرواح فى الضلال . . المهم أن تسوق القطيع وتسير أنهار الدماء بوضع وسام واحد على صدر القائد أو الحاكم . وتوسيع رقعة حكمه .

فهل تعادل أنهار الدماء البريئة هذا الوسام البراق ؟! انه عصر القطيع . . وعصر الوثنية . . يأتى بأسماء متنوعة وبشعارات براقة . . وأهداف فردية غلفت باسم السمو الفكرى والرقى الحضارى ، والتطور الروحى وانتشال الناس من الظلام إلى النور .

كثرت ألوان السيوف وأحجامها وأشكالها وتنوعت أسماؤها . . لقتل الانسان . . .

كان من بينها سيوف أثرية قديمة بعد أن ورثت حضارة العثمانيين حضارة الاسلام وذكر لى أن من بينها سيوفاً للخلفاء والصحابة الأكرمين كسيف الإمام على كرم الله وجهه وخالد بن الوليد والزبير بن العوام وعمار بن ياسر . . وقيل أن جميع سيوف الخلفاء الراشدين وصلت إلى هذا المتحف الرائع .

لست من أصحاب الرأى والخبرة . . ولكن لا أشك بأن السيوف قديمة ولها قيمتها الأثرية . . لأن الدولة العثمانية دولة عسكرية قامت على الفروسية وانتشرت بقوة الجيوش بعد أن قوتها العقيدة الإسلامية وأعطتها شحنة روحية دفعتها للانتشار . . تحت راية الإسلام والإيمان العميق بالدين الحنيف .

هذه السيوف التى كانت أداة ارهاب وزينة ومباهاة وعماد قوة وجبروت أصبحت حديدا لا قيمة لها بعد أن تطورت الأسلحة الفتاكة واعتمد الإنسان على إصابة الهدف من بعيد . . بالمدافع والبندقية والصاروخ فلم تعد قوة الساعد وشجاعة القلب . وبطولة الجسم تفيد الأمم فقد خسر المماليك حروبهم ضد نابليون ولم تنفعهم الشجاعة والبطولة أمام المدافع والبنادق التى اخترعها الغرب .

ومن الغريب أن أحد المسلمين جاء بست بنادق إلى مصر وأخبر المماليك بهذا السلاح الجديد وضرورة الاعتماد عليه فى حروبهم المقبلة فما كان منهم إلا أن ردوه وقالوا :

نحن نعتمد على سواعدنا وقوتنا الجسدية وخيولنا . . ولما دارت الحرب وسمع صوت المدفع هربت الخيول وسقطت الجسوم الشجاعة والفرسان الأبطال عندما أصابتها الطلقات فخرت رمز البطولة والشجاعة التى لم تنفع .

وقد لاحظت إهمالا فى الآثار الرومانية فقد ربطت الأسلاك فى نسر رومانى جميل النحت رائع التكوين وثبتت الأسلاك فى رجل تمثال بطل من أبطال الرومان . . نحت التمثال لتخليده فقيد بالأسلاك الشائكة فيالها من مفارقة عجيبة .

من الضرورى العناية بالآثار جميعها لأنها ملك البشرية وتراث الانسانية . . فقد تركت تحت الآثار للعوارض الطبيعية من أمطار ورياح وشمس محرقة . . ولاشك بأن تيجان الأعمدة الرخامية المتهاوية ستذوب بتأثير الأمطار وما تحمل من حامض وسوف تشوه وجه التمثال وتفنيه .

وقد أفرد المسؤولون مكانا خاصا بالآثار الاسلامية وحرست بعناية كبيرة . . ففيها بردة الرسول وعصاه أخذها معه آخر خلفاء بنى العباس إلى القاهرة وقيل إنه تنازل عن مخلفات الرسول للسلطان ياوز سليم بعد تنازله له عن الخلافة .

وكان السلطان العثمانى يرتديها ويتبارك بها وترفع راية الرسول ويحمل عصا الرسول عندما ينادى بالحاكم الجديد به سلطانا جديدا . .

وبعض المخلفات الإسلامية موجودة فى مسجد الحسين فى القاهرة ومن هذه المخلفات شعرات الرسول الكريم الموجودة والمنتشرة فى جميع أنحاء العالم الاسلامى ففى الأعظيمة يوجد بعضها ويحتفل بها الناس يوم مولد النبى (ﷺ) احتفالا كبيرا . . تخرج من خزانتها فى يوم مولده الكريم من كل سنة .

ان اعتناق الدولة العثمانية الناشئة للدين الإسلامى بعث فيها روحا وثابة نشطت وتجددت قواها بالعقيدة الجديدة . فاكتسحت بإيمانها دولا ورفعت راية الإسلام ثانية فأسعدت العرب والمسلمين وأعادت بعض الثقة بالنفس بعد أن أباد المغول الدولة الإسلامية . . فقد كان العالم الاسلامى والعربى يفرح بهذه الانتصارات لأنها تملأ روحه بالفخر والمباهاه . . للبعث الاسلامى المتوثب الجديد .

لهذا لم يجد العالم العربى ضيرا من دخول الجيوش العثمانية المسلمة إلى ديارهم وسعدوا بالعثمانيين بعد أن أصبح شعارهم حماية بيضة الإسلام من الكفار وأصبح السلطان خادم الحرمين الشريفين . . وأصبح أسمى شعار يوضح على عمامته الكبيرة مكنسة تشير إلى خدمته للأماكن الإسلامية المقدسة .

وفى المتحف عدد من عربات السلطان الفارهة المترفة التى كان السلطان يستعملها فى التنقل . . وقد عرضت بأسلوب بدائى لا توحى بجو تاريخى . . فلو وضعت واحدة منها مع الخيول وتمثال السلطان والحاشية والسائق لجسمت فى ذهن الزائر حركة جميلة تقع فى النفس موقعا عميقا فيه إيضاح الأمر وتصوير التاريخ حيا .

وفى جولات القصر يعرف الإنسان كيف كان يعيش هؤلاء فهذه البركة كانت مملوءة بالماء وكانت معدة للجوارى وهذه الغرفة مكان كان يجلس فيه السلطان . . وتلك للأسرة الحاكمة والغريب أن السلطانة لم تكن زوجة للسلطان وإنما كانت الأم وكان الصراع فى الحريم دمويا لتوصل الأم ابنها إلى ولاية العهد . . وقد تركت بعض الغرف بحالتها الطبيعية حتى المطبخ وأدواته مازالت كما كانت أو كما تصورها الآثارى . . فى زمن حياة القصر ونشاطه .

ولا يمكن أن أتحدث عن صناديق المجوهرات واللآلىء والاحجار الكريمة فقد كدست دون تنسيق أو اشارة إلى مكانها الأول ماعدا جوهرة كبيرة وضعت بشكل منسق جميل تشع فى كل الجنبات ووضعت فى صندوق جميل داخل خزانة تحفظها من السطو . . وطمع اللصوص .

لا أريد أن أصف كل ما فى المتحف من تحف ومجوهرات و وآثار إذ تحتاج إلى وقت طويل وخبرة بالآثار عميقة ولكن أوحت لى بعبر أثمن من هذه الجواهر وبحكم أغلى من المجوهرات بتفاهة البشر ، وفقر عقل الحاكم ، وغرور المتسلط الذى أصبح فى خبر كان كما يقول النحاة . . وغدت الآثار عبرة لمن يعتبر . . وما اعتبر حاكم جائر ، ولا فكر سلطان عادل ولا خشى ملك من عواقب الحياة .

فرية على السلطان

وقد شوهت سمعة السلاطين وأصاب عبد الحميد الشىء الكثير ونال ما لم ينل غيره من عبارات السخط والحقد والتزوير عندما رفض إعطاء وطن قومى لليهود . . وللأسف الشديد مازالت هذه الاختلافات على ألسنة أدلاء الآثار فقد كنت أمر يوما قرب أحد الشوارع فرأيت جماعة من السياح الأجانب يدخلون فى سلم فدخلت معهم . . ووجدت صهريجا لخزن الماء لاشك فى أنه كان يستعمل أيام حصار الأستانة فإذا الدليل يقول :

هذا نفق يصل إلى (طوب قابى سراى) وقد كان السلاطين يستعملونه سبيلا للتخلص من الجوارى . . فقد كانت الجارية تربط بالحبل ثم توضع فى كيس من الجلد ويربط من الخارج ربطا محكما . . ثم يأخذها العبيد بوساطة قارب إلى وسط البحر ثم ترمى الضحية . . لأن السلاطين كانوا لا يريدون أن يخلفوا من الجوارى . . فإذا حملت من السلطان تقتل بهذه الطريقة ثم يردف الدليل قائلا .

وكم شوهد مثل هذه الأكياس على ضفاف اليونان وغيرها من السواحل . . وعلى وجه الضحايا صور بشعة للفزع والهلع تقشعر لهوله الأبدان :

هل هذه حقيقة . . وهل أن الصهريج يصل إلى (السراى) ؟ حاولت تتبع هذه القضية فلم أجد لها دليلا يؤ يدها .

إنه بقية من بقايا اليهود التى غرسها حقدهم على السلطان عبد الحميد وعلموها الجيل الجديد . . عندما رسموا صورا خيالية مثيرة عن السلطان وأنه يأمر العبيد بربط الضحية وهى تصرخ وتصيح ولا من مغيث لها . . وتوضع بالكيس الجلدى . . ويؤ خذ الكيس . ويدخل فى الصهريج ثم ينقله القارب إلى عرض البحر ليرمى فيه صورة مثيرة تبعث الحقد والبغضاء ضد السلطان يتناقلها الناس دون تفكير ودون وعى . .

أما كان بالسم وسيلة آمنة وسهلة أو فى قطع رأسها سرا فى إحدى حجر القصر . . . أو خنق المسكينة وتلك عادة مألوفة فى التخلص من الكبار مثل قتل مدحت باشا وغيره .

إنها إساءة إلى تاريخ العثمانيين . . وإلى السلطان عبد الحميد .

وداع استانبول

لم أترك استانبول دون أن أستفيد منها وأتمتع من جمالها فقد كنت أيام العطل الرسمية . . أغتنم الفرصة في جولات فى البحر والجزر وكانت هذه الأيام ممتعة جميلة نظمت فيها بعض القصائد ونشرتها فى (لهاث الحياة) ولاستانبول أثر فى نفسى وحب خاص كانت أيامها عذبة ترف بالجمال والراحة والنشوة فقد سافرت إلى (بيوك اده) وكانت من أمتع السفرات فقد جاء معى صديق حبيب واقترح أن نشترى نصف حقه من (الفندق) الطرى ولا نعرفه فى العراق إلا مملحا ومقليا . . وقد كان طرى الاهاب حلو الطعم شهى المذاق ما تذوقته طازجا إلا هذه المرة . . وكل مرة أكل الفندق طريا أذكر صاحبى بالخير . فهل يذكرنا بعد أن سافر إلى كندا ؟

أخذتنا الباخرة فى عرض البحر وكانت مسيرتها حلوة عذبة رخية . وأخذت المنائر ترتفع كلما أوغلت فى البحر وكأنها أصابع مرفوعة إلى الله تعالى تسبح بحمده من كل جانب من جوانب المدينة وقد نظم أحد شعراء الأتراك شعرا معناه :

انها تشهد . . بالله أكبر . . وترفع أصابعها إلى أجواز السماء . . كلما هلل المسلمون وعلت أصوات المؤذن . . رهبة وخشوعا .

إن لاستانبول أثرا نفسيا فى كل العرب فقد بقيت صامدة أمام كل الغزوات الاسلامية ومات قرب أسوارها كثير من الصحابة والتابعين دون أن يقدر العرب على دخولها .

وهذا قبر الصحابى الجليل (أبو أيوب الانصارى) أصبح مكانا يرتاده المسلمون وبنى عليه جامع كبير وسميت محلة باسمه . . وبالطبع دخل الآن داخل المدينة . . ويمكن أن نعرف من قبره حدود المدينة القديمة . .

عندما كان المسلمون يفدون الغالى والنفيس فى سبيل رفع كلمة الحق والعدل أصبحوا سادة الدنيا . . وهم اليوم يتقاتلون من أجل رفع كلمة الحكام المستعبدين . .

وفجأة سألنى صديقى وهو من طلاب التاريخ أين سرحت ؟ قلت إلى دنيا العرب . . قال : إنها دنيا تفيض بالألم وتعج بالمآسى وتسود فيها الذلة والهوان . .

أما كفانا ساعات الحزن الكثيرة . . دعنا نرى أين وصل العرب وأثرهم فى حياة الأتراك . . برغم محاربة السلطة اللغة العربية فما تزال تسمع الله أكبر ترددها المآذن .

إنها مآذن رائعة وقد تفنن المهندس فيها فقد كان بلال الحبشى يرتقى أعلى سطح فى المدينة وينادى إلى الصلاة ولعل أول مئذنة هى منارة الجامع الأموى فى دمشق الرباعية التى كانت مكانا لجرس الكنيسة . . زمن الروم
الجمال ساحر والبحر ساج والطبيعة ضاحكة برغم انتشار الفقر بين الناس ، فقد عزت على أكثرهم المواد الضرورية وأصبحت القهوة من الكماليات وشرب كوب شاى من الأمانى الغالية . . انه بقايا حكم الاستبداد والجور وتسلط الفرد على مقدرات الشعب . .

هذه القهوة مخلوطة بالحمص ويحمص الحمص ويطحن ليوهم الناس أنه قهوة . . أما الملابس فقد عزت على الشعب وتدنت الليرة إلى دركات كبيرة . . من الأسعار . ان خريجى الجامعات يعانون من قلة الرواتب . . وتعيش الأسرة بعسر شديد . . لأن الموارد العامة لا تفى بجميع الحاجات الماسة .

ان المعونة الأمريكية ليست كافية لأن الجيش التركى عدده كبير جدا وتذهب هذه المعونة إلى الجيش والأسلحة . . وبذلك يصرف الأمريكان المبالغ لصالحهم . . ولا يستفيد الشعب التركى الذى يقدم دمه من مساعدتهم كثيرا . ولو أنهم أنشأوا بعض الصناعات المختلفة وطوروا الحياة بشكل يرفع من سوية المجتمع لكانت المساعدة مفيدة جدا .

ومن حسن الحظ هناك بعض المواد رخيصة كالسمك والخضروات والفواكه وتقدم الدولة الخبز بأسعار رمزية . . وإلا مات الشعب جوعا .

لا تزال تركية بحاجة إلى نهضة كبيرة . . لرفع مستوى الحياة الاجتماعية والاقتصادية فقد أذل الغرب هذا الشعب المسلم الصبور لأنه نشر الاسلام وأذل الغرب فى يوم من الأيام ووصل إلى حدود فينا عاصمة النمسا .

جنّح بى الخيال بعيدا وأنا على ظهر الباخرة ولم أسمع صخب الركاب ولا ضجيج المحركات . . فقد لذّ لى خيال جميل وسط هذا الجمال الرائع وانسياب الباخرة على سطح الماء الأزرق الذى تناثر حول الباخرة درره . وفجأة مدّ صديقى بكيس الفندق وقال أين ذهبت هل تنظم قصيدة . .

قلت : نظمت خير القصائد فى استانبول فقد أوحت لى بحلم جميل ما رأيته فى المدن الأخرى .

ولم يفارقنى الألم فقد كنت أصطدم بالفقر وأصاب بالخيبة والحزن عندما أراه مجسما ومصورا فى كل مكان .

كان صاحبى من أسرة غنية مترفة . . ترف السعادة على رأسه وترافقه الحضارة الغربية فى حله وترحاله . انه طالب ويكفيه أنه فى جامعة اكسفورد .

كان شديد الاعجاب بأساتذته وبخاصة الأستاذ كب فإذا ذكره تأنّى وقال بوقار : البروفسور السير هملتن كب .
إنه طموح وطموحه أكبر من الواقع وخياله لا يدرك الخيال مداه .

كان مرة يتحدث عن أستاذه عندما قال له وهو يقدم له فصلا من أطروحته : كل هذا المكتوب من قبلك بدّله . . أما التعليقات والحواشى والمصادر فهى التى يجب أن تبقى . .

أراد أستاذه أن يقول له أرجو أن تعيد الكتابة لأن المصادر التى اعتمدت عليها لم تستفد منها الفائدة التى آملها من ذكائك . . . ! !

سكت والانسان يجامل ويسكت لأن الحقيقة لابد أن تؤذى صاحبى . . إذا ما أصابت كبد الطموح الفردى . . ! ! وهو ذو احساس رقيق مرهف .

يعجبنى فى صديقى خلقه الرضى . . فقد كان لى عونا فى معرفة الكثير من استانبول . . فقد زرنا معاً كثيرا من المساجد والمتاحف ونظرنا إلى القبور الأثرية . . وترحمنا على الدولة العثمانية . . التى يعمل صاحبى من أجل كتابة جزء عنها . . . فى رسالة يعدها للدكتوراه .

إن أحلام صاحبى الكبيرة حلقت به بعيدا . . ويظهر أنه دائم السفر والترحال فقد قال لى ونحن فوق مياه البحر نستنشق أجمل هواء وأمتعه وهو ينظر إلى البحر . . ورأى جزيرة صغيرة . فروى له القصة التالية :

أسطورة عذبة

إن أحد الأغنياء . . من أصحاب الملايين . . كان فى جولة برية مع صديقته . . ومرا بمثل هذه الجزيرة وقد سماها لى . . فقالت الصديقة لصديقها . . ما أجمل أن تكون هذه الجزيرة عامرة بقصر جميل يحف به الماء . . وتستظل بالأشجار الجميلة !

ومرت الأيام . . ولم يخبرنى محدثى كم هذه الأيام . . . وأعاد الصديقان الغنى وصديقته السفرة البحرية ولابد أنه يملك (يختا خاصا به) ومرا من قرب تلك الجزيرة . . ولعله كان يسوق اليخت وتظاهر المحب بعدم الاكتراث . . وعدم النظر إلى الجزيرة . . .

فصرخت صديقته والعجب يأخذها من كل الجوانب . . والدهشة ملكتها وقالت . .

انظر فقد تحقق الخيال الذى ذكرته لك فى المرة الأولى . . ولابد أن المحب الولهان احتضن الحبيبة المندهشة . . وتوجه معها إلى الجزيرة . .

وقالت : إلى أين نذهب ؟
فضحك المحب بسعادة وملأ البشر والرضا قلبه . .
وقال لها : نحو القصر يا حبيبتى . . !!

ولنذهب مع خيال صاحبنا فى الرواية التى يريد أن يرويها لى . .

صعد الحبيب مع الحبيبة إلى الجزيرة . . وهى تقول له شيئا ولكنه لا يرد عليها لأنه كان مشغولا فى ربط حبل اليخت أو القارب المترف . .

ويأخذها بيدها . . وهى مستغربة ومتعجبة من تصرفات صديقها . . فقد عرفته واضح القصد فى معاملته معها . . ويسير الصديقان على أرض مبلطة بالرخام الجميل حتى يصلا إلى باب القصر . .

ويخرج المفتاح من جيبه وعندما يدخل الدار يقول لها اشتريت لك الجزيرة وبنيت لك القصر هدية لك . .

ضحك صاحبى لأننى كنت أسابقه فى القصة فقال حقا إنها قصة مشوقة وجميلة . .

قلت يا صاحبى أجمل منها الخيال . . كل شىء يزول . . وكل شىء يفنى غير الحب . . الحب الحقيقى الذى لا يزيفه المال ولا يشترى بالقصور ولا يباع بالجاه والمنصب . . فقد بهرتك القصة لأنها قصة من أمثال قصص الشرق التى وردت فى ألف ليلة وليلة . . يعتمد فيها البطل على المصادفات والظروف لا على العمل الدائب . . والجهد المتواصل . . إن الشعب العربى فقد الرغبة فى العمل . . وبدأ ينظر إلى المعجزات وفاته أن زمن المعجزات قد انتهى .

ما أحلى الحب الذى ينبع من قلب صادق ليس فيه مطمع أو كسب . . !! يعرف نبضات الصدق ، ويحس بهمسات الوجدان . .

كانت هذه القصة الطريفة بحوارها اللذيذ وجوها الجميل الهادىء يرف عليها الخيال المجنح الواسع والمناقشة اللذيذة .

إنها إحدى متع النفس المحرومة ، التى آذاها الحرمان وعذبها شعور وحدة القلب وما أجمل وقع الحديث العذب والعاطفة الصادقة الدافقة على قلوب المحرومين والغرباء والمفكرين فى أوطانهم .

ما أسرع ما وصلنا إلى (يبوك اده) ، المكان الذى يداعب الماء ضفافه وتتكسر الأمواج على الشواطىء الجميلة . . تركنا الباخرة مع زحام الناس ففى الجزيرة يسكن جمهرة من الشعب وقد عادوا إلى دورهم ، هذا يحمل كيسا وآخر ينوء بحمل كبير وتلك السيدة قد أرهقها أبناؤ ها تجر هذا وتنادى ذاك ، وامتلك الجزع والخوف قلبها حتى نزلوا على الأرض وقرب الاطمئنان إلى روحها لعلها عادت إلى دارها أو جاءت لزيارة أمها أو أسرتها . .

تجولنا فى هذه الجزيرة العامرة ، الرائعة الفتنة المنتشية بالجمال الطبيعى وأخذت عيوننا تصافح حناياها الساحرة وتتمتع نفوسنا بالأزقة النظيفة وتسرح فى شوارعها المنحدرة صاعدة نازلة . .

ما كان التعب يجرؤ على مداهمتنا فقد سرت فى الجسم قوة كسرتها حدة الجوع التى فتحت المناظر الحلوة الشهية وأسعدت الحواس . .

اخترنا مكانا بعيدا عن زحمة الناس على ضفاف البسفور فوجدنا للطعام شهية غريبة . . وبدأ صاحبى الحديث بلطف ولباقة . . عن غرائب الحياة ، وطرائف المدن التى مر بها وشاهدها فأحسست بالمساحة الجغرافية الكبيرة الواضحة فى فكره . . وسرتنى معلوماته الاجتماعية التى يحملها ذهنه . .

ان له العذر فى الأحلام والطموح الواسع . . وكم من أحلام واسعة المدى ، وطموح كبير المساحة آذى صاحبه وأرهقه . . وأفقده السعادة . .
وما أجمل القناعة والسهولة ، واليسر فى الحياة !!

صاحبى جميل الشكل مستقيم الجسم حلو التقاطيع واسع الذكاء كثير الثقافة . . وتلك ميزات جميلة لكنها تشقى ولا تسعد . . لأنها تزيد فى الطموح وترفع عنده الآمال حتى لا يكاد يصل إليها . . لأن وصوله إلى هدف يدفعه إلى تركه دون الاحتفاظ به ، ساعيا وراء خير منه . . انه يعيش فى شقاء نفسى وكربة روحية . . يعذبه خياله الشاعرى ويؤ لمه حلمه الواسع الذى لا يهدأ على شاطىء أو يرسو على جرف .

أردنا أن نتعرف على الجزيرة وجمالها النشوان ، وحسنها البديع مرة ثانية بعد شبع وری . . تجولنا فی أنحائها إذ استأجرنا عربة . . . ذكرتنى بعربات بغداد . . والحوذى المسكين . . الذى تطارده الشرطة وتمنعه من الوقوف فی بعض المحلات وعربته الزرية وخيلها العجاف . . بعد أن زاحمته السيارات فى النقل فأهمل مصدر رزقه . . بعد أن شح عليه الرزق . . هذه العربات السارحة بلا منازع لها ولم يسمح للسيارات أن تلوث جوها وتعكر صفو سكونها . . فزادت موارد الحوذى فحلاها بأشرطة زاهية تدلت بخيوط مبرومة قوية وزينت بأجمل الألوان وأحلاها . .

كانت ملابس الحوذى نظيفة . . أنيقة المظهر . . وبينما نحن فى جولتنا بدأت الشمس تغادر الأرض وتهبط فى قاع البحر . . رويدا رويدا وكأنها تلقى نظرات الوداع على هذا الكون الذى أسعدته بشروقها . . وصبغت صفحة الماء بلونها الجميل الساحر لتبعث الأمل فى النفس إلى لقاء قريب . . . انها همهمات الكون تكاد تحس بسعادتها وهو يودعها وهمسات المتعة اللذيذة العذبة لتخدر كوامن النفس بالجمال وتنتشى خبايا الروح . . بما تصنعه الشمس والبحر والماء والنسيم العليل فى اتحاد موسيقى جميل عند غروب الشمس . .

انها صورة أبدعها الخالق ، وما أكثر ما أبدع فى هذا الكون ، تركت أثرها الرقيق فى دافق اللذة الروحية الساحرة . . عكستها سماء صافية الأديم . . وبحر ساجى الأمواج هادىء المياه . .

إنه منظر . . يرهف أرق المشاعر ويثير أجمل العواطف ويهدىء دفقات الألم ، ولواعج الأحزان . .

هاجت فى نفس صاحبى ذكريات وجدانية عميقة . . فقد رأى الناس زرافات ووجدانا . . يمتعون النفس بجمال الطبيعة الساجى ، ، ودبيب الجمال التى تحس بمسراه فى وجوه الناس وقسماتهم وما ان ودعتنا الشمس بوداعها العذب الجميل . . حتى بدأ القمر يطل بهدوء وحياء متمهلا . . متأنيا وكأنه الحسناء تترك خدرها لأول مرة . . وبدأت أشعته البيضاء الحلوة . . تداعب سطح الكون . ووجه المياه الرقراقة . .

وتحس رجفة المحب عند لقاء الحبيب تسرى من حلو اللقاء . . وتنتشى من مداعبة القمر بضوئه . . فتزداد المياه إشراقا وكأنها لجين تسيل فى هدوء ودعة . . فتبعث الحيرة

واللذة من سيل اللجين . .
ما أجمل ما يخلق الله وما أمتعه ما يبدع وما أعجز فكر البشر عن فهم صنعة الله . . لن يقدر الرسام مهما أوتى من حذق فى أصباغه أو آلات التصوير مهما كانت دقيقة أن تسجل هذا الجمال وهمساته ، ونشوته ، ومسراه . .

كانت وجوه العاشقين وهم يتجولون فى الجزيرة فى ظلال الجمال باسمة الغبطة ، رضية الهناء ، يسيرون متعانقين متلاصقين وكأنما يريد كل واحد أن يحتوى صاحبه بكل جسمه وروحه ومشاعره . ليس فى الدنيا أجمل من عاشقين يتلاقيان ولا أمتع من منظر لحبيبين يذوبان رقة وحنانا ، ويحترقان وجدا ، وتسهم مسيرة أقدامهما بأجمل أنغام الحب وأرق ألحان الغرام . .

ويتجلى جمال الأنثى عندما تتعلق بذراع حبيبها وتفضح اللهفة الحيرى لهفة وجهها وضحكة النشوة السكرى على محياها . . لأن حياتها تبدأ بالزواج وتتم أنوثتها به . نظر صاحبى إلى وجهى وقال :

إلى أين . . أين سرحت بخيالك يا شاعرى ؟!
قلت : أترى أجمل من هذا الكون ؟
هل شاهدت أحلى من خلق الله ؟
ألا تحس بدبيب الحب . . وعمق الود . . يسرى فى كل مكان فى هذه الجزيرة . . ألا تحس بسعادة الكون على الوجوه الشابة الجميلة . . ألا ترى الأشجار وقد انتشت والتلال وقد بسمت وتراب الأرض سعيدا وصخورها تغنى للجمال . . .

قال : ماتزال شاعرا حتى فى نثرك وحديثك . .
قلت . . شكرا على المجاملة . .
وعدنا إلى مرسى البواخر بأجسامنا وتركنا قلوبنا وخفقات الجمال وراءها . . وكأننا نغالب شوقنا فى العودة بعد أن رأينا من سحر الكون ما يرقص الجماد وينطق الصخر .

وبدأت الباخرة تنسرح منسابة على وجه ماء البحر بزهو عجيب وكأنها متبخترة فى دلال حبيب وكأنها عذراء أعجبها جمالها وأحست بفتنتها . . تسير فى رضا نفسى عميق .

كانت مياه البحر تحتضن مسيرتها بما ترسل من رغوة بيضاء جميلة . . جلسنا على ظهرها حتى نرى القمر الجميل وهو يداعب الوجوه ويشاركهم سعادة الكون ونشوة الطبيعة . . الساحرة فسلام على سفرة (بيوك أده) وساعاتها

وثيقة التخفيض :

سفرات الباخرة الساحرة تبقى أجمل الذكريات وأعذبها . . لذلك نرى أصحاب المتع يسافرون بها بين أوربا وأمريكا برغم الفرق الكبير بين سفرة الطائرة وسفرة الباخرة . فأردت أن أجرب هذه السفرة . . فإن فى الوقت المتسع والأمل فى الذكريات واسع المدى .

وبعد أن جلت فى حنايا استانبول وشوارعها أودعها وأشكرها على الحفاوة الكريمة التى حنت بها على . . تذكرت بأن الحكومة التركية تخفض للطلاب على وسائطها وأجور سفرها حوالى النصف من الأجور المقررة . .

جئت بوثيقة من بغداد تشهد بأنى طالب علم أحضر الدكتوراه . . ولما ذهبت بها إلى خطوط الملاحة . . وافق الموظف المسؤول . . ولكنه اعتذر بأنه لا يعرف العربية وقد لا تقبلها الخطوط الملاحية إلا بعد ترجمتها . .

وقد أعاننى اتحاد طلاب تركية على الترجمة وصادق عليها وأوصانى أن آخذ النسختين العربية والتركية إلى القنصل العراقى فى استانبول . . بعد أن كتبها بالآلة الكاتبة وعلى ورق صقيل . شكرت الاتحاد على مساعدته وكريم حفاوته .

هكذا القنصل الهمام ؟!!

ان مطابقة المضمون والترجمة لن تأخذ وقتا والقنصل العراقى لابد أن يقدر طلاب العلم ومن واجبه أن يساعد أبناء قطره . . وقد ذهبت فى الصباح الباكر حتى أعود إلى الخطوط الملاحية . . وانتظرت وطال الانتظار . . .

لابد أن يكون القنصل فى مهمة رسمية . .

وما شرف البناية الاّ فى الحادية عشرة . .

أجل فى الحادية عشرة . . جاء من داره . .

استأذنت فى الدخول . . أو المثول بين يديه . .

فجاء الفراش . . وقال . .

سعادته يقول . . ماذا تريد . . . ؟ قلت لعل مزاجه فى توعك أو صحته متردية . . وحرصا على مصلحة الدولة جاء إلى العمل ؟!

أو أن أعماله الرسمية الكبرى تحول دون مقابلتى ؟!

وما أكثر ما يتوعك مزاج هؤلاء . . . بعد سهرات الليل ؟

وما أكثر أعمال هؤلاء الرسمية . . لاشباع رغباتهم . .

جاء إلى القنصلية ليستريح من عناء الليل وسهراته . . فعلام يكدر هؤلاء صفوه ومزاجه وهو يحتسى القهوة أو يقرأ الجرائد ؟!

كيف يتجاسر هؤلاء على سلب هذه الراحة وهى ساعة واحدة أو نصف ساعة . . ولما أخبرته بالأمر الذى أريده . .

أصدر أمره المطاع بالانتظار . . .

أليس من حقه أن يتمتع بحديث هاتفى لأصحاب المتعة بالليل أو يفتح البريد ؟!

دعنا نخلق الأعذار لهؤلاء . . انها الطامة الكبرى عندما يبرر أبناء الشعب أغلاط الموظفين . .

بعد فترة ليست بالقصيرة . . اذن لى بالدخول والتشرف بالطلعة البهية ؟!!! ولما توسطت الحجرة . . نظر إلى باستعلاء وعجب واستكبار مقيت وقال بكل خشونة . .

ماذا تريد ؟

رباه أهذا جزاء الغربة فى سبيل العلم ؟

أهذا ثواب من يريد أن ينفع وطنه ؟

ويح طلاب العلم وأبناء الشعب مما يلاقونه من أمثال هؤلاء . . .

تمالكت نفسى وشرحت له أمرى . .

فقال : هذا ليس من عملنا . .

قلت له : اذن ارشدنى إلى السبيل الصحيح . .

نظر إلى بحنق : وقال :

وهل أنا هنا أرشد الناس . .

قلت : ألست عراقيا تعيش فى استانبول . . وتعرف مالا أعرف . لم يرد على . .

فهاهة . . بعد أن ألزمته الحجة . .

ثم استدركت وقلت إن الطلاب الذين مروا هنا قامت لهم القنصلية بمثل هذا العمل . .

قال : القنصل السابق قام بهذا . . وأنا أرفض السير فى أسلوبه . . أنا لى أسلوبى الخاص . .

هل لعمل الخير أسلوب ؟

والقيام بالواجب له طريقة ؟!

لم تنفع كل الحجج . . وكلمات اللطف . . فى أن يختم الوثيقة بخاتم القنصلية . . فوضت أمرى إلى الله . . وخرجت من البناية . . أجر رجلى خيبة وألما وحسرة . . من سوء المعاملة ، وقلة الحياء وضياع الاحسان وتملص موظف من خدمة أحد أبناء الشعب . . وبينما كنت أسير فى الشارع . . برق بخاطرى اسم الأستاذ هاشم الألوسى (رحمه الله) وتذكرت أنه أعطانى عنوانه . . وقال . . وكأنه ينظر إلى المستقبل . .

قد تحتاج لهذا العنوان . . أكتب لى مادمت فى استانبول . .

يا الله ما أحسن الصدف . .

كتبت إليه شاكيا متألما مما صبه على قنصلنا الهمام . . وما تركه فى نفسى من أثر سىء لا يبلى . .

وما أعجل ما جاء الرد وفيه يقول . . .

اذهب إليه ثانية . . فسوف يخدمك مسرورا .

أحقا يخدمنى . . وحقا بسرور . . .

أنا لا أريد إلا أن يمن على بكلام رسمى . . وبلا لطف . . وشجعنى على المضى أن الألوسى رحمه الله ينزل فى دار السفير . . وانه ابن عمه . .

نفاق . . وكذب . .

وذهبت متأخرا لأننى أعرف بأنه لا يأتى إلا متأخرا والغريب أننى وجدته قد سبقنى . . وفتح باب حجرته يرقب حضورى وما أن دخلت الباب الخارجى إلا وقد وجدته يسرع إلىّ وصافحنى بحرارة غريبة وبشوق كاذب عجيب . . واعتذار منافق أريب .

انهالت عبارات الاعتذار وكلمات العفو . . وما أسرع ما حضر الشاى مع كلمات الترحيب ، وتحول العبوس إلى ابتسام ، والجفوة إلى حب ، والاستهانة بالاكتراث المملل . .

ويحك . . قلتها مجاملا . . دون أن أكتم امتعاضى واحتقارى له . . ونظرق المصطنعة . .

ألم أكن ابن الأمس . . والشخص الذى رفضت رفضا حتى مساعدته انسانا . . وعربيا غريبا وعراقيا له حق العمل الرسمى عليك ؟!

وكان اعتذاره . . الذى زاده فى نفسى احتقارا قوله :

والله . . ما كنت أعرف بأنك قريب السفير . .
قلت له : إنه ليس قريبي . . وهو من خير الأصول العربية ولكن ابن عمه . . صديقي وقد أخبرته بما جرى بيننا . . فارتعش من الخوف . . ولانت عبارته . . وقال :

أرجوك أن تكتب له بأنني خدمتك وقمت بالواجب . . ولن أقصر فى كل ما تطلب .

هززت رأسى أسفا على تضاؤ ل هذا الانسان وزاد أسفى على وزارة الخارجية التى ترسل من أمثال هؤلاء يمثلون العراق . . وما أكثر هؤلاء فى سفاراتنا ؟!
وقد علمت بعد ذلك بأنه رسب فى كلية الزراعة .

فعين موظفا فى الخارجية . . لأن عمه أو قريبه . . كان وزيرا للخارجية . . وكان حقده على طلاب العلم راسخا فى نفسه ولما قلت له إننى طالب أحضر للدكتوراه . . وحصلت على درجة الشرف فى الليسانس كنت أزيد فى حقده وأوغر صدره وأنا أظن هذا النجاح سوف يلين عريكته . . .

وتلك عقد النفس . . فالراسب يحقد على الناجح والمخفق يحقد على المتفوق . . والناقد يحقد على المبدع وتلك سنة النفس الإنسانية . . ولا يترفع عنها إلا الأبرار من ذوى النفوس السمحة والقلوب الكبيرة . . .
هل أنا الذى رسبته ؟

أم هو الذى جنى على نفسه . . حينما انغمر من أخمص قدميه إلى قمة رأسه فى الشهوات . . وعلام حقده . . وقد كانت المكافأة أن عين فى وزارة الخارجية ؟

ان وزارة الخارجية . . أصبحت حكرا على طبقة خاصة وعلى أسر معدودة وعلى كتل معروفة . . حالت دون أن تصل إلى وظائفها العناصر الممتازة . . وأغلقت بابها أمام الكفاءة النادرة والذكاء اللماع . . حتى لا تغطى على أمثال هذا وكل أمة لا تعتمد على أصحاب الكفاءة والذكاء والخبرة والدربة وتعتمد على أصحاب الثقة والقرابة فعليها الخراب والدمار .

وحفاظا على هذه المصالح أصدرت الخارجية أمرا . بأن لا يعين فيها إلا من يزكى من موظفين كبيرين منها ــ فحفظ الأصهار والمحاسيب أماكنهم . . وضمن الاحتكار الدائم لهم . . وبئس الاحتكار . .

كانت معاهدة غير مكتوبة فى وزارة الخارجية بين هؤلاء حرمت أبناء الشعب من دخول

وزارة الخارجية ؟

هذا القنصل الذى رسب فى كلية الزراعة . . لا يعرف اللغة التركية ولا يعرف لغة أخرى . ولاشك بأن لغته العربية يعتورها اللحن والركة والضعف . . وكان حريا به أن يغطى جهله بحسن خلقه . .

ان (الواسطة) فى العراق فتحت السبيل للتافهين . . لأنهم نالوا ثقة أصحاب الحل والعقد . .

دارت كل هذه الأفكار فى رأسى وهو يختم الوثيقة ويرحب كثيرا ويعتذر أكثر . . ولما هممت بالوقوف وقف بأدب غريب وأوصلنى إلى باب البناية وهو يؤكد لى بأن القنصلية (تشرفت) وسعدت بى . . .

خرجت من البناية وأنا أعجب من دولـة تترك أبنـاءها المتفـوقين دون عمـل . . . وتحرمهم من خدمتها . . وتحتضن الراسبين . . . أنا حصلت على ماجستير شرف رفضتنى الكليات وهو راسب يصبح قنصلا ؟!

الفصل الثانى

إلى أوربـــــا

وداع الذكريات

كان يوم السفر فى الثامن عشر من شهر آب بداية الطريق إلى أوربا . . وعادت إلى نفسى ذكرياتها . . وقد خلقنى الله ألوفا . . أحب الناس . . وأقدر من يسدى لى الجميل ويقدم لى الخير . .

وكم أسدت لى استانبول من متع وأسدت لى من فضل فى مخطوطاتها وكتبها وطبيعتها وجمال آثارها . . عدت إلى الشوارع التاريخية والمساجد السامقة والساحات الجميلة أودعها كما يودع الحبيب حبيبه . . وأتزود ذكرياتها العذاب وأيامها الجميلة وفوائدها العلمية الكثيرة . .

وقد ودعت الإسكندرية لما أخذت الأجازة (الليسانس) وانتهت الدراسة فيها . . بالأسلوب نفسه والطريقة ذاتها .

وعلى الإنسان المرهف الحاسة الوفى أن يودع ما أسعده ومتع نفسه وملأ قلبه بالهناء والرضا . .

وقد ودعت صديقى الذى فتح لى أبواب المتع والجمال والصفو والهدوء وجمال البحر وابتسام الجزر . . وترك عمله فى أتونه إلى أماكن العلم والمكتبات . . وسار معى على قدميه من أستانبول الجديدة . . وعبرنا الجسر الخشبى المشهور إلى دارى . . الذى قال فيه أحمد شوقى .

أمير المؤمنين رأيت جسرا   أمر على الصراط ولا عليه
له خشب يجوع السوس فيه   وتمضى الفار لا تلوى إليه
ولا يتكلف المنشار فيه   سوى مر القطيم بساعديه

الحديث عن هذه المدينة لا ينتهى وستبقى الذكريات العذبة صدى فى نفسى لجمال الطبيعة ولطف أهلها وقد نظمت فيها عدة قصائد نشرت فى (لهاث الحياة) .

تركت استانبول فى ١٨ من شهر آب ١٩٥٤ م فى الباخرة (أطنة) . وكان أحد الإخوان قد ساعدنى فى إحضار سيارة حتى وصلنا الميناء وركبت الباخرة . . انه من العراقيين الذين كانوا معى فى الإسكندرية ودرس الطب . . وها هو يكمل دراسته فى استانبول . . انه انسان يقدم خدماته بروح سمحة وخلق رضى . . وقد انتقل إلى المكان الذى كنت أسكنه . . انه مكان لطيف فيه من المتعة ما أغراه بالانتقال أرى البواخر فى مسارها . . والبحر فى هدوئه وجماله . . وأنا فى حجرتى . . وما أن وطأت قدمى ظهر الباخرة حتى آذنت بالرحيل فذكرت شوق شوقى . .

مستطار اذ البواخر رنّتْ أول الليل أو عوت بعد جرس

خرجت أودع استانبول من السطح . . وأمتع النفس بالساحر من المناظر والبديع من ايحاء الآثار الصامت الناطق . . هذه قصورها كم من جارية دخلتها ولم تخرج إلا إلى القبر وتلك قلاعها كم سالت دون الوصول إليها الدماء . . انه الجمال الريان . . والايمان الراسخ . . والسطوة العريضة . . كانت كلمة واحدة من استانبول تهز العالم كله :

قرية لا تعد من الأرض كانت تمسك الأرض أن تميد وترسى

حولت الباخرة (أطنة) وجهها نحو الخليج . وبدأت محركاتها تنشط فى حركة المجد السائر نحو طريق طويل . . وبدأت تمخر فى عباب البحر . . وارتفعت مناديل المودعين واستمرت ترفرف تحمل الشوق والحب واللهفة والنجوى . . وكأنها طيور الماء البيضاء ترفرف حول البحر .

كم من العيون أرسلت دموعها مدرارا . . وكم سالت الحسرات شوقا وحنانا . . أيخفف مسيلة الدمع لوعة المحب . . ويريح تصاعد الحسرات المتيم المشوق . . لا شك بأن الدمع يخفف من الضغط النفسى والألم المقيم وقد خلق الله الدموع رحمة بالعالمين .

فقد قال الشاعر :

لعل انحدار الدمع يعقب راحة من الوجد أو يطفى شجىّ البلابل

كم من قبلة أرسلت عبر الهواء ملتهبة فيها الصدق العميق والوجد الصادق وكم من قبلة تاهت فى مسراها فى عالم الزلفى ودنيا النفاق الاجتماعى . .

مازال المودعون . . يحركون مناديلهم وكأن برفات حنان الأم والأب والحبيب تطير مع المنديل الأبيض . . وأخذت الباخرة توغل فى مسيرتها وتبعد فى كبد الكون . .

مرت بكثير من البواخر وعبرت كثيرا من الجزر التى احتضنها البحر بشوق المتيم الذى يثور من سخط ويحنو من لهفة . . وبدأت المنائر الكبيرة العالية تختفى رويدا رويدا وكأنها تغرق فى حضن البحر . .

بدأت النفوس تهدأ فقد هدها الألم وما أجمل الراحة بعد الثورة النفسية والهلع الروحى ووقت وداع الأحبة . . أخذ الركاب يدخلون حجراتهم وكأنهم يودعون حسراتهم فوق الباخرة وحرارة الشوق ترفرف فى جوها الجميل . .

وفى ذهول السفر ، ودهشة المكان ، واستغراب النفوس من هذا الجو انسابت على ظهر الباخرة مناداة عذبة ساحرة . .

الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله . .
فسرت فى النفوس رعشة الخشوع الغريب وانساب إلى القلوب الحزينة سكون عميق . .
وخيم على الباخرة هدوء ورضا . . نسى فيه الناس أحزانهم . . واتجهوا إلى ربهم . .

ما أعمق إيمان الأتراك . . وما أشد عقيدتهم ورسوخها فى نفوسهم . . فقد سحرهم الأذان . . الجميل وكان المؤذن جميل الصوت رقيق الترنيم . . عذب الأداء . . حان وقت صلاة الظهر .

الدين الإسلامى عميق الأثر فى النفوس صادق الإحساس فى قلوب الأتراك لا تشوبها شائبة . . وسوف يعودون إلى العرب وإلى العالم الإسلامى مهما حال الحكام ومن يساعدهم على القطيعة . . ان تركية جزء من العالم الإسلامى ولا يمكن بتره عن العقيدة فقد ذهبت أدراج الرياح كل حركة أرادت إبعادهم عن محيطهم الطبيعى إن الدين الإسلامى كالماء للسمك . . والعرب إخوتهم وإن طالت الجفوة لابد أن ترتبط مصالحهم بهم . .

إن وجود هذه المساجد والجوامع دليل على تعلق الأمة التركية بعقيدتها . . فكم من غنىّ بنى مسجدا أو سلطان أنشأ جامعا . . ليغفر الله ذنبه . . فقد جاء فى الحديث من بنى مسجدا بنى الله له دارا فى الجنة .
وهل هناك مسلم لا يطمع فى الجنة . . !!

لاشك فى أن هناك دوافع كثيرة للإنشاء والتعمير . . منها الصـادق الهدف العميق الإيمان . . ولكن هل حقا أن مظالم الحاكم واستبداده فى الرعية يمحوه بناء المسجد أو إنشاء السبيل . . إن خطايا الحاكم لن يمحوها الجامع المبنى والتكية المقامة . . إنه أراد أن يبرر أعماله . . وأن يخفف من تعذيب ضميره . . لينام فى حجر الأمان وهدوء النفس . . وتلك طبيعة الإنسان يؤلمها القلق ويهدها الهم ويكسر حدتها الظلم والخطيئة . . فيلجأ إلى أعمال إنسانية ليعوض عن ألمه وتأنيب روحه له . .

قصيدة خالدة فى جناقلعة

ما تمنيت فى تلك اللحظة إلا أمنية واحدة . . أن يكون والدى معى ويرى القلعة التى هاجمها الحلفاء . . ساخرة من كيد الغـرب ومؤامرة (جـرجل) عـلى احتلالهـا ومن ثم الإخفاق الذى حصل له . . أرادها الغرب موطىء قدم لتقويض الدولـة العثمانيـة . . فخاب عندما نزل فى (غاليبولى) . . فكم من أبنا تركية . . يحفظ ما يحفظ والدى الضابط العربى الذى وقف مع جيوشهم للدفاع عن حوزة الإسلام . . خاب (جرجل) فى حملته فى الاستيـلاء على المضـايق ولكن صدى الحملة رن رنينـا عميق الحـزن فى نفـوس العـالم الإسلامى . .

وانتشرت أنشودة :

جنا قلعة ايجندن برتاسى أو لا يدم
كلينة كيدنه بولوش أو لا يدم

إنها قصيدة وجدانية يهتز لها القلب وكنت أتمنى أن أحصل عليها لدراستهـا ورسم صورة العواطف التى صاحبت نظمها وإنشادها ويكفى ما بهذين البيتين من رقة وجدانية عميقة تهز القلب الرقيق والنفس المرهفة . . درست الأدب التركى فى الجامعة مع أستاذ كبير وشاعر مرهف هو الأستاذ ابراهيم صبرى . . وكم كنت أتمنى أن يترجم الشعر التركى وبخاصة ما له أثر فى حياة العرب والمسلمين ليعرف أسلوبه وجمال أدائه ورقة مشاعره . . وقد درسنى نماذج رائعة للشعراء الأتراك . . ومن ترجمة هذين البيتين يحس الشاعر المرهف كيف تهز المشاعر الصادقة النفوس وعذرت والدى عندما كان ينشدها ويهتز مع كل كلمة فيها . . فقد كان يتمتع بالألفاظ . . والتراكيب . . ففيها يقول الشاعر : ليتنى كنت حجرا فى قلعة (جناق) لأصبح صديقا لكل غاد يمر بى ورائح . .

ومن طريف الشعر الذى نظم فى اخفاق الحلفاء فى السيطرة على المضايق قول محمد أبى المحاسن يتهكم على الحلفاء . .

وشـادن أورثـنى حـبـه ... كـالا تـلافيين حـزنـا طـويـل
عـز عـلىّ الـوصـول منـه كـما ... عـز عـليـه مـوقف الـدردنيـل
والـكـل منهـا لم يـنـل قـصـده ... وهـكـذا من طلب المستحيـل

ويزداد تهكما وسخرية من الحلفاء بقوله :

يـا دولا فـرت أسـاطـيـلهـا ... فـرار سلوانى وصبـرى الجميـل
كـانت (غـاليـولى) لهم مصرعـا ... ومصـرعى خـد المليـح الأسيـل
ولـست مـسؤولا بـشـرع الهـوى ... ان سألوا (كجنر) أو (جورجيل)
وجـدت لـلحب بـنفسـى ، وهـم ... قـد آثـروا جبنـا حيـاة الـذليـل

بدأت جيوش الليل تزحم مواقع النهـار . . وغلبتها عـلى أمرهـا فقد خيم الـظلام بسدوله . . ونام الشاطئان فى حضن المجهول ولم يبق غير صوت الباخرة داويا . . وهى تشق بحيزومها صدر الماء وتترك وراءها ذيلا جميلا أبيض اللون وكأنه مسيرة الانجم فى كبد السماء وتذكرت قول الشاعر الجاهلى :

تـشق حـبـاب المـاء حيـزومـهـا ... كـما فـرق الـتـرب المفـايـل بـاليـد

كم من هذا الجيل يعرف لعبة ـ المغايل ـ وقد كانت لعبة لا تلعبها إلا البنات . . وهل يمكن أن يحصل على التراب . . فإن البدوى يلعبها فى رمله الجميل النظيف .

كانت شوارعنا فى العراق متربة . . تتراكم فيها الأطيان متى نزل المطر وتزدحم فى شوارعها أسراب الذباب و« الزنابير » وفى الليل يهجم الناموس والبراغيث . . وكـانت تعيش مع الناس جيوش القمل والصـوأب . . وجاءت نعمـة الله بعد اكتشـاف النفط والمخترعات الحديثة والمبيدات الجديدة . . فقد قتلت الحشرات وبلطت الشوارع وعبدت الأزقة وكثر الخير عند كثير من أبناء العـرب . . فهل يعـرفون أسلوب استثمـاره ؟! أم سيكون بلية غنى الحرب ؟!

لم أترك مكانى من التمتع بالمنظر الساحر الجميل . . فقد سحرنى المنظر وكأنى أعيش وحيـدا فى خيال محلق جميـل . . انه سحـر خلق الله . . وسيطرة الجـو الهادىء المنفـرد الساحر . . وطال وقوفى وأنا أرقب الأنوار التى تداعب الماء من الجزر الكثيرة والشواطىء البعيدة . . التى تختفى أحيانا وسرعان ما تشرئب أخرى . .

لم أكن وحيدا متمتعا بالطبيعة فقد جلس الركاب يمتعون أنفسهم بحركة الأمواج . .

وسكون الكون الساجى . . وبلا شعور يغنون تارة ويرددون كلمات الاعجاب إذا خف الغناء . .

مراهقون كبار

وبينما أنا فى وقفتى لمحت وجوها عراقية تفترش سطح الباخرة على بسطهم . . فصعدت إليهم وتحقق ما رأيت من أصواتهم العالية أثناء الحديث . . وكأنهم يخطبون وتلك ظاهرة عند أهل العراق والعرب . . فهم لا يعرفون الحديث الواطىء والكلام الهادىء والحوار إلا إذا ارتفعت أصواتهم . . كانت غبطتى بهم كبيرة . . وسرورى عظيما . .

الرفيق قبل الطريق . . خير كلمة . . وكان بينهم من أعرفه فافترشت البساط معهم . . فوجدتهم قد امتاروا كميات كبيرة من الطعام والفاكهة . . وكنت قد أخذت وجبتى فى مطعم الباخرة .

ولما عدت إلى حجرتى نمت نوما هادىء الأحلام عميقا . . وكأنى أعيش طفلا فى عهد الطفولة . . فهل هو التعب الذى هدّ جسمى ؟ أم جمال الحياة والطبيعة أشبع متعتى فأسعدنى ؟

إن نوم الباخرة فى حضن المياه الساجية وحركاتها كأنها تهدى النوم للعيون . . فقد أصبحت مثل المهد فى حركاتها . . والانسان تواق إلى أيام طفولته حيث الحنان والدفء والرعاية .

لم أستيقظ إلا على صوت جرس الإفطار داعيا إلى الطعام والحق أنها حافلة بتلك المائدة وما أشهى الطعام على ظهر الباخرة . . وما أن جلست مع الرفقة حتى بدت الباخرة تخفف من سيرها وبدأت (بيرة) الميناء اليونانى تظهر أمام الراكبين .

ماذا يريدون . . وما أريد ؟

اليونان تملأ النفس بالذكريات الحضارية وكلمة (اغريق) تواكب حركات الفكر وتؤثر فى حياة الحضارة الغربية كلها . .

كانت صور آثارها وبطولات رجالها وسحر شعرها وغموض أساطيرها تسيطر على النفس فى قوة الأبطال . . وصراع الرجال . . وفتن الغيد . .

ألم تشعل الحروب من أجل حسناء وأريقت الدماء من أجل الجمال وقد خلد اليونان حياتهم وآلهتهم وفكرهم بأجمل الشعر وأروع النحوت والتماثيل والمعابد . .

كم سارت الجنود طائعة كالأغنام وراء ملوكها وأمرائها وقوادها . . تذهب تريق دمها انها تنشىء فى هذا المسيل مجداً لجبار وتبنى صرح مستبد جائر . . يا الله . . هذه الشعوب تموت راضية فرحى وتبدى ضروبا من البسالة والقوة طائعة فى سبيل إله وهمى . . أو فكر غامض أو عقيدة واهية . .

تجسمت الفكرة أمامى وظهرت رغبتى فى مشاهدة التراث اليونانى وكأنها تمثال جميل من المرمر الصافى فى أن أرى هذه الآثار مادمنا وصلنا هذه الضفاف اليونانية التى تغسل أمواج البحر أقدامها .

سوف تقف الباخرة ساعات فماذا تريدون أن نصنع فى هذه الساعات ؟ وقلت بلا وعى نرى آثار اليونان المتاحة ونتعرف على حضارتهم . . تغيرت وجوه بعض الرفقة . . وظهر عليها الألم والدهشة والمفاجأة . . وسرعان ما انبرى أحدهم قائلا . .

أجئنا لمشاهدة الآثار والأحجار ؟

أجبته بلا شعور . . نحن ندرس حضارة أمة عريقة أثرت فى العالم . . ونتعرف على ثقافة قوم لا تزال تؤثر فى فكر الغرب وغيرت تياراته الحضارية والفكرية . فرد بسرعة وبحسرة . .

أجئت تدرس . . أما كفانا دراسة وقراءة ؟!

جوابه أفحمنى . . لاختلافنا الفكرى ، فما كنت أظن العلم يقف بعد ترك مقاعد الدراسة . . وسكت لأن السكوت أفصح من الرد عليه . .

ولكن حب الاستطلاع ووفاء الرفقة دعانى لمعرفة ما يفكر فيه هذا المسكين . . فقد أكون على ضلال . .

قلت نريد أن نسمع رأيك . .

فاندفع قائلا إلى الجمال والفتنة والسحر . .

لمت نفسى على تسرعها فالرجل قد يطلب جمال الطبيعة وسحر الكون وفتنة الموسيقى . . ودون أن يدعنى أستغرق فى خيالى العذب صدمنى بقوله . . إلى النساء اليونانيات . . والخمرة المعتقة . . هل من الممكن أن أحضر إلى اليونان ولا أنام مع نسائها . . هبطت مكانة المتحدث فى نفسى وتركته . .

واستأجرت سيارة لتأخذنى إلى الآثار وصحبنى اثنان من الرفقة ، أحدهم فران فى شارع الأمين . .

لا أدرى ان كان هذان جاملانى بعد أن أحسا بخيبة الأمل على وجهى أو كانا صادقين . . لكنهما أسعدانى فى هذه الصحبة .

بين أطلال الحضارة والحرية

أخذنا نتجول فى الأكروبولس . . وكنت سعيدا ببلد أفلاطون وأرسطو وأبو قراط . . ما أجمل الحياة مع أساطير اليونان وآلهتهم وخيالهم وفلاسفتهم . .

هذا بلد الأودسا ، والالياذة هنا هوميروس عاش وغنى شعر الجمال والبطولة . .

تذكرت سقراط . . وشربه السم وتذكرت المحاكمة الفجة التى قابلها من القضاة الجاهلين . . فقد كان القضاة يكونون من أبناء الشعب دون خبرة سابقة أو فكر قانونى . .

كنت أصف لمن معى صورة خيالية لمشيه فى سجنه ورفضه الهرب الذى تمنت السلطة أن يقوم به . . لتتخلص من وصمة قتله . . مفكرا ورائدا . . وكيف استدعى أسرته وحدثهم بكل وقار . . وهدوء ورزانة . . ليضرب للعالم الحر والمفكر الأصيل فى كل الأوطان مثلا بالإيمان الصادق بحرية : الرأى والتضحية . . من أجلها . .

وأبقى طلابه معه ليعلمهم قداسة الرأى الحر . . وحرية الفكر الأصيل وان الحرية المقدسة خير ما يضحى الانسان من أجلها . .

لا أدرى ما صنع الشعب عندما سمع بالمهزلة . .

ولا شك . . . فقد امتعض المفكرون . . وخاف قادة الرأى . . ونسى أمره الشعب اليونانى . .

وكم من بطل نسيه شعبه الجاهل وكم من مفكر حر الرأى ضحى من أجل شعبه . . لم يكترث به أبناء شعبه هل أن الحر الفكر والسليم الذهن وقف على جماعة من البشر وهل الشجاعة تختص بأقلية من الناس منها الذين يغيرون تاريخ البشرية . .

ان الأكثرية المطلقة من أبناء الإنسانية عبدة أوثان تسير وراء الرجل العالم والبطل القوى والمفكر الصلب . .

إن الفكر والحرية عملية صعبة على كل إنسان وهى عبء ثقيل على فكر البشرية

لا يعرفها إلا القلة ولا يحس بحلاوتها ومتعتها إلا النخبة . . وهم الذين يموتون فى سبيلها ويضحون من أجلها . . والأكثرية تتفرج . .

إن أرسطو أول مثل فى تحمل المسئولية الإنسانية تحمل ثقل الحرية . . ورضى بالتضحية من أجلها . سيبقى هذا المثل حيا .

وإنه أمثولة رائعة فى التضحية فى سبيل سداد الرأى ؟
فكم من أبناء الإنسانية أحس بهذه التضحية . . التى سجلها أرسطو . . . هل قرأها الحكام . . وهل أخذوا منها العبرة . . وهل فكروا ما نتائج وأد الحرية . . وسداد الرأى . .

اللهم لا . . وألف لا . . .

فما وقفت سيطرة الظلمة . . ولم تجد سلطة المستبد . . فقد تكررت لعنة الأجيال ورددتها صفحات التاريخ . . ولن تقف فالانسانية مجبولة على التفاوت الفكرى والطبقى وبغير هذا التفاوت لن تسير البشرية . .

ما أجمل الحرية وما أنضر وجهها وأحلى طعمها لمن تذوق أفاويقها وأحس بمتعة مسراها فى روحه وفكره . . وما أشهى مذاقها فى العقل والنفس والدنيا . .

فقد ضحى أرسطو بنفسه من أجلها . . فلابد أن تكون حلوة الطعم عذبة المذاق ممتعة المسرى . . ساحرة الأثر .

فى أثينـــا :

كنا نمر فى السيارة فى شوارع أثينا . . شوارعها نظيفة وحدائقها منسقة وقد سمقت الأبنية لأنها بدأت تنهض من كبوتها من الحرب العظمى الثانية التى هرستها ودكت عمرانها . . وهاجمها الأعداء بضراوة وقساوة . . لكن بطولات الشعب اليونانى وقوة حراسه القادة والزعماء وصبر الرواد وعزم الشعب أعاد البناء ورفع الأنقاض وحول تلك الخرائب إلى هذه الصروح الجميلة والمروج المخضرة الزاهية الازهار النضرة . .

مررنا بقصر ملكى فكان منظر الحرس الملكى غريبا فى زيه يخطر بملابس زاهية الألوان جميلة التفصيل أمام القصر . .

كنت أتمنى أن تطول الساعات ولكن الباخرة لابد أن ترحل وقد حدد لنا الوقت . . لم يبق أمامى غير إرسال بطاقة وشراء بعض صناعة اليونان الخفيفة لتذكرنى بهذه الزيارة السريعة .

مليونير لأول مرة . . .

صرفت مبلغا من المال . . وهالنى أن يسلمنى الصراف رزمة كبيرة من الأوراق النقدية . . ولما رأى ذهولى ودهشتى . . قال ان المبلغ مضبوط . . انها آلاف لا أدرى كم وصلت . . ولكن قال انها ٧٠٫٠٠٠ سبعون ألف قلت سعر الجنيه المصرى سبعون ألف دراخمه . . قال أجل . أنا لم أملك طوال حياتى مبلغا وصل الألف سوى الألف فلس أو الألف مليم . .

إن إنسانا لم يملك طول عمره هذه الأرقام ولا يحلم بها ألا يعاوده الشك فى هذه الألف العديدة ؟!

قلت بشك وريبة
هل المبلغ مضبوط ؟

فنظر إلىّ مستغربا وقال ان الجنيه المصرى يساوى سبعين ألف . وأردف نعم مضبوط والرزم معدودة . .

تذكرت البدوى الذى طلب ألف دينار بتاج كسرى ولما عوتب فى المبلغ الذى أخذه من العراقى قال مستغربا لمن عاتبه :

هل هناك أكثر من الألف ؟
لا أدرى لو صرفت مئة جنيه كيف أحمل سبعة ملايين من هذه الأوراق ؟ وكيف يتعامل الناس بالألف والأكثر ؟! هل يأتى معهم الحمال ؟!

اشتريت بطاقة عليها صورة أثينا وطوابع لإرسلها إلى (أم أسل) فدفعت ٥٠٠ دراخمه . .

كانت جولة لطيفة ولما انتهى الوقت توجهت إلى الباخرة .

سحر الغيد

وكانت جموع المسافرين أرتالا ووحدانا تعود لتصعد سلالم الباخرة ووقف المودعون أمام

حاجز الدخول تسيل حسراتهم وتتدفق عيونهم من الدمع ولم يكونوا بكثرة عدد المودعين على رصيف استانبول . . إن ملابس أبناء الشعب اليونانى توحي بالبساطة والسذاجة والفقر . . بدائية التكوين رخيصة القماش . . عليها تواضع الشكل .

ليس فيها زهو النماذج الجديدة التى ترفل فيها بنات الغرب ولا تطور الأزياء التى تلفت النظر وتشد البصر . .

وما أن استقرت حقائب الركاب فى محلاتها . . وانتشر المسافرون فى ابهائها وعادت الحياة إلى طرقها . .

حتى دق جرس الطعام يعلن عن وجبة جديدة
وسارعت إلى المطعم بعد أن أخذ الجوع منى مأخذه . .

فما رأيت ؟!

انه معرض من الأزياء الجميلة والزينة الرائعة والعطور الفواحة إنها أجمل الأشكال وأطرف أنواع التفصيل استحالت تلك البساطة والسذاجة إلى معرض لأجمل اللباس وكانت الروائح تسكر الأنوف وتسبر غور الأرواح وتملأ الجو بشذاها وأريجها الفواح اللذيذ فترسل فى النفوس النشوة وتسعدها . . .

ما استقرت الحقائب فى محلاتها إلا وخرجت هذه الأزهار . . وعبقت هذه الورود وتنفست فى هذا المكان . . لابد أن النسوة قد وضعن هذه الملابس فوق كل شىء فى الحقيبة وأعددن أنفسهن لهذه الساعة انها ساعة تحدى الأنثى للأنثى وما أقساها وما أقواها وما أحلاها من ساعة .

وكانت النسوة تغير الملابس عند كل وجبة من وجبات الطعام فتخطر ظهرا ببدلة وتميس ليلا بأخرى عند العشاء وتتمشى بمثلها عند الرقص واللقاء بعد الطعام . .

انه سباق جميل . . فى إظهار المفاتن . وإبراز الزينة . . سباق المرأة مع غريمتها المرأة . . وصراع الجمال النشوان مع تربه . . كل واحدة تريد أن تكون الأولى . . لكى تغيظ الأخريات .

وقد سعد الرجال . . وفاتهم أن هذا العمل شباك ليقع فيها الرجل . . فقد قيل إن الرجل يركض وراء المرأة حتى يسقط فى شباكها . .

حياة الباخرة :

الباخرة مجتمع جديد تكون عند صعود المسافرين فيه وأحاط به الماء . . وحدّ من حرية الانتقال البعيد لوقت محدود . . فسرعان ما انصرف الناس إلى داخل الباخرة إنهم التقوا لأول مرة . . وليس هناك خيار فى العزلة . . والغربة حتى تنتهى السفرة . . فزالت الكلفة سريعا وكان التعارف سهلا بين هذا المجتمع وبدأت النفوس النافرة تأنس والقلوب الواجفة الخائفة تطمئن . . دون أن يعرف أحدهم اسم جليسه . . وجنسه ودينه . . اللغة المشتركة تسهل الأمور وتقرب الأفكار والأرواح وأحيانا الجسوم !! ما أحلى صفاء النفوس . . وبساطة اللقاء دون حسد أو حقد أو ضغينة أو موجدة . .

لا تعرف عن حالٍ إلا عرضا . . ولا يسألك عن أصلك إلا لماما ودون قصد . . ولا يريد أن يعرف ماضيك . . ومستقبلك وما تملك من النقود . . الأحاديث عامة فقد وحدت الغربة هذه النفوس وقربت المسافات . .

دار الحديث حول البحر والباخرة والجو وكم سفرة سافرت وأى المدن رأيت . . كل شيء عن السفر وطرائفه وغرائبه . . مجتمع لا يعرف التفرقة العنصرية ، والمفاخرة الوطنية والنزعات السياسية ، كلهم أخوة . . وطنهم الباخرة وأبوهم البحر . . وحارسهم صدر الأمواج الحانية . . إنها أمهم الجميلة المتقلبة . .

الجو جميل . . وانسياب الباخرة . . والهواء العليل . . وعبق رائحة الغيد وجمال ملابسهن . . وضحكات المشوقات إلى الرجال . . وعبثهن . . يرسل فى النفوس إحساسا غريبا وخدرا لذيذا فيسرى بمتعة عارمة . . . تهز كيان الرجل . . كثرت أحاديث الحب بعد أحاديث السفر والباخرة . . وكان حديث السفر سبيلا للوصول إلى الصبوات الشذية والمغامرات الشهية .

ولابد أن حديث النشوة عن صبواتهن وحب الرجال لهن ومغامراتهن أكثر جاذبية فإن اعجاب الحبيبة يحلّى شكلها بين النسوة ويزيد فى روعة الجمال . . ان حديث الرجال بين النساء يسعد المرأة ويملأها سعادة . . كما يسعد الرجال حديث النساء . .

كنت أذهب مع الإخوة العراقيين . . وأقضى وقتى ولا أتركهم حتى ساعات النوم فآوى إلى فراشى وأتركهم ينامون على ظهر الباخرة ويتمتعون بالبساطة واليسر فى الأكل والنوم . .

وقد تعرفت على صاحبى الفران فهو يملك فرناً فى شارع الأمين هدّم عندما توسع الشارع . . فوجدت فيه سماحة الخلق ولطيف المعشر . . وبساطة البغدادى . . وصفاء الأصالة . . لم يحصل على شهادة علمية ولكن الحياة صقلته فتعلم النبل والطيبة فاق صاحب الشهادة الجامعية الذى يرتدى ملابس (الأفندية) .

عرض على بكل طيبة وعفوية وبراءة أن أكون رفيقه فهزنى صدقه العميق ووده الدافىء . . وأسعدنى بالفكرة وكان سببا فى تغيير مسرى سفرتى فقد كنت نويت السفر إلى مارسليا فى فرنسة . . فتركت بقية البطاقة . . لأذهب معه إلى إيطاليا . . ثم باريس . . وقررت النزول معه إلى نابولى . . ولن أنسى مرور الباخرة فى خليج مسينا وقد نام الشاطئان فى حضن الليل والبحر . .

وقرب مصيَّف مينا بدأت تختفى الجزر وراء الأفق وكأنها تستحم فى أحضان البحر . . فقد هرع المسافرون إلى ظهر الباخرة للتمتع بهذا المنظر الخلاب . . الذى قلما يراه أمثالنا . . إنه منظر يزيد النفس إعجابا وتقديرا ورهبة للخالق المصور . .

وبدأ الليل يرسل سدوله على الكون فكانت الألوان الجميلة فى صقلية تضحك ترحيبا . . وتبدد الحلكة . . انه أجمل منظر رأيته فى صقلية . . وفى الجزر الكثيرة . .

أين ابن الفرات . . أين الأسد ليرى هذه الجزيرة اليوم كانت صقلية شعاعا أرسلت الحضارة العربية بوساطة العلم والأدب والفن إلى ايطالية . .

هل كان دانتى قادرا على كتابة (الجحيم) لولا رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى . . والمعراج ، وغيرها من كتب العرب ؟!

وهل كان الغرب يفتح آفاق المعرفة والفكر والفلسفة لولا العرب الذين هذبوا هذه الآداب وأثروا فيها وصقلوا الفكر الغربى والأدب القديم ؟!

بدأت الباخرة تخفف من سيرها وهى تدخل ميناء نابولى . . وارتفعت أصوات الركاب . . واللهفة تسبقهم إلى شواطىء المدينة . . يحاولون أن تكون عيونهم نواظيرهم لمعرفة ما على الساحل من البشر . . وترتفع الأصابع وتؤشر الأيدى إلى أشياء . . مع ضحكة . . هذا يشير إلى منطقة داره وذلك يفرح عند ما يرى مؤسسة من بلاده . .

وما أجمل العودة إلى الوطن . . فالعين تحتضن كل شىء بسرور وغبطة وسعادة . . والقلب يزحم اللهفة إلى الطيران على سفوحه ووهاده .

وبدأت الأسراب الخارجة من البشر تخفف من حمل السفينة . . وجاء دورى للخروج وتأخرت . . بعد أن استبدلت مكان الرحلة . . من مارسيلية إلى نابولى وخرجت إلى ظهر الباخرة فلم أجد مسافرا عليها فقد اقفرت الممرات والسلالم . . وساحة الميناء .

كانت الحقائب ثقيلة . . وأخذت افتش عن حمال واحد فلم أجد من يساعدنى . . وعثرت على أحد العمال الذين ينظفون فأغـريته بـالمال وتعـاون معى على انـزالها عـلى الرصيف . . فكيف أوصلها خارج الميناء أو أن أجد سيارة نقل . . تحمل عنى هذا العناء ؟

أخيرا وجدت حمالا تفضل وتنازل مشكورا فوضع الحقائب فى عربة الحمل التى بين يديه . . حتى أنجزت معاملة الجمرك . .

كنت فى حيرة من أمرى لماذا يبتعد الحمـال عن حقائب النـاس ولا يساعـدهم إلا بالالحاف . . وفى كل بقاع الدنيا يركض إليك الحمال واللهفة فى عينيه وعلامات الرجاء والتوسل تطفر من مقلتيـه لكى تأذن لـه بحمل الأمتعـة . . وأخيرا قـرأت اعلانـا يمنع المسافرين من دفع مبالغ للحمالين لأن الدولة تدفع لهم رواتبهم . . كانت السلطات تريد أن تقطع دابر تحكم الحمالين فحرمت الناس من خدماتهم . . وأرهقت المسافر الغريب . .

الأوربيون اعتادوا على حمل حقائبهم بأيديهم أو استعمال عجلات خاصة يخرجهـا المسافر عندما ينزل على الأرض . . ويرسل بالأمتعة الثقيلة إلى الجهة التى يسافر إليها . . مسبقا من داره .

إن الشركات تقوم على خدمة الناس التى تتميز بالمرونة والسرعة والخلق الرضى . . فلا يكلف الانسان نفسه أتعابا عندما يسافر فالمؤسسة تحجز له بطاقة السفر ومحل السكن وتأخذ أمتعته . . وتعد له بطاقات المسارح والمتاحف . . وأماكن الفرجة والنزهة والمتعة . . وعندما يصل إلى البلد الذى يريد يجد كل شىء جاهزا .

الانسان فى الغرب محترم . . له كيانه الخاص . . وشخصيته المحترمة . . وحريته الفردية . . فلا يمكن لمسؤول أو موظف أن تسول له نفسه هضم حقا من الحقوق . . فليس هناك من سبيل إلى الوساطة . . والطبقية . . كل حق مضمون على قدر ما يقدم لأمته يأخذ منها وتزيده كثيرا . .

غدر المتعلم

ما أن خرجت من ساحة الجمارك إلا وكان صاحبى بجانبى يأخذ الحقيبة الصغيرة من يدى . . فكانت التفاتة رائعة . . وكان هذا العمل على صغره قد عكس لى خلق هذا الإنسان اللطيف . . ويح أولئك الذين يحملون شهاداتهم . . ويعملون فى مكاتبهم . . هل أضاعوا الخلق الرضى والشهامة فى الكليات والدوائر . . تجد بين طبقة الشعب الطيبة والخلق الجميل والحب الحقيقى . . يأتيك دون تكلف أو اصطناع .

كانت جميع حقائب الركب العراقى موجودة . . ومعها اثنان يحرسان أو ينتظران . . وفهمت أن البقية ذهبت تغير الدراهم إلى الليرة الإيطالية إنها الفردية المقيتة أما كان أحرى بهم أن يذهب واحد منهم ويصرف مبلغا ثم يوزعه عليهم ويحاسبهم بعد ذلك ؟

وعاد أحد حملة الليسانس . .

فسأل . . هل ذهبت لتصرف دراهمك ؟

عجبت من أمره ومن سوء فكره . .

قلت سأصرف بعد أن نصل إلى الفندق . . ألم تصرف أنت . .

أردت أن أستعمل المجاز والكناية التى أمتحن بها هذا الرجل . . فى الكلية وأوضحت أكثر . .

قلت معى هذه الحقائب ولا يمكن حملها إلى المصرف . .

لكنه تجاهل جهالة البخيل الشحيح . .

وقال سننتظرك عندما تعود . .

لم يكن المصرف بعيدا . . فهرولت إليه وجلبت معى بعض الليرات الايطالية . . عدت إلى المكان . . فلم أجد فيه أحدا . . .

عجبت من صحية هؤلاء . .

ومن الصدفة كان الحمال واقفا ينتظرنى . . فكان الحمال أكثر شهامة من هؤلاء . .

فقال استأجروا سيارة وذهبوا ؟

بئس الرفقة . . فقد ضحيت من أجل هؤلاء بالمكان الجميل والفراش الوثير والوجوه اللطيفة وعشت معهم . . آملا فيهم الخير والصحبة الطيبة . .

لم يكن أمامى اختيار . . غير أن أقف فى مكانى . .

فرأيت صاحب الفرن . . يعود راكضا . .

قلت : انك شهم . . وقد توقعت هذا منك لأن الحضارة لم تفسدك . . والعلم لم يشوه طيبتك . . والليسانس لم يشوه خلقك وأخذنا نسير باتجاه الفندق . . وأنا شديد العجب من هؤلاء . .

قال لى : أتدرى لم أرسلك صاحبك الذى تعرفه من بغداد حامل الليسانس . . قلت لا . .

قال لأنك سلفته مبلغا ونحن على ظهر الباخرة . . وخشى أن تستوفى دينك منه . .

أراد أن يترك حقائبك على الأرض . . ويذهب . . ولكنى قلت له إنها سيارة واحدة . . ويمكن أن تأخذها . . وأنا أسدد المبلغ عنه . . قابلت كثيرا من البخلاء . . ورأيت كثيرا من الأشحاء . . ولكن لم أصادف مثل هذا الإنسان . .

إنه له سوابق يندى لها الجبين . . ولكنى لم أكن أصدقها ولم يخطر ببالى هذا الانسان ينحدر إلى هذا المستوى . .

وصلنا الفندق . .

ووجدت الجماعة تلتف حوله وهم يقرعونه . . ويعاتبونه على فعلته . . واعتذر الجميع لى . .

وأردنا الخروج . . وكانت تلك الطامة الكبرى . . أخذ أحدهم يسأل خادم الفندق عن الأماكن . . وظننتهم يتحدثون عن المتاحف . . والمعارض . . والأماكن الأثرية . . فوا سوأتاه . . انهم يسألون عن محلات الجنس الرخيص . .

وبلا شعور قلت بصوت عال

هذا فراق بينى وبينكم . .

وأخذت صاحبى . . وتجولنا فى نابولى . . واعتذرت لصديقى بأننى لا يمكننى أن أسايرهم . . وانتقلت إلى فندق آخر . . وبئس الركب الذى يركض وراء شهواته . . ولا يستفيد ثقافة وعلما من سفراته . .

أهل نابولى

إن الظاهرة الملفتة للنظر على أكثرية أهل نابولى . . الملابس الرثة القديمة . . ولعلها من بقايا الحرب . . فالعوز والفقر والحاجة للمال واضحة كل الوضوح . .

وقد هام الشعب بشيئين لا ثالث لهما . .
الدولار الأمريكي . . والدخائن الأجنبية فإذا قابلت أى ايطالى من الحمال إلى سائق السيارة وعامل الفندق ومديره . .
تسمع السؤ ال الذى يتردد كثيرا
هل معك دولار ؟
أمعك سكائر ؟
هل عشق الطليان الدولار والسيكارة ؟!
لا شك بأن أمريكا سحقت هذا الشعب . . وقتلت كرامته بعد أن هرست الحرب العظمى هتلر وموسوليني .
ونسى الحلفاء أن شعب إيطاليا هو شعب الفن الرفيع والرسم الدقيق والاحساس العميق ؟
فقد أنتج هذا البلد خيرة الشعراء والأدباء والرسامين والمفكرين . . ألم يقدم الطليان دانتي وبترارك وبوكاشيوومن أرضهم انتشرت الاداب الجديدة فى فرنسة وانكلترا . . ومن ثم إلى أمريكا التى تعيش عالة على تراث أوربا .

الجاسق

والطريف أن جابى سيارة نقل الركاب يجلس فى المقدمة . . ويدخل الركاب فرادى . . ويقف دون تدافع . . أو تسارع . . ويقطع لهم البطاقات ثم يدخلون . . وكل واحد معه بطاقته فهو جابى وسائق .

إن النظام لطيف . . يريح الجابى السائق وإذا أردنا النحت حسب طريقة العرب نسميه (الجاسق) على غرار العبشمى . . والدرعمى . .

مسكين جابى بغداد . . وما يلاقيه من ركاب بغداد ومن تدافعهم وادعاء الامارة . . ومحاولة إيذائه . . وإسماعه كلمات الاحتقار إنه شعب . . ساءه الظلم . . وعمه الجور . . وتفشى فيه الطغيان . . فأخذ يسىء إلى نفسه . . ويؤذى إخوانه . . ويحتقر . . معاونه ومن يقدم له الخدمات . فكال له الصاع صاعينِ فتوترت الأعصاب . . واهتزت النفوس . .

صناديق البريد

وقد سهلت إدارة البريد أمر ارسال الرسائل فوضعت فى مقدمة سيارات النقل وعربات الترام صناديق الرسائل . . فيمكن لأبناء الشعب وضع رسائلهم فى كل سيارة أو

حافلة عامة إضافة إلى الصناديق الموزعة فى أنحاء الشوارع . .

وأعجبنى ما قامت به إدارة البريد هنا وفى اليونان وتركية من أمر تسهيل ارسال الرسائل . . فقد سمحت للعطار والبقال أن يبيع الطوابع ويسجل الرسائل . . وعلقت بقربه صندوق البريد فتشترى الطوابع وتضع الرسالة . . أو تتركها للبقال والعطار لارسالها عندما يمر به جامع البريد . . فى أوقات محدودة معروفة . .

وقد كانت صناديق البريد الحمراء الكبيرة منتشرة فى أنحاء بغداد . . ولكنها اليوم بعد اتساع بغداد لا تجد إلا القديمة منها فلا نجد فى شارع غازى (الكفاح) والشوارع الجديدة أثرا لها . . أما الطوابع فحدث عنها ولا حرج فلا تجدها إلا فى مواضع محدودة جدا فى بغداد . . وقد نسيت مؤسسة البريد . . اتساع بغداد . . وكثرة نفوسها . .

غرائب الحب

بالرغم من وجود كثير من العادات الغريبة عن الشرق لكن مسحة الغرب الشرقية واضحة على تصرفات اليونان .

ولأول مرة فى حياتى رأيت شيئا غريبا . فقد كنت والصديق الفرّان نسير على شاطىء البحر وبقربه حديقة جميلة الأشجار وارفة الظلال وقد انتشر فيها الناس من كل الأشكال . . وفى الحديقة بحيرة اصطناعية جميلة وحواليها وضعت الكراسى . . وبينما كنت أمتع ناظرى بجمال الحديقة وخضرتها وزهو زهورها وبهجة أشكالها . .

صاح صاحبى بلا وعى وعلامات الدهشة على صوته :

شوف . . شوف . .

وقد أشار بأصبعه إلى جانب الحديقة . . فرأيت فتى وفتاة مراهقين متلاصقين فى قبلة هائمة . . كان الجميع يمرون بهم دون اكتراث أو حتى النظر إليهما . . إنه أمر طبيعى . . رجوته أن يخفى دهشته لأن السائرين أخذوا ينظرون إليه ويندهشون من إشاراته . . ولهفته . . أكثر من النظر إلى العاشقين . . فإن حركاته ودهشته لفتت الأنظار أكثر من القبلة التى ذاب فيها المحبان . .

إرسال الحقائب

كانت حقائبى تعرقل حركة التنقل . . والاستمتاع بالسفر . . وبينما كنا نسير فى شارع من شوارع نابولى . . رأيت شركة من شركات السياحة . . وسألتها إن كان بالإمكان

شحن أمتعتى إلى لندن . . ولم تمض غير دقائق حتى دفعت الأجور والتأمين . . وأعطيتهم عنوان الفندق . . وأخذونى بسياراتهم إلى الفندق وتسلموها . .

أحسست بالراحة النفسية وبالحرية العجيبة . . لم أترك معى إلا ما أحتاجه وكانت حقيبة صغيرة . . فيها ما خف من لوازم السفر الضرورية . .

بقى منظر البركان أمامى عندما مررت به فى البحر فلابد من أن أراه . . حدثت الشركة التى أخذت حقائبى فى الأمر . . قال المسؤول يمكنك أن تذهب إليه صباحا فنحن ننظم سفرات يومية لهذا الغرض . .

وفى الوقت المحدد فى اليوم التالى . . وجدت سيارة صغيرة تنتظرنى فى باب الفندق . . أخذتنى إلى مقر الشركة . . فوجدت سيارة كبيرة . . وقد تجمع المسافرون حولها وفى داخلها . . وكانت اللغات متنوعة . . نجد الفرنسية والإيطالية والإنكليزية تسود هذا الجميع واللهجة الأمريكية واضحة كل الوضوح فى حديثهم . . بعد الحرب سيطرت أمريكا على أوربا بالقوة العسكرية . . وبذرت نقودها ببذخ ممقوت وحماقات لا تتفق مع حضارة الغرب ومدنية أوربا . . إنهم يشترون الناس ويذلون الغرب . .

كل رجل معه صديقته أو زوجته وكنت الوحيد الذى لا أنيس له فى هذه السفرة وكانت متعة حقيقية أن ينصرف الانسان إلى جمال الطبيعة . . وإلى التحليق فى جو الخيال الممتع . . الذى يسحر النفس ويجلو فيه لذة الخيال والمتعة الروحية .

والإنسان لن يبدع أو يخلق فى الفن والأدب إلا إذا انصرف إلى فكره وإلى وحدته وإلى خياله . . فالخيال يخلق للإنسان أجمل المناظر وأحلى الأحاسيس وأرق المشاعر . .

ولعل خيالى المجنح هو الذى صور لى أوربا بصور أحلى مما رأيت وأجمل من واقع الحياة فيها .

إلى البركان

كانت السيارة معدة اعدادا جميلا . . ففى المقدمة يجلس الدليل يشرح كل ما يمر بنا بواسطة مكبر للصوت . . وقد كانت لغته الانكليزية . . متأثرة باللهجة الأمريكية . . كان يشير إلى أهم المحلات والمؤسسات التى مرت بنا . .

وتركنا المدينة وضجيجها . . وسياراتها . . ورائحة الدخان التى تملأ شوارعها ووجدنا أنفسنا فى الريف الإيطالى الجميل . . إنها جنان مخضرة . . وبساتين زاهرة زاهية . . تجرى من تحتها الأنهار ومن فوقها المياه والشلالات فضية اللون . . وكانت الكروم تسيطر على مساحات شاسعة من الجبال والتلال والوديان هذه الكروم الكثيرة هى التى أغرت الطليان باستخدامها نبيذا ولم يكن أمام هذا الدليل إلا الثناء على جودته والتغنى بأثره فى العقول .

امتدت الكروم على الأرض ولونتها بألوانها الخضراء الزاهية . . كانت نضرة الأرض زاهية التربة . . تبسم الحياة هى وأصحابها باطمئنان وهدوء . . تنظر للأمل المشرق والأمانى العذاب . . كل انسان يعمل فى مكانه . . عاصر الخمرة .

وساقى الحديقة . . وفلاح القرية . . . والعامل والموظف والأجير .

فما أن غضب (فيزوف) حتى حطم كل شىء . . وغطى بالحمم السوداء . . وسيله الجهنمى كل شىء . . واستحالت الخضرة إلى قطعة من الرماد . . وأصبحت أنقاضا فماتت الحياة . . وضاع الكفاح انه قوة عاتية غامضة . . غطت كل نأمة عذبة . . وكل أمل حلو وغطت الحدائق . . وماتت الكروم . . ولم يبق من تلك القصور والجنائن غير طبقة سوداء من الحجارة والحمم . . ونسى الناس أن كانت هناك مدينة تسمى (بوبى) .

وكنت أحلق فى فكرى وأسابق الخيال أريد أن أعب منه وأرتوى من مذاقه العذب . . فقد عشت فى خيال حلو . . ولما وقفت السيارة . . نزلنا إلى مكان فيه مصنع لنحت التماثيل البارزة من قواقع الحيوانات البحرية . . مما يوضع فى الصدور على شكل دبابيس جميلة أو تقلد فى الأعناق على شكل عقود زاهية كان الصانع بعد أن يشذبها ويصقلها إلى تحف جميلة . . تغرى بالاقتناء لجمالها ودقة الصنعة وسحرها .

يأخذها الفنان الماهر بأزميل صغير وكبير ودقيق وواسع وبهذه الأدوات تستحيل هذه القواقع صورا ناطقة بالفتنة تكاد تتحدث معك .

وقد استفاد الفنان من الصور اليونانية والرومانية القديمة . . فحاكاها . . فى تماثيل وصور لكن الطابع اليونانى مسيطر على الروح الفنية متأثر بتعدد الآلهة وكثرة الأساطير فى الإبداع .

تكاثر الشارون . . وبخاصة أن حلى النساء كانت جميلة أخذت كل سيدة ما تراه يزيد فى زينة عنقها أو جمال أذنيها وفتنة ساعديها . وإغراء زنديها .

وخرجنا من المصنع . . واهتزت مشاعرى أمام مفاجأة غير متوقعة فقد وجدت نخلة مفردة أمام المصنع . . فتذكرت قول الداخل . .

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهى فى التغرب والنوى وطول اغترابى عن بنى وعن أهلى . .

أجل ما أشد الغربة . . وما أمر الفراق . . ومهما كان الجمال فاتناً ومهما غمرت الإنسان المتعة . . من ينسى أهله وبنيه فى قرارة النفس تثور رنات الحنين . . وتهزه همسات حب الوطن . . وتعصف حنينا وحبا . . فى الروح .

برغم السلطة . . والجاه والدولة والغنى فقد اهتز عبد الرحمن الداخل شوقا إلى دمشق إلى أهله ووطنه . . وليس هناك فى الدنيا أحلى من الوطن . . ولا أعذب مذاقا من مائه ولا أشهى مساغا من لياليه وأيامه . .

ما أشد الألم والحنين إلى ربوع أهلى . . وديار وطنى ومسرح صبوتى . . ولا يعرف إلا الغريب . . خطرات الروح وهمسات الوجد ودفقات القلق والحيرة .

إلى فيزوف . . وبومبى . . حياة بعد موت . .

كانت وجهتنا نحو فيزوف المدينة التى غمرها البركان بالحمم ونسيها العالم كله . . فترة طويلة . .

كنت أشعر بالرهبة وأنا أرى تصاعد الدخان . . وكأنه يريد يثور على قيوده . . الآن . . كانت أشعته الخافتة . . دليل جبروت ماض ورهبة دالت . . وقد انتابنى وأنا أمر فى الباخرة والجزع والخوف من أشعته الحمراء . . هذا هو المرور بقربه كيف كان جزع أولئك الذين صبت عليهم الحمم إن الجثث التى وجدت بعد قرون من اختفاء المدينة شاهدة على الرعب الشديد .

كان الناس فى أمن وطمأنينة يعيشون فى ظلال البركان . . كانوا سادرين فى غيهم فقد قيل لى إن عددهم كان حوالى (٣٠) ألف . . وكانت المدينة مكانا للنزهة والمجون الرومانى . . وبقيت مجهولة ومنسية حتى سنة ١٧٤٨ عندما وجد فلاح تمثالا جميلا فى أرضه . . نبه الآثاريين على وجود تلك المدينة .

كان البركان قد أنذرهم أكثر من مرة بهزات سابقة صرعت البيوت ولكنهم رأبوا الصدوع وأعادوا بناء المهدم منها .

هل إن الأنذار لم يكن مؤثرا ؟

هل إن القدر أعمى أفكارهم وطمس على بصائرهم ؟ ان منطقة البركان كانت كثيرة الزلزال . . . فاعتادوا عليها وما ظنوا بأن البركان سيصب حجمه على رؤ وسهم . .

فهل أراد أن يطمئن الناس . . لتنزل بهم القاضية ؟!

لم تسجل هذه المنطقة ثورة لفيزوف من قبل فهل نسيت هذه الثورة . . .؟! أم أنها الثورة الوحيدة التى دمرت حياتها ؟! فى سنة ٧٩ بعد الميلاد كانت الفاجعة . . ونسيت المدينة مطمورة تحت الركام ولم ينج منهم أحد . . . إذ لم تؤخذ العدة للهرب . والنجاة . . وحدث البعيدون بأن ثورة البركان كانت كبيرة تجلت فى سحب من البركان الكثيفة فأرسل أنفاسه حرارة وغيظا . . ولما لم يكترث الناس به عربد وصرخ فى وجه المدينة وتدفق غضبه حمما رهيبة كالسيل الجارف الذى لم يدع للناس فرصة للهرب . .

وفى ساعات محدودة تحولت المدينة إلى قطعة سوداء سائلة تموج بالحمم وتنفث الدخان والموت . . ولم تسمع صرخات الألم . . وهلع الخوف . وبكاء الجزع فإن هدير البركان غطى كل شىء وقضى على كل شىء . .

وفى القرن الثامن عشر سنة ١٧٤٨ كان معول الفلاح الايطالى يلفت النظر إلى المدينة الغارقة والمدفونة تحت عشرة أمتار من الحمم وبدأ التاريخ يكتب صفحة جديدة ويسجل حياة المدينة المندثرة فى حضارتها وترفها وحماماتها ومجونها وحباب الخمرة ودنان الشراب .

ومن غرائبها أن النسوة كن يهربن بالحلى وجموع العبيد تحمل أكياس الخزائن والكنوز . يركضون وراء أسيادهم . . ساوى الموت بين السيد والعبد وغمر الجميع بالحمم . .

يوجد فى المتحف أجزاء من جثث البشر . . وأجسام كاملة تقشعر لها النفوس عارية وكأنها مومياء الفراعنة . . وشتان بين موت هذا وتلك . .

بالرغم من تأكيد الدليل على أن البركان هادىء الآن . . ان هذه المناظر ووصف ما حاق بالمدينة أثار عند بعض الحاضرين الرعب وكان ينظر بين آونة وأخرى للبركان وإلى بقايا الجثث آونة أخرى . . لأن أشعة اللهب الحمراء مازالت تبرق من فوهته . .

مازالت بعض الآثار حية بعد أن كسحت الحمم وحفظت تامة على شكلها القديم . . حدث الدليل طويلا عن فسوق المدينة وخمورها فقد وجدوا تمثالا لشيخ يصب فتى فى رأسه

المجوف الخمرة فيتسرب من أسفلها فتأتى الفتاة العذراء وتمتص الخمرة من أسفل المكان المنتصب ,

وهناك تمثال وضع الاثنتين فى كفة ميزان وفى كفته الأخرى الذهب . . يراد به : أن الحياة الجنسية أو الذكر بخاصة لا يعدله إلا الذهب والكنوز لارتفاع سعره . . ولو كان هذا الذكر لشيخ هرم . .

وعندما تسكر الفتاة من هذا المورد المهيج القائم تدخل إلى غرف فيها صور عارية متبذلة فى عمليات جنسية متنوعة . .

يعرض البائع مجموعة من هذه الصور التى رسمت على الحيطان كيف يشتريها الناس وهى إذ تصاحب الهول الشديد ؟! . . ألا ترعب هذه الصور النفوس التى سخط الله على أصحابها . . للدعارة والفجور والانغماس فى الشهوات ؟!

متى وصلت المدينة إلى قمتها ورفاهيتها فسوف تنهار فقد انهارت الحكومات لما أترفت وبطرت وأصاب العرب مثل هذا الترف فى العصر العباسى فذهبت تحت سنابك خيول المغير . . فعندما تؤثر الأمم الرفاهية على القوة والرجولة فلن تستطيع حماية نفسها . . فإن النعم ترهل العزائم . . وتضعف الهمم . . فقد وصلت مدينة بومبى إلى أعلى درجات الترف . . وصب عليهم شواظ البركان وحممه . .

كانت بومبى مدينة الخمور والدعارة وفى ساعات اختفى كل شىء تحت الحمم المتوهجة التى جاءت تهدر كالسيل الجارف انه سيل الموت الذى لم يُبقِ ولم يذر .

العبرة بين الاطلال

حاول المختصون اعادة المدينة إلى سابق عهدها بالترميم طورا والترقيع آونة ، ورفع ما أمكن هذا الغطاء الأسود وأين هذا من غطاء الرمال الذى كانت تغطى أطلال العرب التى قال الشاعر عنها .

دع الأطلال تسفيها الجنوب   وتبكى عهد جدتها الخطوب

اتخذ الطليان المدينة متحفا ومكانا للزيارة فأخذوا يحصدون الآلاف وازدهرت المناطق بالسائحين وراجت بضائعها ومطاعمها وفنادقها . . مدينة كانت مجهولة أصبحت مطلب كل سائح ولعلها المدينة الوحيدة فى العالم التى لاقت هذا المصير ثم نفض عنها غبار الزمن

وياله من غبار هو الحمم الملتهبة والنيران السائلة والموت الذى فتح فاه ليعب من أرواح هذه المدينة إن موت الأجداد وعذابهم عاد على الأحفاد بالمال والرفاهية .

جاء النّاس للفرجة على ما أصاب آلاف البشر من غضب فهل يتعظ البشر . . . . ويعرف الانسان مصيره . . ؟

كانت الساحات المكتشفة . . والطرق التى أزيل عنها أكداس الأتربة والصخور المصهورة والحجارة السائلة . . تعج من جديد بالحياة . .
جاء الناس إلى هذه الشوارع من مختلف أنحاء العالم يسجلون ذكرياتهم بآلات التصوير ليعودوا وليحدثوا من وراءهم بالحدث الكبير كما يتحدثون عن التاريخ . هل يقدر هؤلاء أن ينقلوا أنّات الأطفال وصرخات الناس وهلع الرجال . . هل يقدرون على نقل الأحاسيس التى سيطرت على هؤلاء من الخوف والرعب والدهشة والمفاجأة . .

كل سائح يسير وقد وضع يده على معصم حبيبته أو زوجته أو وضعت يدها تحت ابطه دون أن تحس نأمة من الإثم أو حسرة من الندم . .

هؤلاء جماعة منهم الأب وأولاده . . ألا يتذكر مستقبلهم ألا يخاف على مصيرهم . وتلك زمرة من العجائز تتعلق الواحدة منها بأذيال الشباب . . وكأنى بهن يحسدن ما يرين من الصور ويحمدن الله على نجاتهن . .

المخلفات التى جمعت مختلفة فبعضها بقى كاملا وبعضها تحجر من جراء سيل الحمم . . وفى المخلفات بعض العملات والأوانى الزجاجية والبرنزية . . والذهبية . . وأدوات المطبخ .

هذا إنسان تحجر فقد دعته حلاوة الروح . . والخوف أن يجلس القرفصاء ليحمى عينيه فأخفى رأسه بين رجليه وبقى فى جلسته آلاف السنين . .

بقايا تقشعر من هول ما أصابها من رعب وما حفها من خوف الأبدان .

هذا الهيكل العظمى لابد أن يكون لفاتنة من غانيات بومبى وحسناوات الجيل . . فلا تزال الحلى تحيط بالمعصم . . وأدوات الزينة الكالحة . . تعكس ما حاق بهذه الحسناء من جزع عميق هزها وأوجف قلبها من الخوف والرعب . .

هاتان اليدان كم سعد بها العشاق وكم متعت بحنانها المحبين . . وهاتان العينان وهذا

الجمال الساحر ظهرت عليه الرقة والحنان فسحرت العشاق أم كانت قاسيتين مثل عيني محبوبة المتنبي :

ألم يــر هــذا الليــل عينيــك رؤيتي فــتــظهــر فيــه رقــة ونــحــول

ومن تلك البقايا التي تعظ الحليم والعاقل واللبيب تحجر جثة انسان ارتمى على الأرض يحمي نفسه من الجحيم فقد وضع يده تحت جبهته ونام على الأرض فكانت النومة الأخيرة ، هرب من وطأة الفاجعة وظن أنه يحمي وجهه . . فغطت الحمم الهادرة كل جسمه .

ومنظر كلب أقعى من الخوف ، ووضع رأسه بين رجليه ، وانطوى على نفسه وشد أطرافه على جسمه بقوة . . ليتقي من اللهب الجحيم النازل على المدينة فتركته قطعة متحجرة تحكي لنا ولمن بعدنا مأساة الانسانية . .

حمــــام الموت :

نادى الدليل جميع السائحين إلى التوجه إلى حمام المدينة . . وبلدة فيها حمام مظهر من أهم مظاهر الترف والحضارة والمدنية وكان الحمام مغطى فهل دخلت الحمم إليه لا نعرف شيئا عن ذلك ولكن ما بداخله عظة أخرى . . لمن يتعظ . .

هل يمكن أن نقرأ ما جال بالنفوس وقد غطت النار والحمم مداخل الحمام ونوافذه . . هل يمكن أن نصف ما كان يعانيه أولئك البشر من حيرة عميقة وقلق قاتل . . ما أطول ذلك الوقت الذى مرّ بين الحيرة . . والموت ؟ فالموت هنا راحة . . من عذاب . . قتال فاتك خير من مكابدة العذاب والحيرة والألم هنا جثث متحجرة يمكن أن نقرأ على أشكالها علامات الأسى انتظاراً للموت . . وأمل الحياة ؟

هذا قد استلقى على ظهره فما هى الأحلام التى كانت تدور بخلده بعد أن يخرج نظيفا . . أيعود إلى زوجه . . إلى خطيبته إلى أسرته . . إلى أمة له أو جارية فى داره ؟

وهذا قد ارتدى ملابسه ينوى الخروج فحاصرته نيران الجحيم . . ولا شك فى أن هناك الكثير من الجثث التى غدت رمادا ولكن هذه البقايا شواهد الجزع وبرهان الخوف . . والرعب الذى حاق بالناس .

والحمام على الطراز الشرقى أو التركى ، ففيه منزع لخلع الملابس والإتزار بالوزرة . .

وفى داخل الحمام بركة مدرجة . . وقد بقيت بعض الصور على الجدار سليمة من حريق النار . .

ولما سرنا خطوات قليلة انهمرت علينا السماء بوابلها مدرارا فأصاب السائحين الخوف . . وبدأوا يركضون وكأنهم تذكروا الحمم عندما جاءت الأمطار . .

وسرعان ما استفاق الهاربون عندما أووا إلى أحد الأبواب الضخمة ولعلها باب أحد قصور الأمراء والأغنياء . . التى كانت بعيدة من أن يدرسها أمثالنا من الغرباء . . يحف بها الخدم والحشم والعبيد . . يمنعون التقرب إليها والدنو من حيطانها . . ولجأنا إلى السيارة .

وأخذ الدليل يحدثنا حديثا جديدا فقد انتقل عبر القرون إلى المدينة الجديدة التى نهضت فى سفح الجبل . . ولو منحت المدينة كلها لى لما تجرأت على أن أكون فى جوار بركان فيزبوف . فإن مناظر الهلع والدمار التى رسخت فى نفسى زهدتنى بكل شىء فى الدنيا . .

سبحان الله . . ما أقوى إرادة الله . . فقد ملأ النفوس بالأمل وعادت الحياة تدب من جديد فى سفح البركان ، وماجت الحياة ومارت بالنشاط والحيوية ، ونسى الناس الآلاف الذين ناموا تحت حمم البركان . . فقد أعطت الحمم الأرض خصبا وغذتها بالحياة الجديدة وسمقت الأشجار ونضرت أوراق العنب على هذا السماد الطبيعى إنها الحياة وما أقوى الحياة . . فى صراعها مع الكون . . إنها خلق الله بأن جعل الحياة تستمر على سطح الأرض . .

خرجنا من بومبى بما فيها من متناقضات فالحياة تدب فوق الموت والنشاط يصاحب السكون واليأس ينام تحت الأمل الحلو العذب . وتلك سنة الحياة . . ولولا الأمل لتهدمت الأرض واندثرت معالمها الحضارية . .

كانت السيارة تسير محاذية للبحر بألوانه العديدة ومناظره الساحرة . . سرت فى جنوبى إيطاليا وسعدت بطيب هواها وحلو سجاياها وسحر المبدع الخلاق . . كانت القرى منسقة والحدائق تزهو بالفتنة ، وتتباهى بالسحر . .

إن ذوق الشعب الإيطالى الفنى من أجمل الأذواق فهم شعب فن وأدب وخيال وحكمة وموسيقى . . غلبهم الفن لأنه يجرى عروقهم . .

مررنا بمدينة (سالرنو) وكان الخليج الجميل واسع المساحة تحضنه الطبيعة النشوى والجمال الساحر وقد بنيت فيها كلية الطب تشفى بجمال مناظرها العانى والمريض وتعيد له الصحة وترويه من جمال الطبيعة الساحرة . .

كانت السيارة تسير بنا بين مطالع جميلة ، وربى مزهرة مزدهرة ، وقرى عامرة ، تغنى بها الحياة الباسمة ، والحركة الضاحكة ، فطورا نرى الناس وهم يستحمون بالبحر وقد علا الصوت فرجة وغبطة فقد أشرقت الشمس وأخذت تداعب وجوههم فيحضنهم البحر وتسعدهم الشمس وعندما نعبر نفقا إلى بلدة أخرى . . نرى الناس يتراكضون فقد هجم عليهم المطر ونزل مدرارا . . وبعدها ندخل مدينة أخرى نرى الشمس قد أشرقت وملأت حياة الناس بالسعادة والرضا كانت سواحل إيطالية مفصولة عن بعضها فلما حفرت الأنفاق وشقت الطرق ، سهل علينا أن نرى اختلاف الطبيعة ، فى مناخها ، وشمسها ، ومطرها ، فأصبحت هذه السواحل تمور بالفتنة الضاحكة والجمال الرائع النشوان . . .

جمال الطبيعة وعطلة آخر الأسبوع أعطت فرصة للشباب لكى يمتعوا أنفسهم وقد كثرت الدراجات البخارية الصغيرة فكل شاب أردف وراءه فتاته وحفت بهما النشوة ، وحرستهم الغبطة وترى الفتاة قد احتضنت فتاها من الخلف حتى لا تسقط وكأنى بالفتى يسرع فى دراجته لتكون فتاته أشد قربا إليه ، وكانت هى سعيدة عندما أتاح لها هذه الفرصة الحلوة الحبيبة .

وأحيانا يجلس الزوجان تحت ظلال الأشجار وهما يأكلان ويشربان قرب نبع صاف والبسمة النشوى تتطاير من الشفاه ، وقد نجدهما فى سيارة صغيرة وقد اختفيا وراءها واتجها نحو البحر ، إنه طريق عجيب ، إنه يمثل حياة الطليان ينشر الحب ويزخ بالوجد والود ، كانت الفتنة ساحرة من لقاء المحبين والجمال ضاحكاً من حب العاشقين ، والروعة سعيدة بلقاء المغرمين .

خيم السكون والهدوء على السيارة فقد أُخِذ السياح بما رأوه وبدده دليل السفرة . . عندما تحدث عن سحر الكون وجمال البحر وتلاقى المراهقين . . واخرج الناس من الخيال الجميل وسرعان ما أحس بالأيدى تمتد وكل حبيب تقرب إلى حبيبه . . فكأن الدليل أثار مواجد القلوب ومواجع الحب وهمسات الوجد .

الجــرة العجيبــة .

وعندما حل وقت الغداء وصلنا إلى مطعم جميل بنى على حافة البحر فى قرية خفيفة الظل طيبة المناخ ضاحكة النسمات ووقفت السيارة . فانبرى لنا شخص يرتدى حلة جميلة الألوان منسقة التفصيل وقف أمام السيارة .

وبكل احترام وأدب ورقة كان يشير للنازلين إلى المغسل بعد أن يناول كل زبون منديلا

نظيفا . . وبعد أن يغسل الزبون يديه ووجهه يمسح بالمنديل . . ويرميه فى سلة أعدت لهذا الغرض . .

ولا أدرى كيف تذكرت منديل بائع الكباب فى محلتنا وظهرت لى بقع الدهن . . على وجهه وكأنه امتص كل دهن الكباب وتذكرت طريفة يرويها أحد الاخوان . .

قال : لما رأيت وساخة المنديل وما نسميه فى العراق (خاولى) قلت للبائع ألا تغير هذا الخاولى . . فغضب منى وقال :

قبلك ألف واحد مسح يده وما اعترض . . . .

كل شىء جميل ومنسق ونظيف وأنيق يالها من حياة ، النظافة طابعها ، والأناقة أساسها والجمال رائدها . .

كان المطعم فى قرية (سانت كاترينا)

وبينما نحن نتناول الطعام توسط القاعة الكبيرة التى كان تعج بأكثر من وفد سياحى — ثلاثة من العازفين . .

أحدهما يحمل طنبورا

واثنان يحملان كل واحد (كمان)

وأخيرا حضر رجل أكبر منهم سنا وكان يحمل جرة لطيفة التلوين مزخرفة الألوان جذابة القوام حلوة التنسيق . .

كان إلى جانبى أمريكى . . نظر إلى وفى عينه حيرة وتساؤ ل ودهشة . .

قال : ما هذه الجرة ؟ ودون أن أرد عليه بلسانى فهم من تقاطيع وجهى الاستغراب ذاته . . فضحكت وأكدت له بالقول بأن المسؤ ول ليس بأعلم من السائل . .

وقف كل واحد من أصحاب آلات العزف فى ناحية من نواحى قاعة المطعم وتوسط صاحب الجرة القاعة . .

وانسلت فتاتان لم يتجاوز عمرهما أربعة عشر ربيعا . . وعلى وجهيهما نشوة المراهقة وعذوبة الجمال وضحكة الأمل التى أنبتت فى وجهيهما أجمل الأزاهير وأعطرها .

بدأ العزف . . ولكن الناس لم تنظر إلى جمال الفتيات وجمال العزف وانسجام اللحن . . كنا ننظر إلى صاحب الجرة وما يصنع . ؟ .

فقد أدهشهم الشكل وغرابة الأمر . .

ما يصنع هذا الرجل بالجرة وما قصده من حملها . .

وما أن استقر العزف وسار النغم الجميل واللحنَ الموسيقى بين أصحاب الآلات حتى رفع الرجل الجرة إلى فمه ؟

أجل رفعها إلى فمه . وأخذ يحدث فيها أصواتا غريبة وألحانا عجيبة ، ومن ثم أخذ يوقع بالنفخ فى فم الجرة . . ويصدر أصواتا أذهلت الحاضرين وكاد بعضهم ينسى طعامه وشرابه دهشة وإعجابا . .

عزف جميل وصوت عذب ، وجو ساحر ، وطبيعة ضاحكة نزل الطعام هنيئا مريئا ، والشراب عذبا سائغا ، ألم يسرهم جمال الصوت الشجى ؟

والنغم الملائكى الساحر ؟

ثم وقف العزف . .

وغيرت المغنيتان المراهقتان مكانهما . .

وابتعدتا عن بعضهما . .

وأخذ صاحب الجرة يعزف وانساب الصوتان بلحن واحد وبأداء واحد ونغم واحد . . وكأن كل واحدة منهما كانت تقف إلى جوار صاحبتها . .

فما ارتفع صوت أحدهما على الآخر وما انخفض وكأنهما صوت واحد ولحن واحد ومشاعر واحدة لعلهما توءمتان ؟

رأيت كثيرا من الغناء المزدوج فى مسارح كثيرة . . تكون بين رجل وامرأة أو بين رجلين أو أكثر . . وكنت أحس برغم احتراف المغنين خروج النغم وارتفاع الصوت ونشاز اللحن هاتان ظاهرتان ؛ عجيبة بانسياب النغم وعذوبة الترجيع ورقة الأداء وضبطه .

أتدرى أيها القارىء . . مقدار الطرب الذى شمل قلوب الناس والفرحة التى شملت أحاسيسهم والنشوة التى عمت قلوبهم إنها أكبر من أن تصور .

والأعجب أنهما كانتا فى غناء إيطالى لم أفهم حرفا واحدا منه . . كيف جمعت هذه العذوبة وانسابت هذه الرقة فى النغم الشهى المبدع فى لغة نجهلها وكلمات لا نعرف معناها آمنت بأن الصوت الجميل هبة من الله وآمنت باللحن منحة البارى الخالق وأنا القائل :

حسن صوت شف عن أشواقها ... وتجلى بالاشارات هواها

كم من صوت عذب يسحرك وأنت تسمعه ، وكم من نغم شجى يمتلك مشاعرك دون

أن تفهمه . . فيرتفع صوت من داخل نفسك بالأشجان إذ سرعان ما عجت القاعة بالتصفيق . . مما لم أسمع به من قبل . . ثم دار الرجل على السائحين مع المراهقتين ومعهم ما يجمعون به من دراهم كان الجميع يسارعون بسخاء إلى وضع النقود فى السلة المعدة لهذا الغرض . .

ولما هممنا بالرحيل التف السائحون حول صاحب الجرة إعجابا وتقديرا ورجوته أن أفحص الجرة لأرى السر وأعرف كيف يظهر النغم حاولت وحاولت فكان صوتى صفيرا مضحكا . .

وأخذت الجرة سيدة باءت بالخيبة مثلى وأخذها ثالث ورابع دون أى نجاح . . وأخذها هو مرة أخرى وأخذ ينفخ فانساب النغم طربا واللحن عذبا . . سفرة حلوة عوض الله بها صحبة سوء ورفاق سفر . . لا يعرفون متع الحياة البرئية . . وعدنا إلى نابولى .

فى نابولى معهد لدراسة اللغة العربية . . عرفت الأمر صدفة عندما كنت فى أحد المصارف . . فاجأنى الصراف بالترحيب بلغة عربية وعجل بصرف المبلغ وابتسم وقال لى أهلا وسهلا وأخذ يتحدث معى ليجرب لغته معى . . ومازال بحاجة إلى مران كثير وحديث دائم للاتقان . .

أحس بذلك وقال :
أنا أعرف قواعد اللغة العربية جيدا لكن لا أعرف كيف أطبقها قلت تلك مشكلة كل من يتعلم لغتنا ولولاكم لما كانت لنا قواعد . . نحن نتعلمها مثلكم . . ولكم الفضل . . فى وضع قواعد اللغة العربية وانصرفت وفى الطريق ساءلت نفسى هل عرف قصدى ؟ .

روما غاية الفن :(١)
يقف الناس فى حيرة أمام هذه المدينة فقد كثر ذكرها فى حياتنا الفكرية ، فيها الفن الشامخ ، والإبداع الرائع والسحر الحضارى الذى ورثته من قرون طويلة . .
منها خرجت زمرة كبيرة من الأدباء الذين استلهموا من أدبنا وحيهم فسمت وحلقت آدابهم من أثر هذا الوحى العربى . .

هل خلد دانتى لو لم يتأثر بأبى العلاء المعرى ويقرأ المعراج وأخبار المسلمين التى ترجمت إلى لغاتهم ؟ .

فى ٢٢ آب سنة ١٩٥٤م

ألم يتأثر بوكاشيو والأدب الإيطالى بأدبنا وفكرنا .

ومن روما خرج العذاب والألم والاستعمار فصب حممه على العرب فى برقة وفزان وطرابلس وأباد العرب دون رحمة أو شفقة . وجلس قائد هذه المعارك حسيرا بعد أن أرى ذل الخسران فى الحرب الثانية واستقلال هذه البلاد . . لست أدرى ما كانت مشاعر (غرازيانى) . . وهو يعيد الذكرى بإعدامه شيخا جاوز السبعين دون رحمة . .

هل ينسى عمر المختار . . ؟!

ما ضر الاستعمار لو هادن الأمم . . مستحيل أن يهادن الطامع الجشع . . أمة جاء لامتصاص خيراتها لا أدرى لم جاءت هذه الآراء أمامى بكل متناقضاتها وأنا أسير فى دروب روما أبحث لى عن سكن . .

وتذكرت صديقا أعطانى عنوان سكن فى فندق رخيص ولما نظرت إليه . . قلت قرب الفرج . . .

وعرضت الورقة على أول من رأيت ، وكأنى البدوى الذى دخل المدينة لأول مرة . . وكنت أظن الناس يعرفون بعضهم بعضا ، وأن الشوارع والفنادق معروفة ومحدودة . . نظر إلى وأجابنى بالطليانية . .

لا أدرى ما قال :

هل قال لا أعرف المكان ؟

هل قال انى لا أعرف أقرأ ولا أكتب ؟

هل سخر منى ومن حيرتى ؟

كان صاحبى الذى أعطانى العنوان أكثر جهلا منى وحيرة . .

فقد نسى اسم الشارع . .

ما العمل ؟

أسير فى الشوارع متجولا

وتوقفت عند بائع . .

وسألته عن أقرب فندق أو منزل (بنسيون) ومن حسن الحظ أعرف كلمة بنسيون لكثرة استعمالها فى مصر فكانت هذه الكلمة مفتاح الفرج الذى انفتح أمامى . .

أشار لى إلى ناحية قرب حديقة جميلة . .

وسعدت أن وجدت الخادمة ترطن بالانكليزية المكسرة مثلى .

كانت معى خارطة روما . . ومن يزر روما ولا يزور مدينة الفاتيكان فقد أضاع شيئا كثيرا . . . هذه المدينة التى كانت تذل الملوك وتخضع الأباطرة لسلطانها الذى لا يحد ، ألم ينزل الملوك فى شتاء روما البارد على أبوابها أياما دون أن يسمح لهم بدخولها ليت شعرى ما حال ملك يذل ؟

وكيف يعامل شعبه بعد أن تجرع الصغار والاحتقار والهوان ذليلا مهانا ، حتى يسمح له بدخول روما ويرضى عنه البابا ؟

كان الوصول إلى الفاتيكان سهلا ويسيرا فقد ركبت الحافلة إلى المدينة . . ولم أحس بوجود حواجز أو من يمنع الداخلين من الحراس فأبواب المدينة مشرعة يدخلها الجميع ، ولولا الأبواب لما أحسست بأنى دخلت مكانا جديداً فى روما . .

تجولت فى ساحاتها الضخمة محاولا التعرف السريع على كل معالمها مازال السور التاريخى يحتضنها والأبواب الضخمة توحى بمرور السنين وتقادم القرون . .

هل كان يسمح لى بالدخول . . لو جئت زمن سطوة البابا . . وأنا من أبناء الشعب ؟ وعربى ومسلم ؟

ظهر الشُرَط أو الحراس بالملابس الفضفاضة التى تلقى عليهم الهيبة بأسلحتهم التقليدية ، انه منظر يعود بك إلى الماضى السحيق .

كانت التماثيل من أروع ما رأيت فى المدينة وكثير من هذه التماثيل تمثل المرأة . . لم أفهم شيئا عنها ولعلها تمثل الملائكة . . انها تحمل عرش البابا أو تحرس أحدهم وكل بابا حكم فى الفاتيكان له تمثال ضخم تفنن النحات فى ابرازه . . وكأنه حى يتكلم . .

تشاء الصدف أن يقام قداس أو صلاة . . وقد استعد الناس إلى دخول الكنيسة التى يحضر فيها البابا وقد كانت جموع من السائحين يدخلون بسرعة فانضممت إليهم وكانت مقاعد الصلاة مملوءة وكان من حسن الحظ موقفى مع السائحين الذين لا يشاركون فى الصلاة . . وكنت قريبا من البابا .

كان واقفا على مكان مرتفع . . وكانت إشارته وحركاته تدل على الهدوء والاتزان والوقار وكان المصلون ينظرون إليه بكل خشوع وهيبة واحترام . .

راعنى هذا اللباس المترف وصليب الذهب والزينة التى ظهرت على شكل البابا فقد كان أنيق اللباس جميل المنظر حلو التفاصيل . . جميل المحيا والسمات .

ما كنت أفهم شيئا وكان الكثيرون مثلى . . لا يفهمون حركات البابا . . فبعد أن بارك البابا الجموع وصلى بهم . . كنا أول الخارجين . . وتذكرت ما قرأت عن هؤلاء البابوات . . من ترف وعز وأن بعضهم وصل إلى هذا العرش فلما مات وجدوه امرأة أجل امرأة . . كيف ؟ لا أدرى . . حكم البابا وهو امرأة ؟ .

ومازالت التقاليد حتى اليوم تتأكد من جنس البابا قبل الاعلان عن حكمه . . وخصص شخص لهذه المهمة . . لفحص البابا . . كان ذكرا أو أنثى ؟ .

إن البابا فى أعلى طبقة من طبقات حكم رجال الدين المسيحى أو بالأصح الكاثوليك.. وهى أعلى طبقة إنه صاحب العرش والصولجان . . يتدرج رجال الدين فى منصبهم كالجيش ويختلف مظهرهم باختلاف الدرجة التى وصل إليها رجل الدين . . بل ان الصليب يختلف لونه ومعدنه وأصله عند كل طبقة . . وقد كان رجال الدين هم المفوضون فى شرح الإنجيل وتعاليم الإنجيل ولم يكن للعامة رأى فى هذا الحق . . إنه مكتوب باللاتينية التى لا تعرفها إلا الطبقة المخصوصة . . لذلك سمح البابا لنفسه أن يبيع الأمتار فى الجنة . . حتى جاء مارتن لوثر . . . وثار على هذا العمل وعلق احتجاجه على باب الكنائس وكتب باللاتينية . . .

وتجمهر الشعب ليفهم . . وشرح لهم بيانه وبدأت الغيوم تتقشع والأسرار تعرف . . قوبل بكل عنف . . وبكل حرب . . حتى قبض له أن يحتمى بأحد الملوك . . كان هدفه أن يعرف الناس أن رجال الدين بعيدون عن الدين فترجم الانجيل إلى اللغة الألمانية . .

إن هذه الترجمة هى التى أزاحت الغشاوة عن عيون الناس وأفقدت هؤلاء سيطرتهم على الجموع الجاهلة .

ليس فى الدين الإسلامى رجال دين إنما يحق لكل مسلم يتفقه فى دينه ، وأن يعبد الله دون وسيط وأن يحل مشكلاته حسب تعاليم الدين وسننه . .

وليس للفقيه أو المثقف ثقافة دينية عميقة لباس يختص به إنه مثل سائر المسلمين فى لباسه . . فلا تاج يزين مفرقه ولا إشارات ملونة ، ترفرف حوله ، ولا صولجان يرفعه أمامه . . .

الدين الإسلامى بساطة ويسر وسماحة . .

النوافـير الجذلى

المياه كثيرة فى روما ، تتدفق من نوافير جذلى ، فى كل شوارعها ، وانتشرت التماثيل القديمة الرومانية والحديثة فى كل منازهها وحدائقها . .

روما حديقة كثيرة المياه وأشجارها تماثيلها كان قرب النزل نافورة من تلك النوافير ولها حوض كبير تستحم فى رذاذه أربع عرايا فاتنات من المرمر ينثال الماء على أجسامهن الجميلة التقاسيم الأولى تسبح مع الحصان والأخرى استقلت على ظهر حيوان بحرى وانكفأت الثالثة على تمساح ورابعة فى منظر آخر خلاب . .

وكان الماء يخرج من حيوان بحرى أمسك بعنقه رجال مفتولو العضل ووجهوا رأسه إلى جسم العاريات الفاتنات المستحمات فى الحوض .

إن كثرة المياه وتدفقها فى كل مكان يذكرنى بشح المياه وغلاء قيمتها فى استانبول . . فلا يمكن أن تشرب ماء دون أن تدفع ثمنه وكأنها قناتى المرطبات فى العراق . . يقابلها كثرة الحانات فى إيطاليا ففى كل مكان حانة يخرج منها السكارى يتمايلون يمنة ويسرة . .

ومن الطريف أننى مررت بشارع عام يذهب فيه الناس ويعودون . . وعلى الرصيف مصاطب ليجلس عليها أبناء الشعب جلس شابان مراهقان وقد احتضن الرجل أنثاه دون حرج وذاب معها فى قبلة غريبة دون أن يحس بوجود البشر . . والأطرف جلس على النصف الثانى من المصطبة زوجان مثلهما وقد أدار كل زوج منهما ظهره إلى الزوج الثانى . .

إنهما يقبـلان ويتناجيـان . . دون وازع من عـذول أو خـوف من لائم . . عجيب عجيب . .

إن عناية روما بالآثار واضحة فإذا ما وجد أثر ، يحرف الشارع عن مساره حفاظا على الأثار . . ويزين المثال والفنان ما حول هذا الأثر للفت النظر ولزيادته جمالاً جديدا . . وهيهات أن تمس يد الأثر مهما كان صغيرا . . أو يخدش منه .

رحم الله جامع مرجان . . كيف هدمته الأيدى الجاهلة فى العراق والطريف أن هذا الجاهل المسؤول لما قيل له لا تهدم جامع مرجان قال بكل حماقة . .
سوف أبنى لكم أحسن من هذا الجامع القديم ؟.

صديق الجامعة

مررت على صديق الدراسة محمد شرارة وكان فى المفوضية السعودية فرأيته يسكن بيتا عامرا تبدو مظاهر الأناقة عليه والجمال على أثاثه . . وقد تزوج فتاة من النمسا . . أرجوله التوفيق .

وقد عرفنى على عبد الرحمن خوجه الذى دعانى إلى عشاء لطيف شكرته عليه . .

ظاهرة التقرب إلى العرب ظهرت عند الطليان بعد أن فقدوا مستعمراتهم فقد حدثنى الأخ محمد شرارة بأن السينور رفائيل شاسكا قدم سؤلا فى مجلس الأمة الإيطالى يتساءل فيه عن عدم عناية الدولة بالعلاقات الثقافية مع الوطن العربى . . انه أستاذ التاريخ الحديث فى كلية العلوم الأساسية فى جامعة روما . .

وقد قدمت جامعة بالرمو ثمانى منح للبلاد العربية . .

وتكثر الجامعات فى إيطاليا ففى كل بلدة جامعة ورثتها من كثرة الدويلات التى كانت منتشرة فيها قبل وحدة غاريبا لدى .

حاولت فى هذه الفترة القصيرة التعرف على أكثر معالم روما وقد كان لى خير عون الخريطة التى حصلت عليها من إدارة السياحة فقد وضعت صورا صغيرة على مظاهر الحضارة والفنون والموسيقى تصور ذلك المعلم وتعرف اسم الشارع بسهولة . .

كانت لغة الاشارة الصامتة خير معين لى عندما أضل الطريق . . فبإشارة إلى الصورة الموجودة على الخارطة . . تسهل لى الأمور . .

وأردفها باسم (أتوبيس) وأرجوه كتابة رقمه . .

وتحل المشكلة . . .

الشرطى مؤدب وسمح الأخلاق يجيب عن كل سؤال تسأل عنه . . .

الفصل الثالث

إلى باريـــس بالقطـــار

طرائف مع البشر

ما أكثر الأمطار وأغزرها فى أوربا فهى التى كست وجه الأرض بالنضرة والخضرة والصحة والشباب ، فلا تقع العين إلا على سحر الطبيعة وجمال الدنيا . .

كان القطار سريع الحركة ينهب صدر الأرض فى سيره دون صوت مزعج أو دخان يرسله فى أجواء الفضاء فتسود منه وجوه المبانى والمزارع . . انه قطار كهربائى . .

واستغل الفلاح الغربى الأرض وزرعها بالمحصولات الفصلية وشجر الطرقات والممرات فلا تمر العين إلا على غابات زاهية . . فما نحس بالغبار والتراب الذى كان يوارى الركاب فى مسيرتهم عبر الوطن العربى . لا يعرفون هنا كلمة عجاج أو عبارة غبار ولعلها حذفت من قواميسهم . . .

هذا هو الطريق ما بين روما وباريس . . وليس للغربى يد كبيرة فى هذا الجمال انها نعمة الله التى أنعم بها عليهم . . ولكنه استفاد منها واستغلها وأحسن استغلالها . .

ففى الحقول نجد العناية واضحة فخطوط الزراعة مستقيمة منظمة تنظيما دقيقا . . لأن المزارع استغل الآلات وأبدع فى هذا الاستغلال ولابد أنه استعمل الأسمدة بأنواعها . . و وضع العلم فى خدمة حياته وفائدته . .

المرأة تشارك الرجل فى العمل وهؤلاء النسوة من المزارعات يعملن مع أزواجهن فى الحقول مثل المرأة الريفية فى قرى العراق وبعض أرجاء الوطن العربى . .

ها هى تقود دراجتها لتذهب إلى العمل أو تعود منه وفى القرى تضع سلتها أمامها تذهب للسوق لتجلب حاجاتها منه . . . لا فرق بين الشابة الفتية والعجوز الكبيرة . .

وظاهرة . . استعمال الدراجات واضحة فى أوروبا وبخاصة فى القرى والأرياف . خلفت الحرب الثانية آثارها على عدد الرجال . . وما كنت أرى رجلا يسير وحده . .

ولكنى كثيرا ما رأيت النساء دون رجل زرافات ووحدانا . . حدثنى صديق عن رغبات نسوة إيطالية قال انها تتمنى أن يكون الرجل طويلا وجميلا . . فقد سمع الفتيات فى زهو الكلام يعلن :

حبيبى طويل وجميل . . .

فقلت له الرجال يقولون :

نريد المرأة كالقهوة . .

قال القهوة : لماذا القهوة

قلت : القهوة سمراء ، وحارة ، وحلوة .

سبحان الله اختلفت مقاييس الجمال العربى بقول :

البياض نصف الجمال . .

ان علامات الفاقة والفقر واضحة على ملابس بنات إيطاليا ورجالها . . ولكن البساطة والذوق الجميل واختيار الثياب غطت على تلك المظاهر . .

ويكره الإيطاليون الأمريكان . . لأنهم أصل انكسارهم وأصل مذلتهم فقد كانوا أحرارا فاستعمرهم الأمريكان فقد كنت أتجول على الساحل فى نابولى متفردا . . ثم وقفت على الرصيف أرسل ببصرى الى جمال الطبيعة وسحر البحر . . فوجدت إيطاليا سرعان ما تعارفنا فقد ظننت أن حب الطبيعة جمعنى به . .

عرفت أنه كان فى الأسكندرية . . وهاجر أو هُجِّر عندما أخرج جمال عبد الناصر الأجانب من مصر . .

رفض هؤلاء الجنسية المصرية . . فتركوا البلد الذى أحبهم ومنحهم الشباب واللذة والصحة . . وبقيت فى نفوسهم حسرات أيام الصبا الحلوة الجميلة . .

وانفتح الرجل بكل عواطفه عندما تحدثت معه عن مصر وأهليها وأخذ يذكر أيامه بكل أسى وحسرة . . ويلوم الظروف التى رمت به إلى شواطىء إيطاليا . . ونظر إلى الشاطىء وقال بألم ومرارة . .

أترى هذه الأبنية السامقة والعمارة العالية انها للأمريكان وليس لنا فى هذا البلد

إلا الفقر والجوع والمرض . . قلت انها مخلفات الحرب . .

أخذت تذكرة السفر من إيطاليا حتى لندن ، لأستريح من شراء بطاقات القطار وأتجنب اختلاف العملة . . .

كانت المسافة حوالى أربع وعشرين ساعة فى قطار مريح الكراسى نظيف الأرائك وفى القطار أو الديوان الذى أسافر فيه أجناس من البشر ومختلف الأمم . . والجنسيات .

كانت السهولة فى المعاملة والمرونة فى أداء العمل والبساطة من رجال الكمارك أهم مظاهر الحياة فى هذه السفرة . . فلا تجد تعسف موظفى كمارك الأتراك وغلظة السوريين وتجهم أهل العراق وسيطرة المصريين .

يمرون بك ويسألون دون شك بك ويحدثونك دون ريبة ويُختم الجواز بسهولة ويسر وينصرف عنك الشرط ورجال الكمارك والبسمة واضحة على وجههم . .

أخذت أدون فى مفكرتى بعض الملاحظات . .
فسرت على الوجوه علامات الدهشة والتعجب . .
تجاهلت الأمر لأعرف السر الذى أدهشهم . .
سمعت أحدهم يقول :

إنه صينى . .
وقال آخر كلمة لم أفهمها . .
وقال آخر هندى . .
وكان الرابع أكثر جرأة فقال :

هل يمكن أن أرى الكتابة التى كتبتها . .

نظر إليها وتمعن فى سطورها وقلبها يمنة ويسرة . . ثم ضحك . . وأخذها الثانى وحدق فيها عاليا وسافلا . . ودارت المفكرة بين الركاب . . كان حدثا جمع الركاب على شىء مشترك . . حرك الجو وشحذ الفكر . . وأثار الهمة لمعرفة هذه اللغة التى أكتب فيها و . . . والسطور التى دونتها . .

ولم يفلح واحد منهم فى معرفة هذا الخط . .
ضحكت من غفلتهم . . إذ لم يسأل واحد منهم عن هذه الحروف . . ونفد الصبر .
ثم قال أحد الركاب . .

هل يمكن أن نعرف من أنت . . .

قلت أنا عربي . . وهذا هو الخط العربي . .

وسرت همهمة دهشة ورضا على وجوههم . . وقالوا . . لم نر هذا الخط إلا هذه المرة . .

لا شك بأن القطار يجمع طبقات شتى من الناس ولا أتوقع بينهم أساتذة العلم وطلاب المعرفة . . فيهم الموظف . . والعامل والتاجر والمزارع . .

وأخيرا سأل أحدهم وهو أكثر ثقافة وأوسع علما . . قال من أين جئت من العرب . .

قلت بلاد العرب واحدة . .

وحاصرني بالسؤال .

أعرف أن العرب أمة واحدة . .

من أي دولة من دولها . .

أعجبني ما يملك من فطانة ونباهة . . ولكني كرهت الاقليمية وقلت له أنا من بغداد . . فسرت على الوجوه مرة أخرى علامات الرضا والغبطة والسرور وبلا شعور قال أحدهم « حرامي بغداد . . علاء الدين والفانوس السحرى »

« أربعون حرامي من بغداد »

قالها بعفوية جميلة . . وكأنه اكتشف أمرا كبيرا . . فصاح الحاضرون . . نعم نعم .

*

انثيال الذكريات

انها ذكريات تنثال علي وأنا في القطار الذاهب إلى باريس . . تأخذني إلى بلدي وأتمنى أن يكون العرب أمة متقدمة وشعوبا متحضرة . . أليست هذه البقاع كانت ميدانا لهم ولأفكارهم . . وكانوا مثلا يحتذى في العلم والفضل والحضارة . . . .

سبحان الله صعدوا ونزلنا . .

أرى هذه المقاعد المبطنة بالقطيفة والأرض مفروشة بأجمل الرياش ومضاءة بأحلى المصابيح الكهربائية وعلى جدرانها رائع الزخارف وفيها رفان لوضع الأشياء الصغيرة كالجرائد وحقائب اليد ، ورف كبير لوضع الأشياء الثقيلة كحقائب السفر وفي هذا الديوان منضدة كبيرة تستعمل للطعام والشراب والكتابة . . انها غرفة أو ديوان مريح للعين والنفس والجسم . . انها الدرجة الثالثة . .

وشتان بين الدرجة الثالثة فى بغداد . . فهى ممر طويل على طول الحافلة وعلى الصفين مقاعد من الخشب الجاف . . كنا نحلم أن نرى ما بداخل الدرجة الثانية . . عندما كنا نذهب إلى المحطة فى بعقوبة . . وإذا ساعدنا الحظ . . وانفتح الباب نطل بسرعة . . إذ يغلبنا حب الاستطلاع . . وما أن نلقى بأبصارنا الصغيرة . . ونطاول بأقدامنا حتى نرى أكبر قدر ممكن لنزهو ونفرح . . بما رأينا من جديد مترف .

وفى الصباح لا يكون الحديث فى المدرسة إلا عن الدرجة الثانية ونتزايد فى الوصف ونخرج إلى حد المبالغة . . لأننا نقارنها بالدرجة الثالثة ونذكر مساميرها االتى تقطع الملابس وقذارتها التى ألفناها وما عدنا نراها قذرة . .

لفت نظرى الجزء المهمل من القطار . .

أليس المرحاض أهمل جزء من كل الأماكن فى وطننا العربى أدهشنى نظافتها وأناقتها . وكأنها فى إحدى دور السينما الراقية . .
فيها مناديل من الورق النظيف . .

ترمى بعد أن يستعملها الراكب مرة واحدة . . فى سلة مهملات موضوعة فى زاوية من الزوايا . .
فيها ماء حار وماء بارد . . وحنفيتان لطيفتان أنيقتان . .
وقطارنا المسكين يئن من الإهمال . . وقلما نجد ماء للشرب إنه شعب يعيش كالقطيع لا يكترث به أحد . .

خلق طبقة جديدة استغلت كل شىء لنفسها وتركت الجموع بلا رعاية . .
كيف يرضى الحاكم أن يكون أفراد شعبه كالقطيع . . ألا يسعده أن يكون شعبه بشرا يفخر بهم ؟!

*

النبيلان العاشقان

مازلت أعيش فى إيطالية برغم الابتعاد عنها ودخول مدن وقرى متنوعة وكان الركاب ينزلون . . وينزلون فى كل مدينة أمر بها . .

تذكرت ما حدث فى مدينة (ماروشيكا) فقد تنادى أهل المدينة للاحتفال بمرور أربعة قرون على حادثة طريفة ولطيفة . . إنها حادثة حب بطلاها نبيلان هما :

رينالد واري نجارفوا
وقيير دي فالونار
تنافس هذان النبيلان على حب فتاة سلب جمالها وفتنتها قلبيهما . . وعاشا فى حلم العشق ولوعة الوجد ، كل واحد منهما يريدها لنفسه . . .

لابد أن الشابة كانت زاهية بهذا الحب مغرورة بهذا الصراع من أجلها . . والمرأة دائما تزهو بالمحبين وتباهى بعشق العاشقين . .
وإيطاليا بلد العشق والجمال والفتنة . .
وزادها فتنة وغرورا انها ابنة حاكم (ماروشيكا) إنها (لينورا) .

لم ترضَ الفتاة بواحد منهما لتحسم هذه المنافسة واتفق المحبان على المبارزة . . ومن يفز بالسباق فله الفتاة . . الحسناء . . واستعدا للمعركة الفاصلة . . فسمع حاكم المدينة (باريسو) وكانت المدينة تتبع جمهورية البندقية . . التى حرمت المبارزة . . كان الوالد الحاكم بين عاطفتين . . حب ابنته . . وتطبيق القانون فألقى القبض عليهما وأودعهما السجن . . خوفا من أن تجرى المبارزة دون علمه . .

وهداه فكره إلى تحويل الصراع الدموى إلى صراع فكرى لا تراق فيه الدماء وتظهر قوة ذكاء المتصارعين بأن يلعب المحبان الشطرنج ومن يخسر فقد خسر الحبيبة وارتضى الجانبان بهذا الشرط . . على أن يحضر جميع أبناء المدينة هذه اللعبة . . ليكون اليوم مشهودا . . ودرساً فى السمو الخلقى ، وتطبيق القانون .

ولم يحضر الحاكم رقعة الشطرنج المعتادة إنما رسمها على أرض الميدان الواسع . . واصطف جنود من حرسه فى مكان البيادق ، فكان فرسان النبلاء أحجار الشطرنج وفى ١٢ من أيلول ١٥٥٤ بدأت المبارزة .

فكان كل عاشق يحرك الجند حسب ما يريد . .
وتمت المبارزة وفاز بها (رينالدودى انجارنو) وفاز بالحسناء (لينورا) دون أن تراق قطرة من الدم .

ورضى العاشقان بالحكم .
كما أسعد الوالد النتيجة .

وحباً بالسلم وتآلف القلوب قرر حاكم المدينة أن يعاد تمثيل هذا المشهد فى كل سنة والطريف ان أحفاد الخصمين لهما الأفضلية فى المبارزة التى قام بها أجدادهما . . وفى كل سنة

يصطف الجنود بملابسهم التقليدية . . على متن خيولهم وبملابسهم . . الحربية ويحضر حفيد العاشقين ويجلس حاكم المدينة العام وابنته معه لتشهد هذا الاحتفال . .

هذا التقليد الرائع أنقذ إيطاليا من مأساة سجلها شكسبير . . فى روميو وجوليت . .

ولكن فيرونا لم تنل مثل هذا التخليد بعد أن ماتت جوليت ومات بعدها روميو . وبقيت (ماروشيكو) تحتفل بهذا الحدث وإن مرت عليه أربعة قرون .

أهل باريس

خلا القطار كله ولم يبق فى الديوان معى أحد . . وكانت ستائر الليل قد أرخت ظلمتها على الكون . . وغالبت نفسى . . فغلبنى النعاس . . فتمددت بكل راحة وحرية على المقعد المريح . . والفراش الوثير . . وكنت وطدت العزم على السهر طول الليل ولما داعبت الشمس وجه الكون دب النشاط فى جسمى . . والراحة إلى كل جارحة من جوارحى استقبل الحياة الجديدة بلهفة وحب . .

فقد وقف القطار . . فى آخر حدود إيطاليا . . وأخذت ألقى نظرة وداع على بلد الجمال والفن والسحر وعلى آخر محطة قطار فيها . . فرأيت شخصا يركض حاملا حقيبة كبيرة . . فتناولتها منه . . بعد أن رأى المكان خاليا . . سألنى برقة ان كنت أسمح له بالمشاركة . . ضحكت ورحبت . . فالمكان فارغ والصحبة حلوة .

وعاد إلى الرصيف وجلب أخرى . . ومعه سيدة . . وبعد أن استقر بهما المجلس واستراحا . . من عداء حمل الحقائب . . واستردا أنفساهما كنا قد دخلنا الحدود الفرنسية . .

غلبهما الإرهاق والسهر وناما فى المقعد المقابل لى . . وفى الصباح استيقظ الركب . . جميعه . .

وسارع الرجل إلى الشباك وفتحه . . ونظر إلى السماء وقال بتنهد عجيب ، وبألم عميق ومرارة واضحة . .

إن المساء مغيمة

سنعود إلى باريس بكل أسف . .

ضحكت فى سرى . .

أنا أذهب إلى باريس لأجل أمطارها وغيومها .

وهو يأسف لأنه سيعود إلى باريس . . ثم استدرك . .
أنا من أهل باريس أهرب إلى إيطاليا . . أطلب الشمس وأسعى إلى الدفء والحرارة وأتمتع بإشراقة الجو ، وصحو السماء . . .
وأعود إلى باريس الكالحة طوال الصيف . .
وبلا مقدمات تبسم ابتسامة عريضة بدهشة وسرور . . وقال :
أشرقت الشمس . .
أشرقت بوجهك . .
أشرقت لأجلك . .
إنه تفاؤ ل جميل فتح لى أبواب الحديث معه وكانت تحية حلوة من رفيق السفر الجديد .

*

كان الفرنسى يحمل تجارب مرة . من أهل باريس بدأ تحذيره لى من الغلاء المهيمن عليها وضرورة الحذر من أهلها لأنهم يتصيدون الأجنبى . . للاستيلاء على ما يملك من مال . . بوسائل متنوعة وأساليب كثيرة . .

ضحكت وقلت إن كان معى من المال ما يغريهم بسلبه منى !!
لا أظنهم يقدرون على مفلس محدود المال مثلى . .
ضحك وقال :
إياك أن تدخل محلا لا تجد أسعاره معلقة بالباب وبخاصة المطاعم والملاهى . .
ووصف لى باريس وأيامها . . وأكد على أن أذهب إلى (الفولى برجيه) لأنه جديد وفيه متعة . .

سألته عن أقرب مصرف أصرف فيه نقودى وعن عنوان فندق زودنى به الصديق محمد شرارة . . فأعطانى بطاقة (المترو) .

قال هذه توصلك إلى مقصدك حتى تصرف المبلغ وتجد المكان . .

إنها غريبة أن يتبرع لى إنسان لا أعرفه ببطاقة سفر فى (المترو) . . وعلى ضآلة المبلغ فقد سعدت به وبكرمه . .

أردت أن أرد له كرمه بمثله . .
كانت معى مهفة أو مروحة معمولة من الخوص الأبيض المزخرف ولها يد جميلة وكلها مصنوعة باليد . .

فناولتها له . . هدية . .

كان شديد الفرح بها . . فقد رآها بجانبى وخشى أن يطلبها منى . . وزاد فى شكرى . . ولما نزلنا من القطار جاء هو وزوجته معى حتى محطة المترو . .

وشرحا لى طريقة استعماله . . على الخريطة . . ثم ودعانى وافترقنا . .

ما اريد من باريس ؟

هذه هى حلم الشعراء وقصد الأدباء وأمنية المفكرين كم قد قرأت عنها فى كتب الأدباء وأشاد بها زكى مبارك وكتاب مصر إنها ينبوع العلم والأدب . . تذكرت معالمها والأسماء التى مرت على من خلال ما درسته وما قرأته من أوصاف الأساتذة المصريين الذين درسوا فيها ولم يبارح فكرى قساوة باريس وما صنعته فى الوطن العربى وكيف دخل (غورو) دمشق فاتحا وانتصر على البطل يوسف العظمة فى ميسلون . . بقوة جيشه وعدته وعتاده الوفير.

رحم الله الملك فيصل الأول . . فقد خان الخلفاء عهده العربى وأخرجوه من دمشق العربية . . وقسموا وطننا العربى فى معاهدتهم السرية (سايكس بيكو . .) واستباحوا حرمات العرب فى كل مكان دخلوه وأرض داسوها .

تذكرت قصائد شوقى فى وصف المآسى التى حاقت بالشام كلها ، الوطن الذى أصبح . حكومات هى سورية ولبنان وفلسطين والأردن وكنت بين عاملين عامل الحب للحضارة والأدب وعامل النقمة على أهل باريس . . واستعمارها . .

بقى فى ذهنى من قراءة الكتب خمسة أشياء بارزة هى :

١ ــ فكتور هو جو وأحدب نوتردام
٢ ــ الباستيـــل .
٣ ــ متحـــف فرسايـــل
٤ ــ بـــرج ايفـــل .
٥ ــ الســـوربـــون

وما أفقت من تفكيرى وحلمى حتى وجدت محطة (الأتوال) أو النجمة تظهر أمامى . .

وصلت إلى الفندق بسهولة وهو معتدل السعر قرب شارع الأديب هوكو الذى سمعت

به وأحببت من أجله أن أرى (نوتردام) أوكنيسة (الأم السيدة) أو أمنا السيدة . . الفندق كان قريبا من قوس النصر . .

فندق صغير فى شارع صغير متفرع من شارع كبير هو شارع فكتور هوجو . . فرصة جميلة أن أسكن فى شارع الأدب وما أسمى عقول الذين يخلدون رجال الأدب والفكر . . بعد أن تغلبت الانتهازية والشعور بالمهانة وسميت الشوارع بأسماء الفاتحين والقادة والوزراءوالنبلاء والملوك . . !!

كانت ممراته مفروشة وسلالمه مغطاة بالسجاد أو الزوالى . . ووجدت غرفة صغيرة ولكنها أنيقة ومريحة . . فيها الماء الحار والماء البارد وأضيئت اضاءة جيدة وقرب السرير مصباح كهربائى للقراءة . . قبل النوم .

مشكلة الطعام

درسنا الفرنسية ولكن لم يخطر ببال من درسونا أن يذكروا لنا حتى اسم الخبز ولم نتعلم أسماء الأكل فكيف أحصل على الطعام . . !! تفحصت قائمة المطعم . . ولم أفهم حرفا واحدا منها . .

وذكرت قصة الغشيم الذى كان يضع اصبعه على أى اسم ويأكل أى شىء وخفت أن أجرب كيلا أقع فيها حرم علينا من طعام . . أو شراب . .

أردت أن أدخل إلى المطبخ وأشير بيدى إلى الطعام . . ولكن الغربة والحياء يمنعان الفرد من الحرية . . فى العمل . .

قلت للندل أريد أن آكل . .
وهى كلمة أعرفها بالفرنسية

أجابنى ماذا تريد أن تأكل . . ثم ضاعت على بقية الحديث فقد قال كلمات سريعة لم أسمعها من معلم الفرنسية . . أو أنه قالها بلهجة فرنسية لم أقدر على فهمها . .

حاورته بالإنكليزية . . فما فهم المراد . . ثم جلب رجلا يفهم الانكليزية وكانت المصيبة أنى لا أعرف أسماء الطعام باللغة الانكليزية . . لأنها فرنسية وأسماؤها باللغة الفرنسية . .

قلت له هات أى شىء . . لحما ، خبزا . .
فهم كلمة اللحم والخبز . .
وأكلت حتى أسد الجوع .

ويشهد الله أنني لا أعرف هل هو خبز مع اللحم أو أنه أللحم مع الخبز أم أنه شيء ثالث .

أكلته مضطرا . . ومن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه ودفعت الحساب فكان نصف دينار .

صحت مع نفسي نصف دينار ــ يا للويل . .
اللحم والخبز والسلطة فى الباب الشرقى وما نسميه (لحم كص) أو (الشاورمة) بـ (٦٠) بستين فلسا . . وأشبع .

والتمن والخضرة فى المطاعم لا تزيد على الخمسين فلسا . . وأدفع فى طعام لا يشبع نصف دينار .

حقا كما قال صاحبى الفرنسى إن باريس غالية . . قلت ليست غالية وإنما كاوية حارقة . . ملتهبة . .

*

لكى أشبع اشتريت بعض الفاكهة وخبزا . . وحمدت الله على مرور وقت الغداء . . وأخذت أحسب للعشاء حسابه . .

فى السفرات يحتاج الانسان إلى أكل أكثر لكثرة الحركة واختلاف المناخ ــ وتفتح الشهية لتغير المناظر فكيف . وهذه الطبيعة الساحرة ــ فى أوربا تزيد الجوع .

*

كان حالى فى العشاء أسوأ . . فقد بدأت الدراهم تتهرب بسرعة . . وكأنها الماء ينساب من فروج الأصابع لأن الوجبة الجيدة تكلف ثلاثة أرباع الدينار ــ (٧٥٠) فلسا دون أن أشبع . . .
ودون أن أحس بلذة أو مذاق لهذا الطعام . .
إنها مبالغ خيالية أصرفها على طعامى . .
ترحمت على أيام بغداد ورخص مطاعمها
وأيام استانبول وحلو طعامها . . وكثرة مطاعمها وتنوع الأكل فيها . . وطيب ألوانه .

وفكرت فى أن أشترى بيضا وخبزا وأجلس على نهر (السين) آكل وأستمتع بالمنظر الجميل . .

ذهبت إلى السوق فوجدت بيضا أحمر اللون . . وهو لون يلون البقال فى العراق به البيض بإضافة قشر البصل عند سلقه حتى لا يختلط بالبيض غير المسلوق . . .

واشتريت خبزا وعلبة من الزبد وفاكهة . .

وجلست على دكة جميلة . . اتفرج على الرائحين والغادين قرب نهر (السين) .

أردت أن أقشر البيض . . ولكنه ساح . . إنها نيئة فألقيتها فى الزبالة . . . وبعدها ألقيت باقيها . . وفتحت علبة الزبد . . فوجدتها لبنا . . .

حسنا أكلنا الخبر باللبن . . ولم نأكل الخبز بالجبن . .

ثم أتيت على الفاكهة . . .

وكنت شديد السعادة فقد أكلت ما وفر على المال وأكلت شيئا أعرف . . . ولكن لابد من طعام جيد . . وكانت الدراهم تجرى كالقطار السريع من جيبى مثل شهية الغريب للأكل .

انها حالة لا تحتمل لابد أن أرى باريس وأرى معالمها فأين الحل . وإذا ضاعت الدراهم . . .

لابد من مكان رخيص . . فى باريس يستحيل ألا يكون هناك مطعم شعبى رخيص ولكن أين أجد هذا الطعام الرخيص ؟

ذهبت إلى السفارة العراقية . لأتعرف على شيء من المحلات الرخيصة . . أو أستعين بمن سوف أعرف . .

وهناك وجدت الزميل شاكر خصباك . . وأخبرنى بوجود باقر عبد الغنى (رحمه الله) دعانى شاكر معه إلى المدينة الجامعية . . وكان وقت الغداء . . إنه مطعم كبير وياله من مطعم . .

تفوح رائحة الأكل الشهى . . وتتنوع أصنافه . . إنه موضوع أمام الآكلين ، يختار منه الطالب ما يريد . . وقفت فى الصف . . وقبل دخول المطعم وضعت قنانى البيرة والمرطبات الغازية ، والحليب ، وعصير البرتقال والفواكه الأخرى ، والسكاير ليختار الطالب واحدا منها . .

ثم يختار الطعام المناسب الذى يشتهيه . . ملأنا الصحون وأخذنا الفاكهة . . . أجل ملأنا الصحون . . .

وجلست مع الأخ شاكر خصباك . .

قلت كم يكلف هذا الطعام قال (كذا) فرنكا دهشت . . فقد وجدته يعادل (١٤٠) فلسا .

قال لماذا دهشت وتملكك العجب ؟

هل هو غالى الثمن ؟

قلت بمئة وأربعين (١٤٠) فلسا كل هذا الأكل ؟

قال : أجل

قلت دفعت (٧٥٠) فلسا فى طعام دون أن أشبع

قال أين تسكن

قلت فى (الأتوال)

قال انه أغلى منطقة فى باريس بل فرنسة كلها انك تسكن فى الشانزليزيه . .

خرجنا من المطعم وأنا أقول . .

إنها أجمل أكلة وأرخص وجبة وأحلى وجبة أكلتها فى باريس بعد ساعات الغلاء والضياع فى مطعم الشانزليزيه .

*

النخلة الغاليــة

فى فرنسا تنتشر المقاهى مثل بغداد ويجلس فيها الطلاب فى الحى اللاتينى أو الحى الجامعى . .

وقد أكثر الكتاب من ذكر هذا الحى وذكروا أسماء كثيرة من أماكنه .

أخذنى الزميل شاكر إلى مقهى (الكسمبورج) وكانت مقهى أمام حديقة عالمية رائعة تفتحت فيها أنواع الأزهار وغرست فيها أنواع الأشجار . . وكان فيها النخيل فقد وضعت كل نخلة فى مشتل كبيرمتحرك وفى الشتاء تدخل إلى الداخل وفى الصيف تخرج لتستفيد من أشعة الشمس مباشرة .

ما هذا الدلال يا تحفة الوطن العزيزة . . . يا نخلتى الغالية . . .

كم من غوانى النخل ذبحت وهدرت فى البساتين . وكم حسنوات بارعات التمر أبادها البشر عندما يفتح طريقا لما يصل إليها غول العمران . .

جاء الدكتور جواد العبادى وهو لطيف الخلق رقيق الحاشية وجلس ، حضر إلى باريس

للتخصص فى أمراض الأطفال . . . وقابلت بعض اخواننا من العراق فى مختلف العلوم والفنون والآداب . . إنها مقهى الفكر والفن والأدب . .

حلو الذكريات

وحضر أخيراً صديق الدراسة فى الإسكندرية محمد باقر عبد الغنى وكان لقاء حارا سالت المقاهى حبا من العواطف وامتلأت من الذكريات الحلوة . . وما أجمل أن تلقى زميلا من زملاء الدراسة إنها أجمل الساعات عندما يستعيد الإنسان حلو الذكريات ومرّها . . إذ يصبح حتى المر جميلا عذبا . .

تحدثنا عن أساتذتنا وعن الزملاء وعن المحاضرات وتشعب الحديث وطال ونحن لا نريد أن ينتهى . .

صديق الدراسة له مكان فى النفس أعمق من موقع الأخوة ،لأنه يعيش معك أكثر مما تعيش مع اخيك وأسرتك.. قال باقر (رحمه الله وأنزل عليه شآبيب الرحمة)

أين تسكن . .

ضحكت هذه المرة . . لأنى أعرف المكان

وأردفت بفخر واعتزاز

قرب قوس النصر . . أسكن فى الشانزلزيه . . نظر إلى باستغراب . .

ألم تجد مكانا غيره ؟

لماذا أليس المكان جميلا . . وهو مترف رائع . . عندها عرف سرّ ضحكى وقال نعم :

أنت تسكن فى مكان لا يمكن لطالب علم أن يسكنه . .

لم لم تخبرنى لأجد لك مكانا رخيصا ، وسكنا مريحا ؟

قلت له :

هل هنا مكان اسمه مكان رخيص ؟

قال أجل وتتفاوت الأسعار باختلاف المحلات وموقع باريس . . تختلف محلاتها . .

قلت مازحا : العوض على الله . . بما أضعت من مال فى غير محله . . وأردفت وتلك حقيقة . . .

خشيت إضاعة وقتك وما أغلى وقت الطالب المجد فى بلاد غريبة على نفسه وجيبه ؟

دعوة باقر كانت فرصة حلوة أن أذهب إلى غرفته لتناول الأكل العراقى . .

فقد تمرن على الطبخ وأجاده قلت : أصبحت طباخا ماهرا يشار إليه بالبنان . . فهل

تركت الأدب إلى الطبخ ؟

قال للضرورات أحكام . .

الغربة تعلم أمورا كثيرة منها طبخ الأكل والعناية بالنفس . .

وكانت غرفته منسقة وقد امتلأت الرفوف بالكتب الفرنسية .

نظم حياته فإلى جانب الكتب رف عليه أدوات الطبخ من قدر ومغرفة ومقلاة ومصفاة وغيرها .

وعلى الجانب الآخر منضدة عليها القلم والمحبرة والأوراق والكتب . . جمع بين الحالتين أعجبتنى شطارة باقر وذكرنى بطلاب العلم فى المساجد والمدارس الإسلامية القديمة . . وكان فى الإسكندرية هو وحميد فى ترف لأن الخدم متوفر والحياة رخيصة . . وأكثرنا استأجر مع جماعته شقة وخادمة . . فقد عشت مع كامل الشيبى حياة جميلة وقضينا أياما حلوة فى بيت إيطالى جميل فى شارع زهرة فى كليوباترا فالحياة فى الإسكندرية أكثر رفاهية على رغم قلة المال . .

قابلت الأخ ابراهيم السامرائى ومازالت مظاهر الحياء واضحة على تصرفاته ، وبساطته لم تغيرها باريس وظهرت دماثة خلقه . . على وجهه .

فى الحى اللاتينى

الحى اللاتينى حركة ونشاط . . انها أوقات العطلة ولكنه يموج بالحيوية ويمرح بالحركة يأتيه السائحون من كل أنحاء العالم ويتفرج عليه كل زائر من زوار فرنسة فهو يعبق برائحة العلم ويفوح بأريج الشباب ويخطر بثوب القوة والعزيمة والصراع الدائب من أجل العلم والفوز بالشهادة الجامعية . .

سافر بعض الطلاب إلى الريف الفرنسى لقضاء جانب من العطلة وذهب وآخرون إلى أسرهم . . أما الغرباء فقد امتلأت بهم مقاهى الحى . .

ترى على السحنات أنواعا شتى من البشر،العربى بسمرته وشعره الأسود والهندى بملابسه التقليدية وأهل الشرق الأقصى بعيونهم الصغيرة . . والزنوج بأطوالهم الفارعة وشفاههم الغليظة . .

ويتصرف الطلاب بحرية تامة . . فى شكل اللباس ونوعه . . دون حسيب أو رقيب هنا يمكن أن نقول البس ما يعجبك وكل ما يعجبك وتحرك بالأسلوب الذى يعجبك دون أن تزحم حرية الآخرين . . ان حريتك تقف عند حدود حرية المجتمع الذى تعيش فيه .

الظاهرة التى أسعدتنى كثيرا وشجعتنى على تحقيق أمنيتى فى البقاء فى باريس وجود مطاعم رخيصة تخدم فيها نفسك وتنتقى فيها الطعام الذى تريد . . وبثمن رخيص فإن بعض هذه المطاعم تخضع للرقابة الحكومية لأنها مدعمة من قبلها . .

لا تكلف الوجبة فيها أكثر من (٧٥) فرنكا تقدم للطلاب . . وفى الوقت الذى تكلف الوجبة المتواضعة حوالى (٥٠٠) فرنكا فى غير هذه المطاعم . .

مشاهد الغزل :

كانت مشاهد الغزل واضحة دون حرج . . فلكل رجل صديقته وكل فتاة معها صديقها يتعانقان ويحتضن أحدهما الآخر فى المقهى والطريق وفى الحديقة وقد يلتصقان بقبلة حارة يريد كل واحد منهما أن يدخل فى جسم زوجته . .

ولم أر من يكترث للأمر أو ينظر لهذا المشهد الذى أصبح جزءا من الحياة . .

التحلل الاجتماعى ظاهر حتى على المعتدلين وفى هذا الحى . .تضاعفت الحرية . . لأن مناظرها تثير النفس والقلب . والروح والجسم . .

إنها حرية عجيبة . . أقل عمل منها فى الوطن العربى يدفع الشرطة إلى التدخل . . والحى كثير المكتبات التى امتلأت بأنواع الكتب العلمية والأدبية والإنسانية التى يحتاجها الطالب . فلا يجد صعوبة فى الحصول على أهم مصادر البحث والدراسة . .

إلى جانب ذلك فالروح العلمية عالية والبحث العلمى وصل مرحلة كبيرة من الدقة والاتقان .

كان الحديث يدور حول رعاية الدولة للانسان أو البشر وحرصها الشديد على خدمته واشتدت حدة النقاش فى مسائل العلم والطب والفن ووصل مستوى عاليا . .

وضحكت . .

قال صاحبى . . ما خطر فى ذهنك . .

قلت تطرف فى أعلى درجات العلم وتحلل وتطرف فى العلاقات الاجتماعية . .

قال : انك تقيس الأمور بموازينك الشرقية . .

إن الذى تعده تحللا . . يعد هنا الأمر الطبيعى . . فالانسان عندما ارتوى جنسيا . . . تفرغ للعلم بكل طاقاته . .

ألا ترى رجال الشرق إذا اجتمعوا . . ليس لهم من حديث إلا المرأة والجنس . . وفى

الغرب قلما يتحدث عن هذا غير المراهق وإذا نضج نسى كل هذه الأمور وصدف عنها وصد . . ؟

قلت هذا رأى الغرب . .

المرأة . . والحرية

والحق أن المرأة فى الغرب أخذت حريتها كالرجل فى جميع علاقتها الاجتماعية فهى تصادق من تريد . . وتترك من تريد . . وتختار من تريد حسب هواها وحسب مزاجها . . متى بلغت الحادية والعشرين من العمر ولا يكترث الرجل (بغشاء البكارة) فى ليلة العرس . . بل ربما يؤذيه أن يجده . . لأنها فتاة غشيمة ليست مؤهلة للزواج . .

فتعمدت الشابات إلى الطبيب للتخلص من هذا القيد الاجتماعى . .

إن هذه الحرية المطلقة أرهقت المرأة . . وتركتها فى حيرة وقلق ومتاهة الحياة تكدح وتكد . . فى سبيل لقمة العيش . . وقد تحلل الرباط الأسرى بين أبناء الغرب . . فلا تجد رعاية الوالد وحنان الأم وكفالة الأسرة وتضامن الأخوان أو الإخوة . . الكل يعمل ويدافع بكتفه الآخرين ليجد له مكانا . .

والشاب يترك أسرته بعد العشرين . . ويزحم بالمناكب الحياة ليجد له لقمة العيش والمكان الذى يسكن فيه وعندما يتحدث عن ترابط الأسرة الشرقية ومسؤولية رب الأسرة فى الرعاية والعمل المرهق لاعالتها ، أو الأخ الكبير فى اعاشتها ينظر إليك الغربى باستغراب ويكاد يقول فى سرة . . .

إنه خيال . . ولم يقل إنه كذب . . هذه الحرية المطلقة فى العلاقات الاجتماعية أدت إلى عدم الاقبال على الزواج . . وأحس المسؤولون بالنتائج السيئة . . وخافوا مغبة الأمر . . وحاولوا إيجاد الحلول وإلا فسوف يقل عدد البشر فى الغرب . .

الفتاة والفتى يرتويان جنسيا دون زواج وقد تكون علاقات دائمة وأولاد دون زواج والرجل يحب أن يجد فى أحضانه كل يوم فتاة حسناء ولا عجب إن وجدنا الرجال والنساء وقد فات أكثرهم قطار الزواج . .

ما حال الفتاة التى تعيش فى عنوسة قاتلة . . ؟

وبعد الثلاثين . . سوف تتسرب إليها الوحدة إذا لم تكن فاتنة وتحس باللوعة والأسى ينهشان الروح . . ويعذبان النفس . .

لهذا لا تستغرب إذا قابلتك سيدة كبيرة السن وقدمت نفسها على أنها آنسة . .

فمن هؤلاء العوانس عدد كبير . . فى أوربا . . الحرية المطلقة جرت إلى شذوذ جنسى غريب فقد أحبت الفتاة فتاة مثلها وعاشت معها . . أو أنها عاشت مع زنجى غريب اللون بعيد الخلقة عن التكوين الفرنسى .

فالسيدة الفرنسية البارعة الجمال . . الفاتنة المحيا ، الرقيقة الشكل البضة المتجرد يتأبط ذراعها زنجى من السنغال أو أفريقيا . . لأنها شبعت جنسيا من أبناء جلدتها وأرادت أن تجرب شيئا جديدا . . ومثل ذلك الفرنسى الأشقر الشعر الأزرق العينين يسير مع سوداء غليظة الشفتين مفلفلة الشعر بعد أن شبع من بنات جنسه . .

وعندما تسمع الغربية بما تعيش فيه الشرقية من الرعاية التى تسعد بها . . تضحك وتقول . .

هل تأخذنى معك إلى الشرق . . لأرتاح من هذا العناء وساعات القلق ووهج الحيرة . . ومرارة الوحدة . . أنهض فى الفجر وأذهب إلى العمل حتى المساء . . أعود مرهقة الجسم متعبة الروح . . أعد أكلى . . وأكوى ملابسى وأغسلها إن المرأة فى الغرب حطمتها الحرية وجنت عليها . .

النبيذ . . النبيذ . .

أدمن الشعب الفرنسى على شرب النبيذ . . فلا يشرب الماء إلا المريض . . . أو هكذا خيل لى . . فقد طلبت كاسا من الماء مع القهوة . . فنظر إلى الساقى وقال :

هل أنت مريض .

قلت لماذا . .

قال تشرب الماء . .

قلت وهل يشرب مع القهوة غير الماء ؟ . .

بالتأكيد لم يقتنع ولكنه لبى الطلب . .

إن شرب النبيذ جر على الفرنسيين مرضا أدى بهم إلى الموت إنه تشمع الكبد . وبالرغم من تحذير الأطباء المستمر بما تؤديه زجاجات الخمرة . . فإن المشكلات الاجتماعية وحياة المجتمع فرضت الشراب لنسيان هذه المشكلات وتطبيق تقليد شرب النبيذ فى حياتهم . .

فهم يشربونه مثلما نشرب الشاى والماءواللبن أو المرطبات فى الصيف . . فقد رأيت سيدة فى المطعم تفطر على النبيذ فقد وضع لها مع طعام الإفطار . .

إن أصحاب معامل النبيذ يقومون بحملات قوية ضد تحذير الأطباء ، ومزارعو الكروم يؤيدون هذه الحملات بالمال . . حتى تباع الكروم ويستفيد هؤلاء من أمراض هذا المجتمع . .

أعجب من أمة تزرع السموم وتسقيها لأبنائها . . فلا تعجب إن زرت إيطاليا وفرنسا ورأيت العامل يحمل مع أدوات العمل زجاجة النبيذ ورأيت المزارع يحمل مع المعول قنينة الشراب . . فالعمال الذين يحفرون الشوارع فى باريس تجد القنانى المتنوعة موضوعة على الرصيف يشرب منها بين آونة وأخرى عندما يسرى العطش إليه . . . فقد أصبحت الزجاجة ضرورية بعد أن ألفها وأدمن شرابها ولم يعد يشعر بلذة شرب الماء . .

ان تقاليد المجتمع التى فرضت عليه . . رجحت قنينة النبيذ على زجاجة الماء العذب الزلال . .

الشحاذون فى بلد النور

شعب بلغ مرحلة من حضارة عالية وعاش على خيرات العالم عندما استعمر أجمل هذه البقاع وأحلاها وأغناها . .

يروعك وجود الشحاذين والمكدية . . فهم فى كثرتهم مثل أبناء الشرق فى القاهرة أو بغداد . .

تراهم تحت الجسور وقد افترشوا الأرض وناموا على بسط تعاف الأرض من لونها . . وفى الطرق المتنوعة امتلأت بأعداد كبيرة منهم . .

وقد كان منهم من لا يملك شيئا ينام عليه فافترش الجرائد القديمة على القار الأسود أو الأسمنت وتمدد ناسيا كل ما فى الكون من أحزان وآلام . . استغرق فى النوم العميق .

من هؤلاء جماعة أدمنت الشراب . . وتشردت فى الطرقات وفى أنفاق القطار الذى يسير تحت الأرض . .

هل تعجز الدولة من أن تبنى لهؤلاء المصحات. .أو تعالج المرضى منهم؟ هذا التشرد والشحاذة مظهر من مظاهر الغرب يظهر الاختلاف فى طباع البشر وعاداتهم وإنها ظاهرة غريبة لا أكاد أصدقها لو لم أرها بعينى . .

ـ السوربون . . . السوربون . .

تتردد كلمة السوربون على لسان الطلاب وأرباب العلم أسسها روبير دى سوربون كانت كلية للتدريس فاتسعت حتى أصبحت مركزا من أهم مراكز العلم أخذت اسمها منه ولد هذا القس فى ابريل سنة ١٢٠١ ومات سنة ١٢٧٤م.

أريد أن أرى المكان الذى تخرج فيه كبار الأساتذة والأدباء والمفكرين وفطاحل الشعر والأدب . .

إنه منظر غريب ما توقعت أن أراه فهو بناء رومانى بأعمدته ، شامخ المدخل أبدع البناء والمهندس فى إقامته . . وما كنت أظن البناء بالشكل الرومانى . . فأين الهندسة الفرنسية ؟

وقفت بدهشة وإكبار وإعجاز أمام الصرح العلمى الذى بناه قس أراده أن يكون مكانا للدعوة المسيحية . . وتحول إلى صرح علمى أخرج العلماء والمفكرين والأدباء تحس بصوت السنين يرن فى جنبات هذا الصرح العلمى الكبير . . فقد أبدع النحات والرسام فى وضع الصور والتماثيل . . وزين فيها هذا الموئل الكبير . .

كل شىء قديم على العهد الذى بنى ، قاعاته وغرفه وساحاته وممراته . . وهل بقيت كراسى طلاب العلم أو جددت ؟ ولابد أن دخلت يد التعمير لإدامته إذ كيف يبقى النقش واللون فى هذا الزهو الفنى . . والروعة الفاتنة . .

أنا لا أعرف أسماء الفنانين والرسامين الذين نحتوا وصمموا هذا الصرح العلمى ولكنى أقف بكل احترام للقس دى سوربون الذى جاء من قريته وبنى هذا البناء ووضع الحجر الأساسى له . .

الأقواس والأعمدة الشامخة والأبهاء والممرات والساحات الداخلية والخارجية توحى لك بأكثر من إيحاء . . هذا تمثال ديكارت وكونت وهناك تمثال لفكتور هوكو فى الساحة وتمثال آخر لباستور وثالث لعالم أو أديب وقد دفن الكردينال ريشيو فى هذا الصرح تقديرا لخدماته الكبيرة وتبرعاته له وقد أبدع الفنان فى إقامة هذا القبر . .

واستلفت نظرى صورتان متناقضتان غريب وجودهما فى السوربون هما بهو الأسود وفناء الأسود وتدفق مياه النافورة . هذه الصورة الجميلة .

من تراثنا الفنى الخالد ومن روائع الأندلس الشهيرة فى غرناطة التى خلدها ابن زيدون

فى شعره وحبه لولاده ويظهر حوض ماء يحمله اثنا عشر أسدا تقف فى بركة من الماء ويتدفق الماء من أفواه تماثيل الأسود كتب فيها ابن زمرك :

يذوب لجين سال بين جواهر ... غدا مثلها فى الحسن أبيض صافيا
تشابه جار للعيون بجامد ... فلم ندر أيا منهما كان جاريا
وياوراث الأنصار لا عن كلالة ... تراث جلال يستخف الرواسيا
عليك سلام الله فاسلم مخلدا ... تجدد أعيادا وتبلي الأعاديا

وهى قصيدة طويلة وصف الشاعر فيها قصر الحمراء . .
والصورة الثانية . .
صورة لجامع أياصوفيا الذى تحول من كنيسة إلى مسجد :ـ

وقد حولت الآن إلى متحف فيه مكتبة فخمة .
هل يريد الفرنسيون أن يذكروا أبناء الشعب بأن الكنيسة أصبحت مسجدا ؟
إنه اختيار غريب لا أعرف سببه ؟
صورة أندلسية أصبحت تحت سيطرة أوربا وصورة بيزنطية أصبحت تحت سيطرة الشرق ؟

فهل يعرف العرب ما المغزى من هذا ؟
هذا الغرب كان تلميذا لنا

وهذه الجامعات عاشت على علومنا ومعارفنا وأساتذتنا . . وهذه المدارس ما كان لها أن تستمر لولا حضارة العرب .

كنت أتمنى أن أزور المكتبة . . ولكن ما باليد حيلة لأننى لو دخلتها لتركت كل باريس من أجلها . .

جامعة عاشت ثمانمائه سنة (٨٠٠) جديرة بالتقدير والحب والإعجاب فقد قيل إن الشاعر فيرلين قال عنها :

يأتى هنا الطالب يتحدث بحريته ويقول ما يريد ثم يسافر . . ومتى أحست الأمة بمكانة الجامعات ، وقيمة الأساتذة . . وحرية الطالب والأستاذ فى القول والبحث . وإقامتها على أسس من الحرية والمعرفة فسوف يكون خير رموز الأمة وسوف تتقدم وتتطور تلك الأمة ويعيش أبناؤ ها أحرارا ما داموا تحدثوا بحرية وبحثوا فى حرية .

ومتى اهتمت الدولة بالشرطة والجيش وأهملت الفكر والأدب فلن تكون فى مصاف الأمم الراقية والشعوب المتحضرة . .

هل سيكون للطلاب العرب الموجودين هنا أثر فى تطوير حياة الأمة العربية ؟ عندما يعودون ؟

هل سيأخذون بيدها نحو الحضارة ؟
أم سوف يكونون من تنابلة السلطان ؟
ودعاة الاستبداد ؟
الله أعلم . . .

*

برج ايفل

إنه برج من الحديد قائم على قوس كبير من الصلب بنى فى عام ۱۸۸۹ تخليدا للثورة الفرنسية التى قضت على نفوذ الملكية وأعلنت الجمهورية . . ورفعت اسم فرنسة .

فى البرج مطاعم متنوعة ومقاه جميلة تقدم أنواع الأغذية ومختلف الشراب وبارات تعج بكل أنواع البشر انه موسم الصيف والبرج من أهم معالم باريس .

يروع الناظر ارتفاعه وضخامة هندسته ، انه مكان لالتقاء العشاق والمحبين والسائحين كل شيء فى أوربا محط الزوار . عندما يفدون إلى بلد غير بلدهم .

هم يفضلون التجديد والتبديل فأهل الشمال يقدمون إلى الجنوب طلبا للدفء والحرارة وأهل الجنوب يرحلون إلى الشمال لمشاهدة المتاحف والمعارض ودور العرض كل له هدفه وله قصده . .

وفى البرجْ مصعد يأخذك إلى الأعلى حتى ترى مدينة باريس . وأحلى المناظر فى الليل حين تعج المدينة متوهجة بالأنوار الرائعة . . والمناظر الساحرة . .

هذا البرج يلتقى فيه العشاق وهواة السفر وفيه تسمع أحلى نجوى الغزل وأرق شهقات الحب والغرام وتحس باللهفات العارمة والشوق الدفين بين الأحبة،أصبح مكاناً لزفرات الألم ودهشة الحزن ولوعة المشاهدين ، إنها مفارقات الحياة العجيبة فهو مكان للمنتحرين الذين ملوا الحياة ، واحتقروها وآثروا الموت عليها . . هناك من المشاهدين من

يأتى فى هدأة الليل وسكونه ويصعد فى البرج ويقضى الساعات الطويلة فى شرود ناظراً إلى جمال الأنوار الساطعة والأضوية المتلألئة .

ومنهم من لا يرى شيئاً إنما يأتى مع من يحب ويجلسان للسمر والنجوى ومطارحة الحب وشرح نوازع الشوق الملتهب . .

ومن يأتى مبكراً يرقب مطلع الشمس ومشرقها عندما تحبو نحو السطح رويداً رويداً وآخرون يأتون لمشاهدة غروب الشمس وهى تختفى وراء الأفق وتترك أشعتها الذهبية تلون وجه السماء بالحمرة الجميلة . .

ماسأة المهندس الكبير

لكن هل يعرف هؤلاء الزوار أين صاحب هذا البرج .
أو أين المهندس الذى متع هؤلاء بمشاهدة باريس لا أشك فى أنهم يجهلون أين هو ! .
لا تعجب أيها القارىء إن قلت لك إنه انتحر فى نهر النيل . . أجل آثر نيل مصر على نهر السين . .

إن (ايفل) لابد انه اشتهر مهندساً كبيراً وقد طلب منه أن يشيد جسراً على النيل وهو الجسر المعروف بجسر (أبى العلا) قرب ضريح أحد المتصوفة فى بولاق والجسر يوصل الزمالك ببولاق .

وقد تم صنع الجسر وركب على النيل . .

وكان المهندس قد أعد فيه فتحة لعبور السفن أسوة بالجسور الأخرى المتحركة وكان هناك خطأ فى التصميم .

أشهد أن الجسر ضخم الطلعة محكم البنيان إذ مازال فى القاهرة وقد مرت عليه عجلات الترام سنوات طويلة والسيارات الضخمة وقاوم عوامل الزمن .

وعندما بوشر بتدشين الجسر حضر عليه القوم لمشاهدة الحدث الهندسى الذى صممه المهندس العالمى . . (كوستاف ايفل) صانع البرج المشهور ولما حاول ايفل فتح الجسر . . ولكن الجسر لم يفتح . .

فما كان من المهندس الذى اعتراه الخجل والعار فى زمن كان يعرف معنى الخجل ومفهوم العار إلاّ أن يُلقى بنفسه فى نهر النيل . .

نوتردام والأحدب

على ضفاف نهر السين كنيسة من أضخم الكنائس الأثرية التى يزورها أهل باريس والسائحون من كل العالم . . ولم تشتهر هذه الشهرة الواسعة إلا بعد أن كتب عنها الكاتب الفرنسى فكتور هيكو روايته (أحدب نوتردام) فالاخراج الرائع والتمثيل المتقن الذى قام به الممثلون خلد اسم الكاتب والكنيسة . .

وللأديب (البؤساء) وغيرهما من قصص الأدب العالمى الخالدة . . وقد كتب عن الأديب مختلف الكتب والدراسات باللغات المتنوعة . . وعناية فرنسا بالشاعر كعناية الانكليز بشاعرهم شكسبير . .

إن اهتمام الفكر الأوربى بالفن القصصى أكثر من اهتمامه بالشعر والنقد . . . لأن القصة أو الرواية خير وعاء للفكر ولأنه أسهل من الشعر فلا تحتاج إلى قافية وبحور شعرية . . ولا يعرف القراء أن (هوكو) شاعر هجا نابليون الثالث فقد جمع بين الشعر والنثر . .

وقد عرف أديباً سياسياً والسياسة تشهر الأدباء والمفكرين لأن أصحاب الرأى يريدون من يتغنى بآرائهم وينشد أجمل آيات المدح فى أفكارهم .

فكتور هيكو فنان جمع بين النثر والشعر وقد قوبل بكثير من نقدات النقاد التى اشتهر من أجلها هؤلاء النقاد ثم ماتت نقدات النقاد بموتهم كالذين هاجموا المتنبى ما عرفهم الناس لولا نقدهم شعر المتنبى . إنه الحسد من طبيعة البشر . . يكره النوابغ والموهبين وأصحاب الآراء الحرة . .

ولد شاعرنا سنة ١٨٠٢ وكانت المآسى مصدر إلهامه وناصر الحرية بكل قواه حتى تخلى عنه الحزب الذى رشحه فى الجمعية الوطنية . وترك وطنه خائفاً على حريته وعلى حياته لكنه واصل كفاحه بقلمه ضد انتهاك حرية المضطهدين .وكانت كتاباته تهرب بأساليب عجيبة إلى فرنسا كانت تخاط تحت الملابس ولم يعد إلى فرنسا إلا فى ١٧٨٠ وبذلك قضى تسعة عشر عاماً فى بلجيكا وغيرها من الأماكن هذه الحياة الحافلة التى أملت عليه راوياته وعمق الألم موت أسرته فقد مات ولده وغرقت ابنته الفتية وتبعتها أمها وزاد الطين بلة أن لحق بهم حفيده وابناه . إنها سلسلة من الماسى لم تبق له غير ابنته مجنونة . .

كان سيد الأدباء شعراً ونثراً أهلته ليكون عضواً فى المجمع الفرنسى . إن التحول الاجتماعى الذى ولدته الثورة الفرنسية والتغير السياسى الذى بدل الطبقات الإجتماعية

أحدث نزاعاً بين القديم والجديد فالطبقة المتوسطة بمذهبها الوجدانى بدأت تزحم الاتباعية ، والدعوة إلى الحياة الطبيعية فى المجتمع والطبقات والاستفادة من جمال الكون كان من نتاج الفلاسفة مثل روسو وفولتير الذى تحدث عن ابداعية شكسبير فدفعت هوجو إلى الحماسة لهذا الأسلوب الوجدانى الإنسانى وقد تزعم كونه حملة الكلاسيكية ولكن هوكو انتصر فى اتجاهه .

والغريب ان المحافظين استعدوا الملك على المذهب الجديد وقد شنّع هوكو بهم وبالفروض التى تفترض على المسرحية مثل الوحدات الثلاث الزمان والمكان والموضوع لأن المسرحية لا تستغرق إلا ساعات محددة وهم يفترضون استمرارها أربعاً وعشرين ساعة وسخر من عدم الخلط بين المهزلة والمحزنه[1] . إذ لا يمكن أن يعيش الإنسان طول حياته حزيناً أو طول حياته هازلاً فلابد أن تتداخل مشكلات الحياة بين الهزل والجد .

إن الأدب الإنكليزى أثر فى تغير الفكر الأدبى الفرنسى إذ أن المآسى والملاهى لا يمكن فصلهما وكان لفكتورهوكو فضل فى نشر الإبداعية بالمقدمة التى وضعها لمسرحيته (كروميل) .

تجولت فى الكنيسة وأدهشتنى هذه الدقة فى البناء والروعة فى الهندسة . . وكان المتفرجون أمثالى الذين لا يعرفون تاريخ فرنسا يريدون أن يروا الناقوس وأن يعرفوا أين كان مكان هذا الأحدب . . الخالد الذكر وكانوا يتحدثون عن القصة وفصولها وأسماء أبطالها وكان الدليل بارعاً . . فى إطفاء الظمأ النفسى وحب الاستطلاع فى النفوس .

كنت فى عجل فى هذه الزيارات أريد أن أرى أكبر عدد ممكن منها لأن كل يوم يقضى على جزء من المال المحدود معى .

هل انتهت المعالم التى كنت أنوى مشاهدتها !

إنها أكثر مما تصورت ! ما الحل ! .

بقيت فى ذهنى صورة سجن الباستيل . . وحاولت أن أرى هذه القلعة التى كان من يدخل إليها قلما يخرج برجليه . .

لم أجد أثراً لهذا السجن فقد محى من الوجود بالرغم من عدم وجود سجين عندما دخله الثائرون . إذ كان شائعاً أنهم هاجموه لإطلاق صراح السجناء لأنه رمز للاستبداد . وأرادت الجموع أن تقضى عليه . . وقد هدم هذا السجن وسوف تهدم كل سجون الظلم والاستبداد متى أحست الشعوب بالظلم الجور . . والواقع أن العامة هاجمته للاستيلاء على

(١) المهزلة ـــ الكوميديا والمحزنة التراجيديا .

الأسلحة الموجودة فيه ولكن دفاع حاكمه الذى أدى إلى قتله دعى إلى هدمه ولم يبق غير الميدان الذى شيد عليه الحصن ١٣٦٩ الذى هدم فى ١٧٨٩ فأصبح هدم الباستيل رمز سقوط الطغيان لا سبباً لسلب الأسلحة منه .

كم من الوقت يريده العرب حتى يثوروا على الظلام والمستبدين !!

قصر يخلب الالباب

مهما أوتى الإنسان من خيال واسع ، وفكر جوال فلن يقدر أن يتصور هذا القصر . . إنه مدينة كبيرة . . كم فى ربوعها سالت الخمور وسالت الدماء وسمع جرس القبل وانين المعذبين . . مدينة التناقض الواسعة . .

إنه المكان الذى اشتهر فى التاريخ وعرفناه ونحن أطفال إنه مكان لويس السادس عشر والملكة أنطوانيت التى اشتهر عنها قولها . . لما جاء الناس يطالبون بالخبز . . ظلما .

قالت : إذا لم يجدوا الخبز لماذا لا يأكلون الكيك . هذه هى الصور التى أحملها عن هذه الأسطورة الرائعة إنها أحلام ألف ليلة وليلة . . والحقيقة أنها لم تقلها وكتبها فولتير قبل ان تكون ملكة على فرنسة ولكن كم من أقوال كاذبة علقت بالمشاهير !! .

هذه الغابات الفسيحة والنوافير الجذلى والأشجار الباسقة وبسط العشب المنسقة . .

إنه بناء يمثل الطبقة الحاكمة . . التى سجل جمالها الكتاب والشعراء . وأصبحت باريس مثل غرناطة وبغداد مأوى العلم والأدب فى عصر لويس الرابع عشر الذى تدهورت فى زمن لويس السادس عشر وفى هذا القصر الضخم الذى استولى عليه نابليون فيها بعد عقدت المعاهدات ودبرت فيه مصائر الأمم . وأشهر المعاهدات التى عقدت بعد الحرب العالمية الأولى والتى خسر فيها العرب كل شىء إلا مسميات الحكم المستقل وهياكل حكم ظاهره عربى وحقيقته أجنّبى تحت ظل الحلفاء الذين خانوا العهد . . وتلك سنة الضعيف مع القوى وصدق شاعر :

النـواميس قضت ألا يعيش الضعـفـاء   أن من كـان ضعيفاً أكلتـه الأقـويـاء

جاء لويس السادس عشر فوجد القصر جاهزاً بأجمل الرياش وأتقن الأثاث وخير الصور للرسامين العالميين ومازالت هذه الصور معلقة تذكر تاريخ فرنسا وملوكها وكان ما كان من تدهور الحالة السياسية فى حياته وقتله وأسرته بحد المقصلة المشهورة .

إنه قصر يخلب العقول ويسحر الألباب ولابد من عجلة للمرور على أهم متاحف الدنيا

سرّ المونوليزا

إنه متحف اللوفر . كنت فى بداية أمرى أحب الرسم وقد رسمت من الصور ما كان يملأ نفسى ويغذى روحى الفنية قبل أن انتقل إلى الأدب والشعر . . وقد بقى فى روحى راسب عميق لحب الصور والرسوم فلا أذهب إلى مدينة ألا وأمر على متاحفها ومعارض الصور والرسوم فيها .

وهل يمكن أن أمر بياريس دون أن أشاهد اللوفر لم يدر بخلدى شىء سوى (الجوكندة) تلك الصورة التى طبقت شهرتها الآفاق وتغنى بجمالها الذين رأوا هذه الصورة . .

كنت أمر بالصور وأريد أن أتذوق من كل صورة لوناً وأحس أمام كل صورة بالطعم ولكن هيهات فكثرة الصور وسرعة المسير كانت تغطى على حاسة اللذة الفنية . . أقف أمام صورة وأقول إنها خير الصور ثم أقول لا هذه أحسن وأستأنف إن هذه الصورة أجمل ما فى المعرض . . إنها صور المبدعين لا يمكن بينها التفاضل ان عناية الدولة بالفن طوال حياتها ملأت هذا المتحف بكل قمم الصور من مختلف العصور ومختلف الرسامين .

وصلت أمام المونوليزا أو الجوكندة التى رسمها الرسام الإيطالى الذى طبقت شهرته الآفاق إنه دافنشى . .

أطلت أمامها الوقوف . . وتمعنت فيها بالنظر وحاولت أن أفهم سر هذه الشهرة ! واستشعر سبب هذا الإطراء المتزايد . . . ووقفت من عدة جوانب أمامها وبجانبها . .

يشهد الله لم أجد شيئاً خارقاً للعادة فى هذه الصورة إنها لا شك رائعة من روائع الفن الإيطالى . . ولكن بولغ فى جمالها كثيراً واختلق لها الأوصاف الخيالية حتى ظن الذين يرونها أنها خارقة الإبداع لكثرة ما سمعوا من الاطراء والمديح . . وأكثرهم يردد هذا الإعجاب والثناء حتى يشهد له بأنه يفهم الفن ويعرف أسراره . . ويتذوق سحره . .

قال أحدهم إن لها بسمة جميلة ساحرة . . وقال آخر إن لها نظرة هائمة وقال ثالث إن يديها رقيقتان ساحرتان إن اختلاف النظرة معناه أن (المونليزا) عليها الذكر الطيب ليست على مستوى الشهرة العالمية . . التى حققتها ، نعم رائعة . . ولكن بولغ فى هذه الروعة . ومستواها الفنى لا يعادل عشر شهرتها فناً .

فى كل يوم أعد النقود وكنت قد ضمنت بطاقات السفر إلى لندن بالقطار لرخص الأجر . .

ولم يبق الشيء الكثير معي . . من هذه النقود اللعينة . . إن الفندق الذى سكنت فيه لم يكن غالياً لأنه فى حنية من حنايا شارع فكتور هيكو . . ولتوفير المال كنت آكل وأشرب مع الطلاب فى المطاعم الرخيصة الثمن المتنوعة المحتوى . . وهذا ما أمد فى عمر النقود وطال فى مدة بقائى فى باريس .

بيكال وصراخ الجنس

بقيت رغبة واحدة كنت قد نسيتها هى مشاهده (الفولى برجيه) فقد أكد الرفيق الفرنسى على رؤ يته . . فى (البيكال) .

قال الرجل :

ان ليلة من لياليه حلم من الأحلام !!

ذهبت إلى البيكـال . . وقد ازدحمت المسـارح والملاهى . . أليست باريس مقصد المتفرجين الغرباء . . فعلام أعجب من هذه الحشود الكثيرة . .

لم أشتر بطاقة إلا بعد أن تفرجت على الإعلانات المتناقضة على واجهات المحلات التى تعرض أسماء الفنانين والممثلين . . وعرفت سعر الدخول إلى المسرح . . .

هل أعرف أسماء هؤلاء . .

كــــلا . . .

لكن الخـوف . . والحياء . . والـرهبة . . تـركت فى نفسى أعمق الأثر من الحـذر والريبة .

أنا لا أعرف شيئاً كثيراً عن هؤلاء الممثلين إلا إذا كانوا من مشاهير المسارح وأرباب الروايات المشهورة . . فى العراق والوطن العربى الذين رأينا رواياتهم .

فى شارع (البيكال) أسماء عجيبة لهذه المسارح (الطبيعة والعربى و حواء) . ومنها مسارح رسمية تقدم عروضاً مسرحية فنية راقية . .

وإلى جانبها المسارح الأخرى التى يدعوك إليها الدليل وكنت شديد الحذر من الذهاب إلى هذه المسارح . . خوف الأذى النفسى . . والأذى المالى . . فهـل إذا دخلت سوف أخرج سالما ، وقد حذرت من أمثال هذا الأمر المجهول .

فى مسرح البيگال . . أنواع كثيرة من التمثيل والغناء والرقص . . وفيه إخراج جميل متطور استعمل المخرج كل أنواع التطور الفنى والتقنى فى الإخراج .

هذا ممثل ينزل من السماء على خشبة المسرح مع المشاهدين وآخر يأتى من بين المشاهدين ويصعد خشبة المسرح ويشارك فى التمثيل . .

إنها براعة فى الإخراج والإضاءة والملابس . . وقد سيطر على هذا كله . . آدم العارى وحواء الغاوية . . . إنها باريس تتعرى من كل شىء . . إنه حلم مارأت نفسى مثله . . وخيال ما يمكن أن يصله خيالى الشرقى فى زمن المراهقة العنيفة . . انتفض لها جسمى . . واقشعرت مشاعرى . . وزلزلت حواسى . . من هذه المناظر . .

دخلت فى أرخص مكان وظننت المكان خاليا إلا منى فوجدت حشداً من البشر وقد وقف أكثرهم فى هذا المكان الرخيص . .

كان الرجل معه فتاته . . ومتى تأزم الوضع وتحمس الممثل أسمع صدى هذه الأزمة على الواقفين إلى جوارى فهم لا يقدرون على ضبط حواسهم . . وكبت مشاعرهم ولماذا الكبت والضبط ومعه من معه . . يسقط عليها كالطائر الجائع الذى ماذاق الطعام شهوراً . .

كان الرجل يضغط بكل قوته على الفتاة التى وقفت قرب الحائط . . وكانت هى تريد أن تدخل فى جوف فتاها . . خرجت من المكان مهرولاً . .

فلم تعد عندى قابلية المقارنة . . وكيف تكون المقاومة فى ظلام ساج . . وأنوار خافتة . . وأشباح متحركة . . تراها بأم عينك . . وتحس بوهج زفراتها فى أذنيك . . وعذب مناجاتها يتردد فى جنبيك .

خرجت ساخطاً .
لعنت الغرب
ومدنية الغرب
واباحية الغرب
من هذه المسرحيات أو المشاهد المسرحية . .

تخرج فتاة وترقص رقصاً فنياً جميلاً ثم تبدأ فى خلع ملابسها بعد كل فترة من فترات الرقص وإشارة من إشاراتها . . وهكذا وقليلا . . قليلا ترمى ملابسها قطعة بعد أخرى

ويتحول الفن إلى ابتذال . . وتصبح الحشمة . . شهوة . . بعد أن تتعرى كاملة كما خلقها الله . . وكما جاءت من بطن أمها . .

وبينما هى فى رقصها الداعر تخرج عليها نسوة عاريات متبذلات حلين أردافهن وصدروهن ومكان العفة ـ إن كان لها عفة ـ بالقلائد والمعلقات والمداليات لتهش على تلك الأماكن وتتموج على البض من الأرداف الطرية والصدور العارية المترجرجة . .

ثم يخرج جمع من الرجال يرقص كل واحد مع واحدة منهما ويطرح كل واحد صاحبته على الأرض خلال عمليات الرقص . . ثم يقومون بأعمال تحاكى العملية الجنيسة على المسرح . . وكلهم عرايا . . . عرايا . . . عرايا . .

وتخرج الشرطة تطارد هؤلاء . . لمنع هذا المنظر ويركضون على المسرح فى أسلوب جنسى عجيب . .

هذه باريس . . فى مدينة السوربون خمور وعرايا ودعاره . . وابتذال . وفى الشارع أعدت مناظير لرؤ ية أفلام فاضحة لقاء اسقاط فرنك واحد فى الناظور . .

غريبة باريس . . . علم كثير وفن راق ومسرح جميل . . إلى جانب هذا الابتذال العجيب . .

وكأنها لم تكن قائدة العلم والفضل والأدب . .

*

لابد من السفر إلى لندن . .

فالمكان فيه إغراء من ناحيتين العلم والفضل ووفرة المتاحف .

والمناظر الأخرى . .

وفى الصباح تجولت على نهر السين لإلقاء النظرة الأخيرة ورأيت على ضفافه متحفاً شعبياً عجيباً إنه مثل حديقة الأزبكية لكنه أكثر أناقة ففيه إلى جانب الكتب السيوف الأثرية والنقود والطوابع أسرعت فى المسير إلى محطة القطار . . إذ لم يبق معى ما أضيعه . . وعسى أن أعود إلى باريس . .

الفصل الرابع

هذه لندن

ضياع الغريب

بلد حكم العراق ، وثار عليه فى سبيل حريته واستقلاله ، وأسال دماء جنود الإنكليز على أرضه وبطاحه . يتوجه إليه العراقى فى سبيل العلم . فما أغرب المتناقضات ، أكون طالب علم على أساتذته ! .

إن أول موظف قابلته من الإنكليز كان على ظهر الباخرة ، جامد النظرات صلب التعبير ، ولكنه كان مؤدباً وملحاحاً فى الأسئلة والتقصى . . سأل عن أشياء كثيرة ، واستفسر عن أمور مختلفة متباينة ، أبرزها : لماذا جئت إلى إنكلترا ! . وكم سأبقى فيها ! .

إنه الموظف الموكل إليه فحص جوازات السفر ، وكان جالسا فى جوسق يمر به المسافرون فرادى . ولما عبرنا القنال الإنكليزى ركبت القطار .

فأوصلنى إلى محطة فكتوريا . . وهى محطة ضخمة تعج بالمسافرين من كل الأمم ، وتسمع كل لهجات العالم ولغاته ، وترى صنوفاً متنوعه من الألبسة الغربية المتباينة . ومن المحطة أخذت الباص إلى المنزل الذى معى عنوانه ، فسمعت صوتاً نسائياً يردد : أشكرك . . أشكرك . . ويتبعه قرض البطاقات ، ثم دنا هذا الصوت منى فاذا هى فتاة حلوة المحيا . . رشيقة القوام ، وانسدل شعرها الذهبى اللطيف على كتفيها ، وقد زينت شفتيها القرمزيتين ، واقتربت منى وقالت : شكراً فسلمتنى بطاقتى بعد أن تسلمت الأجرة ، فإذا هى جابية (الباص) فذكرت لها العنوان الذى أريد أن أنزل فيه ، وكيف الوصول إليه . . فاستمعت لى بكل هدوء ولما حان الوقت دلتنى على المكان .

كانت اللغة الإنكليزية التى أعرفها محدودة ، لكنى وجدت نفسى أتكلم بانطلاق

غريب ، وأحس بأنى أعبر عن رغباتى بإيضاح وحرية ، وتذكرت مرورى بروما وباريس وكيف كانت تغلق على الأمور فأستعين بالإشارة لإفهام الحاضرين إذا أردت شيئا . فلا غرو أن قارنت صمتى فى أوروبا مع طلاقتى فى لندن بعد أن طلبت الطعام الذى أريد بيسر وسهولة ، فحسبت نفسى خطيباً ممتازاً ومتكلماً بارعاً .

تهت بين الشوارع والأزقة أسأل عن العنوان وأنوء بالحقيبة التى أحملها وبعد تحر وعدة متاهات وصلت إلى المحل وكان قرب جامعة لندن ومنيت نفسى بالفراش الوثير والراحة بعد طول إجهاد وسفر ، وكانت خيبة الأمل كبيرة عندما قيل لى إننى تأخرت أسبوعاً كاملاً دون أن أخطرهم ، وكان حرياً بى أن أشعرهم من باريس وأحدد الموعد الذى أصل فيه ليكون الحجز فى اليوم الذى أريد .

ليت شعرى . . كم ضاع منا فى الشرق من وقت وكم أهدر فيه من زمن . . كل شىء هنا بقدر وكل حركة موقوتة وكل موعد مضبوط لا يمكن الإخلال به .

ولم تتركنى المشرفة فى حيرتى واضطرابى ولم تتركنى أخرج إلى الطريق أبحث عن ملجأ قد لا اجده . . . ، إنما أتصلت بالهاتف بأكثر من مكان حتى استقر رأيها ووجدت مكاناً قريباً من (مركز الأصدقاء فى العالم) وحجزت لى السكن وأرسلتنى إليه .

ذهبت إلى المكان وما كان بعيداً عن الجامعة ، فما أن رن الجرس حتى خرجت سيدة قاسية النظرات . . جامدة السحنة ، حزينة السمات ورحبت بى بوقار ورزانة وجد ، وكأنها تستقبل طالباً يدخل ضمن طلابها ، وما أن أخذتنى إلى الغرفة وكانت تطل على الشارع وجدتها نظيفة وجميلة وأنيقة ــ جلست على الكرسى ، وكتبت على ورقة (يكون الفطور يوم السبت حتى الجمعة فى الساعة كذا ، ويكون العشاء يوم السبت حتى الجمعة الساعة كذا ، ويكون الأحد كذا) وحددت المواعيد وسلمتها لى وكأنها تريد أن أحفظها حتى لا أنسى هذه الأوقات ، ثم وقفت وقالت لى :

عليك ترتيب الفراش يوم الأحد صباحاً ، وأن ترفع غطاء الفراش الخارجى ، ثم تطويه وتضعه جانباً كل يوم ، عندما تستعمل فراشك ، وألا تعمل الشاى والقهوة أو أى شىء داخل الغرفة . . إنها غرفة نوم فقط ، ونظرت إلى وجهى لترى أثر أوامرها . .

كنت أجيب بنعم ، وكنت أطوع من البنان . . فقد ظننت بأن جميع الإنجليز هكذا ، وكأنها منحتنى منحة مجانية ولست مؤجراً لهذه الغرفة . . عبودية عجيبة من مؤجرة لمستأجر . ولكن أنى لى المخالفة وهذه هى الساعة الأولى لى فى هذا البلد ، وكنت أحترس

أشد الاحتراس وأخاف أن تصدر منى حركة أو لفظة تسىء إلى بلدى وإلى نفسى ، وهكذا الغربة ، تدفع الإنسان إلى شدة الحذر ، والحيطة ويبالغ الإنسان فى حذره ويزداد فى احتراسه ويركبه الشعور بالنقص إذا ما دخل عالم الحضارة الجديد وهو القادم من بلد مستعمر إلى حكام بلده المستعمرين !!

نمت نوماً عميقاً متقطعاً . . فان المتعب ينام بكل جوارحه ، ولكنه يحس بأن الجوارح لم تهدأ ، ويغفو بكل أعضائه . . ولكنه يحس بأن هذه الأعضاء يقظة من شدة التعب ، فلم تعد هذه الجوارح قادرة على الاسترخاء الكامل والراحة بعد أن ألفت الحركة المستمرة ، وأصبح الاستقرار شيئاً جديداً طارئاً .

طريفة أو محنة

وفى الصباح سمعت رنين الجرس يدعو الساكنين إلى الفطور . . وكنت استيقظت مبكراً وارتديت ملابسى ونزلت إلى صالة متوسطة وضعت فيها المناضد والكراسى ووضع عليها الطعام . . ما هو هذا الطعام ! .

إنه قطع صغيرة تشبه الرقاق موضوعه فى صحن عميق وبجانبها علبة موجودة عليها كلمة Corn flokes . . هل هى قشرة الحنطة ! أم قشرة الذرة ؟

أيمكن أن تكون الحنطة على هذا الشكل . إذن هى مأخوذة من الذرة مادام المعمل قد رسم عليها (عرنوص) الذرة . إذن قد اكتشفت شيئاً جديداً ولكن كيف السبيل إلى تناول هذا الطعام !!أتناوله واحدة واحدة مثل النقل ! هل أمسك به دفعة واحدة ، وأضعه فى فمى ! .

خير حل فى المشكلات ألا تبدأ بنفسك وانتظر الآخرين . فأخذت الجريدة أتشاغل بصورها وأراقب القادمين . . جاء رجل وجلس أمام منضدة أخرى وسرعان ما أفرغ فى صحنه إضافة على الموجود ، فحمدت الله على هذه المبادرة ونحيت الجريدة جانباً وأفرغت أنا إضافة أخرى ، وبعد أن انتهى ، وضع العلبة أمام صحنه ـ وكانت كبيرة فحجبت عنى العلبة الصحن . . فتعوذت من الشيطان الرجيم وعدت إلى تقليب أوراق الجريدة ، وجاء زبون آخر وجلس على منضدتى فلم أسارع وكنت استرق البصر من وراء الجريدة . . فأضاف شيئا من العلبة ثم وضع كمية من الحليب والسكر ، وبالملعقة أخذ يتناول من المزيج ، وما أسرع ما وضعت الجريدة جانباً وأخذت بتقليده وشعرت بطعم جديد لم آلفه

من قبل . ولما انتهى الرجل جمع صحونه وأدوات الطعام كلها فى الصينية وحملها إلى محل معد لذلك . . فقلدته فى عمله . كان محل إعداد الطعام فى الدور الأرضى .

وعندما نزلت إليه سبقنى زبون سمعته وهو ينزل السلالم يحيى ربة البيت وهى تحييه دون أن أراها ، فاستغربت من الأمر . . ولما وصلت إلى المنطقة نفسها وجدت كوة تطل على المطبخ تراقب منها ربة البيت النازلين لتعد فطورهم . . فسلمت عليها وحييتها تحية الصباح .

وبعد أن تناولت الرقائق الذهبية سمعتها تنادى باسمى ، فالتفت إلى ناحية الصوت فرأيت كوة أخرى وقد صعدت فيها بقية الفطور وكأنها انشقت من الحائط ؛ أمام الكوة مصعدكهربائى صغير تقدم فيه ربة الدار الطعام توفيراً للعامل والخادم الذى يجلب الطعام ولما تناولت الصينية وجدت المربى والخبز والبيض وأدوات الشاى كاملة، فانضممت إلى الزبائن فى اليوم الثانى بعد أن كان طعامى موضوعاً على المنضدة كاملاً فى اليوم الأول ، وكما صنع هذا الزبون فقد أعدت هذه المرة الصينية إلى المصعد فما أسرع أن هبط إلى المطبخ

إنه عصر العلم . . فقد وفرت السيدة من يجلب الطعام ويجمع الصحون وبقايا الأكل واعتمدت على الزبائن ليقوموا بهذا العمل بكل رضا وبكل سرور .

وكما حدث فى الصباح حدث فى المساء . . فهى تجهز الطعام مرتين ، وقد اعتاد الإنكليز على أن تكون وجبة العشاء هى الوجبة الكبيرة مع وجبة الفطور .

وعند منتصف النهار يتناول الإنكليز بعض الفطائر والفاكهة والشاى ، فتذكرت عادة العرب ــ فعندهم العشاء هو الوجبة الكبيرة انتظاراً للضيفان .

البلد غريب فى كل شىء فى اللغة والوجه والعادات والتقاليد ، ويحس الإنسان بالفارق الكبير وبالضغط الاجتماعى والفكرى يهز حياته ، وقد يؤثر هذا فى نفسيته ويصاب بالمرضى النفسى (الحنين إلى الوطن) فأخذت حياتى تغشاها غمامة من الحزن والألم وتسودها الكآبة والغم . . الغربة قاسية ، فكيف إذا اجتمعت معها الوحدة ، وفى إنكلترا كل له شاغله . . وكل إنسان مسئول عن نفسه .

وقد جئت إلى لندن قبل أن تفتح الجامعة أبوابها . . فكانت تمر بى الأيام مثقلة الخطى ثقيلة الحركة والروح ، كان مجال تجوالى محدوداً ، وصلتى بالعرب مقطوعة تماما فمرت بى ساعات لولا الحياء والخجل لتركت لندن عائداً إلى بغداد ، أو إلى مصر ولكن آنى لى

بالألسنة الحداد التي سوف تقابلني عند العودة ! وشماتة الحاسدين بعد العودة ! تتراقص من أعينهم الراضية المسرورة . .

كل المصائب قد تهون على الفتى وتمر غير شماتة الحساد .

انقاذ

وكانت أجمل الصدف أن قابلت الأخ عبد الله النقشبندى ، وكأنى أرى بغداد أو العراق أو العالم العربى كله ، فقد هبت نسمة شذية بهذا اللقاء . . فدعانى إلى نزهة لطيفة وجدت فيها متعة النفس وراحة القلب ، فقد أخذنى إلى إحدى الحدائق الجميلة التى أبدع فيها المهندس الزراعى أيما إبداع ، وصفت فيها الأزاهير ونسقت بأجمل أسلوب وأحلى تنسيق ، وقد أعانت الطبيعة بمطرها المدرار وبردها المتوالى على أن تكون أرض إنكلترا خضراء معشبة ، واستغل الفكر الإنسانى سخاء الطبيعة خير استغلال ، ووجهه نحو خيره وفائدته .

وبينما كنا جالسين على مائدة الطعام حط عصفور عليها وأخذ يتناول الفتات من فوقها دون خوف أو رعب ، فنظرت إلى عبد الله فقلت له « أمن العصفور من بطش الناس وأذاهم ، فالشعب الإنكليزى يرعى الطيور ويعنى بها . . فتجد البط والأوز والطيور تعيش زراقات ووحدانا لا تخشى صائداً أو تخاف أذى . . وفى بلادنا العربية لا يأمن أبناء الشعب على نفوسهم وأموالهم وأعراضهم من عبث السلطة والحاكمين ، فقد خلق الحاكمون شعوباً خائفة وجلة تضطرب عند رؤية الشرطى وتهتز عند طرقة الباب فى الليل البهيم . . .

وفات هؤلاء أنهم حولوا العرب إلى أغنام يهشون بها عليهم بالسجن والنفس والتعذيب والموت وما أحراهم بخلق شعوب حرة واثقة بالنفس معتدة بالقيم تحرسهم بالحب وتذود عنهم بالقناعة . لبت شعرى متى نساوى هذه الأمم ! .

ولن يكون للعرب شأن إلا بحرية أبنائه .

كانت نزهة رائعة وجدت حلاوتها مضاعفة بعد طول عناء نفسى . فقد تحملنا نحن العرب العناء وتعودنا على الكبت والسجن . نؤخذ إلى الدراسة بالقوة دون اقناع ونجد المعلم يحمل عصاه يحملنا بالقوة على الدراسة والقراءة وعندما كبرنا وجدنا السلطان يتحكم بنا ولا يمكن أن نناقشه أو أن نعبر عن وجهات نظرنا ، فهو الصحيح وهو الحق ونحن على

خطأ . فإن رضوخي وسكوتي جزء من حياتي الأولى . فما شعرت في هذه الدار إلا بالسيطرة الكبيرة التي فرضتها على هذه السيدة الحديدية . وكأني أعيش في حبس اختياري أدفع للسجان من جيبي ليسجنني .

كنت أحاول التخلص من هذا السجن الجديد ، أو مسكني بأية وسيلة وأية طريقة ، فقد تبرمت بهذا الأسلوب من الحياة وأحسست بأنني تحت سيطرة مرعبة لست قادراً على الثورة عليها لأن الخوف الراقد في روحي منذ أن ولدت وعشت معه لا ينفك يسيطر علي ، حاول النقشبندي أن يجد لي مكانا أسكن فيه فما نجح ، فتركت الأمر للظروف والصدف كنت أعيش مضطرب النفس قلق الروح خائفاً .

كان يجلس معي على المائدة شاب شرقي السحنة ، رقيق العبارة سرعان ما تعارفنا . وعندما عرف بأني عربي ، صافحني بحرارة وود ، وبدت على وجهه علامات الفرح والسرور ، وبلا مقدمات أخذ يتلو من القرآن آيات وآيات فلما سألته عن المعنى لم يعرف شيئا ، إنه يردد « بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله والسلام عليكم » .

ولكنه كان يقرأ وعلامة الخشوع والرهبة على وجهه ، ويمكن أن يكون حفظ القرآن الكريم وسيلة لتعليم العربية التي يجهلها صاحبي الهندي كل الجهل وأن يتعلمها الكثير من المسلمين الذين يكنون للعرب كل التقدير والاحترام لأنهم قوم الرسول ، وقد أحسست بألفة سريعة وود متقارب بين المسلمين في الهند مع العرب ويحس الفرد بحبهم وعطفهم وألفتهم للعرب أكثر من غيرهم

زارني في غرفتي وأخذ يتحدث معي ، وزادت العلاقة أن اسم والده « يوسف » فكنت أسميه « يابني » فيفرح لها ويضحك وما كان يوسف قادراً على أن يبدد الوحشة الروحية في أيام تمر مكدودة الخطى ، تلهث من الغربة وتئن من مراراتها . ولم يكن أمامي إلا المذياع أركن إليه لاستماع الإذاعة من القاهرة التي طالما هرب مني صوتها ، وبعدت ألحانها ، وكأنها تغرق في بحر من أمواج الجو . قال لي الصديق الباكستاني :

هل تذهب إلى المقهى ! .

قلت باستغراب . . مقهى ! . أين المقهى . . . دلني عليها بالله عليك . سوف أجلس في الزاوية ، واستعرض المارة ساعات طويلة وأتفرج على الرائح والغادي . أبعد السأم بالفرجة ، وأبدد الملل بالملاحظة وتحري الوجوه الغادية والرائحة . تذكرت المقاهي في بغداد وترحمت على تخوتها وحصرانها . . إن الحل جاء على يد هذا الصديق ولا أدري أين كان هذا الاقتراح الذي سوف أضيع فيه الوقت . . آه ما أجمل المقهى لمن لا شغل له .

هيا . . أيها الصديق العزيز . . وأنا لا أتمالك نفسى من الغبطة والفرح . . وسرت معه إلى المقهى . . فدخل فى ممر طويل صفت على جوانبه الكراسى العالية وثبت حول جدره خشبة على شكل منضدة ، وقد اتجهت كل الكراسى نحو الحائط الذى وضعت عليه المرايا ، ويذهب الزبون فيجلب ما يريد ، ويجلس على هذه الكراسى ، فنظرت إلى وجهى ووجه صاحبى فى المرآة بخيبة أمل ومرارة . . لأننا بعد أن شربنا الشاى بدقائق معدودة غادرنا هذا الممر إلى السكن وعدت إلى الوحدة والوحشة والانفراد .

ليست هنا مقاه لقضاء الوقت والتسكع ولعب النرد والدومينو ، فالعمل هو الصفة البارزة على المجتمع ، ومثل هذه المحلات يضطر إليها المارة لتناول الشطائر أو الشاي والقهوة ، ثم يمضى إلى سبيله وعمله إذا احتاج إلى رى أو شبع .

أما الجلسات الطويلة . . فهى خلال الليل بعد إنهاء الأعمال ، فتكون فى النوادي الغريبة الأسماء العجيبة الألوان وهى كثيرة الأهداف ، متباينة الغايات . . فكل انسان يجد هوايته وتسليته فى ناديه الذى يطابق هوايته أو حرفته .

وفى هـذه النوادى تبـرز ظاهـرة الرقص والموسيقى ، ومن لا يجيد الـرقص ويحب الموسيقى . . يعيش فى عزلة عن الشعب الإنكليزى . وفى حلبات الرقص وقاعات النوادى يكون التعارف وتعقد الصداقات . لذلك تكثر حفلات الرقص خلال نهاية الأسبوع فى الجامعة بجميع كلياتها . . ففى كل كليـة حفلة راقصة يبـاح بها الشـراب والترفيـه عن النفس ، وتكون بأجور زهيدة أو بالمجان . وهناك نوادٍ خاصة لالتقاء الجنسين ، يؤمها الغرباء طلباً للأصدقاء والصديقات .

متى يفك الاسير ؟

عشت مضطراً فى هذا السكن لأننى لم أكن أعرف كيف أبحث عن مكان غيـره ، وباءت محاولاتى الفردية بالإخفاق ، وبقيت حائراًومرور الحياة ، يزيد فىّ الألم . .والغربة حتى فتحت الكلية أبوابها ، وهناك تعرفت على طالب مصرى أسرنى بخلقه ولطفه وتشعب الحديث بيننا ، وأثناء حديثه قال إن الأستاذ خلف الله موجود فى إنكليزا .

صحت بفـرح : أتعنى الأستـاذ محمـد خلف الله أحمـد . . عميــد كليـة آداب ــ الاسكندرية ! قال : نعم . قلت : أمتأكد من وجوده ! هل شاهدته بنفسك . . أم أخبرك أحد ! ؟

شاهد الزميل المصرى « عبد الله درويش لهفتى التى بدت على وجهى ، وقال : أراك تحبه كثيراً .

قلت : وأكثر من (كثيراً) فله عليّ فضل الأستاذ والصديق والموجه ، ورجوته أن يزودنى عنوانه ولم يكن يعرفه ، واقترح أن أذهب إلى النادى المصرى .

وأين النادى المصرى ! وكيف أعثر عليه ! فأعطانى العنوان ، ووصف لى الطريق .

قلت : سأذهب اليه مساء مادام الأعضاء لا يجتمعون فيه صباحاً . . إنه شارع (كرزن) السياسى ، وكان مدخله من الشارع العام الذى يصل إلى حدائق لندن المشهورة ماذا أرى ! . . إنه منظر عجيب . . لعلى أخطأت الطريق إليه .

بدأت أفكر . . أتردد فى الدخول إليه . نظرت بحيرة وارتياب . أهذا هو الشارع ! .

لا أظـــن . . .

نظراتى وحيرتى وترددى أثار موجة من التساؤ ل فى هذا الجمع الغريب . . إنه شارع فيه من النسوة من كل الأشكال والألوان والجنسيات ، تلك شابة فى عمر الورود وأخرى عجوز فارقها الشباب وهى تتشبث به بكل قوتها . ومساحيقها ورخص ملابسها . أرى جمعا كالقطيع تبحث عن طعام . . هذه ملفوفة القوام . . ضامرة الكشح ، انها وسائل إغراء غريبة . . فى الحركات والغمزات والضحكات الفاجرة .

ملأن الشارع بين الواحدة والأخرى خطوات . . لم أجد واحدة تحدث الأخرى أو تقف معها ، كالأنعام النافرة كل واحدة وقفت فى منعطف أو زاوية أو ركن من أركان الشوارع الصغيرة .

وكن فى لهفة عجيبة للانقضاض على أي رجل يمر بهذه الناحية .

لم يتكلمن . . لم يرفعن أصواتهن . . هدوء عجيب ، لكن العيون تتكلم والاشارات تتحدث . إنهن مسكينات . . لابد أن الحاجة دفعتهن إلى هذا ولكن لم أستطع قبول هذا الأمر فى لندن بلد الغنى والحضارة ، ولكن الواقع أراه بعينى مجسداً .

هناك تنافر غريب فى اللباس لإبراز مفاتن الأجساد ، والوقوف بأشكال مغرية تجسد المؤخرة ، أو تنحنى وكأنها تصلح جواربها .

عالم عجيب . .

ليت شعرى ما موقف القبيحات . . إنهن يقفن فى العتمة ويساومن الزبون اما

الجميلة . . فإنها تقف بتحد عجيب تحت أضواء المصابيح ، وقد وقفت بشكل مثير وجرأة تعرض بضاعتها الجسدية ، وكأنها تقف ليرسمها مصور أو رسام إباحى . .

هل خدعنى عبد الله . لا أظن . . إنه جاد . .

وتجرأت على المسير بعد أن وجدت الفتيات ينظرن إلى وتجرأت فى السير لما قرأت اسم الشارع . . إنه هو . . . وزاد فى شجاعتى مرور الناس دون اكتراث وخوف وسألت أحدهم عن النادى المصرى . . أخذنى إليه ، وبالفعل وجدت عنوان أستاذى . . . فأرسلت إليه رسالة أرحب فيها به وأتمنى رؤ يته ، فجاء الرد عاجلاً وفيه رقمان لهاتفين للاتصال به فى أيام حددها ، فنسابت إلى نفسيتى من رسالته عباراته الحلوة الرفيعة والموعد السريع .

قابلت أستاذى وكانت أمارات السرور والغبطة واضحة على محياه ، فملأت قلبى سعادة وراحة نفسية واحتضننى كما يحتضن الوالد ولده والأخ أخاه ، وضمنى إلى صدره الكريم ، وشربنا الشاى ودارت حُميا الحديث ، وأحس بشعوره المرهف ما أعانيه من وحدة ووحشة ، وما أقاسية من ألم فى سكنى المضطر إليه وتقدمى البطىء فى اللغة الإنجليزية .

ولم يتركنى بين الأمواج النفسية . . أصارعها والحيرة أقاتلها . . إنما ملأ نفسى وأحيا موات العزيمة الراقدة بقوة . وقال :

ينبغى أن تسكن مع أسرة إنكليزية حتى تتعلم بسرعة .

ضحكت وقلت له : مضى علىّ وقت لم أتعارف فيه على إنكليزى واحد . فاقترح كتابة إعلان فى جريدة أو أن يتوسط لى صديق لدى عائلة يثق فيها .

من يكتب لى الإعلان ! ومن هذا الصديق الذى له صلة كبيرة بالمجتمع الإنجليزى !

وفى اليوم الثانى قابلنى وقال أرجو إن حلت مشكلتك فهنا أستاذ فاضل اسمه الدكتور عبده عزام ، وقد حدثته بالأمر فأرجو أن يكون وسيطاً ، ولا أظنه يتركك . ثم أعطانى رقم هاتفه وودعنى وعاد إلى مصر .

فاتصلت بالدكتور عزام . ولم أكن قد رأيته من قبل ـ فكانت كلمات الترحيب وعبارات الود تتناثر من السماعة حلوة عذبة . وما أحلاها إذا جاءت فى وقت وحدة ووحشة وانفراد ، ورجانى أن أحضر إلى بيته هذا المساء لشرب الشاى مع أسرته وأكد لى الموعد ، وحثنى على الحضور ووصف الدار والطريق وكان يسكن فى Notting Hill gale وكان رقيق اللقاء حلو الكلام . . كريم النفس ، وأخذت زوجته الفاضلة تنافسه وتسابقه فى تكريمى

وتبديد وحشتى ، فكانت هذه الدعوة من أجمل الدعوات وأحلاها على نفسى ، فقد كانت بداية كتابة الرسالة وفتح مغاليق أمورى المتعسرة .

فقد اتصل الدكتور عزام بالسيدة الإنكليزية ودبر لى موعدا أزورها خارج لندن فى نورثهولت Northolt على خط القطار الذى يسير تحت الأرض .

دعوة النقشبندى الحلوة

تربطنى بعبد الله رابطة وثيقة هى عروة الأدب والشعر ، وأعرفه قبل أن يأتى إلى لندن ، فقد درسنا اللغة الفرنسية معاً فى بغداد ، فأعجبنى خلقه وسرتنى تصرفاته فهو شاعر رقيق جاءنى إلى الجامعة وقال : هيا لترى شيئاً جديداً لم تره من قبل . . قلت له : وهل رأيت شيئاً ذا بال اليوم وذهبنا معا إلى حديقة كيوجاردن Kew garden وبهرتنى هذه الحديقة وهزتنى بجمالها الرائع وأشجارها الباسقة واتساع مساحتها ففيها يضيع الإنسان ، وكلما مر فى طريق يزداد إعجاباً بالخدمات التى تقدمها الدولة للشعب ، فكل شىء للشعب وهيهات أن يقدر حاكم مهما كانت قدرته أن يسىء إلى إنسان من أبناء هذا الشعب أو أن يدوس حريته ويخدش كرامته ، الدولة خادمة مطيعة لكل رغبات هذا الشعب ومن الحديقة حيث صناديق الهاتف المنتشرة فى كل أرجاء إنكلترا اتصلت بالسيدة ايثل فراير E. Frier فوصفت لى الطريق ، ولم تحدد لى موعدا . إنما تركت الموعد لى ، وحسب ما يروق لى . وما أن تمتعت بهذه النزهة الحلوة ، حتى ودعت صاحبى لألقاها فى اليوم نفسه .

أسـرة فرايـر FRIER.FAMILY

إن المعاملة الجافة الرسمية التى قابلتنى بها ربة السكن رسمت لى أسوء صور للمرأة الإنكليزية . ولما قابلت (مسز فراير) لم أصدق أنها إنكليزية فقد كانت طلقة المحيا ، مشرقة الوجه كريمة المشاعر .

كان بيتها يحتوى على ثلاث غرف للنوم وحجرتين ومطبخ . تنام هى وزوجها فى واحدة ، وابنتاه فى أخرى وتركت لى واحدة مطلة على الشارع . ودل البيت على ذوق جميل وعناية واضحة ونظافة تامة محل لا يحلم به أعلى مستوى حضارى فى الشرق العربى .

قدمت لى الشاى وسألتنى إن كنت أرغب فى الطعام وكانت نبرات صوتها تدل على الصدق ، وكانت تؤكد وتلحف فى الطلب وهو ما لا نجده عند الإنكليز . . فالإنكليزى يسألك أتريد أن تأكل ! فان أجبت بلا . . لا يلح عليك ثانية لأنه ألف الصدق والصراحة

والوضوح ، فلا نفاق اجتماعي بغيض فإذا دعاك الإنجليزي فمعناه أنه صادق في هذه الدعوة ، لا كما نسميها في الشرق (مسح وجه) .

ومن طريف ماحدثني صديق قال : وصلت إلى لندن أحمل رسالة إلى أسرة لأسكن معها ، وقد اتفقت معهم على الاقامة بأجور حددوها ورضيت بها ، ثم حان وقت الغذاء فقالوا : ألا تريد أن تأكل ! وبطريقتي الشرقية قلت : لا ، وأنا أعتقد أنهم سوف يلحون ويحلفون لأنه من قلة الأدب والذوق أن أقبل الدعوة من المرة الأولى ، وأبادر إلى الطعام كيلا يقال إنني شخص نهم ، ثم حان موعد الشاي وسألوني إن كنت أشرب الشاي معهم قلت حياء : لا . وكأني لم أدفع لهم ثمن ما يدعونني إليه . وعضني الجوع بنابه والجوع كافر ، فادعيت بأنني أريد أن أتفرج على المنطقة ، وخرجت أجوس خلال طرقاتها وشوارعها على أن أجد مطعماً أسد به صراخ الجوع ، ولكن دون جدوى ، فقد كانوا يسكنون بعيداً عن العمران أو أنني لم أعرف المحلات جيداً ، وعدت إلى البيت وسألوني ان كنت أريد أن آكل فدست على الحياء وتصنع الأدب وأكلت وحمدت الله .

فاستغربت من تأكيد هذه السيدة ثم علمت أنها تعرف صلاح الشاهد ، وبعض المصريين وتعرف صحافياً مصرياً اسمه (منعم) ، قضى معها أربع سنوات وتذكره بالخير وتنعى عليه عدم الوفاء ، وأن له علاقة مع فتاة إنكليزية لم تتم بالزواج ! . كنت أرسلت ملابسي مع إحدى شركات السفر ، ولم أبْق معي غير البدلة وثوبين مع الضروري من اللوازم ، وضعتها في حقيبة جلدية . ولم أكن قد استقرت بي سفينة الترحال بعد أن قابلت السيدة المتكلفة في حياتها وأسلوبها . ولكني في الوهلة الأولى صممت على السكن مع هذه الأسرة تخلصاً من التصنع والتكلف ، فكانت هذه السيدة رحمة نزلت عليّ من السماء ، وعندما جاءت حقيبتي جردت الملابس وأخرجت الوسخ والممزق والمثقوب وغسلتها ، وكوتها ورتبتها ، ووضعت كل شيء في مكان بأناقة جميلة وترتيب أنيق ، فكان دولاب ملابسي مثلاً للترتيب السليم والذوق العالي الرفيع وقد وضعت كل شيء في مكان كنت أتناوله بيسر وسهولة ، كل شيء مكوي ومرتب بلا فوضى .

وجدت الألفة والحنان من هذه الأسرة فلها فتاتان ، عمر الصغيرة « شيلا » ثلاث عشرة سنة ، و « سليفيا » في السابعة عشرة . ولكنها للآسف مريضة لا تفارق المستشفى إلا لتعود لها لعملية جديدة . وزوجها لطيف ذكي ، ومع كل هذا فما تزال علاقتي بالبيت القديم .

ولابد لي من أن أقطع علاقتي وآخذ حاجاتي . كان الخجل قد ملكني بكل قواه وكم

أضـاع منى هذا الخجـل ، وأساء ظن النـاس بى ، أريد أن أقـول للسيدة ذات الـوجه الرسمى . . أريد أن أترك محلها ، فلم يـطاوعنى لسانى وتملكتنى الحيـرة والتردد . ولمـا ضربت موعدا للسيدة « فراير » ، اضطررت أن أفصح عن رأيى وقد كانت مفـاجأة لم تتوقعها ، وانقلبت إلى سيدة لطيفة الكلام ، رقيقة السلوك ورجتنى بإلحاح أن أبقى لديها ثم قالت : أحسست بالوحدة والوحشة وأنت منعزل ، لم تحاول أن تتعرف على أحد . يبدو عليك التعالى وعدم حب الناس ضحكت ولم أقـدر على الإيضـاح . وبعد وقت قصـير أرسلت فتاة جميلة حلوة تدعونى إلى مشاركتهم شرب القهوة فى غرفتها فـاعتذرت لأننى لا أعرف كيف أتصرف ، وصدمة لقائها كانت عميقة الغور . ثم جاءتنى الفتاة مرة أخرى محتجة بأخذ كرسى من غرفتى وهى تحاول إقناعى أن أخرج من وحدتى وصمتى ، ولو أنها بدأت معى بمثل هذه الرقة وبمثل هذا اللطف لتغير مجرى حياتى ، ولربما آثرت البقاء وجادت بوصل حين لا ينفع الوصل فقد أحسست بدار « فراير » كل الرضا ودفعت لها مقدماً .

ومنذ الصباح جلست إلى جانبى فتاتان من «فنلندة » أو « السويد » وأخذتا تتحدثان معى واحدة عن حياتهـا وحياة صـاحبتها ، وتسـابقتا فى الحـديث بأنهما فى لنـدن لتعلم الرقص ، وخلال الحديث سألتنى إحداهما بـرقة مصـطنعة . هـل سأتـركهن . قلت : للأسف نعم ، لأننى دفعت مبلغاً من المال عربوناً ولا يمكن أن أتراجع .

ثم جاءت السيدة ربة المسكن وقالت : لم تخبـرنى أول الأسبوع . قلت : إن أول الأسبوع البارحة ، ويمكن أبقى هذا الأسبوع إلى نهايته . ففرحت فرحاً شديداً ظنت بأنها سوف تقنعنى بالاستمرار . وبالفعل بذلت جهدها ولم توفق ، ثم قالت : هل من تسكن معهم خير منا ! . أردت أن أصرخ فى وجهها . . « إنهم الملائكة وأنتم الشياطين » . ولكن المجاملة أسكتتنى . . فاكتفيت بابتسامة غامضة . . ولما حـان الوقت تـركت المحل غـير آسف .

لقاء الأستاذ

قبل أن أقدم إلى لندن . كنت قدمت للدكتوراه إلى جامعة القاهرة ، وتأخر الطلب . ففكرت بالاتصال بالجامعات الإنكليزية للحصول على الموافقة ، فوافق الأستاذ « ألفـرد كيوم » على أن يتولى الإشراف على رسالتى ، وبذلك ضمنت القبول الذى سوف أتعلم بوساطته اللغة الإنكليزية ، وبعدها أرجع إلى مصر أكمل رسالتى التى جلبت معى أكثر مصادرها نقلاً أو كتباً . ولما وصلتها لم أجد الأستاذ « كيوم » فقيل لى : قابل وكيله حتى

يعود . وقد كان هذا الوكيل غائباً أيضا فى قطر عربى ، وكانت السفارة الإنكليزية أعطتنى مدة محدودة للإقامة ولن تجدد إلا بموافقة الجامعة على تسجيلى ، ولن يتم إلا بمقابلة الأستاذ أو وكيله ..

كنت أعد الساعات والدقائق ، وخير وسيلة هى الانصراف إلى تعلم اللغة الإنكليزية ، فبذلت جهدى كله فى هذه الدراسة وسجلت فى ثلاث مدارس إحداهما يومية وثانيتهما أتعلم التلفظ والثالثة أدرس فيها لغة الإنكليز اليومية . وبالرغم من انغمارى الكلى فى الدراسة إلا أن الاضطراب النفسى وتأخر الأستاذ فى العودة زادنى قلقاً وحيرة .

وأخيراً جاء الفرج ، وضرب لى موعد لمقابلة الوكيل ، ودخلت حجرته التى انتشرت فيها الكتب ، وقد جلس فى الزواية ، فسلمت عليه وحييته بكل احترام وأدب ، فنظر إلىّ نظرة ملؤ ها الاستغراب وعدم المبالاة ، ثم رد على التحية بوجه جامد النبرات .. قلت فى نفسى إنكليزى دمه بارد . سألنى ما الموضوع الذى أريد أن أحضر فيه الرسالة ! قلت : الأدب العربى . فنظر إلى باستخفاف واستنكار وقال :

الأدب العربى ! قلت نعم . فرد علىّ : هل تتمكن أن تحضر الدكتوراه عن الأدب العربى ! قلت له لأظهر تواضعى سأبذل طاقتى فى هذا السبيل .

قال : باستخفاف وسخرية : هل ستحضرها باللغة العربية أو اللغة الإنكليزية !
قلت : جئت هنا لأتعلم الإنكليزية .

قال : عليك أن تعد نفسك لمعادلة الليسانس أولا . قلت : أنا مستعد ولكن أعصابى بدأت تتوتر ، والاضطراب بدأ يسيطر علىّ لأنى أريده أن يوافق على التسجيل لأجدد الإقامة والا سأترك لندن .

قال : هل تعتقد أنك تنجح فى المعادلة ! .
قلت : أبذل جهدى ، وأحاول والموفق الله .
قال : الامتحان فى حزيران .
قلت : نحن فى تشرين والوقت يكفى .
قال : لا أظنك قادراً على النجاح ..
قلت : لم أدخل الامتحان حتى أعرف مقدرتى .

فأخذ ورقة بيضاء وكتب عليها قائمة بأسماء الدروس التى يجب أن أمتحن بها لمعادلة شهادتى . وهنا ضاق صدرى وقلت له : أنا لم آت لأحضر معك شهادتى . أنا اتفقت مع

الأستاذ « ألفرد كيوم » وقد بعث لى رسالة بهذا الصدد وأحلت عليك لأنه خارج لندن .

قال : هل أرسل لك رسالة بهذا الصدد ! قلت : أرجوك أطلع على الملفة الشخصية والرسائل التى دارت بيننا ، لاشك فى أنها موجودة . وذهب بنفسه يبحث لدى المسجلة والسكرتيرة عنها فلم يجدها ، وعاد وسلمنى الورقة التى كان يكتب فيها وقال :

اذهب إلى المكتبة وابحث عن أسئلة الامتحانات فهى تساعدك وتعطيك فكرة عنها .

قلت : متى سأراك ! .

قال : سوف أرسل لك بذلك . وكرر . .

أبعث لك بذلك . . طريقة مهذبة للرفض . . اذن رفض الطالب . . عدت واهن القوى ، يصارعنى عاملان العودة إلى مصر أو العراق ، وعامل البقاء حتى يأتى الأستاذ . فنظمت على ظهر الورقة قصيدة هجاء لهذا الأستاذ ، وفيها تهكم مرير من أمتى المعجبة بالإنكليز ، وقد نشرت فى (لهاث الحياة) بعد أن رفعت الهجاء المرير منها ، ولكنها لا تزال تحمل هذه الروح ومنها :

ومن مضحكات الدهر أنى بلندن   لأ صبح أستاذ البلاغة والشعر

وعدت أنظر فى الورقة التى كتبها ، فإذا بها على أن أمتحن فى الأدب والتاريخ الإسلامى ، وقواعد اللغة العربية ، والسيرة النبوية . فاستقرت نفسى بعد ثورتها وضحكت وقلت ويحه أنا امتحن بهذه الدروس ، وفى إنكلترا ! وكنت متفوقاً فى الوطن العربى على فطاحل الطلاب العرب وخيرتهم فى مصر .

قلت : لابد أن يعرف هذا الوكيل ممن يطلب الامتحان فى القواعد والتاريخ والأدب العربى . فجمعت ما كتب عنى وكنت أصدرت مجموعتين هما (ألحان) و (فى ضمير الزمن) . وساهمت فى عدة مقالات قبل أن أرحل إلى لندن ، ووضعت الجميع فى ملف ، وكان فيها مقالات لأبى القاسم كرو الأديب التونسى الكبير والأستاذ المحامى محمد منير آل ياسين مع رسالة الأستاذ ، وما نشر من شعرى ونسخة من رسالة الماجستير وقدمتها للسكرتيرة لتقدمها لوكيل الأستاذ ليقرأ وليعرف من أنا . فما مرت إلا دقائق حتى سمعت السكرتيرة تنادى على وترجونى مقابلة الوكيل الآن لأنه ينتظر . فذهبت إليه فترك محله وصافحنى فى وسط الغرفة واعتذر اعتذاراً كبيراً لأنه خلط بينى وبين طالب باكستانى استبعد أن يكون قادراً على الدراسة باللغة العربية وتحضير رسالة فيها .

وبالفعل جاء ذلك الطالب يستأذن فى المقابلة فرجاه التريث ريثما تتم مقابلتى . تغير ذلك الوجه الصارم النظرات ، وسال رقة ولطفا أنسانى المعاملة الأولى ، وبدأ يتحدث معى فى اللغة العربية ، وهنا تعمدت استعمال الكلمات الصعبة فما أسرع أن أنهار أسلوبه وتحدث باللغة الانكليزية وهو يقول : أريد أن تتمرن على اللغة الانكليزية . قلت فى سرى . . مفهومة .

ثم وافق على القبول دون قيد أو شرط ، وبكل ما عرضته عليه من أفكار . . وتلطف أكثر وقال : أنت لك الحق فى مقابلتى متى أردت دون موعد سابق : وأخذ بطاقة القبول فوقعها ، وصافحنى بحرارة وأخذ معطفى وأبى إلا أن أرتديه من يديه فسبحان مغير الأحوال ! .

كانت فرحتى لا توصف وكدت أطير من السرور ، فقد انقلب الهم غبطة والحيرة هدوءاً . . والثورة رضا وأصبحنا أصدقاء أحباء ، وعرضت عليه خطتى فى البحث ونسيت الأستاذ . وبدأت أعمل معه ، وسعد بهذا العمل وشجعنى عليه وكنت أعرض عليه فصول الرسالة أجزاء وبعد ثلاثة شهور . وكنت أدخل دروسه فى الترجمة وطالما أبديت له ملاحظات لأن المستشرق مهما كان علمه لن يملك السليقة العربية وفهم كثير من التورية والمجاز إلا القليل النادر منهم .

وفى يوم من الأيام قال لى : أرجو أن تكتب لى مقالاً باللغة الإنكليزية حتى أرى مقدار فهمك وتقدمك فيها ، ولأحدد لك دروس المعادلة . قلت له اختر أنت الموضوع وأنا أكتب فيه .

قال : اكتب فى الفقة الإسلامى .

قلت : الأدب حقلى فهل تريد أن أكتب لك فكرة عامة عن الأدب العربى فى العراق .

وكنت نشرت مقالة فى (الرسالة الجديدة) فترجمتها وأضفت إليها وقدمتها له فكانت سبباً فى إعفائى من امتحان المعادلة ــ ولعلى من الطلاب القلائل الذين لم يقدموا هذه المعادلة ــ لأن قابليتى فى اللغة الإنجليزية تؤهلنى على الاستمرار فى الرسالة وبذلك سجلت طالباً للماجستير وأنا عندى ماجستير .

ورجانى أن أحضر الخطة من جديد ليسمح له بالكتابة وأخذت الخطة وقدمتها له وبدأت فى التحضير مطمئن النفس خالى البال دون أن أفكر بما يخفيه القدر . ولكن الأمل لم ينقطع بأن القاهرة سوف تقبلنى وأعود وأخلص من هذا العمل المرهق ثم طالبنى بأن أكتب

فصلاً أعرضه عليه فكتبته وأخذته إليه . ولما قرأه وجدته لا يقدر أن يسمع كلمة سيئة عن الإنكليز . . كيف العمل والرسالة كلها ضد الإنكليز لست ألومه فهو إنكليزى يحرص على قومه وبدأت المتاعب تبرز بيني وبينه فى كل فصل من فصول الرسالة فقد كان الحديث عن الأدب العربى غريباً عليه ولم يكن الأستاذ قد اطلع عليه ولا يعرف أعلامه وتياراته واتجاهاته فعلى وقع عبء ثقيل .

بدا يغير فى بعض الحقائق ويتهم الكتاب بالانحياز وعدم الثقة فهـذا متحيز وهـذا أمريكى لا يوثق به وكنت أحاول أن أجمع المصادر العربية والإنكليزية على اية حقيقة تاريخية أو سياسية .

أن الإشراف على الرسالة يجب أن يكون من أستاذ اختص فى هذه الناحية أو قريباً منها فالرجل يعرف جانباً محدوداً من الأدب الشعبى لقطر عربى وظن أنه سوف يستفيد منى متى درس معى . ولكن وقته الضيق وبحثى فى التيارات مباشرة مع القاعدة الفكرية العامة للأدب فى العراق حالت دون فهمه لأنه يريد أن أبدأ معه من جديد ويتعرف على حياة الشعراء والأدباء وأنا أبحث فى التيارات السياسية والاجتماعية وقد كتبت ثلاثـة فصول كاملة فكان يقرأها دون أن يعرف اين أتجه به فى البحث وقد حـاولت أن أعطيـه بعض المعلومات عن الشعراء أنفسهم والكتاب ، وحياتهم ولكن هل يمكن ذلك وقد وجد نفسه فى خضم لا أول له ولا آخر وهو لم يستعد لهذا الأمر ولما تبرم بالأسلوب الذى أسير عليه ولم يفقه طريقتى لعدم معرفته بشىء ولو اليسير عن الأدب العربى فى العراق . كتب لى ملاحظة بعد هذه الفصول الطويلة أرجو أن تتبع ما كتبه ابن قتيبة .

كانت مفاجأة لى فقد كان ابن قتيبة وضع لبنة جديدة وهو مضطر إلى التحدث عن الشعر والشعراء بأسلوب ساذج لا تحليل فيه ولا إحاطة . قلت له الفرق كبير بينى وبين ابن قتيبه فى الزمن والأسلوب والفكر . قال نريد أن نعرف حياة الشاعر ومحل ولادته وأبرز شعره وهو شىء جديد لأننا لا نعرف (يقصد المستشرقين) شيئاً عن الشعر العربى ونحن بحاجة إلى مثل هذا قلت له إن رفائيل بطى عمل مثل هذا لكنه لم يسمع به وبكتابه . . وتذكرت أن الرسالة إذا ترجمت فستكون مدعاة دهشة المفكرين . وأردت أن أقرب الهوة بينى وبينه قلت أجلب لك بعض الكتب التى تتناول حياتهم وتكون لديك فكرة عامة عن الأدب العربى فى العراق فاعتذر بضيق الوقت واقترح اقتراحـاً غريبـاً أن أكتب عن عبود الكـرخى فى الأدب الشعبى .

فابتسمت وقلت لست ممن يؤيدون اللغة العامية لأنها تفرق العرب ولن أكون من

يفرق أمتى ـ لكنه لم يفهم وأجل الفكرة كلها حتى يلاقى الأستاذ داوود كاون وفى اللقاء قال إذن حضر عن الأستاذ (الجراوى) . قلت لا نملك شاعراً بهذا الإسم . ثم فكرت، وقلت لعلك تقصد الجواهرى .

قال وكأنه وجدها كما وجدها فيثاغورس أجل قلت له مضى وقت طويل وحضرت أكثر من نصف الرسالة فهل تسمح لى بمقابلة الأستاذ كاون .

ولما قابلت الأستاذ كاون كانت عنده فكرة واضحة عن المناقشة الطويلة والاختلاف الفكرى بيننا وكأنه كان معنا ولعله أخبره بكل شىء . وحدثت كاون بأن إشرافى مع الأستاذ الفرد كيوم وهذا الأستاذ الفاضل ينوب عنه .

كان الحديث معى بلغة عربية فصيحة وجرت المناقشة بوضوح وسهولة وبلا ابهام فالرجل يعرف عن الأدب العربى معرفة واضحة وفى خلال المناقشة قال : لماذا لا تعمل معى وترتاح . قالها عبارة ومادرى ما كان وقعها على نفسى لكننى تمالكت أعصابى وقلت كيف يكون الأمر . قال أستاذك كيوم هو الذى يملك هذا الحق فأقنعه قبل أن تنتهى السنة التى هى على الأبواب .

البروفسور الفرد كيوم يحل المشكلة .

سمع الأستاذ بالمشكلة التى جرت بينى وبين وكيله وزادت الأمور تعقيداً أن وكيله سيأخذ مكانه بعد أن عرضت على أستاذى أمريكا مبلغاً كبيراً للتدريس فيها والأستاذ يعد نفسه للسفر . فلما طلبت مقابلته اعتذر لأنه يعد العدة للسفر ولا وقت عنده لمقابلة الطلاب . كيف السبيل إلى الحل إنها صدمة لم أكن أتوقعها ولم أكن قد حسبت لها حساباً .

واعرفه يحب الشعر فاهديته بمناسبة سفره مجموعتى شعرى (ألحان) و(فى ضمير الزمن) ولما تقابلنا فى الممر شكرنى وقال انت شاعر ؟ ولا أدرى أن فى الطلبة شاعراً عربياً ، قلت يضع خطاه فى أول درجات الشعر قال الشاعر مجيد رقيق ، أسعدنى الثناء وقلت أريد أن أناقشك فى قضيتين الأولى تخصك والثانية تخصنى فهل يمكن أن تقابلنى ضحك الرجل وعاد من حيث أتى وقال قل الأولى : قلت كتابك (الإسلام) .

وبدأت فى مناقشة قال هل رضيت عن الأولى قلت سأدرس رأيك بعد ذلك . والأستاذ رجل من رجال الدين ومن ذوى القلوب الطيبة والنفوس الكريمة ورجال الدين

كلما ازدادوا فهما للدين وعرفوه على وجهه الانسانى الصحيح تزداد نفوسهم طيبة وبساطة فلما طال الحواروفتحت أبواب الحديث أقبل على بكل جوارحه وأحس بأن فى نفسى شيئاً وبلا مقدمات قال : ماذا حدث لك مع وكيلى فشرحت له الأمور ولم أثقل . . وقلت له أنت المسؤول الأول عن إضاعة جانب كبير من وقتى . وهى القضية الثانية التى جئت من أجلها .

لم يكن يتوقع هذا الاتهام وأخذ يدافع عن نفسه . فأخرجت له رسالته التى أرسلها بوعده بالإشراف المباشر . . سكت الأستاذ وكأنى به يعيد النظر فى الرسالة وبعد صمت حسبت دهراً . قال : إن خير مكان لك بعد ذهابى جامعة كمبردج ففيها خير أستاذ يشرف على رسالتك هو الأستاذ أربرى وأخرج من جيبه مفكرته وقال سوف أقابله قريباً . .

قلت لا مانع عندى على شرط أن أنظمتهم تسمح باحتساب سنة جامعة لندن . . ضحك وقال هذا أمر ليس بيدى ولكن هل يمكن أن تقابلنى يوم الإثنين . . الإثنين واليوم الجمعة ما أطول الساعات على المنتظر وما أمرها على نفسه إنها ثقيلة الخطى وئيدة المسيرة حتى حان الموعد ولا أدرى ما هو القرار فلما دخلت عليه قال :

مع السلامة تينا أخذت قلبى رهينا
ففى البعاد اذكرينا ومن رضاك امنحينا

كانت مفاجأة هزتنى لماذا يردد الشيخ الوقور شعرى ويحفظه بهذه السرعة هل هزت القصيدة مشاعره وأعادت إليه ذكريات الشباب والصبا لأن الفرحة قد ارتسمت على وجهه وانبسطت كل أساريره ، فهل أراد أن أغفر له وأرضى أم أنه أراد أن يودعنى أم أراد أن يبرهن لى على ذكائه أم حبه للشعر . . لا أدرى ! لكنه أردف قائلا : من هى تينا ! .

قلت إنها حواء . . وتعرف حواء . . إنها حواء ياسيدى . . ضحك وقال : إنها حواء ولن تتغير فقد فهم ما أعنيه ثم قال حصلت على ما تريد وقد وجدت اللائحة تبيح لى تحويلك إلى أى أستاذ لأنك مسجل معى .

واتكأت على الكرسى لأرتاح وأحس بالطمأنينة التى سرت فى نفسى . . ثم خرجنا معا وقال مع من تريد أن تعمل قلت مع الأستاذ كاون ودعانى للعمل معه ، قال موافق وهو يفهمك أكثر من غيره ويفهم الأدب العربى .

وتشاء حسن الصدف ان تتم ، فقابلنا الأستاذ كاون فى المصعد ونزلنا معا ولما عرض

عليه العمل وافق فنظر إليه وقال . . سوف يأتيك النقل رسميا ، يؤكد هذا الانتقال ، فهل تم الأمر ! .

كان وكيل أستاذى راغباً رغبة عميقة للعمل معه فقد وجد تلميذاً يختلف عن تلاميذه ولابد له أن يكتب تقريراً عن عملى معه ويوافق على التحويل لأنه الذى قام بالإشراف المباشر . . وطالت الأيام وهو يأبى أن أعمل مع غيره ثم أصبح بالفعل هو الرئيس والأستاذ فأرسل فى طلبى وقال :

اسمع . . قلت له كلى آذان صاغية . . إن القسم يحتاج إلى مدرس يدرس اللغة العربية وأنت أجدر شخص يعمل معى وأنا أرشحك بل أعينك فى الجامعة إذا وافقت على الاستمرار فى إعداد رسالتك تحت إشرافى .

إنه العرض المغرى لأمثالى لأننى لا أعرف هل سوف أتم الرسالة فى هذه الأجازة الدراسية العرجاء إنها سنتان فقط وعلى أن أحضر فيها الرسالة وهذا ممكن فى مصر لأن الدراسة بالعربية والكتابة بها أما فى لندن بعد أن أرهقتنى دروس اللغة الإنكليزية بدأت أخشى ألا تكفنى المدة . . لاتمام رسالتى فيها .

كان الدكتور معتصم مجذوب من السودان مدرساً فى القسم وكان شديد الصلة بى وكنا كالأخوين أحببته وأحببت كل سودانى من أجله فهو طيب الخلق رقيق الشمائل فذهبت إليه فى غرفته وحدثته بالأمر كله . .

قال لى إياك أن تقبل الوكيل،سوف يستفيد كثيراً منك وقد تطول أيام التحضير فقد وجد فيك فائدة كبيرة وعرف مقدار فهمك للأدب وأنك شاعر وأديب ، ارفض برقة ولطف الطلب ما دمت مصمماً على الحصول على الشهادة .

ذهبت إليه وقلت له كنت أتمنى أن أعمل تحت إشرافك لولا أننى مرتبط بالدولة وترفقت بالرد فوافق مرغما . . وقال بحدة سوف أرسل تقرير عملك اليوم . . قلت أشكرك وأنا لن أتردد فى خدمة أى عمل فكرى وأدبى تريده منى . . وفى اليوم الثانى بادرنى كاون بأن التقرير وصل كنت أكتب بلغة انكليزية مصرية أو عربية مؤنكلزة فكان يسألنى كاون عن كل كلمة وما أعنيه باللغة العربية ولم يكن الوكيل قادراً على التحدث باللغة العربية وكان يأخذ الفصول معه ثم يعيدها بعد أن يضع ملاحظات عن كل فصل أكتبه . . وفى بداية السنة حولت إلى الدكتوراه وبدأ نشاطى يزداد ودراستى اللغة الإنكليزية تتسع فمرت السنتان

تهرعان إلى النهاية وكأنها فى سباق المئة متر .

فى دار فراير (FRIER)

عندما دخلت الدار أول مرة رجتنى أم الدار أن أعدّ نفسى واحداً من الأسرة وتركت لى غرفة الجلوس أعد فيها رسالتى وكانت حجرة جميلة أنيقة يمكن الخروج منها إلى الحديقة التى نسقتها هى أجمل تنسيق وفى الحجرة مدفأة كنت أجدها فى كل يوم مملوءة بالفحم الحجرى متقدة النار جميلة اللهيب . . وطالما أمعنت النظر فيها إنه جمال ما بعده جمال عندما ترتفع ألسنة اللهيب أو تهبط فى هدوء رقيق تشع بالدفء والجمال . . ما أحلى الليالى الباردة مع دفء الموقد . . ذكرتنى بأهلى . . وفى زاوية الحجرة خزانة جميلة فيها صفوف من كتب جارلس دكنز الأديب الإنكليزى فنقلت المكتبة إلى غرفة نومها فى الدور الأول لأضع فيها مصادر البحث .

والحق أن البيت كله كان تحت تصرفى وامتلأت الحجرات من كتبى وأوراقى وكانت تتركها فى محلها وكانت تفرح فرحاً مزيداً عندما تتحدث عن طالب الدكتوراه العربى وتفاخر أترابها به وبعمله وجديته ومواظبته وكنت أحس بأنها تريد أن تبذل كل ما لديها فى مساعدتى فى لغتى وكانت تصلح لى لغتى إذا غلطت وتشرح لى المعانى التى أسمعها من المذياع ولا أفهمها وكنت أسألها عن الأعمال التى تقوم بها وأرجو أن تحدثنى عنها . . فكانت الساعات القصيرة التى آكل فيها أو أستريح تملأها هى فى الحديث معى وكانت الأسرة تأخذنى معها إلى كل مكان تذهب إليه إلى أصدقائها وأفراد الأسرة الآخرين وحفلاتهم وقدمتنى إلى عضو البرلمان الموجود فى المنطقة وسمعت بعض الخطب الانتخابية فى المنطقة وتعرفت على مقدار اندماج أبناء الشعب مع بعضهم وصلة النواب بالشعب .

وتعرفت على مشكلات المجتمع وقضاياه وحياته ففتحت لى أفاقاً جديدة لم أكن أعرفها من قبل ونمت لغتى واتسعت مفرداتها فقد كنت أناقش وأستمع لكل شىء وخلقت حولى جواً يحب العرب ويدافع عنهم ويتبنى قضاياهم . . كنت أدعوهم كما يدعونى وأقدم لهم الهدايا فى المناسبات البارزة فى عيد ميلادهم ورأس السنة وعيد الفصح ، وكانوا يقدمون لى أشياء كثيرة . .

الحق أحسست أننى أحد أفراد الأسرة فكانت تفرح لفرحى وتبسم عندما أسعد فى عملى . .

يوم الثلج الجميل

صعدت ربة الدار إلى حجرتي صباحاً وجلبت معها كوب الشاي الذي يشربه الإنكليزي في فراشه قبل ترك فراشه لتناول فطوره . وجاءت بالرسائل التي وردتني هذا اليوم . . ثم ازاحت الستارة التي تغطي الشباك المطل على الشارع وقالت انظر إلى الطريق . كانت تترك الشاي والرسائل وأحياناً الجرائد علي المنضدة بجواري ، ولم يسبق أن قالت انظر ولما ألقيت نظرة سريعة هالني وأدهشني هذا المنظر الساحر فقد غطى الثلج كل الطريق واستحال سواد القير إلى بياض جميل كما ارتدت الأشجار والسطوح الحمراء والسوداء قطعة بيضاء ناصعة . وأخذت أتناول الشاي في فراشي وأمتع النفس بمنظر أراه لأول مرة في حياتي إنه نزول الثلج من السماء وكأنه ذرات قطنية تتطاير من قوس نداف غشيم أخذتها الرياح يمنة ويسرة ثم تستقر على الأرض فتضيف إلى ثلجه قطرة جديدة من بحره الكبير .

الناس يمرون فرحين والأطفال يعملون من تساقط الثلج كرات يتضاربون بها راكضين والفرحة تجري معهم والغبطة ترف على رؤوسهم

ومن الطريف أن فتاة تحمل كلباً على كتفها تخاف عليه أن يدوس على الثلج ومعها طفلان يركضان على الثلج وهما ينظران إلى الكلب برضا وكأنه يأخذ حقاً مكتسباً أما الطفلان فكانا يرتديان الأحذية السميكة المبطنة بالفراء . قلت : حملت الكلب على كتفها وتركت ولديها يركضان وراءها . . فهل الكلب أعز من الأطفال !! .

أما شجيرات الورد الصغيرة كأنها في بحر البياض نبت من الثلج بعد أن دثرها بفراء أبيض حلو رائع الفتنة ، ناصع اللون وقد ارتفع سمك الثلوج وأخذت الأقدام تغور فيه وتغطس . . ولتخليد هذا اليوم، صورت حديقة المنزل وصورتني ربة الدار وصورتها وكانت الأسرة في احتفال جميل . إنه يوم الثلج الذي يفرح به الإنكليز مثل الفرح بيوم الحر واشراقة الشمس . إنه الانفتاح على الحياة بلا تشاؤم .

زيـــارة

الزيارات جزء من حياة الشعب الإنكليزي فما تمر بضعة أيام حتى تزور العائلة أو تزار ، تكون ساعة الزيارة معروفة وعدد الضيوف والوقت الذين يصلون فيه إلى المحطة ومتى يتركون الدار . كل شيء منظم ومعروف وواضح وقد جاءت أسرة مؤلفة من سيدة متزوجة للمرة الثانية وابنتاها (هيلين ٩ سنوات) و (كارول ١٤ سنة) وكانت ربة الدار قد أعدت لهم الغذاء والشاي وعرفت قبل أن يقدموا أين تجلس الأم وأين يجلس زوجها

١٩٥٤/١/٤

و يجلس رب الأسرة على مائدة الطعام وبالفعل وصلت فى الموعد المضروب برغم أنها جاءت من مكان بعيد خارج لندن فهم يعرفون مواعيد القطار ومواعيد الباصات والوقت الذى يستغرقه الوصول إلى الأماكن التى يريدون ، ويمكن للإنكليزى أن يؤقت يومه وأسبوعه وسفره وأكاد أقول عمره أو السنوات التى يعيشها ، . . . نظام دقيق وتقاليد مضبوطة وعادات محترمة لا يخالفها الإنكليز .

لم أستقبل الضيوف فقد كنت أعمل فى غرفتى ثم تمددت فى الفراش لأنى أحب المطالعة فى الفراش فما أسرع أن جاءت ربة الدار وقدمت لى الطفلتين وقد حدثتهما عنى ، قالت إحداهما : سمعت بأنك شاعر . قلت أنظم باللغة العربية . قالت : أريد أن تكتب لى شيئاً باللغة العربية ، ثم نزلت معهم لأتناول الطعام وجاءت أمهما وسلمت على مع الطفلتين وبدأ الحديث عن العراق المجهول عند الكبار والصغار فأخذت أحدثهم عن العراق وعن العرب والتاريخ الإسلامى . وكانت الأسئلة كثيرة ومتنوعة وكانت الرغبة صادقة فى التعرف على الوطن العربى . . ثم قالت الصغيرتان بعد أن أخذ الإعجاب بالعرب كل مأخذ منهما سوف أتزوج عربياً ، وقالت الثانية أنا أريد عربياً ، فكيف تتزوج أختى وأنا أبقى وحدى سوف أسافر معها وأخذت تتخيل كل واحدة كيف تفارق أمها وكيف تعيش وأنها سترسل لها برسائل وتدعوها معها وما هى أحب الأشياء للرجال العرب لتتعلمها من الآن . وكانت الأم تساعدها وتحاورها بكل رضا ودون غضب أو زجر ولم تهزل من حديثهما أوتتهكم عليهما أو تصرخ بهما حتى يسكتا .

كان الحديث يدور بين الطفلتين وأمهما معى ببساطة وقد تربى الإنكليز على عدم الخوف من أية سلطة فلا يخاف الأب أو المدرس أو الشرطى أو الدولة فهو يناقش بصراحة ووضوح ، وقد لاحظت ذلك طوال بقائى فى لندن .

زوار لطاف

أخذت ربة الدار تداعب البنتين وقالت لهما :

سأخرج اليوم أزور صديقاً . . ثم داعبت الكبيرة وقالت : لن أخبرك إن كان رجلاً أم امرأة فقالت طفلتها وأنا عندما سأذهب مع صديق لن أخبرك مع من ذهبت فردت عليها أمها أنا أعرف مع من تذهبين وذكرت لها أسماء أصدقائها البنين وهى تقول لا حتى وصلت إلى اسم من الأسماء قالت الفتاة ضاحكة : إنه هو ، وبدأت تتحدث لأمها عنه وعن شكله ووصفه بلا خوف أو رعب .

وكانت الأم تحدثنى عن أصدقاء البنتين لأن الصداقة فى الغرب تكون معروفة وطبيعية بين الرجال والنساء يقرها المجتمع ويرضاها فلا خوف من تعليق اجتماعى أوحذر من خدش السمعة مادامت الصداقة واضحة وأمام الناس .

جاءتنى إحدى الطفلتين وكتبت لها باللغة الإنكليزية بدفتر ذكرياتها بعض التمنيات والآمال والدعوة لها بالسعادة ورجتنى أن أكتب لها شعراً باللغة العربية فارتجلت لها :

كارول أهلاً وسهلاً ومرحباً بالقدوم . .
قد كنت فى البيت عطراً يفوح بين النسيم
أرجو رقيق الأمانى من الفؤاد الحميم . .
وأن أراك بخير سعيدة فى النعيم .

ففرحت الأسرة كلها وكأن شكسبير أو ملتن كتب هذه الأبيات .

وفى المساء وفى الوقت المحدد ودعت الأسرة ربة المنزل وأسرتها وهى تعرف مقدماً فى أية ساعة ستصل ومن سيكون بالاستقبال ، وأكدت ذلك بنداء هاتفى مقدماً .

حديث البغدادى (١)

مر وقت لم أكتب شيئاً فى مذكراتى فقد انغمست فى دراسة اللغة الإنكليزية وابتعدت جاهداً عن رؤ ية أكثر الإخوان العرب وقد ساعدتنى الأسرة على التمرين المستمر والنقاش الدائم فإن الحديث كله بالإنكليزية .

وقد أخذت ساعات أخرى باللغة والأدب الإنكليزى وكنت أعد أوراقاً صغيرة فى جيبى وكلما مرّ بى لفظ جديد أكتبه فيها ثم أراجعه فى المعجم وأكتبه عدة مرات ثم أمزق الورقة كيلا أعتمد عليها فلا أمرّ بعنوان لا أعرفه إلا أسجله وأدرسه بل أسأل أحياناً المارة عن طريقة لفظ هذا العنوان وينظر لى بعضهم باستغراب وآخر لا يلوى عن شىء ولعله مثلى غريب لا يجيد القراءة ولا يفهم اللغة .

وذهبت يوماً إلى لندن لأنى أسكن خارجها وإن كانت موصولة بقطار الأنفاق من كل ناحية من نواحيها المتعددة وقابلت الأستاذ وديع جويدة من خريجى دار المعلمين العالية وذهب لأكمال دراسته فى أمريكا وتزوج أمريكية ووجدا عملاً فى جامعة سركيوس واستقر بها لكنه لم ينس العراق وخامر قلبه حبها والبعد الزمنى أبقى عليه لغة بغداد الحلوة النبرات وكأنى أسمع أمى وهى تتحدث بلهجتها ولغتها وتعابيرها الجميلة . فقد تطورت وتبدلت

(١) ١٩٥٥/٢/٢٤

لهجة أهل بغداد لكثرة من ورد عليها وشابتها لهجات متنوعة وبقيت لهجة وديع صافية فكنت أطرب لألفاظه الأصلية الحلوة وقد كانت أخته الآنسة البرتين في جامعة اكسفورد تدرس الدكتوراه .

دعوتهما عندي ، فقلت للسيدة : عندي ضيفان ، ثلاثة ضيوف ، هل يمكن أن ترحبي بهم . . قالت الترحيب موجود ولكن قل لي العدد ثلاثة أو اثنان لأن إعداد الطعام لثلاثة غير إعداده لاثنين وهذه ميزة يمتاز بها الشعب الأنكليزي فهو يرحب ولكنه لا يسرف فلا تشتري السيدة غير ما يعوزها من الطعام ولا تطبخ أكثر مما تحتاجه في يومها ولأنها لا تريد أن ترمي الطعام الزائد في الزبالة . . كما نصنع في الشرق فإذا جاء ضيف أكثرنا من الطعام والشراب وما لذ وطاب وقد لا يأكل إلا القليل منه .

ان شراء حاجتها اليومية والأسبوعية لها مغازيها ولها جذورها فالأنكليزي لا يكدس الطعام ولا يدخره لأنه مطمئن من أن الدولة لن تتأخر عن تقديم كل ما يريد وأنها تخدمه فلا عجب أن وجدنا في لندن كل ما سمعنا به وما لم نسمع من فاكهة وخضار وطعام وشراب مختلف أنواعه متباين في أسعاره وأشكاله حتى يحار المرء أمام هذه الأنواع المختلفة من الخبز والكيك والفاكهة التي نجدها في غير مواسمها موجودة في أسواق لندن فنجد فيها أنواع التفاح والعنب والبرتقال والرمان والبطيخ والأجاص وما لم أعرف من الأسماء .

جاء وديع وأخته وكانت سهرة ممتعة أفاء بها علينا وديع بلطيف فكاهاته يبحث له عن مصادر عن العراق بين كتبي ، قلت له كل الكتب طوع يمينك وخذ ما تريد دون قيد أو شرط ومن طريف ما حدثنا به .

البلبل العراقي

إن له زميلاً من لبنان شديد الإعجاب ببلده فلا يرى بلداً في العالم يضاهيه حسناً وجمالاً وفي يوم من الأيام حدثه وديع عن بلابل العراق وجمال أصواتها ورقة ألحانها وقال : ليست مثل بلابل لبنان جمالا وصوتاً . . قال وديع : بل أجمل . . يقصد إثارته . . فقال له : إن منطقة عكار (بلد المتحدث) . . فيها بلابل لطيفة ذات أصوات شجية رائعة واستمر يتغنى بها ويذكر مفاتنها وحلاوة صوتها . . فقال له وديع : إن مكانة البلبل معروفة في الأدب العربي وقد وردت عنها صور جميلة وامتدح أصواتها العرب والفرس والترك ، فقال صاحبه : ليست أصواتها أحلى من أصوات بلابل لبنان . وأخذ يتحدث عن بلبل كان صوته يشنف اسماع الناس من أميال ويطرب بأحلى الأنغام .

قال له وديع : هل كان الموسم فى الصيف ! . . فاستغرب صاحبه وقال له :
كيف عرفت ! . . فأجابه : إن البلبل الذى أعجبك وأعجب الناس وطربوا له جاء من العراق مصطافاً . . فضحك الحاضرون وضحك .

كيف ينجحون ؟

وحدثني عن أمور يقوم بها بعض طلابنا فى أمريكا والأساليب التى يلجأ إليها فى النجاح ، بأن يقدموا بعض الهدايا للأساتذة ، فأحدهم كان يعمل فى السفارة أهدى استاذه صندوقاً من الويسكى ودعاه إلى حفلات السفارة ، والطريف أنه لا يريد أن يحضر الامتحان لأن مركزه السياسى لا يسمح له بالجلوس مع الطلاب ويكتفى بالتقرير الذى يعده له أيضا .

وذهب أحدهم باكياً متوسلاً بأن له أولادا وزوجة فى انتظاره وآخر يزعم أنه من أبناء القبيلة وإذا رسب فسوف تقتله القبيلة أو أن الحكومة العراقية سوف تعيده إلى بغداد ويعاقب هناك عقاباً صارماً .

أمور ينذى لها الجبين وتأباها الكرامة وإلى جانبهم طلاب يرفعون سمعة العراق بدراستهم وعلمهم وتوقد ذهنهم ويملأون وطنهم فخراً بأعمالهم ، هذا هو طبع البلد المتأخر الذى يرسل بعض الطلاب بالوساطة ودون عناية بالذكاء والقابلية . وسوف يعودون أعضاء فاسدين ينشرون الجهل واللا أبالية .

وقالت أخته : قابلنى عراقى ابتلى به التاريخ فى العراق وأخذ يرصع كلماته بالإنكليزية الركيكة التى كانت تضحك منها ، قلت : إنها فتنتك لأنك أكثر منه معرفة بالإنكليزية وأعمق منه نظرا فى مفرداته ، فأحس الرجل بالنقص فأراد أن يجاريك فزلق وانكسر لسانه وارتبك فكره وتشوهت سمعته ، وأظنه يستحق هذه الفضيحة ، والحق أننى أقابل أمثال هذا وهو لا يعرف الإنكليزية . . يحاول أن يحشو بها كلامه فيظهر جهله وتبدو ضحالة علمه وهو لا يعلم أنه يؤذى نفسه ويسىء إلى سمعته ويضحك عليه من يعرف اللغة خيراً منه .

إنه شعور بالنقص . . وقانا الله منه .

حلـــم العـــذارى

يعجبنى فى الإنكليز المجاملات بين الأصدقاء ، فإذا تزوج صديق شاركوه فرحته بهدية رمزية ، وإذا جاء عيد الميلاد أرسلو له بطاقة تهانى ، وأيام عيد الميلاد فرصة تنهـال فيها الهدايا . وخير المناسبات هى حفلات الزواج ، إذ ليست هناك كلمة أعذب من كلمـة الزواج على قلب المرأة وبخاصة الإنكليزية ، لأنها تعيش فى ضياع تام وفى حيرة فى حياتها فهى تكد مثل الرجل وتكدح كما يكدح ومع ذلك فان راتبها أقل من راتبه ، ولو كانا قد تخرجاً من جامعة واحدة وفى سنة واحـدة ، هذا هـو النظام الإنكليـزى ، لذلـك كثيراً ما تركت المرأة العمل عندما تجد الزوج الذى تطمئن إليه ، وهذا ما صنعته ربة الدار التى أسكن معها ، ولما تزوج صديقان من أصدقائها اشترت لهما هدية بسيطة هى غطاء خوان لم يتجاوز سعره نصف الباون وربطته بورقة جميلة فيها أزهار متباينة الألوان ، وألوان أنيقة وعلى إحدى الزهرات طائران يتناجيان فى لقاء حالم وقد زق أحدهما الآخر وكأنهما فى قبلة شوق عاشق وقد حرصت على ربط الغطاء بعناية واختارت الورقة الجميلة التى طوت فيها الغطاء .

وبعد أيام وصلت علبة صغيرة فى حجم بطاقات الزيارة وفى داخلها قليل من (كيك) الزواج . . تعبيراً عن الحب والتقدير والشكر من العروسين .

ومن الطريف أن هذه القطعة لها خرافة أو أسطورة . . بأن البنت العذراء تضعها تحت مخدتها ليلاً لترى فى الحلم عريس المستقبل . .

إن المفرش الصغير رمز عاطفة يقدرها المهدى إليه ، وليست الهدايا بأثمـانها وغلاء سعرها ، إنما بما تحمل وراءها من عاطفة عميقة ، بينما فى بلدنا تسأل أو يسأل المهدى عن سعر الهدية وقد يأخذها إلى السوق دون أن يفكر بالروح المعنوية والعواطف القلبية التى دعت المهدى إلى ارسالها .

وأكدت ربة الدار بأن لقطعة الكيك أهمية للعذارى ، فهى تأخذها وتضعهـا تحت وسادتها لترى أمانيها ومستقبلها وعسى ان ترى من يكون خطيبها أو زوجها إنه حلم العذارى مع الأساطير والأحلام . . وهى سنة الحياة والطبيعة ولولا هذا الوثـاق العميق لضاعت الحياة وهمدت الحركة فوق الكرة الأرضية .

افراح عيد الميلاد (١)

الأمة الناضجة والشعب الواعى يبحث عن مناسبات يحتفل بها ويفرح بوجودها ويعد العدة لها لأن الحياة عمل وكفاح ونضال ولابد للمكافح من ساعات ترتاح فيها النفس وتنسى بعض آلامها . . جاء فى الاثر : (روحوا النفوس ساعة فإنها إذا كلت عميت) وبهذا المعنى فهم السلف حاجة الإنسان للراحة النفسية والجسدية وأخذ الغرب منا هذه القاعدة الذهبية لأن الإنسان متى ارتاح سوف يستأنف عمله بنشاط ويكون الإنتاج أكثر والعمل أتقن والإبداع أعم والفكر أعمق .

لذلك لا يفكر الغربى بترك أجازته الأسبوعية دون راحة ويتمتع بعطلته السنوية عندما يبدل مكان عمله ويسافر إلى خارج المنطقة التى يعيش فيها . أحياناً كثيرة إلى خارج بريطانية .

وعيد الميلاد أهم الأعياد الغربية التى يحتفل بها الإنكليز ، لأنها بداية عام جديد وذهاب عام قديم ، وبداية أمل مقبل وأمان مشرقة ، ولهذا الاحتفال أهمية كبيرة يستعد لها القوم قبل شهرين بمظاهر جديدة وزينات متنوعة وأنوار ساطعة تنتشر على وجهات المحلات التجارية والإعلانات الكبيرة وفيها صورة (بابا نويل) بلحيته البيضاء الطويلة الجميلة الناصعة وملابسه الحمراء المحلاة بالأشرطة البيضاء وقد حمل على كتفه كيسه التقليدى الذى يعد فيه الهدايا التى تقدم للأقارب والأصدقاء .

والطريف أن الأطفال يحلمون بأن (بابا نويل) وان (سنتاكلوز) سوف يستجيبان للطلبات والأمانى لذلك يحدثون أسرهم بهذه الطلبات وفى الصباح يجدونها فتزداد الثقة بهما .

والأغرب أن الأسطورة جاءت من الشرق من القديس نيكولاس حامى التجارة والبحار . . فقد ولد جنوب تركيا فى القرن الرابع وهو ابن أحد أغنياء التجار وكان جوادا فقد أعان الفقيرات اللواتى لا يملكن ما يقدمنه لأزواجهن ، فرمى لهن الذهب من المدخنة ليلاً ، لذلك ينتظر الأطفال دائماً الهدايا حول المداخن التى يفكرون فيها . . . لاعتقادهم أن الهدايا سوف ترمى من المدخنة ليلاً .

---

(١) ١٦/١٢/١٩٤

فالقديس نيكولاس كان بعيداً عن الثلوج لكن الغرب ألبسه اللحية البيضاء آخذا من الأسطورة اليونانية التى تقول إنه كان يحرس جبال أوليمبوس التركية اليونانية التى تغطيها الثلوج .

وتبرز الإذاعة هذه الاستعدادات وتشعر الناس بأنهم مقبلون على الاحتفال . ويؤرخ الإنكليز بهذا اليوم فيقول لك إنه أنهى القضية قبل عيد الميلاد وإنه سوف يبدأ العمل بعد عيد الميلاد وإن سفرته تؤجل إلى بعد عيد الميلاد .

وكلما تطورت الحضارة تتطور مظاهره وتكبر وتتضح أساريره وتبدو بشائره . فكل محل مهما صغر تجد فيه منظراً من مناظر الشتاء يتراكم ثلجه المندوف الذى يغطى جميع الأشجار وتجد العجلة التقليدية تجرها الخيول . وقد طارت الطيور فى السماء مرفرفة فى غبطة وسرور فوقها .

تضع المحلات الكبيرة مناظر الشتاء مجسمة بأحجام كبيرة جداً فنجد الفيلة والأسود والنمور وقد تدلت فى رقابها الأجراس والطبول وتتحرك بصورة ذاتية فتسمع لحركاتها أنغاماً حلوة تلفت النظر إلى ما سطر عليها من أعلانات . . وتضع بعض المحلات على واجهاتها التقليدية وفى الشبابيك الزجاجية بعض الرقصات الشعبية بحركاتها التقليدية القديمة مع عزف موسيقى رائع أخاذ فيحس الغريب أن حدثاً جديداً قد حدث ، وهم يلفتون إليه الأنظار برقة وجمال وعذوبة دون إيذاء لمسامع الناس وإقلاق راحتهم .

ويدخر الإنكليز المال طول السنة لشراء الهدايا وتقديمها للأصدقاء والأسرة فى المناسبة .

شجرة عيد الميلاد

ويكون مركز الاحتفال شجرة عيد الميلاد . . وفى إبرازها بأجمل صورة وأحلى المصابيح وأروع الحلى الملونة الزاهية . وتوضع فى ركن من أحسن أركان الدار وتعلق فيها المصابيح الكهربائية المختلفة الألوان والمتباينة الأجراس وفى أعلاها تمثال مجسم لملاك طائر وقد نشر أجنحته البيضاء الرفافة وقد حمل فى يده صولجانا فى أعلاه نجمة تتلألأ نوراً .

وإذا ما اقتربت أيام العيد تبدو الروح الدينية فى أجلى مظهرها على الناس وهم يذهبون إلى الكنائس معتقدين بأن الأفراح لن تتم بغير الذهاب إلى الكنيسة والاحتفال فيها . . وهى روح تسرى فى حناياهم ونفوسهم وتتجسد فى كثرة تماثيل السيد المسيح يوم ولادته وهو طفل جميل المحيا حلو البسمات ، فى حضن أمه داخل المغارة وحوله الرجال يسجدون ، وقد جثمت البقرات بخشوع واحترام أمام المسيح وهو طفل .

وعلى بطاقات التهانى تظهر الجمال وقد ركبها ثلاثة ملوك يتجهون إلى البيت المقدس ودليلهم نجمة تسطع فى كبد السماء تشير إلى محل الوليد الكبير .

إنها تشرق فوق مكان الرسول المنتظر والدولة تعنى عناية فائقة بشجرة عيد الميلاد وتنتشر عنها الاعلانات وتحدد موعد إقامتها وموعد إضاءتها ، وتنشر الجرائد صورة الشجرة التى تهديها السويد للإنكليز كل عام على الصفحة الأولى وفى أشهر وأوسع مكان فى لندن ، فى (الطرف الأغر) حيث مفاخر تاريخ الإنكليز ، ويهرع إليها الناس وكأنهم لم يروا شجرة من قبل ويتجولون حولها ويتغازلون تحت ضوئها اللطيف الباهت .

وتكثر حفلات الرقص فى النوادى والجامعات والمحلات العامة وتتسابق الكليات وفى هذا العام حفلت ساحة الرقص فى الكلية بجمع غفير من الأساتذة والموظفين والطلاب من الجنسين ورأيت الأساتذة وزوجاتهم يرقصون مع الطلاب والطالبات والموظفين والموظفات صغارهم وكبارهم ، أنهم يمرحون ويضحكون ناسين متاعب الحياة وآلامهم ومشقات العمل ، لا فرق بين أستاذ كبير أو موظف صغير ، فلا تجد زوجة الأستاذ غضاضة من مراقصة الموظف والطالب ، ولا يجد الأستاذ ما يمس كرامته العلمية عندما يراقص الموظفة الصغيرة السن أو الكبيرة أو القبيحة أو الجميلة ، إنهم سواسية ، همهم نسيان المتاعب

والتسلية واغتنام صفو العيش-ولذته والساعة التى هم فيها ببراءة وطيبة وصدق واحترام وود .

وجاء عبد الله درويش بأطفاله فصاروا مبعث مسرة للحاضرين ، فهذا يداعبهم وهذه تربت على خدودهم وتلك تتقرب إليهم ، ومن الطريف بعد أن بدأت الموسيقى تعزف ألحانها الحلوة المفرحة ارتفع صوت الجميع بالتهليل والتصفيق ولما هدأت الأصوات صرخت طفلة عبد الله تغنى حتى سرّت الحاضرين ، إنها صدحت مع أنغام الموسيقى ببراءة وعفوية فتجاوب الحاضرون لصوتها وصفقوا لها .

الحفلات بعضها صاخب يسكر فيها الناس وفى مثل هذه الأيام يفرطون فى الشراب ، وما رأيتهم معربدين أو شرسين ، ولم أر من اعتدى بالقول أو حتى بالإشارة على الناس . فقد وقفت حريتهم عندما وصلت إلى حرية الآخرين .

فكم فى الشرق من معربد أخرجته الحميا عن أخلاقه وآذى الآخرين وجلب على نفسه الأذى ! .

امرأة تعشق زوجها

يعجبنى فى الأسرة التى أسكن معها نظامها فى الحياة ودقة العمل عندها فهى تحسب لكل شىء حساباً وتنظم دخلها حسب مصروفها فالطعام مقدر له بعض المال والملابس مخصص لها جزء وسفراتها لها جزء آخر فلا تسرف فى مالها ولا تبخل فيه على لوازمها وحاجاتها .

وأم البيت هى المحور الذى تسير الميزانية وتشارك فى تصريف شؤ ون الدار بكل براعة ودقة فلا تترك صغيرة أو كبيرة إلا تسدها بنفسها فهى متصرفة فيه كله من الغذاء إلى الكساء وترتيب الحديقة ودفع أجور الماء والكهرباء والهاتف وهى خياطة ماهرة وطباخة بارعة تقرأ ما يكتب عن الطبخ كما تقرأ ما يكتب عن التفصيل والحياكة والأعمال العامة لتوسيع ثقافتها الاجتماعية والفكرية فهى تقرأ الجرائد النسوية وبعض الكتب فهى تهتم بالطبخة الجديدة والنموذج الجديد للملابس ، تطبق ما يروق لها ولابنتيها و ما يحلو بعينها وهى حيّاكة صوف ممتازة . وكثيراً ما حاكت لأسرتها أجمل النماذج وأحلاها وما رأيتها تذهب إلى خياطة بل كانت تعمل ألبسة السهرة لهن .

وقد رأيتها تتفانى فى خدمة زوجها وراحته ، تكوى ملابسه وتخيط ما يقع من أزراره وترقع ما شق من أثوابه قبل أن تكويها وترتبها فى أدراجه منسقة جميلة الترتيب . . أحس بها تفكر فيه وتسعى لراحته وتسعد عندما تراه سعيدا وتناغيه وتناجيه وكأنها فى أيام الخطوبة الأولى . فما شعرت يوما أغضبته بالقول أو بالإشارة أو التلميح . فهى تفكر فى طبخ هذا الطعام الذى يحبه فتحضره له وهذا اللون يعجبه فتفصل مثله ، هذا اللباس أطراه فتلبسه له ، هذا الكتاب سره فتقرأه لتشاركه فى المناقشة والرأى وكانت تقدم له بين آونة وأخرى هدايا رمزية حلوة ومعها عبارات رقيقة فى عيد ميلاده أو عيد الزواج أو عيد الميلاد وقد يعجبها شىء فتشتريه له لأنها تتمنى أن يلبسه زوجها ، واذا ما حان وقت عودته ارتدت أجمل ثيابها ومشطت شعرها واستقبلته بفرحة ، أسمعها وأنا فى أعلى الدار . ترحب به وتهنأ لمقدمه ، لهذا كانت قد اختارت له الهدايا التى يحتاجها عندما حان عيد الميلاد ووضعتها بعناية لطيفة وربطتها بورق عيد الميلاد مع كلمات حلوة تحييه بالسنة الجديدة وبالعمر الطويل .

وقد سارت على نهج اقتصادى سهل فى جمع المال فقد أعدت صندوقا تضع فيه كل أسبوع مقدارا من المال (ست بنسات) ما يعادل (٢٥ فلسا) . لحاجاتها الضرورية كالكهرباء والماء وعندها دفتر توفير تلصق به كل أسبوع طابعا بنصف الشلن لعيد الميلاد فإذا جاء الشهر سلمت أجور الكهرباء والماء ، وإذا حال الحول أخرجت المال الذى وفرته وجهزت البيت بما يلزمه من طعام وشراب وهدايا . كما أعدت لكل بنت من بناتها صندوقا للتوفير ولا يستعمل المال فيه إلا عند الزواج .

والطريف أنها اشترت فى الأسبوع نفسه طابعا بنصف الشلن وألصقته فى دفترها استعدادا للسنة المقبلة مع أننا فى الشهر الثانى عشر ولم نكن قد احتفلنا ولكنها لما سحبت المبلغ عدت الطابع الجديد للسنة الجديدة وأعدت الأسرة الشجرة وزينت بالمصابيح الملونة الجميلة وحشدت تحتها الهدايا وعلى كل صندوق مكتوب اسم المهدى إليه والمهدى ويشترك فى هذا حتى الضيوف الذين يأتون أول يوم يشاركون الأسرة الطعام أو من يشرب معهم الشاى فى هذا اليوم ، إنه يوم (الصندوق) إنه يوم ٢٥ من الشهر .

وقد أرادت الأسرة أن تدخل السرور إلى النفس فدعت الصديق عبود ليتناول الغداء معنا قبل أسبوعين من الموعد ولما حضر صاحبته الدهشة ، فقد وجد هديتين صغيرتين له دلتا على مقدار اللطف والرقة لأن الهدية بمقدار ما تتضمن من عواطف صادقة ومعان نفسية عميقة .

واجتمعنا حول شجرة الميلاد لنفتح صناديق الهدايا فكانت أنواع شتى وألوان متغايرة من الثوب النسائى إلى قلم الحبر ، ويرون لهذا اليوم حرمة خاصة ، ففيه تجتمع الأسرة حول هذه الشجرة ويكون اللقاء فى حجرتها ، وقد يكتب المهدى على الصندوق ــ يرجى عدم فتحه حتى يوم ٢٥ منه ــ ولا يفتح إلا فى هذا اليوم أما اذا لم ينص على شىء فقد يستعجل فى فتح الهدية وبخاصة إذا كان المرسل ساكنا خارج الدار أما إذا كان من أهل الدار فتبقى الهدايا سرية إلى هذا اليوم .

البريد وعيد الميلاد

وفى هذا الموسم يكون البريد مشغولا بحمل الهدايا وتطلب إدارة البريد من الطلاب مساعدتها لقاء أجور تدفعها لهم فلا غرابة أن وجدت طالبة أو طالبا يحمل مع كتبه كيسا فيه الرسائل والرزم والطرود ، ولا تمر بشارع إلا ويلاقيك من حمل هدية أو بطاقة عيد الميلاد لإبرازها إلى أصدقائه وأهله وذويه وتخصص إدارة التلفاز ساعات تعلم فيها الناس طريقة حزم الطرود والهدايا والعناية بها وتصوير أكداس الهدايا .

ومن الطريف أن شخصاً أرسل مزهرية بالبريد ولفها دون عناية فوصلت الى المرسل إليه مهشمة ولوصول هذه الهدايا سالمة أعطى المشاهد درساً عملياً فقد لف الموظف مزهرية بالقطن لحمايتها من الصدمات . ثم وضعها فى صندوق ثم لف الصندوق بورقة وكتب العنوان .

لم تجد إدارة البريد غضاضة من تعليم الشعب ما لم يعرفه وقابل الشعب هذه التجربة برضا وطبق الاسلوب الصحيح فى العمل وسار فى هدى التعليمات .

وقد اعتنت الأسرة بالدار زينة ونظافة وترتيبا ولصقت الأوراق الملونة الجذابة وعلقت الأغصان والأوراق الخضراء فى كل مكان من الدار وشعرت بأن شيئا كبيرا وجديـدا قد حدث فى هذا العيد وتذكرت أعيادنا التى تطحن الناس وتأخذهم إلى المقابر للبكاء على الموتى . ولن نجد الفرحة إلا عند الأطفال بالملابس الجديدة .

والطريف أن عند الإنكليز أغصانا خضراء ذات حبيبات تسمى (المسلتو) يبيح وجود الغصن تقبيل أية فتاة إذا وقفت تحته أيام أعياد الميلاد ، لذلك يتحايلون فى اخفـاء هذا الغصن فيوضع فى المحلات التى تقف فيها الفتيات مثل المرايا وفوق الصور الجميلة وأعلى محلات خلع المعاطف ومتى جاءت الفتاة لترى صورتها انبرى لها أقرب رجل وقبلها والمرأة لا تفارق المرآة . وتتأكد دائما من زينتها وقد يضع الشاب هذا الغصن فى جيبه وإذا ما رأى فتاة أخرجه ورفعه فوق رأسها وقبلها بسرعة دون حرج مع أن أهون شىء هنا القبل . إن المفاجأة والتحفز ومراقبة الوقوف تحت الغصن يسلى الناس ويضحكهم .

وقد كنت أرى عمة الفتيات تمسك من وراء إحدى الفتيات غصن (المسلتو) ويذهب

أحد الوالدين لدعوة أحد الأصدقاء ليقبلها فى جو مملوء بروح الدعابة والمرح وكل واحد منهم يضحك متى تمت اللعبة ويصفق للناجح عندما يقبل الفتاة المخدوعة . . !!

ولبطاقات عيد الميلاد أهمية كبيرة فهم يفكرون فيها تفكيرا جادا وقد لا يفكرون بالهدية لكنهم لا يهملون إرسال البطاقات إلى أصدقائهم وذويهم ، وعندما تصل البطاقات تعلق بعناية على جدران المنزل أو توضع على المدفأة تقديرا للمرسل وحبا به .

وتصور على البطاقات صور العربات والأجراس ومناظر الخريف وتراكم الثلوج وشجرة (المسلتو) مع الأزهار الحلوة وبعض صور ليلة ميلاد السيد المسيح وهو فى حضن أمه .

وفى هذا اليوم تتأخر القطر التى تسير تحت الأرض فى الأنفاق عن المواعيد فلا تسير إلا كل عشرين دقيقة أو أكثر فى بعض المحلات وتغلق المحلات الكبيرة والصغيرة بصورة عامة فتجد شوارع لندن التى تعج بالناس مقفرة ولا تبقى إلا محلات متباعدة تقدم الضرورى من الطعام للسائحين . . إنه يوم العطلة التى يحس فيها الشعب بالألفة والحب . ويجلس كل فرد مع أسرته اليوم كله ويوم الأسرة الذى لا امتراء فيه . . يحضر الغائب والمسافر يوما فى السنة .

وتظهر على صباح ٢٦ سمات الهدوء والسكون فكل شىء بقدر الحركة والصوت وحتى فتح الأبواب وغلقها . وعندما يكثر الزاور يتبدد الصمت وتذهب الحركة فقد استراح الجميع بعد سهرة الليلة الماضية الصاخبة ويعود النشاط وتدب الحركة من جديد قرب الظهر .

زورة الباسمين

زار اليوم رجل وزوجته وابنه وزوجته وحفيدان للرجل جاءوا لتناول الطعام الذى أعدته ربة البيت من قبل ، ويسرف الإنكليز فى الطعام فى أعياد الميلاد لذلك إذا شاهد طعاما كثيرا فى بيت أو فى دعوة قال كأننا فى عيد الميلاد ، كناية عن كثرة الطعام وتنوعه ويكون الديك الرومى هو سيد الموائد إنه خروف الإنكليز بعد أن ارتفع سعر الخروف . وصعب الحصول عليه وبعد أن تناولنا الطعام أمسك كل واحد لعبة عيد الميلاد التى وزعتها علينا ربة الدار وهى أسطوانة ورقية . . ربط كل نهاية منها بخيط وعلّى أن أسلمها للجهة المعاكسة ليدى وأن أتسلم من الجهة الأخرى الأسطوانة واضعا يدىّ متصالبتين ثم أبدأ بالسحب ليكون المجال أطول دون إخلال بالترتيب . ويجب أن تسحب بقوة حتى تنفجر ويظهر بداخلها ورقة مطوية بعناية ومحزمة بحزام ، يجدها غطاء للرأس من الورق على شكل طاقية أو طربوش أو طرطور أو شكل الدائرة وقد لون كل غطاء بألوان جميلة ولصقت عليه النجوم .

وشاءت الصدف أن يكون الضيف الكبير بجانبى وكان ضخم الجثة . . وكانت حصته طربوشا وضعه على رأسه واعتمر الجميع فالتفت يمينه ويساره ثم نفخ بطنه وصرخ أنا الملك فاروق . . أنا الملك فاروق . . وأخذ يرقص ويضحك ويمرح وحوله الأسرة وقد ملأوا المكان بالضحك والتصفيق بعد ذلك السكون والهدوء .

نحن وفكر الغرب

ذهبنا إلى حجرة التلفاز وبدأ الحديث المتنوع ذو الشجون ، فقد عرضت مسرحية الرقص على الجليد وهى مأخوذة من رواية علاء الدين والمصباح السحرى من قصص ألف ليلة وليلة وما إن انتهى العرض إلا ثارت أسئلة عن بغداد وهارون الرشيد وعن العراق . . عن صادراته ووارداته وكنت أجيب وأشرح وأصور العراق بصورة تقربها للاذهان وبينما كنت مستغرقا فى شرحى نظرت إلى زوجة الإبن وقالت :-

هل حقا أنت من بغداد

سؤال أثارد دهشتى وأنا أتحدث عن بغداد ومعالمها وحضارتها قلت ألم يكف هذا الحديث الطويل عنها .

ضحكت ثم حدجتنى بنظرة فيها أكثر من تساؤ ل وقالت :

كنت أتصورك وقد لبست السراويل الطويلة الفضفاضة الملونة وأسدلت على كتفيك شالا من الحرير وانتعلت نعلا مذهبا وحفت بك الجوارى من كل مكان . .

فضحكت إنها الصورة التى يرسمها لنا الغرب بين شعوبهم وأعجبنى دقة وصفها فقد نقلت كل ما شاهدته فى التلفاز وألبستنى إياه . . وسرحت ببصرها إلى سقف الغرفة وقالت ما أجمل السجادة السحرية وحلقت فى خيال لا نهائى وشرحت لها أموراً كثيرة وأجهدت نفسى بإبراز العرب بالصورة الحقيقية التى نحن عليها الآن ولكن هيهات فقد تقنع هذه وأسرتها فمن أين لى بإقناع أمم العالم وتغير المسار الفكرى والثقافى فيهم

الى البحر[1]

اتصل بى الصديق عبود صباحا ورجانى أن أصحبهم مع الأخ مهدى وزميل آخر لنسافر إلى (هيستكن) . ومحطة القطار التى سافرنا منها منظمة تنظيما رائعا هناك اعلانات عن مواعيد القطارات والمدن التى تمر بها إضافة إلى الإذاعة المتوالية بمكبرات الصوت تهدى المسافرين الى الرصيف الذى يتحرك منه القطار ، إنها مدينة كاملة فيها . المطاعم والأسواق وباعة الكتب والزهور والمقاهى ودار السينما وقد غطيت بالزجاج بارتفاع كبير وفى بعض المحطات مراكز استعلامات وحجز الفنادق للمسافرين الذين لا يعرفون أحدا فى لندن إن خدمة الشعب ظاهرة فى كل خطوة يخطوها الإنسان .

لذلك اختلفت كل الخدمات عما شاهدناه فى الوطن العربى وبخاصة فى العراق . فعندما صعدنا إلى الدرجة الثالثة دهش أحد العراقيين ولم يصدق ما رآه من النظافة والتنظيم والمقاعد فصاح فى دهشة وبلا وعى : هذا هو الموقع الثانى .

فأجابه مهدى لا يوجد موقع ثان هنا الأول والثالث لأن سكك الحديد ألغت الموقع الثانى . . قال لا أصدق هل أنتم متأكدون فأكدنا له الأمر ولكنه نزل وأخذ يتجول فى المحطة واستعرض القطار حتى آخره عساه يجد ما يتوقع . . وأخيرا اقتنع بعد أن وجدنا جالسين ولكنه سرعان ما أرسل طرفه فى القاطرة والديوان الذى نجلس فيه فقال :

أرقام . . ديوان . . مصابيح كهربائية لكل واحد منا . فراش مريح وثير . . ثم ضرب بيده بقوة على المقعد وصاح لا أصدق أننا فى الدرجة الثالثة[1] .

---

(١) ٩٥٤/١٢/٢٧

(٢) الغيت الدرجة الثالثة واقتصر القطار على درجتين وتحولت إلى الأولى والثانية

أين منا الدرجة الثالثة بمقاعدها الخشبية التى يحشر فيها الناس حشرا فى الظروف الاعتيادية . . قال صاحبنا إنه سافر الى الموصل وجلس فى قاطرة حديد تستعمل لنقل الحيوانات . . وكانت القاطرة شديدة الاهتزاز يخرج منها صوت يؤذى السمع مع إيذاء النفس ، سافر بعربة الحيوانات لشدة الازدحام ولأنه لم يجد مكانا حتى فى الدرجة الثالثة وضحك وقال : أرضيت بالأمر الواقع . . وأردف وفيها ميزة أخرى أنى أجلس على أرض القاطرة وركاب القطار أكثرهم يقضى الطريق واقفين . وقد يصعد بعضهم على ظهر القطار ، إن حالة العراق تملأ النفس أسى وحزنا وأراد أن يقارن أحدهما بين لندن وبغداد . .

قلت أرجوك لا تقارن لأن المقارنة تكون بين شيئين متقاربين فى الحضارة والتقدم ونحن دولة نتقدم ولكن ببطء شديد قال دعونى أتحدث عن أخلاقنا وأخلاقهم .

إن المسافر لابد أن يحس بالفارق بين بلد وآخر والإحساس بالفرق يتجلى بهذه المقارنة إننا مستعمرون للإنكليز وهم يحكمون بلادنا فلماذا تقارن مادامت المقارنة بعيدة وأنبرى يقول : إن أبرز شىء هنا الثقة المطلقة المتبادلة بين الدولة والشعب فلا يحمل الشرطى سلاحا ويكون أكثر من خادم لكل ما يريد أبناء الشعب فإذا أشكل على إنسان أمر ذهب الى الشرطى ليحله له دون خوف ، لأنه يؤمن بأن الشرطى خادم للشعب وحام له . ثم إن هذه الثقة ظاهرة فمن أهم مظاهر الحياة اليومية فى القطر التى تسير تحت الأرض ، وضرب لنا مثلا بأن عراقيين كانا معه وعلى العادة العراقية أشترى أحدهما البطاقات للجميع ، قال : ولما نزلت من القطار وصعدت على وجه الأرض نسيت البطاقة عند صاحبى فقلت لمراقب الباب :

صديقى قطع لى التذكرة وأخذها معه . . ونسيت أخذها منه وأنا مستعد لدفع المبلغ .

قال لا تدفع لأننا لا نأخذ الأجرة مرتين من راكب واحدا[1] . وتخرج من القطار وتدفع للمراقب أى مبلغ دون أن يسألك عن اسم المحطة التى بدأت الرحلة منها وإذا بعدت مسافتك أو غيرت رأيك فى السفر فلن يأخذ منك إلا المناطق التى تجاوزت بها بطاقتك . بساطة ويسر لا تحس بأن المفتش يريد أن يظهر البراعة بإلقاء القبض عليك كأنك لص إنه يأخذ المبلغ ويشكرك .

وهذه الثقة والصدق أجدها فى القول والعمل فإذا قلت شيئا صدقك السامع ، فلا تغلظ الايمان ولا تكرر الحكاية وتؤكد وإذا أخطأ الفرد اعتذر لك سريعا .

(١) تغير الامر وضاعت الثقة اليوم

وهذه الثقة هي التي دعت بائع الجرائد يترك جرائده وبجانبها علبة توضع فيها ثمنها اذا اشتريت جريدتك وعلى جانبيها كتبت شكرا واذا ما أمطرت السماء تغطى الجرائد والصندوق . فيأتي القارىء ويفتح الصندوق ثم يغلقه ويضع المبلغ نفسه . وهذه الثقة هي التي تركت الهويات الشخصية والرخص بلا صور في المكتبة وإجازة سياقة السيارة وهوية الكلية وعضوية النوادي . . قلت له حقا ما تقول وستكون هذه الثقة متوفرة عندما تتوفر الحضارة وتتقدم الأمة العربية وأزيدك علما بأنني لما قبلت في الجامعة لم أقدم ورقة واحدة سوى الطلب الذي قدمته ووافق فيه الأستاذ على قبولي وأصبحت طالبا مسجلا أتمتع بكل ميزات الطالب . ووصلتني كل التفاصيل عن الجامعة وتعليماتها بالبريد ومعها رسالة ترجوني أن أقدم الوثائق وأجور التسجيل خلال ثلاثة أشهر[1] .

وبلدنا تجبره القوانين والأنظمة على الطاعة والعمل وما زلنا نحترم الموظف المخالف لأنه تمرد على القانون لأننا نظن كما يقال في العراق . . إن له (ظهرا) أي له قريب في الدولة له سطوة وحب التمرد على القانون طبيعة الشعب لأن الطاعة لم تنبع من رغباته وحاجاته الاجتماعية فما زالت القوانين العثمانية والإنكليزية والهندية سارية المفعول ولم يكن أمام هذه النقمة المكظومة إلا تمزيق مقاعد سيارات مصلحة نقل الركاب وتكسير جواسق التلفون والعبث داخل السينما ومتى كانت الدولة من الشعب فلن تجد غير النظام والألفة والحب والثقة بين الشعب والدولة لأنه اختارها .

حوار هموم الشباب

ثارت هذه الشجون ونحن في قطار الدرجة الثالثة الأنيقة ونحن نتجه الى هستكن Hasting إنه الألم واليأس اللذان رانا على النفوس وبلا شعور قال أحد الحاضرين :

خير لي أن أتجنس بالإنكليزية . . قالها بمرارة وحسرة وأردف : لأني لن أستطيع العودة إلى بلدنا الذي أباح خيراته لاعدائه ومنعها عن أبنائه . . وكأننا غرباء قلت واجبنا العودة لخدمة الشعب وتطويره وتقدمه . . وإبراز الحقيقة له كما تراها . ولولا شعورك العميق بحب الوطن لما تحرك الألم في نفسك ودعاك الى ما دعوت اليه .

قال سأكون شاذا في دعوتي إلى الإصلاح وسوف ينظر إليّ بمناظر مختلفة وأتهم بتهم متعددة . . قلت له جميع الرواد يتهمون حتى يفقه الشعب طبيعة الأمور وان المصلح يعمل من أجله . نحن أمة لنا تراثنا وحضارتنا وفيها ما يدفعنا إلى التطور السريع والتقدم الجاد

(١) انقلبت اليوم الأمور وتسرب الشك إلى النفوس .

وليست أمم الغرب خيرا منا خلقا وطباعا لكن التأخر والانحدار طبيعة الحياة ولابد لنا أن نستمر فى الإصلاح ونحن طليعة العرب وخيرة شبابهم . . أما الخلق العالى والرقى والأمانة والعناية بالشعب ففى تراثنا الإسلامي ما يبعث على الغبطة وفى التاريخ العربى نماذج فى الصدق والإثار والأخلاق العالية . . لا تجدها إلا عند الأمم المتحضرة .

أليس البدوى فى الصحراء أصدق من ابن الحاضرة فلا ينافق ولا يداجى ولا يكذب لأنه ما عرف الذل وما أدركه الخوف والضعف .

إن الشعور بالنقص والخوف الكامن فى النفوس نشر النفاق والرياء والاستكانة بيننا فقد قاسى الموظف من تعنت رئيسه وجبروته لأن الاستعمار البريطانى جاء العراق ومعه أدنى الشعوب فحكموا العراق فأفسد الضمائر وأساء إلى الأخلاق . . ولما حكم أهل البلد قلدوا موظفى الاستعمار الذين غرسوا الذلة والمسكنة فى نفوسهم .

أنت ترى الموظف البريطانى فى بلده يعاملك معاملة رقيقة ويقابلك بلطف ويؤدى لك الخدمات باسماً وتحس باحترامه لك وتقديره لقولك . وتدخل فى العراق على الموظف وكأنك تريد أن تخدمه . تكون معه رقيقا فى طلبك لطيفا فى قولك باسما فيستعلى عليك لأنه لم يحاسب ولأنه يحس بأن هناك من يحميه ويذود عنه أرباب السلطة وأصحاب الصولجان ويكون الموظف طبيعيا ويحس بواجبه متى كان معتزا بكرامته واثقا من علمه مخلصا فى واجبه لا يسند باطله أصحاب النفوذ وأرباب القوة والسلطة . . إن الموظف يقوى اذا لم يحاسب ويضعف ويتوارى خوفا إذا أحس بالعقاب ويكون آلة طيعة بيد الرؤساء لأن الرئيس قادر على عقوبته وشكره وكم هدمت (مقتضيات المصلحة العامة) . من موظف ناجح ورفعت من تافه وأجير وتناسى المخلص صاحب الفضل والعلم . الذي يذوب لينير الطريق للآخرين !

إن الحياة العامة التى تحياها ليس فيها عدل اجتماعى ولا ضمانات للمواطنين تحميهم من السلطة فقد سلبت حرية الشعب وانتفع بها نفر محدود ولما قارن هذا الصديق حاله فى العراق بحالته فى بريطانية فكر فى التخلص من وطنه بدلا من إنقاذه وانتشاله فقد وجد فى بلد غريب عنه من يحمى حريته ويصون كرامته وأحس بقيمته فى مجتمعه فهو يجد الطبيب الذى يعتنى به وبأطفاله والمستشفيات التى تحتضنه وترعاه دون تذلل وخضوع ووجد مجالا لتعليم أبنائه وتهذيبهم ، ونعم بالحرية الفكرية وصينت آراؤا من البطش ولو كانت ضد الدولة أو كانت ضد كل الناس ، فآثر السلامة والاطمئنان فى بلد الإنكليز على القلق والخوف والرعب . . فى وطنه العربى .

إنها صورة واضحة لما يفكر به العراقى المثقف وما يعترى الطالب بعد أن يكون قد قطع شوطا بعيدا فى العلم ووصل إلى مستوى رفيع فى الدراسة .

وساق الحديث السيد مهدى وقال :

إن مدير بنك (مدلند) الذى يتدرب فيه يأتى بنفسه فى الصباح يدفع عربة فيها الأوراق والسجلات ليوزعها على الموظفين . . وكل موظف جالس فى مكانه لا يتحرك أو يقف أو يبذل جهدا واضحا فى الترحيب غير كلمة شكرا .

وليس فى المحلات فراش يدير كؤوس الشاى وفناجين القهوة للزائرين وكل موظف يأخذ أوراقه ويوصلها للمسؤول الذى يليه ولم أجد تصاعد الدخان وبعثرة الجرائد وعنجهية الموظف الذى يرفع رأسه للمراجع بكل كبرياء واعتداد ليقول له :

تعال غدا :

ومتى تجرأ صاحب الحاجة على المناقشة صاح برما إننا مرهقون غاطسون فى الأعمال وليست قضيتك وحدها بين يدى . .

وإذا كان المراجع من أرباب العلاقة بالسلطة زمجر بوجه الموظف وذهب إلى الرئيس مباشرة الذى يأمر الموظف بإنهاء الأمر . . فيتضاءل ذلك الموظف ويعود يتعثر بأذياله خوفا وهلعا . . ويقضى الأمر ويعتذر قائلا والله ما عرفتك . .

أما أبناء الشعب . . أما الفقراء . . أما الكادحون . . فيقتلهم الضجر ويوجعهم الصبر وليس لهم من يجيد غير شكوى يرسلها إلى السماء يلعن فيها الدهر لتسلط هؤلاء على مقدراته وكأنهم أعداء وكأنهم محتلون دياره وكأن المراجعين ليسوا من أبناء وطن واحد وشعب واحد .

لم يكن فى ديوان القطار غير العدد القليل منا نحن العراقيين ، وكانت أصواتنا تعلو بمرارة الألم وتنخفض من ثقل الثورة والهياج النفسى وتضمحل خوفا ورعبا مما ينتظرنا من مصير مرعب فى وطننا الذى فقد الأمن وهيمن عليه الرعب والتأخر وبين آونة وأخرى تبدو حزمة أمل فى الإصلاح ولكن اليأس يغمرها فجأة بظلامه وتشعب الحديث ، واختلفت الآراء وتنوعت الأساليب ، واتفقنا على أن التعليم والثقافة أمضى سلاح لتخليص الأمة من أمراضها وإنقاذها من براثن التأخر والاستعمار وكأننا وضعنا عن كاهلنا ثقل المشكلات واسترحنا لهذا الحل . . وسكت الجميع وأخذنا نمتع النفس والبصر والنظر الى الريف

الإنجليزى وخضرة الحياة وجمال الأرض وزهو الشجر وبراءة الأغنام الجميلة والوادعة وهى تسرح فى مروج الريف الخضر وإلى أسراب الدجاج الزاهى الألوان تبحث عن طعامها دون خوف أو رعب . .

الطبيعة فى هذا الريف حفلت بكل المفاتن الجميلة فكثرة الأمطار ورعاية الإنسان لحقله أحالت الأراضى إلى خضرة لا نهاية لها ومراتع يانعة لا تحصى .

عودة الى الحوار

وبينما كنا نسرح البصر فى جمال الطبيعة وخضرة الأرض ثار أحد الجالسين وقال بصوت عال :

ــ ياجماعة شوفوا

فالتفتنا إليه فوجدته يشير إلى مصابيح الكهرباء المعلقة فوق الرؤوس وأردف . . انها تختلف عن مصابيح العراق . .

ضحكت وقلت إنها مصابيح وما الفرق بينها وبين غيرها . وأين هذا الاختلاف . . ولما أحس بما فى نفوسنا من سخرية قال :

إن المصابيح فى متناول اليد وليست بعيدة كما فى قطارات العراق . . ثم إنها غطيت بعاكسة زجاجية جميلة وفى العراق حجزت بالأسلاك وسمرت فى السقف أو الحائط وأردف قائلا انها ثقة بالشعب ما بعدها ثقة . . وأشار إلى المقاعد وقال إنها مقاعد وثيرة وصنعت من أجمل أنواع القماش وزينت بذوق جميل أما مقاعد الدرجة الثالثة فى العراق فمن الخشب الصلب وكان يشتد فى حماسته ويقول بحرقة ومرارة :

متى يكون فى العراق مثل ما فى هذا البلد ومتى يرفل الشعب فى هناء وسعادة قلت له إن الشعب هو الذى فرض على السلطة هذه السعادة ، هو الذى وجهها ، وقوة الشعوب هى التى تخلق لها ما تريد . . ولكن قولى ذهب مع صوت القطار الهادر فقد أثرت كلماته فى نفوسنا وولى كل واحد وجهه نحو النافذة يلتمس السلوى فى المناظر الجميلة التى تسابق القطار ويسبقها فى السير .

وطال الطريق بنا ساعة لأننا أخطأنا فى ركوب القطار فهو قطار بطىء وكان حريا بنا أن نأخذ قطارا يتجه مباشرة إلى محطتنا دون توقف .

وقد كان النقشبندى قد سبقنا إلى هذا المصيف فدعانا إلى فندقه عندما جاء صاحب الفندق معه ، متعنا بحلو الحديث وجمال الطعام وسائغ الشراب .

جولة الأزقة

أخذنا نتجول فى الشوارع فكانت نظيفة لا ترى ورقة أو قشرا أو عقب سكاير وكانت الأرض قد نظفت عندما وصلنا إليها لأن الشعب لا يرمى شيئا على الأرض فهناك صفائح للزبالة وضعت داخلها أكياس متى امتلأت استبدلت بأخرى فإن جميع الأبواب الخارجية مصنوعة من الزجاج والشبابيك تريك ما فى داخل البيت والأسيجة لا ترفع عن المتر ويرى السائر فى الشوارع الحدائق المنسقة وأزهارها الزاهية الجميلة وقد تبارى أصحاب البيوت بترتيبها وأناقتها : ألا يُخشى هؤلاء من عبث الأطفال . . ألا يخافون من اللصوص يكسرون النوافذ والأبواب !(1)

كانت السماء صافية الأديم وكانت النجوم تضحك فى أفقها الأزرق . . إنها من الليالى النادرة فى إنجلترا أن تبزغ النجوم وقد بعدت هذه القرية عن ضوضاء المعامل ودخان المصانع فكانت حيطانها نظيفة بينما جدران لندن سوداء داكنة يحس الإنسان بالدخان عندما يتنفس أو يتمخط فإن منديله قطعة سوداء مما يتنفس منه الإنسان .

نزهة وسط الزحام

تحرص المدن الساحلية أن تبنى لها رصيفا أو مسناة تدخل الى داخل البحر على مستوى أرض الشارع يكون فوق جسر أو قنطرة خشبية أو حديدية يجرى الماء من تحته لإمتاع الناس بمنظر الماء وتعد فيه أنواع التسلية من مرح ورقص ومقاه ومحلات لبيع الهدايا المختلفة والتذكارية التى تمثل تلك المدينة ، يأخذها معه السائح ليتذكر أيامه التى قضاها فى الاصطياف .

وقد أنشأ المسؤولون فى نهاية الرصيف الداخلى أو الجسر المعلق قاعة للرقص صفت على جوانبها الكراسى وازدحمت بالمصيفين على سعتها ولم يكن الداخل منفردا فقد كانوا أزواجا من الجنسين وكنا رجالا بدون مصاحبة نساء . .

ولما بدأت الموسيقى تصدح بأنغام الرقصات . . ترك القوم كراسيهم وتخاصر الرجال والنساء وكانت علامات الوقار والسكينة تخيم عليهم وتظهر على سيماهم وسرعان ما تبدلت الوجوه وتقاربت الأجسام عندما بدأت الأنوار تخفت رويدا رويدا . . وكلما

---

(1) بدأ اللصوص فى إنكلترا عملهم بنجاح مستمر .

خفت الضوء ازدادت حرارة القلوب والتصقت الأجسام ببعضها ثم تعانقت الثغور فى قبلات هائجة وأنفاس مائجة وآهات حارقة وزفرات ملتهبة . . فقد أثر الشراب والموسيقى والجو الخافت الجميل فى جميع الراقصين وللتخلص من التكلف وزيادة المتعة وزعت على الراقصين طاقيات وطرابيش زاهية الالوان . . غريبة الأشكال سرعان ما أخذت الفتاة تلبسها فتاها والفتى يزين فتاته واعتمرت الرؤس الحاسرة بألوان جذابة زاهية خلابة أسبغت على الوجوه صوراً مشرقة حلوة ضاحكة ساخرة .

واندمج الأصحاب مع الراقصين فقد كانت بعض النسوة مع أسرهن دون شريك راقص وكانت بجانبى فتاة غريرة فى سن المراهقة سرها أن ترى غريبا عن بلدها ولما سألتنى من أين جئت .

قلت لها من بلد بعيد جدا انه الشرق ضحكت وقالت الشرق كبير هل الأقصى أم الأدنى . . قلت القريب من أوربا . . هل تعرفين السندباد البحرى

قالت قرأت عنه وشاهدت شيئا فى السينما عنه .

قلت هل قرأت ألف ليلة وليلة

ضحكت وقالت استدراج جميل هل أنت من بلد الخليفة الرشيد ثم نظرت فى وجهى وقالت بغدادى .

وبدأت تتحدث عن جمال بغداد وزهور بغداد وجنح بها الخيال وأخذت توصف النشوة فى الملابس الفضفاضة والأقنعة توصوص منها العيون وبلا مقدمة وقفت فى الحلبة وأخذت منديلها وأخفت وجهها وأبقت عيونها ظاهرة وقالت هكذا تلبس النسوة فى بغداد .

وحاولت أن أغير الصورة القديمة التى فى ذهنها وأحدثها عن بغداد الحديثة ولكن لا أظنها اقتنعت .

وفى مثل هذه المناسبات تغتنم النسوة الفرص لالتقاط الأزواج وقد تكون المناسبة أن يتعارف الرجل على زوجة المستقبل ولم تجد جارتى هذه الرغبة لذلك لما انتهى الرقص ضاعت فى الزحام كما اختفى بعض الزملاء عن حلبة الرقص .

ومضى الهزيع الأول من الليل وارتفعت حرارة الموسيقى واستعجل القوم نغماتها وبدت تعربد الأرجل وتجن الموسيقى والرقصات واحتشد المقصف والساحة وتبادل المحبون القبلات دون حياء أو خجل وكأن الأمر كان طبيعيا واستحالت إلى ثورة عاتية وفيض عارم

وسيل طام من الشراب والرقص والنغمات وبرغم كل هذا لم يختل النظام ولم أسمع من لام أو عنف أو عذل صديقا أو مجاورا بكلام أو بإشارة . أطلقوا لأنفسهم العنان ولكنهم عرفوا حدودهم وتمتعوا بالسهرة دون الحد من حرية الآخرين . . وإذا غلط أحد الراقصين واحتك بآخر سرعان ما اعتذر إليه . . وعدنا إلى الفندق ونمنا حتى الصباح .

سخرية من الأمانة

كانت الشمس مشرقة والسماء صافية الأديم ولكن البحر كان مربداً تتلاطم أمواجه فتكون زبداً برغوات بيضاء واكتست الضفاف بهذه الحلة الحلوة الجميلة . . وكان الناس فرحين باشراقة الشمس وجمال اليوم وذهبنا إلى السوق وكان طافحاً بأنواع شتى من الهدايا التذكارية مما يروق المصطاف وما يخطر فى ذهنه ومالا يخطر واشترى الإخوان ما شاءوا ولم يلفت نظرى غير تمثال رائع لظبية ذكرتنى بالظباء العربيات السارحات فى برارى العرب . . وبلا شعور قلت :

(وعيناك عيناها وجيدك جيدها خلا إن عظم الساق منك دقيق) .

واحتضنت التمثال فقد ذكرنى بوطنى فاشتريته ولما وصلت لندن أهديته للأسرة فكان فرحها أشد ووضع على المدفئة ليكون قريباً من الرائين وتقديراً منهم للهدية .

واشتريت بطاقة تصور المدينة لإرسالها إلى بغداد وذهبت لشراء طابع بريد وفى ساحة البناية قرب بائعة الطوابع وجدت (باونا) ملقى على الأرض فالتقطته وسلمته لبائعة الطوابع ورجوتها تسليمه لمن يأتى يسأل عنه . . قد يكون طفلاً أرسله أهله لشراء الطوابع فضاع منه أو محتاجاً فقده . . أو غريباً لا يملك سواه . .

ولكنها لم تأخذه إلا بعد أن أخذت اسمى وعنوانى الكامل . . لأنها على حد قولها لابد أن يشكرك صاحبه .

وكانت معارضة شديدة وسخرية لاذعة من أحد الإخوان على هذه الأمانة وبخاصة إنه (باون) ليس فيه ما يدل على صاحبه . . تحملتها صابراً على قساوتها ورددته رداً جميلاً على مضض وعدنا إلى لندن إلى غرفة الأخ عبود فوجد رسالة تدعوه مع أصحابه إلى سهرة رفضت قبولها طلباً للراحة وعدت إلى منزلى . .

سفرة إلى لوشام والحسان :

وفى الصباح الباكر رن جرس الهاتف وإذا بعبود يلح ويلحف بالسفر لأنه لا يقدر أن

يذهب بمفرده والرسالة تؤكد على ضرورة جلب صديق أو أكثر معه . . فالحفلة إذن تحتاج إلى رجال . . والدعوة من صديقته وصديقتها ولابد أن يستجيب عبود وأن يذهب . . قبلت حجته وركبنا القطار إلى لوشام .

وصلنا لوشام وكانت على الرصيف صديقة عبود من جاميكا واسمها لؤلؤه أقرب إلى السواد منها إلى السمرة وبرغم جمال تقاطيع وجهها وخفة دمها ومرحها . . سخرت من دعوة فتاة زنجية ونحن فى لندن بين حوريات العالم وذهبنا إلى غرفة الاستقبال الفسيحة فى الدار وجلست الفتاتان على الأرض بسرور ظاهر وجرت الأحاديث عذبة وكانت صديقة عبود ترجو أن ألتفت إليها فقد أحست بأنى تضايقت ورأت على ماران على وجهى من سحابة أرادت أن تزيلها عنى فكانت كريمة الأخلاق تركتنى حتى ضحكت ورضيت بالأمر وقلت لعبود باللغة العربية .

ألم تـر أن البـدر لا شىء مثلـه وأن سـواد الفحـم حمـل بـدرهم
وأن رجـال الله بيض وجوهـهـم ولا شـك أن السـود أهـل جهنم

فضحك عبود ورجانى ألا أترجم رحمة وشفقة ودوى المكان بضحكاتنا . . دون أن تعرف الفتاتان شيئاً من الشعر وذهبنا إلى صالة معدة للرقص وهالنى أن أجدها مزدحمة بالفتيات وكان عددهن أكثر من الرجال فعرفت سر التأكيد على دعوتى فهل أكون الضحية . . كانت عيونهن تهتف بالرغبة لدعوتهن إلى الرقص وسبحان الله بين حفلة وحفلة فقد كانت حفلة هستنكن تعج بالرجال وحفلة اليوم تعج بالنساء . . ولم يترك عبود فتاة حلوة حتى راقصها وكل واحدة كانت ترجو أن تكون الرقصة المقبلة لها . . وهذا هو بطر الرجال فساء الأخ عبود أن أترك صديقة صديقته وقال أرجوك أن تجبر بخاطرها فهى التى دعتنا فكنت أحدثها بين آونة وأخرى .

وبعد أن دعينا إلى مقصف فيه ما طاب من الطعام وسائغ من الشراب تحلقت حولنا الغيد الحسان وكانت السعيدة من تنالها كلمة حلوة أو عبارة غزل . . ليت شعرى كيف تتحول المرأة من حال إلى حال . . عندما تنافس زميلاتها ! .

وأعيد الرقص وأعدت الكرة ومنحت اللؤلؤة السمراء هذه المرة عدة رقصات من الحاضرين كنت أرى شعاع الحسد فى عيون الحور الحسان وهتاف الرجال فى نفوسهم .

كانت ليلة لم يجد الدهر بمثلها .

الفصل الخامس

غـــرائب طــريــفة

الرقة واللطف (١)

شيلا بنت صاحبة الدار فتاة لطيفة لم تتجاوز الأربعة عشر ربيعاً تدرس فى الثانوية ودخلت إلى حجرة الاستقبال فوجدتها تقول لإنسان المعذرة المعذرة وهى تبكى وقد ظهرت علامات الالم والحزن عليها وتقول ذلك لصديق من أصدقاء الأسرة . . فعجبت لهذا الأمر فلما رأت ربة البيت علامات الاستفهام والتعجب على وجهى قالت :

أراد صديق الأسرة أن يقبلها تحت شجرة (المسلتو) ولكنها دفعت وجهه بعنف وخشونة ويجب أن تكون الفتاة لطيفة فأحسّت بأن الصديق قد تألم لأنه لم ينل القبلة ولابد أنه معجب بها وكان عليها أن تدير وجهها مادام أراد تقبيلها تحت (المسلتو) وأن تتعود كيف تعامل الرجال وأن تقابلهم بلطف وسهولة قد يكون راغباً فى الزواج منها . . واتخذ هذه وسيلة للوصول إليها . . لم أقل شيئاً لأن الأمر يخالف العرف الشرقى فلو كان فى الشرق لهُدّد هذا الرجل بالقتل ولكن هكذا الغرب وهكذا أمر شجرة المسلتو وهكذا عيد الميلاد وهكذا تقاليده وكل بلد يرضى عن عاداته وتقاليده .

فى السينما :

ذهبت إلى لندن وقابلت الأخ عبود البلداوى ورجانى أن نقضى المساء فى أية سينماولم يكن يدور فى خاطرى اسم فلم من الأفلام المعروضة وقلت له دعنا نذهب إلى أقرب سينما . . واقترحت أن تكون ربة البيت معنا لأنها أخذت ابنتها فى اليوم نفسه إلى المستشفى وهى حزينة لفراقها خوفاً عليها من المرض .

وما أعمق حزن الوالدين على الأولاد وأشد آلامهم على ما يصابون من أسقام . . وجاءت السيدة وذهبنا إلى السينما (أوديون) وهى لشركة كبيرة تملك عدة سينمات تكاد

(١) ١٩٥٥/٦/٢٦

تجدها فى كل محلة من محلات لندن لم أجد على أرضها ورقة واحدة أو قشرة أو أرى إنساناً يدخن فى صالة العرض ومن أراد التدخين يخرج إلى محل معد للتدخين ولم أسمع خلال العرض غير همسات الناس وحركة تنفس الحاضرين .

أين هذا من تعليقات أهل بغداد ومصر وتهريجهم وصياحهم وسحابات الدخان التى تخيم على النفوس والصدور .

بدأ عرض لعدة مقدمات وإعلانات جميلة تخص المتاجر الموجودة فى المحلة وعرض فيها فلمان الأول مغامرات عالم فرنسى فى عالم الحيوانات أخذ معه زوجته وسافر إلى مجاهل أفريقية للبحث والتقصى وصيد الحيوانات للدراسة والبحث إن مشاهد الصعوبات والعقبات التى مرت فى الفلم تسجل حب الناس للعلم والسخرية من المستحيل فى سبيل الحقائق العلمية فقد كان يسجل كل ما يراه ويحسه وما يجربه بنفسه ومن أطرف المشاهد كفاح الزوجين فى سبيل اصطياد تمساح . . أجل اصطياد تمساح أراد الزوج أن يقوم بتجارب عليه وأراده حياً . . ونصب له الشبكة ولما وقع فيها وبدأ يسحبه هو وزوجته وجاء المساعدون جميعهم يسحبون الشبكة بما فيها كأن التمساح يسحب كل هؤلاء ويجرهم فى الأوحال والأطيان ويتساقطون على وجوههم حتى أصبحت ملابسهم قطعة من الطين والغرين ومع أنه ضاع حذاءه وطينت نظارته وغطس فى الوحل مرات عديدة لكنه بقى مجاهداً بكل طاقته حتى تمكن من ربط فم التمساح بالحبل وحمله ووضعه فى القارب إلى مكان البعثة العلمية . فما يكون موقف العلماء فى بلدنا والناس إذا ما رأوا عالما يعمل مثل هذا العمل سيكون مجال السخرية ، لأنه يكترث بأمور يظنها الشرقى لا تعود بالفائدة وينسى أن كل حقيقة علمية واحدة تقدم البشرية مهما كانت ضئيلة وتافهة وتطور حياة المجتمع الانسانى كله .

إن التقدم العلمى والحضارة والبحث لا يمكن أن تقسم أو تنفصل إنها جزء كامل لأنها تقدمه وتطور حضارته .

ولكى تضحك السينما أكبر عدد من الرواد عرضت فيلما هزلياً للممثل الإنكليزى نورمان وزدم Norman Wesdam ويمتاز هذا الممثل بقابلية غريبة فهو يمثل الأدوار الهزلية بإتقان ، وتحسبه لا يعرف غيرها ولكنه إذا ما مثل الأدوار الجادة تنسى قابليته الأولى فهو يغنى كأحسن المغنين صوتاً . . ولا يمكن لأى إنسان أن يشاهد أفلامه دون أن يواصل الفرحة والضحك . . أهل لندن معجبون به أشد الإعجاب . . وفى كلا الحالتين كأنه طبيعى فى تمثيله فلا أثر للمفاجآت المصطنعة والموسيقى التصويرية فى مكانها فقد مثل دور

العاشق الأبله حقيقة . . وساير الظروف المختلفة ببلاهة . . تجلت فيها طيبة القلب ودماثة أخلاق الناس وأثارت حب الناس وإنسانيتهم عند التمثيل .

إنها ليلة ممتعة فيها فائدة وفيها راحة نفسية بعد العناء وكم يحتاج المرء من راحة للنفس من وعثاء الحياة ومرارة العيش ومواصلة البحث والعمل والدراسة .

سفرة ربة الدار :

كانت أيام عيد الميلاد الفرصة المتاحة لربة الدار لزيارة أصدقائها فى مقاطعة كنت Kent فقد أخبرتنى بأنها سوف تذهب مبكرة لتعود فى اليوم نفسه ولما نزلت من غرفتى ودخلت المطبخ . وليت شعرى أى مطبخ هو ـ مثال للنظافة والأناقة فقد وضعت أدوات المطبخ فى محلاتها وصفت الصحون ونضدت القدور وعلقت الأكواب فلا يمكن أن يغلط من دخل فيه فى أدواته ومع كل هذه الأناقة والانتظام فقد أعدت المقلاة ووضعت فيها قطعة زبد وما علىّ إلا أن أدير مفتاح الطباخ حتى يذوب الزبد ومن ثم وجدت البيضة قد كسرت وأبعد عنها غلافها ووضعت فى إناء مغطى محكم الغطاء فألقيت بها فى المقلاة وكان على المنضدة الخبز وقد قطع قطعاً وإلى جانبه علبه الشاى والأبريق وقد نضدت المائدة بغطاء أبيض .

ولم يكن يعوزنى إلا من بضع الخبز والبيض فى فمى فقد أعدت كل شىء إنها النظافة والأناقة والرعاية التى لا يجدها الإنسان العربى فى وطنه إلا قليلاً .

فتناولت فطورى وحمدت الله على هذه النعمة ، وعدت إلى عملى . فى إعداد الرسالة وكتابة بعض الفصول .

مباذل عيد الميلاد

تزدحم شوارع لندن فى هذا اليوم بالناس من مختلف أنحاء العاصمة على أن المحلات مغلقة فلا تكاد تمر بالشوارع بسهولة ويسر إنه يوم حافل انقطعت فيه حركة المرور وأخذ الناس يتجمعون فى ساحات المدينة وبخاصة فى الساحة المشهورة (الطرف الأغر) حيث شجرة عيد الميلاد تزهو بأصناف شتى من الزينة والألوان والمصابيح الكهربية أو فى (بيكاد لى) حيث ساحته المعروفة فى جميع أنحاء العالم .

إنه يوم الزحام ويوم أخذ الناس حريتهم ويوم التهريج والتنفيس عن النفس حيث يترك الغربى كل همومه وآلامه ويزدحم فى هذه الساحات وكأننا فى أيام المحشر وإذا رميت الدخن لا يقع إلا على الرؤ وس . .

هم فى رقص وغناء وتمثيل وفرح وغبطة . . وعلت على وجههم السعادة فعربد الناس دون أن يؤ ذى أحدهم الآخر مهما كانت درجة التهريج والعربدة كل واحد حافظ على حرية الآخرين وما خرج عن حدوده بكلمة يخدش بها سمع الآخر أو يدفعه أو يحتك بـه أثناء الرقص والسهر وإذا سها واحتك بآخر فما أسرع ما يعتذر بسرعة . . وينصرف فقد أدى واجبه وقبل عذره فإن طلب المعذرة كان الصفح وهيهات أن يصفح عن إنسان لا يكترث بالناس ، والاعتذار يحل الإنسان فيه مشكلاته وأغلاطه . . وكل غلطة معها الاعتـذار مقبولة فالطالب إذا تأخر عن المحاضرة يدخل ويرجو إعفاءه دون إبداء العذر لأنه يكفى للصفح . . ومن يصدمك فى الطريق يكفى أن تعتذر إليه أو من تمسه بسوء خـطأ يقبل العذر . . ولكن الويل لمن لا يعتذر عن سهو أو غلط .

وإذا سرت فى شوارع الوطن العربى المزدحمة أو دخلت محلاً عاماً فسوف تشبع دفعات وضربات وقد تقع تحت الأقدام وتموت تحت الأرجل .

وبرغم هرج الناس ومرحهم تجد النظام والحرية والسعـادة ظاهـرة على تصـرفاتهم يريدون أن يسعدوا وإذا ما انتصف الليل وتوالت ضربات ساعة (بك بن) واستقبل الناس عاماً جديداً وودعوا العام المنصرم بالقبلات فترى الراقصين والراقصات يحتضن بعضهم بعضاً فى قبلات حائرة حارة وفى هذا التاريخ الكبير يخيم سكون عجيب ولا تسمع غير

نشوات السعادة تنطلق بين الشفاه ، ثم يبدأ كل إنسان فى تقديم التهانى لأقرب الناس له . دون أن يعرفه أو كان قد رآه من قبل . ولقد رأيت أكثر من فتاة وقد كتبت على قبعتها :

قبلنى وامض ، واعصرنى واذهب

ورأيت صفاً طويلاً يقف ليقبل فتاة جميلة والسعيدة من يقبلها أكبر عـدد ممكن من المعجبين ويسقط الحياء فى هذه الساعات وترى كل رجل يمسك بأية فتاة ليقبلها . رحم الله ولادة بنت المستكفى عندما كتبت .

أنـا والله أصـلح لـلمـعـالى وأمشى مشيـتى وأتيـه تـيـهـا
أمكن عـاشـقى مـن لـثم خـدى وأعـطى قبـلتى مـن يشتـهيـهـا

فقد أسبغ عليها المؤرخون النعوت والنعوت فما هم قائلون الآن !

الفنان خالد القشطينى . . .

خالد فنان وإنسان عرف الحياة ولم يقم لها وزناً وعاش كما أراد دون هم يؤرقه أو حزن يلم به ، إنها الحياة ويجب أن نأخذها كما هى أحببت صفاته المميزة دعوته إلى الدار التى أسكنها فى نورت هولت Northoll فأعدت ربة الدار مأدبة شاى أنيقة جميلة وانتظرت خالداً طويلاً فقد تاه فى هذه الناحية وجاء الفرج بطرقات الباب ، ولما فتحت الباب وجدته محمر الوجه من شـدة السير والعـرق الشديـد يتصبب منه . . قـال أردت أن أكون فى المـوعد ولا أتأخر .

قلت : تعود عادات الغرب انا فى الدار ولست فى الطريق انتظر قال : ماذا ستقول ربة الدار عنى .

قلت : استعربت وأضاعت المواعيد مثلى فقد أفسدتها بحياتى معهم وبالفوضى التى أعيش فيها واعتادت منى هذا الإهمال والفوضى .

كان خالد يرتدى معطفاً من المعاطف التى يرتديها الفنانون ضخمة الشكل فضفاضة الرداء فيها أخشاب مقطوعة على شكل أزرار . .

فهو قليل العناية بهندامه إنه الفنان يتمتع ببديهة سريعة وخفة دم ، فهم الحياة متعة لا تساوى أن يفكر الإنسان فيها .

قال ذهبت إلى أحد المطاعم مع صديقى .

ودخلت بملابسى وكان الندل قد ارتدى أجمل الثياب وأغلاها وأنظفها يرتدى ياقة

منشاة بيضاء وفى عنقه وردة سوداء وسترته الطويلة قد كويت حتى كادت تقف أجزاؤ ها وكان حذاؤ ه أسود قد لمعه وخطف بريقه ولمعانه العين . .

كان خالد يجلس جنبى وأدار لى جنبه ورفع جانب السترة فوجدت البطانة مفتقة تكاد تطل من تحت السترة قطع من قماشها قال بسخرية جميلة تصور الفرق بين اللباسين وأردف . .

وبعد انتهاء الطعام قدمت له مالاً جزاء خدمته . . وأنا أحق بها منه . فهو يفوقنى أناقةً وجمالاً

احتفت به الأسرة حفاوة كبيرة لأنه فنان ولأنه صديقى . .

كانت المائدة مما لم يفكر خالد المفلس برؤ يتها فى داره ، أناقة ومادة ففيها الشطائر المتنوعة والكيك والحليب وأنواع من الطعام لم يتمالك خالد نفسه إلا أن قال بالعربية :

والله نعم البيت ونعم السكن ونعم الأكل .

وكانت أمسية حلوة حلقنا فيها بعيداً وكم تمنينا أن يكون لنا مثل هذه الدار وهذه الأناقة والنظافة ، والعناية الكريمة بالإنسان ، وتقديره .

ومن طريف ما حدثنى به أنه سافر وصديقته الألمانية (عائدة) وتزوجها فيما بعد وطلقها على أسلوبه فى الحياة . . بدعوة من أسرتها وكانت أسابيعة فيها مرحة مسرورة وحفاوة بالغة بالعريس العربى خليفة بغداد فى المانية . وقد كانت أسرتها غنية مترفة تضع الشامبانية فى إناء كبير وتوضع فى الإناء قطع متنوعة مما لذ وطاب من الفواكه فهى نقل وشراب وللضيوف أن يشربوا ما قدروا عليه . .

شامبانيا وخالد

إنها فرصة العمر أخذ يعب ويكرع ويأكل ويشبع حتى أسرف على نفسه وسرعان ما ذهب إلى المغسلة يرمى الشامبانية لأن معدته لم تكن قد تعودت على هذا الترف فرفضت أن تنعم بالطيبات وعاش فى أسوأ حال يلوم معدته ويتلقى من (عمه) كلمات هازلة سافرة ويقول له :

انتهى خليفة بغداد بسرعة !
هكذا تضمحل قوى الخلفاء !
لست إذن من بغداد أو خليفة !

حديث طريف وحلو وحدثنى عن اختراع جديد فى ألمانية : لما عاد إلى الدار وقرع جرس الباب فتحت له كوة خضراء ولكن الباب لم يفتح وانتظر خالد ثم قرعه ثانية وانتظر لم يأته أحد ولكن الكوة الخضراء أضاءت وبقى خالد يقرع الجرس وتظهر له الكوة الخضراء فعجب من الأمر لم يأت من يفتح الباب .

طال انتظار خالد وهو واثق من وجود الأسرة فى الدار حتى جاءت « عائدة » وفتحت الباب له وقالت لم لم تدخل قال لها الباب مغلق .

قالت ألم تر الكوة الخضراء !

قال نعم رأيتها

وأمعنت النظر فيها فوجدت عليها كتابة .

قلت ما هذه الكتابة

قالت : تفضل

قلت لها بالألمانية وأنا لا أفهمها .

وطال حديث خالد وودعته بعد أمسية حلوة جميلة . .

خلق الطلاب الإنكليز .

هناك اختلاف كبير بين عادات الشرق والغرب وطبائعهم فعندما يلاحظ الفرق الشرقى يصدم أو يدهش وقد يصاب بخيبة أمل ، فقد زارنى محمود أحد طلابى الذى لم أره بعد عودتى إلى العراق وهو يدرس أمورا عسكرية فى الكلية العسكرية وحدثنى عن نظام الكلية بأنها لا تقبل الطلاب إلا بعد امتحان تجربة للراغبين من الجنود وضباط الصف ثم أكد لى على أن القابلية هى الأساس فى القبول قلت له هذا سبب تقدم الغرب فإن القدرة هى التى تقدم الإنسان ومن المقدرات الكثيرة يتقدم الشعب وتتطور الحياة وفى الشرق وساطات للتافهين وشفاعات للمتزلفين ودعوات للمتملقين ومن الغرائب التى رآها فى الكلية إنه كان فى انتظار الباص هو وطالبان عراقى وانكليزى للذهاب إلى السينما ومر بهم طالب عنده سيارة فأشار له . فوقف مسروراً وقد أعجبنا بخلق الطالب وشهامته وسرعان ما قال هاتوا كل واحد منكم شلنا .

قلت لصاحبى أعطه . . فجمع ثلاثة شلنات ووضعها فى جيبه وقال : البنزين غال كما تعلمون .

كانت صدمة لنا فقد نظر إلى صديقه باستغراب شديد من هذه الشهامة ثم أردف صاحب السيارة .

إذا أردتم أنتظركم عند باب السينما فيسعدنى هذا . . فرد عليه لا وشكراً .
وأجور الباص من الكلية إلى السينما خمسة بنسات (حوالى العشرين فلسا) والأغرب أنه قال : إن الطلاب إذا استدان أحدهم من الآخر فلا يسلفه إلا بفائدة تستوفى من المبلغ وقد يصل ثلاثة شلنات للباون الواحد فى الشهر . حتى لا يحس المدين بأنه أحسن إليه من الآخرين . . كان هذا هو تعليله . . وأنا لا أقبله وإنما الإنكليز أصلهم تجار والفائدة جزء من التجارة وثلاثة شلنات فى الشهر معناه أنها أكبر ربا فى العالم .

طريفة عن المرور

القانون يسرى على الجميع دون اعتبار لمنصب أو مركز مرموق فقد كان الفيلد مارشال (الن بروك) حاكم منطقة لندن وعضو هيئة الأركان الحرب البريطانية السابق يسوق سيارة ولم ينتبه إلى الضوء الأحمر فوقف ـ عندما أحس به ولكنه كان قد تجاوز الخط الأبيض فعاد قليلاً إلى الوراء فاصطدمت سيارته بسيارة قس ودون أن يلحق به ضرر فأخذته الشرطة إلى المحكمة ووجهت إليه تهمه السياقة بلا انتباه .

وقد حاول جاهداً أن يتخلص من العقاب بإثبات قدرته على السياقة وعدم مخالفته خلال ٣٤ سنة والدليل أجازة السوق النظيفة ولكن الحاكم غرمه خمسة باونات وأشر ذلك فى أجازته . .

ليت شعرى هل يجرؤ شرطى مرور أو قاضى فى أى بلد عربى أن يغرم مثل هذه الشخصية الكبيرة ، إن الشعور بالمساواة وحفظ حق الغير طابع واضح على الأمم المتقدمة .

أناقة البيوت

تمتاز هذه السيدة بالنظام والترتيب والنظافة وعندما عدت من الخارج مساء قالت إنها سوف تخرج غدا لمشاهدة معرض جديد تعرض فيه أدوات وحاجات متنوعة تخدم ربة الدار وسمى هذا المعرض البيت المثالى Ideal home ويعرض فى قاعة مشهورة فى لندن اولمبيا Olopia عجبت لهذه السيدة التى وصلت أناقتها وترتيب بيتها منزلة عالية ومع ذلك فهى تحس بضرورة التبديل والتطور والتجديد والاستفادة من كل جديد يصدر فى خدمة البيت أخبرتنى بأنى سأتناول الطعام وحدى فى البيت . . كيف أعد طعامى خجلت من سؤالها وقررت أن أذهب إلى أقرب مطعم أتناول فيه طعامى وكفى الله الجائعين شر الجوع . .

كنت قد أصابتنى نوبة برد وزكام وملازماً فراشى لهذا كان الأمر على صعباً ولكن ما العمل ! وليس لى أن أقول لها لا تخرجى . .

فتركت الأمر للزمن يحل هذه القضية وكم حل الزمن من مشكلات ظن صاحبها هى أعقد من ذنب الضب . ما أخبث الضب وأعقده .

ولما أصبح الصباح جاءت بفطورى إلى غرفتى وبعد أن فطرت جلبت لى الدواء الذى أتناوله بعد الطعام ، وضحكت وقالت معذرة سوف أتركك تأكل هذا اليوم طعاماً بارداً فى غذائك فقد جهزت لك كل شىء ومتى أحسست بالجوع فانزل إلى قاعة الطعام وستجد كل شىء ثم كررت الاعتذار عن أن الطعام سيكون بارداً . .

وفى التاسعة سمعت بوق السيارة يدق دقة صغيرة يناديها وأخذها السائق إلى صديقتها ولعله زوج الصديقة .

حان وقت الطعام وكان الجو بارداً فوجدت غرفة الطعام دافئة فقد أشعلت النار فى المدفأة ووضعت ورقة قرب المدفأة ترجونى فيها العناية بالنار وتغذيتها بالفحم إذا احتاجت النار إلى فحم .

ونظرت إلى المائدة فوجدتها قد فرشتها بغطاء أبيض نظيف أنيق ثنته على المائدة فلما أعدت الغطاء إلى وضعه الطبيعى وجدت ثلاثة صحون مغطاة بثلاثة مواعين . . فى الصحن الأول الخس والطماطم ونصف بيضة وشوندر (بنجر) .

وعلى الثانى غطاء سميك من الورق الأبيض فرفعت الورق فوجدت تحته ورقة أخرى فلما رفعتها وجدت اللحم وقد قطع فى شكل شرائح . .

أما الثالث فقد وجدته بعد رفع الغطاء عنه الحلو ويحوى على الجلى والموز المقطع وقد كان على جانبى المائدة سكينتان كبيرة وصغيرة أما الأولى لتقطيع اللحم أما الثانية فلكى أتناول الزبدة وأضعها على الخبز وكان على الجانب الثانى من المائدة الشوكة وأمام الصحون وضعت ملعقة لتناول الجلى ولم تنس السيدة الفاضلة أن تضع الملح والفلفل وعصير الطماطم . . إنها عملية مرهقة ولكنها مفيدة غطاء أبيض وتحته صحون وأوراق تغطى الطعام والبيت مقفل ولا ينفذ منه غبار والوقت شتاء ولندن لا تعرف العجاج والغبار ولكن النظافة والأناقة والإحساس الحضارى الذى نفتقده فى الشرق اليوم وقد كان للعرب أكثر الناس عناية بهذا اللون الحضارى .

وقد حدثت صديقاً لى فى الجامعة عن هذا الطعام الذى تناولته فضحك وقال : إن زوجتى عندما تخرج وكثيراً ما تخرج تترك الطعام فى القدور على النار فأعود إلى البيت مرهقاً وأتناول الطعام واقفاً فى المطبخ من القدور مباشرة . . هذا هو الشرق وهذا هو الغرب . .

غجرية فى حفلة التنكر

يتغنى الغربى فى إدخال السرور والمتعة فى حياته بإقامة الحفلات والمآدب لمحاربة جفاف الحياة المادية وتبرز فى أعياد ميلاد الأشخاص والزواج وعيد الميلاد والفصح وإحياء حفلات أسبوعية راقصة ومن تلك حفلات التنكر التى تعد لها الجامعة كل سنة ولابد أن نجد مثلها فى كثير من المؤسسات العامة .

فقد رأيت إعلاناً بارزاً فى الكلية عن إقامة حفلة تنكرية للطلاب والأساتذة والعاملين فى الكلية واشترط أن تكون الملابس مزخرفة جذابة Fancy dress وكانت فرصة أن يرتدى كل طالب ملابس شعبه لأنها غريبة وكان بعضها جذاباً .

ولما أخبرت سيدة الدار بالفكرة رحبت بها كل ترحيب وأخذت تفكر فى الملابس التى سوف ترتديها ولم تجد فى ملابسها شيئاً جديداً أو جذاباً وأخذت تعمل فكرها فى اختيار لباس غريب تشارك فيه فى حفل الجامعة .

اشترت قماشاً أحمر فاقع وشرائط ملونة خضراء وصفراء وزرقاء ثم اشترت منديلاً مزخرفاً فيه نقط تلائم الثوب والشرائط وجاءت بأوراق اللعب وخاطتها على صدرية حمراء وخاطت الشرائط الملونة حول ثوب السهرة الحريرى وقلبت السترة وزخرفتها بزخارف ساذجة وألوان صارخة متنافرة واستعارت من جارتها أقراطاً كبيرة الحجم واشترت أدوات زينة تغير معالم بشرتها .

كانت مجدة كل الجد وقد بذلت اهتماماً غريباً وكأنها فى سباق للجمال تريد أن تنافس الأخريات فى شكلها وهندامها وصورتها قالت بعد أن رأت على وجهى علامات التعجب سوف أرتدى ملابس الغجر وأصبح نورية ولا أظن أحداً فكر فى هذا .

قلت : لعل

قال : سوف ترى صدق ظنونى .

ونظرت إلى منديلها الذى سوف تربط به رأسها وقلت لها إنك لم تخيطى جوانبه .

قالت : هكذا يرتديه الغجر دون خياطة سرتنى الملاحظة الدقيقة وإن لم أكن متأكداً من قولها .

كان اهتمام زوجها كاهتمامها بل أكثر وكان يستفسر فى كل مرة ماجائزة لمن ترتدى أحسن الملابس التنكرية .

قلت لا أعلم إنها أول مرة أحضر فيها حفلاً مثل هذا . . ولعله كان يطمع بالجائزة لزوجته .

اعتذر الزوج عن المشاركة فى الحفلة لأن له نوبة عمل ليلية ولم تحضر الصغيرة ولما أخبرت ابنتها الكبيرة وكانت تعالج فى المستشفى قالت لأمها : سوف أخرج معكم فى المرة القادمة وأذهب إلى أية حفلة

مرت مرارة ألم فى نفسى لأن الفتاة فى المستشفى ولكن الأم كانت أكثر فهماً للحياة فلم يمنعها مرض ابنتها من التمتع بحياتها .

كانت معى الملابس العربية الكوفية والعقال والعباءة وهى بالفعل ملابس تنكرية إذ مالبستها لم يعرفنى بها أحد ولما دخلنا الحفل كنت والسيدة فى ملابس غريبة جذابة .

وكانت أم البنت قد جلبت حذاء الرقص معها ولما سلمنا معاطفنا وملابسنا الأخرى للبواب دخلنا القاعة التى كانت غرفة المطالعة العامة صباحاً أعدت إعداداً جميلاً وأعد فيها مقصفاً كان أكثر البوابين يعدون المشروبات المتنوعة وارتدى أحدهم الملابس الخاصة بالندل ووضع الصدرية البيضاء على صدره . . .

الحشد كان كبيراً فقد حضر كثير من الطلاب والطالبات والأساتذة والعاملين فى الكلية وأخذت مكاناً جانبياً . . .

سمعت عبد الله درويش يقول :

ألا دعوتنا يا يوسف . . معك .

فقد لفت نظره ملابس السيدة الجميلة والملابس العربية ولم يكن قد أعد نفسه لهذه المناسبة .

قلت تفضل يا عبد الله فما أسرع ما لبى وعرفته على السيدة ، كانت الملابس متنوعة أضفت على الحفلة جمالاً وتغييراً فيها من لباس الصين إلى السودان واليابان وجنوبى ألمانية وألوان متغايرة متنافرة أحياناً ومنسجمة أحياناً من أفريقية وأمريكا اللاتينية وقد اهتزت مشاعر العرب عندما جاءوا إلى الحفل وتحلقوا حولى فرحين مرحبين بشيخ العرب وكأنهم لم يروني إلا هذه المرة وسرعان ما أخذ عبد الله العباءة وترك لى العقال والكوفية فجلبت له قبعة

على شكل العمامة وكان فى أعلاها ريشة عالية كبيرة قلت : سلام عليكم ياهارون الرشيد .

وبدأ الحفل وبعد جولتين كانت الكوفية والعقال تنقل من رأس إلى آخر حتى استقرت على رأس عبد الله درويش فأصبح شيخ العرب .

كانت السيدات أكثر من السادة فكن يغرين الرجال بالمراقصة وبالفعل كانت الملابس فضفاضة تبدى النهود بلا حشمة فترى فرجة النهدين تغرى الرجال ومنهن من لم ترتد حمالة النهدين ولبست ثوبها مباشرة يشف عما تحته دون حياء أو خجل يتقاتل صدرها مع الثوب ونهداها يصرخان فى وجوه الحاضرين فإذا رقصت تجلت الحلمتان فى صعود وهبوط يرتجان مع النهدين وذكرت الشاعر الخورى عندما قال :

وهما - وليسلها - كالتوأمين	كلما هبت لامرٍ قلقا
أو هما فى صدرها كالموجتين	أى صب ما تمنّى الغرقا

وجاءت فتاة صينية تريد مراقصتى وسعدت عندما وافقت فما أن أمسكتها إلا وجدت جسمها يلتهب حرارة ولما حدثتها كادت تذوب رقة وحناناً فاستعذت بالله من هذه الفتنة الصارخة والغرام المضطرم وهى بين يدى لم ترض عن تحفظى وحشمتى تركتنى . . وأخيراً وجدتها تجلس فى أحضان أحد الطلاب وهو يدغدغ صدرها بيده . . هذه فعلة محتشمة إذا قورنت بحفلات الطلاب فى الكليات الأخرى لأن الحياء الشرقى يبعد بعنف اغراء الغرب وفتنته كانت حياتنا نضالاً بين حياء الشرق الوقور وبين استهتار الغربى وحريته الكاملة .

وكان أحد الأساتذة ويحمل لقباً كبيراً (سر) شارك الحاضرين بهجتهم ومسرتهم دون أن ينتبه إليه أحد فقد وقف فى زاوية من القاعة .

وبعد أن تناولنا من الطعام ما ساغ ومن الشراب ما لذ وطاب عدنا إلى صالة الرقص ومأأن استقر بنا المقام حتى أعلن المذيع عن فوز الغجرية بالجائزة الأولى . . فطارت السيدة فراير فرحا وغبطة وتسلمت الجائزة بين التصفيق والإعجاب فقد رأى المحكمون أنهاكانت متنكرة تنكراً متقناً حتى أن إحدى الحاضرات جاءت ترجوها أن تقرأ لها يدها وتعرف مستقبلها .

وكان نصيب الجائزة الثانية لزميل إنكليزى يدرس الصينية فقد برع فى ارتداء ملابس الصين والطريف أنه كان يربى لحيته على الطريقة الصينية وأتقن دوره .

وكانت الثالثة لطالب من جاميكا أرتدى ملابس تحاكى ملابس الهنود الحمر بالريش والألوان المتنوعة .

وعدنا بعد حفلة نسينا فيها مشاغل الدراسة والحياة وهموم الأيام وأتعاب البحث والتنقيب وما أحوج الإنسان إلى ساعة تعيد إليه نشاطه وتسلى قلبه وتروح عن نفسه المشاغل العامة وصدق القائل عندما قال « روحوا النفوس ساعة فإنها إذا كلت عميت وكم من نفوس كبيرة مبدعة خلاقة كلت وعميت خوفاً من المجتمع وتقاليده والنقد وأوجاعه .

يــوم الأم :

عدت إلى الدار من الجامعة فوجدتها ازدانت بباقات من الزهور الجميلة وقد ثبتت المزهريات بشكل يلفت النظر ! .

هل عند الأسرة خطبة للبنت الكبيرة !
هل هو عيد ميلاد أحد أفراد الأسرة ! .
لم يخطر ببالى سبب الحفاوة وكثرة الأزهار فى الدار .

سألت السيدة عنها قال :

ابنتاى جلبتا هذه الزهور لى . . .
إذن هو يوم عيد ميلادك !
كلا إنما هو عيد الأم . . .

إنها فكرة رائعة أن تأخذ الأم نصيبها من التكريم فما الفائـدة من الحب الكامن فى النفوس . ترى المرأة الشرقية تحب ابنها أو زوجها لكنها ما فكرت فى أن تحتفى بهذا الحب أو أن تظهره لابنها أو زوجها أو ابنتها إن الحفاوة يجب أن تظهر فى عمل من الأعمال بهدية من الهدايا بالعناية بالمحبوب . . بأية وسيلة من وسائل الحب . . وإذا احتفى بها زوجها وأظهر حبه لها بالهدية المختارة والكلمة الحلوة تتظاهر بأنها لا تكترث بالأمر بل تعيب عليه الهدايا لأنها تعيش فى بيئة منافقة ولا يقتصر الأمر على الأسرة . فإذا أخذت هدية لصديق فهـو يأخذها دون اكتراث ويضعها جانباً حتى يقال إنه عالى النفس وأنه غنى كثير المال . . ولكن ما أن يخرج المهدى حتى يسارع إلى فتحها ويأخذ فى تسعير هذه الهدية وما مقدار الثمن الذى اشتراها به !

أما الغربى فهو يأخذ الهدية ويفتحها وتظهر علامة الغبطة على روحه وعلى وجهه ويظهر الإعجاب بالذوق السليم والاختيار الموفق فيسعد المهدى .

إن حياة المجتمع العربى الذى تربى على النفاق والكذب كان رداً لفعل مثل هذه المظاهر الكاذبة .

الغربى لا يفرح بالهدية لأنك صرفت من أجلها المبالغ الكبيرة وانما يعتز بها لأنك ذكرته وجلبت له هذه الهدية إنه يقدر الفكرة والباعث العميق والعاطفة الصادقة التى دعتك لجلب هذه الهدية ولو كانت صغيرة قليلة الثمن .

ويحتفى الإنكليز بيوم الأم (٢٠ مارس) من كل سنة ، يقدم الأطفال فيه إلى أمهاتهم هدايا صغيرة تعبيراً عن الحب والتقدير ويقدمون مع الهدايا إن كانوا فى بيت واحد بطاقات من الشعر الجميل أو يرسلونها بالبريد إن كانت الأمهات تعيش فى مكان آخر كما يقام احتفال فى الكنيسة يذكر فيه فضائل الأم ومقامها فى بناء الجيل وتفانيها فى تربية الأطفال ..

وقد كانت إحدى بنات السيدة مريضة فى المستشفى أجرت عملية جراحية . . فارسلت بطاقة تحيى والدتها بهذا اليوم . . وصلت البطاقة قبل يوم واحد فأخفاها الرجل عن زوجه وفى الصباح حضّر الوالد كوبا من الشاى وأخذه إلى غرفتها وسلمها لها فى اليوم إنه يوم عيد الأم . . .

كانت البطاقة جميلة التصميم رقيقة العبارة فقد رسم فيها صورة سلة كبيرة من الورد الزاهى الألوان يكاد الشذى ينضح منها وفى الصفحة الأولى (تحيات إلى الأم فى يومها) وفى الداخل غصنان من الزهور حليا جانبى البطاقة وفى الداخل أبيات من الشعر حلوة جميلة ترجمتها :

كنت طوال السنين كالزهور الشذية .
فاقدم زهورى تعبيراً عن رقة قلبك .
عبر الساعات المشرقة الماضية الهنية .
عساى فى تنسيق زهورى إليك . باقة منها
أرد الجميل لمن نعموا فى حديقتك الأنيقة (الرضية) .
ومرحوا فى جنباتها سعادة .
بعد أن تنسموا العذوبة فيها
وأحسوا بدفء حبك الكبير
وحنانك العظيم .

ولم تكتف الفتاة بالشعر إنما كتبت بخطها إلى حبيبتى أمى . . مع كل حبى من سلفيا . . ثم رسمت أربع علامات ×××× لتدل على مقدار حبها ثم أطالت فى العلامات وجعلتها بطول قطار . . . وهى علامة معناها قبلة .

وقد خصص المذياع هذا اليوم فى حمل رسائل محبات الأبناء والبنات إلى الأمهات فى أنحاء العالم . . وأهديت أنواع الأسطوانات إلى الأمهات ، إنها ساعات حب أرسلت عبر الأثير تحمل أجمل العواطف وأرق الأحساسيس من الأطفال والكبار إلى الأمهات .

كانت موسيقى المذياع جميلة الوقع وكان حديث اليوم كله عن الأم ودورها .

من يحتفل بمثل هذا اليوم فى الوطن العربى ورسولنا العظيم يقول (الجنة تحت أقدام الأمهات) !

واستراحت الأم طول اليوم وقام كل واحد بواجب فالبنت الصغيرة جربت أن تطبخ لنا الطعام والوالد قام بإعداد البيت وترتيبه ،ولم يتيحوا لى فرصة ترتيب شىء وأردت أن أشعرهم بأنى من أفراد الأسرة فأعددت مائدة الطعام ورتبت الصحون والملاعق والشوك . وشىء صغير خير من لا شىء ثم خرجوا جميعاً فى جولة عذبة بين الحقول والغابات سيراً على الأقدام يمتعون النفس بالجو الجميل والهواء الطلق . ولولا عملى لذهبت معهم إلى حفلة عامة .

العناية بالزهور :

عندما أدخل بلداً وأرى فيه باعة للأزهار أعرف أنه بلد وصل إلى مرحلة حضارية متقدمة وكلما زاد عدد الباعة دل على انتشار الذوق العالى والحس المرهف الفنى الرقيق .

ودلالة أخرى على أن البلد وصل مرحلة من الشبع والرى وبحاجة إلى مايمتع به حاسته الفنية وذوقه الرفيع . وتبدو هذه الظاهرة فى مصر وفى أحيائها المختلفة ويمكنك أن تعرف غنى المحلة وترفها من وجود باعة الزهور ومن أنواع الأزهار التى تعرض وأسلوب عرض البائع وشكل دكانه وأناقته .

فبائع الزهور فى الزمالك يختلف عن بائع الزهور فى شارع قصر العينى ولا أظن فى حوارى بولاق أو السيدة باعة للزهور بمثل هذا الشكل وهذا الأسلوب .

وقد ابتلى الشرق العربى بالمصائب الكثيرة وهيمن الفقر والجهل على ربوعه : برغم غنى بعض الأقطار الطبيعية لذلك فإن مظاهره العامة تعرف بمقدار حاجاته للأشياء

الكمالية ، ومن يكون محدود الدخل فالمعدة أولى من متعة العين وإرهاف الذوق لأن الجوع قبل المتعة الفنية .

كيف تطلب الترف من إنسان ينام على الأرض على فراش خشن وقد لا يبدل ملابسه إلا كل عام وقد لا يغسلها طول عامه . . إن فقر الشرق العربى وتأخره من جراء المصائب والحروب والطواعين خلقت منه إنساناً لا يكترث حتى بنوع طعامه . فقد رأيت جموعاً من أهل القرى لا تعرف غير الخبز طعاماً وغير البصل أدما ويفرح إن جاءته تمرات من جاره أو لبن من صديق . اللقمة الجيدة هى ترف الجائع ولذته وأمله .

وحضارة الغرب وتقدمه وشبعه اقتصادياً هو الذى جعله يعتنى بالتمثيل والموسيقى والحفلات ومتع الدنيا المباحة وغير المباحة فكثرت المسارح ومحلات الموسيقى وانتشار آلات المذياع وآلات الصور المرئية وحرمت على أبناء الشرق العربى لأنه لا يقدر على شراء المذياع وآلات الترف الأخرى[1] .

ومناهج أدوات الإعلام والتسلية فيها كل ما لذ للإنسان وطاب لسمعه وحلا له بصره فقد حوى المنهاج الإذاعى فى لندن عدة برامج حسب رغبات الناس وحسب أوقاتهم المتاحة لهم . وهم يفرضون ما يلذ لهم من المناهج .

وسيدة الدار الإنكليزية لها أثر كبير فى تزيين الدار والعناية بها فهى دائماً تغير فى أوضاع ترتيب الأثاث والستائر وفى كل عام تبدل ورق الحائط وأكرات الباب وصبغها وتلوين بعضها . حتى تبعد الضجر من النفوس والملل عن الأسرة . والزهور إحدى وسائل التبديل والتنسيق فهى تزرع فى الحديقة أنواعاً حسب المواسم . وتضعها فى مزهريات لطيفة الشكل رخيصة الثمن .

وتزرع مع الأزهار بعض الخضر وتشرف على إنباتها دون أن تنسى واجبات البيت من طبخ وتنسيق وغسل الملابس وكيها وقد نظمت ساعات النهار والأسبوع ، فيوم للغسيل ويوم لكى الملابس وساعات للتجوال والسير فى الحقول وزيارة أصدقائها أو استقبال الأصدقاء .

إن تنسيق البيت الدائم وتغييره يحس به الإنسان ويشعر بالرضا والراحة واختيار الألوان يبعث السرور والراحة فى الروح .

والشعب الغربى يهمه أن تكون أثاثاته بسيطة الهندسة قوية المادة وبذلك فالبيت يكون

(١) اصبح المذياع والتلفاز منتشرين بعد الطفرة المالية فى الوطن العربى .

معرضاً جميلاً وليس مخزنا تحشد فيه أنواع الستائر الغالية الثمن والأثاث النادر والسجـاد الفاخر الغريب الألوان والأشكال .

كنت أزور بعض البيوت فى العراق فأرى السجاد الكاشانى والممتاز من الزوالى قد سمر على الحيطان وفرش على الأرض ولصق أحياناً بالسقوف وكأننا نعيش فى حجرة من السجاد والزوالى . . وتمنى صاحب الدار أن يكون له عشرون حائطاً ليضع عليه ما خف وغلا من هذه الزوالى .

وعندما تترك المكان لا تحس بأنه أثر فى نفسك أو تمتعت فى روحك بالفن والجمال إنما تحس بالغثيان والاشـمئـزاز من هـذا الـذى أراد أن يـظهـر غنـاه بـأسلوب بـدائـى رخيص . . إنــه ذوقــه المتدنى الذى لا يفكر إلا بالكمية ولا يفكر بنوعية هذه التحف لأنه لا يقدر على التنسيق والإبداع وترتيب البيت هو أو أسرته . فالذوق بدائى والتنسيق ساذج .

إن اهتمام الشرقى بالمظهر أضاع عليه الكثير من متع الحياة المباحة فى المجتمع وهدر طاقات البساطة العذبة والجمال والراحة النفسية والهدوء الروحى ودفء المكان ولذة التمتع بالتنسيق . . . ولم يحصل على ما يملأ الأعصاب هدوءاً والنفس راحة ومسرة .

إنه مجتمع فقد الحضارة الأصيلة التى كانت زاهية زاهرة وعاد إلى البدائية والنقص فى الذوق والإحساس الفنى الذى اشتهر به الآباء والأجداد . .

طــرائــف

بلد الغرب والغرائب بالقياس إلى عالمنا العربى ومحيطنا الشرقى الذى فرض المجتمع عليه عاداته وتقاليده ومثله من جراء الحاجة والجوع وضياع الثقة بين الحـاكم والمحكوم فنحن نرى أموال الدولة ضائعة ولا يحس الشعب بأن الدولة منه وأن مالها ماله لهذا . عندما يذهب مراجع إلى محاسب ويتأخر فى دفع حقه من المال أو لا يراه محقاً فى طلبه يقول له : أنت تدفع من جيبك . وإذا غضب وكان المراجع أقوى من الموظف يضيف (هو مالك أو مال أبوك وأمك !) . وإذا وجد شيئا فى الشارع عدّه (لقطة) وهـو أحق بامتـلاكها مع أن الإسلام يؤكد على عرض ما نجده والمناداة به أو تسليمه لمسؤول من الدولة . . وهذا ما تعمله السلطات فى لندن عندما يجد الناس اللقط تذهب إلى مكان مخصص لها وقلما ضاع شىء من إنسان إلا وجده ففى القطار الجوفى والباصات والشرطة مكان لـلأشياء

الضائعة ــ اختلفت الأمور الآن للأسف الشديد ــ وكان الطلاب عندما ينسون حقائبهم يجدونها قد عادت إلى الكلية عند البواب[1] .

ومن هذه الطرائف الغريبة التى لا تحدث إلا فى بلد أمين شبعان .

١ - الجنيه التائه

ذهبت مع أخوان لنا لقضاء يومين للتمتع بالبحر والنظر إلى مياهه وموجه الجميل فالنظر للبحر وأمواجه واللا نهائية فى أفقه ميدان للمفكر فى إبداع الطبيعة وتذكر الإنسان بعظمة الخالق الكبير وهو لأصحاب المتعة لذة فنية ونشوة روحية ففى هديره الجميل وتلاطم أمواجه نقرأ تاريخ الإنسانية كلها فقد احتوى أبطالا محاربين وضم قراصنة مغامرين وكم من جيوش ذهبت والتهمتها أمواج هذا الجبار وسفن كبيرة صارت طعمة سائغة لأسماكه لابد أن أرسل برسالة للأسرة أو بطاقة فى كل حركة أتحركها فذهبت إلى البريد لشراء بطاقة فوجدت ورقة نقدية من فئة الباون . فسلمتها لبائعة الطوابع فقد يكون أحد المفلسين من أمثالنا أضاعها أو طفل صغير سقطت منه فأخذتها بعد أن أخذت عنوانى[2] .

وبعد ثلاثة أشهر وصلتنى رسالة من البريد المركزى وفيها كلمات شكر على عملى الذى قمت به . . قلت ثلاثة أشهر حتى أشكر . . وسعدت لأن البريد لم ينس الشكر . . . ووجدت مع الرسالة صكا بباون واحد تركته لدى البائعة ومضمون الرسالة : لما لم يطالب أحد بالمبلغ حسب القانون فهو من حقك .

لنتصور الأمر حدث فى الشرق .
هل يسلم النقد إلى موظف البريد .
وإذا سلم له هل سيوصله إلى المسؤولين !
وهل سيشكر المسؤول من وجده !
وأين سيذهب هذا النقد ! .
حدثت الصديق خالد القشطنى بالقصة وضحك وقال بليتى أكبر قلت وما البلية !
أبرز لى ورقة استدعاء من الشرطة ! .
قلت هل تشاجرت !
قال اقرأ . . . فوجدتها تقول .

---

(١) اختلف الحال وعليك ان تحافظ على مالك ايه العربى وهو فى جيبك .

(٢) سبق الاشارة إليها

أرجو الحضور إلى المركز لتسلم قلم الحبر الذى وجدته لعدم مراجعة أحد فى طلبه قلت لماذا لا تذهب وتأخذه قال : إذا أخذته يجب أن أوقع تعهداً بالمحافظة عليه متى طالب به صاحبه . . ما العمل لوْضَاعَ القلم ! .

الأحسن تركه لهم والاستراحة من عناء المحافظة عليه والقلق من فقدانه .

٢ - غرام فى الهاتف

أحد الطلاب العرب أخفق بالاتصال بصديق من هاتف عام فاستعان بالبدالة المركزية للشكاوى وسمع لأول مرة صوت فتاة وقد أطربه الصوت الجميل والرقة الدافئة من صوتها ، ولم يدر أنه وضع النقود دون أن يضغط على الزر المخصص لتنزل الدرهم فى الصندوق ولما قام بالعمل وكانت تراقب عمله بالاستماع إلى صوت حركة النقود فقالت له :

للأسف أن الخط معطوب .

وأثارت رقة صوتها فى نفسه المراهقة الرغبة فى إطالة الحديث معها . . فتحدث معها عن البنسات الضائعة التى ذهبت إلى الصندوق دون فائدة من جراء نصيحتها فى الضغط على الزر .

فقالت لا يمكن إرسال موظف لفتح الصندوق وإعادة المبلغ إليك .

قال لها ما العمل !

قالت أعطنى عنوانك . .

فرح الشاب وعاوده الأمل العذب بأنها سوف تأتيه أو على الأقل تطلب موعدا مع المجنون الذى عشق ليلى الهاتف .

فأعطاها العنوان . . وسألها إن كانت تريد رقم هاتفه !

قالت بلطف كلا العنوان كاف .

وانتظر صاحبنا على أحر من الجمر وكانت سعادته غامرة عندما وصلته رسالة من البريد . . وحسب أن الظرف جاء من التى تحدث معها . . لأنها من البريد .

وقد فتح الرسالة واعتراه الذهول من هول الفجأة التى لم يكن يتوقعها فقد أخذ الرسالة بيد مرتعشة إذ وجد :

صكا بثلاثة بنسات محولة إليه من البريد . .

ولا زال يحتفظ بالصك ذكرى حلاوة الصوت ونشوته .

٣ - السكر الحلال

خلال أيام التموين الذى سيطر على إنكلترا بعد الحرب العالمية الثانية كان أحد طلاب العراق يتسلم مقادير من السكر والرز وبعض الأطعمة الجافة التى ترسل إليه من بغداد وفى يوم عاد إلى البيت فوجد كيساً فارغاً . . فاستاء كثيراً لأن أسرته لم ترسل له السكر الباقى منه حبات بكيس متين فضاع عليه السكر . . ولكنه وجد الكيس مختوماً ومغلقاً بغلاف من البريد فأخذ يسخر من البريد ومن عقل الإنكليز الذين يختمون كيساً فارغاً ويضعونه فى ظرف . . ما نفع هذا الكيس الفارغ بعد أن تسرب السكر منه . . وقد يكون أحد موظفى البريد قد سرقه فإن السكر نادر فى لندن . . . ويوزع بحصص قليلة .

وفتح الكيس حباً بالاستطلاع مؤملاً بقايا من السكر فى الكيس اللعين .

وجد ورقة داخل الكيس وفيها رجاء بالحضور إلى البريد فعاوده الأمل فقد ظن بأن السكر بقى فى البريد أو ضبط مع أحد الموزعين وذهب وقابل الموظف المسؤول فقال له :

يؤسفنا أن تسرب السكر من الكيس ونحن نعتذر عن ذلك كل الاعتذار . . فقال ويحكم جئت إليكم لأسمع كلمات الاعتذار والأسف .

وأردف الموظف أن الكيس ليس قوياً . . فكاد الطالب يجن ولكنه صبر ليرى النتيجة .

وأردف الموظف قائلا : قد وجدنا على الكيس أنه يحوى على أربعة باونات من السكر وسعر الباون فى السوق الحرة نصف باون فهذا صك بالمبلغ تعويضاً لك لأننا لم نحافظ على سكرك . . وهو إهمال منا .

هل يقرأ هذا العمل الموظفون فى الوطن العربى ! .

٤ - مجلة بعد خمسين سنة

إن دقة البريد في بريطانيا مضرب المثل إذا أرسلت رسالة مساء سوف تصل فى اليوم الثانى أو الثالث إلى أصحابها ويعتمد الناس اعتماداً كلياً على البريد فى كل مـراسلاتهم وهداياهم الكثيرة المتنوعة ، وفى أيام عيد الميلاد ترسل ملايين الهدايا والناس واثقون من وصولها إلى أصحابها دون أن يمسها ضرر لذلك نجد الإذاعة المسموعة والمرئية تبث على الناس أسلوب إرسال هذه الهدايا ومنها الصينى والخزف والمواد القابلة للكسر . . . ولا نجد مكاناً يخلو من البريد والهاتف فهو منتشر فى الطرقات والشوارع ويمكن للناس الاستغناء عن الهاتف الخاص باستعمال الهاتف العام الموجود فى منعطفات الشوارع وحنايا الدروب حتى فى الطرق البعيدة عن العمران وسكانها . . .

ومن طريف ما قـرأنا أن إحـدى الجرائـد الإنكليزيـة أرسلت أعدادهـا لمشترك من المشتركين سنة ١٩٠٠ وأعادها الموزع لأنه يجهل العنوان ووضعت فى المهملات وفى عام ١٩٥١ م عمل موزع جديد فى التوزيع بالجرائد فقال أعرف عنوان هذا الساكن .

وسجل عنوانه الجديد عليه .

وما أشد استغراب المرسل إليه عندما وصل إليه عدد من الجريدة أو المجلة صدر قبل خمسين عاماً وعليه عنوانه الجديد ! .

عجيب هذا الخبر . . ولكنه حقيقة . . قارنوه مع بريد العرب ! .

حفلة أدبية صاخبة

الغرب يعرف قيمة الوقت ويقدره ، فالنظام يسيطر على حياته فهو جاد فى عمله مستمر فيه لا يشغله شاغل ولا يضيع وقته بسواه ولا يقبل زيارة خاصة أو لقاء لا يتعلق بعمله . . ومتى ترك عمله فهو حر يعطى حريته ما تستحق من عناية ورعاية فلا يترك أوقات العطل تمر دون أن يتمتع بها ويستغلها فى رحلات قصيرة أو زيارة صديق أو قريب أو السفر إلى بلد آخر . . . يشاهد الآثار والمواقع الحضارية ويستمتع بالموسيقى والفنون المختلفة .

وفى نهاية كل أسبوع تقام حفلات للطلاب فى الجامعة على اختلاف الكليات وفيها تبدو ملابسهم الجميلة وأناقتهم الواضحة فكل طالب وطالبة يرتدى أحلى ما عنده وأنظف ما يملك وتتزين الطالبة بأحلى زينتها وخير ملابسها وحليها دون إسراف ممل أو مظهر ملفت للنظر .

وكان فى معهد الفنون والصنائع Poli tec hinic الزميل عبد الرحمن وهو فنان وقف حياته على الفن وأبدع فيه جاء إلى الجامعة ودعانى لحضور إحدى الحفلات التى يقيمها معهده ولعل العنوان المكتوب على البطاقة ذكره بى فقد كان مكتوباً بالحبر الأحمر Aliterary Boll وكتب زيادة فى التأكيد Novel DANCE فما هذه الرقصة الأدبية والروائية ! .

إنها حفلة عنوانها الأدب ومحتواها الرواية وكنت محتاراكيف يكون الرقص أدبياً وهل يرقص الأدباء رقصات غير رقصات الناس اللهم إلا من أدركته حرفة الأدب فرقص من الفقر والجوع والفاقة ولكن أدبه يكون غنياً مترفاً رائعاً ويكون خالداً بمقدار فقره مبدعاً على قدر فاقته ممتعاً على عمق جوعه وصرخات سغبه .

قلت لعبد الرحمن البطاقة تغرى فلا تزد فى الإغراء . . .

ويقع المعهد فى منطقة Chelesea وفيها جماعة من كرام العراقيين الذين جاءوا لدراسة النحت والرسم . . .

باب المعهد يدل على نفسه فى الصور الجميلة المنتشرة هنا وهناك بأشكال مختلفة أبرزها كثرة الصور التى تحتاج إلى أوراق توت أمنا حواء للحسان والتماثيل الحية اللواتى يستأجرهن الطلاب ليقفن أمام الطلاب نماذج للرسم فى أوضاع مختلفة وحسب رغبة الطالب الذى يتعلم وكم أثيرت مشكلات بين الطلاب وبخاصة أبناء الشرق فى مثل هذه القضايا . . وكم من هؤلاء وقع فى غرام هذا النموذج وظهرت الغيرة . . . بينهم فهى لابد أن تجارى طلاب الرسم والبحث الفنى ويقول المثل (لاحياء فى العلم) فإذن لاحياء فى الرسم

والنحت . . إنها حرفة يعيش عليها عدد كبير من حسان العالم متى أعوزها المال أو ألمت بها الحاجة . .

وصلت متأخراً فكان الحاضرون خليطاً من كل الأجناس والأشكال هذا الزنجى الأسود الأفطس وذلك الصينى القصير المنحرف العين وهذا الأسمر العربى أو الإيطالى والهندى والأسبانى وقلما تفرق بين شعوب البحر المتوسط وتلك الحسناء السويدية والفاتنة الهولندية والمتزمتة الإنكليزية والتائهه بنفسها الفرنسية إنه خليط عجيب مثل كل جامعات لندن ومدارسها ومعاهدها .
كانت القاعة يلفها الظلام المستتر بشموع تتواثب أضواؤها على همسات النفوس ونبضات قلوب الشباب وكل زوجين يهيمان فى دنيا من المتعة واللذة بالتصاق الأجسام ومصافحة الخدود والتهاب القلوب . لا تكاد تعرف أحداً فقد ارتدى الطلاب أزياء مختلفة وملابس كحيوانات أو أبطال القرون الوسطى ومنهم من ظهر أميراً أو ملكاً أو شحاذاً أو صائد أسماك وكانت المرأة تميل إلى ارتداء ثوب قطة تكشر عن أنيابها لتجلب نظر القط إليها ومتى داعبها استراحت إليه وأشرق محياها ووجهها .

والطريف أن يرتدى اثنان ملابس الملائكة وقد حفت بها الأجنحة البيضاء الرفافة . . وتلك ظهرت بشكل الحسناء المقتولة جان دارك ، وآخر يرتدى ملابسه من ورق الجرائد . . وتفنن الحاضرون بالتنكر والاختفاء فى وسط الظلام المخيم والعواطف الثائرة وأخيراً أشرق فى الحفلة العقال والكوفية البيضاء وقد التف الفارس العربى بالعباءة . . . ورأيت لحية جميلة التزين والترتيب صغيرة . . . صحت ياعبد الرحمن . . الحق إنها مفاجأة حلوة أنت الوحيد الذى لم يتنكر . . .

وقد بالغ طلاب الفن فى مظاهرهم وملابسهم فقد أظهرت اللحى الطويلة والشعور المرسلة ترف على الظهور وارتدت الطالبات سراويل كاد جسم إحداهن أن يفر من ضيق ما سجن به . . وقد حملن قبعات حرس البقر . . .

كل طالب أو طالبة يريد أن يكون فنانا مبدعا وأكثر من غيره إبداعا .

وهذه أول حفلة خلت من المسكرات وقدم فيها الشاى والمرطبات ولعلهم أرادوا أن يبعدوا عن أنفسهم تهمة عربدة الخمرة ولكنهم أغرقوا أجسامهم فى عربدة جسدية بهذا الرقص الهستيرى المجنون . فغطت العربدة الروحية وثورة الجسد على السكر الحقيقى بل زادت على عربدة السكارى دون أن يؤذى أحدهم الآخر . .

أخذت أراقب الراقصين والراقصات . . ولكن هل أبقى متفرجاً !. كنت الوحيد الذى لم يغير ملابسه فأنا غريب الملابس إذن . . .

وازداد الصخب وعلا صوت الموسيقى وارتفع صوت نبضات القلوب وكان الجو المظلم وتراقص الشموع واجتماع الأنثى بالرجل مما يزيد فى حدة الحرارة . . .

خرجت فتاة وأمسكت بى وجرتنى إلى الحلبة . . قلت لها ترفقى يافتاتى . . . قالت الرجل هو الذى يترفق . . قلت الأمور انقلبت فى بلادكم فالرجل هو الصيد والمرأة هى الصائدة . .

قالت لو انتظرتم المرأة أيها الرجال لارتمت فى أحضانكم أمام أقدامكم لكنكم متسرعون . . .

قلت خلق الله الرجل متسرعاً ليؤدى واجبه وينصرف وخلق المرأة تأخذ وترعى وتحدب على الانتاج . قالت تلك خيانة الرجل .

قلت تلك طبيعة المرأة لذلك نظّم الرجل الحياة ووضع لها حدوداً حتى تلزم الأنثى حدودها فادمنت الضعف والرقة وهى أصل القوة والعنف . يركض الرجل وراءها حتى يقع فى شبكة الصيد التى حاكتها من جمالها ورقتها وحنانها ودفء كلماتها .

كنا ندور فى الساحة دون أن نحس بما يدور حولنا ولم أعد أسمع تلك الصرخات البشرية التى تنبعث صامتة من قلوب الشباب الراقص أو أصغى إلى تعليقات مذيع الحفلة فقد أخذنى الحديث عن كل شىء .

قالت اسمع وانتبه لما يقوله المذيع :

أرجو أن يربط كل راقص رجل شريكته بمنديله . . ضحكت ، قالت علام تضحك ؟ قلت يريد أن يضمن ألا تهرب منه حواء . . فوضع فيها شارنه كما يضع العربى الميسم على ابله .

واستمر الرقص قال اتركوا زميلاتكم وخذوا واحدة أخرى ثم قال أرجوا أن يخلع الراقص سترته ويلبسها لحواء قلت أما كفاه السجن أراد أن يسلب . سجن وسلب إنها جريمة لطيفة وأخبرت صاحبتى . . فامتثلت للأمر مادام الأمر يسعدها وما الذى أخاف عليه وأنا أفلس من مفلس . . .

فقد أخذت واحدة المنديل وأخذت الأخرى الستره . . وأصررت على عدم خلع السروال لو طلبوا ولكن الله سلم فقد قال .

اترك الراقصة إلى ثالثة وبينما نحن فى حلبة الرقص قال :

أعط شريكتك رباطك . . وبذلك ضاع المنديل والسترة والرباط . . واسفى على السترة الجديدة فلم ألبسها إلا هذه المرة . . .

كانت عينى تراقب السترة مراقبة الحذر فصرخ بنا اجمعوا حوائجكم فحمدت الله وركضت إلى السترة وما أسرع ما وجدت الفتاتين فقد أعادتا لى المنديل والرباط .

فقال :

من تسلم حوائجه يحضر إلى المسرح . . وكانت صاحبة المنديل معى . . وصعدنا إليه . فكانت المفاجأة أن فزنا بالجائزة الأولى وكانت مجموعة كتب أدبية . . من الروايات الإنكليزية .

أكل هذا العبث لنخرج إلى نتيجة أسدل عليها اسم الأدب ، الحق فى الأدب العالمى أكثر من هذا .

ولكن جاء بأسلوب جميل . .

فقال صاحبى . . لما رآنى أفوز بكتب الأدب .

أنت أديب وقد حباك الله بالكتب الأدبية دون كل الفنانين . . إنها صدفة غريبة أنت الوحيد بيننا من طلاب الأدب . . .

قلت ياليت كل الصدفة الجميلة تنصف المستحقين فى الحياة .

خرجت وصديقى لأن الحفلة ستستمر حتى منتصف الليل .

وقلت له : مزق البطاقة فقد كانت الحفلة غير أدبية .

قال انها أدبية ألم يقدموا الجوائز كلها من الروايات !

قلت له : أما رأيت ما فى الزوايا والحنايا وما يجرى فى جنح الظلام الهادىء والصمت الذى خيم بعد الرقص ! .

ابتسم وقال :

الفنانون لا « أباليون » وإباحيون .

قلت والزميلات ! .

ضحك ولم يجب لأنه كيلانى .

٦ - دعوة من مجهولة :

كثير من أبناء الغرب قد عملوا فى الشرق وحملوا معهم ذكريات حلوة بعد أن أحسوا بحلو المآرب فيها تعبق بأيام الشباب واللهو والمرح . والإنسان لا يتخلى عن ذكرياته الحلوة ولا ينسى أماكنها فإذا سمع أغنية حلوة مع إنسان يحبه فسوف ترن فى اللاشعور تهتف طول عمره معه وتلذ فى سويداء قلبه موسيقاها وألحانها .

ويظهر ذلك فى الجمعيات التى تؤسس فى الغرب وإن انحرف بعضها وأسيء استعمال أهدافها فى السياسة والتجسس والاستغلال المشين ويظهر أن (جمعية الصداقة بين الشرق والغرب) إحدى هذه الجمعيات فقد وصلتنى منها عدة نشرات مع منهج أعمالها ولا شك فى أنها استعانت بالسفارة بأخذ عناوين الطلاب لا سيما الذين يدرسون دراسات عليا . كنت فى حمأة العمل المرهق ولا يمكن إضاعة وقت فى الترفيه والمتع المختلفة عندما كانت ترسل لى بمناهج أعمالها وبالفعل فيها بعض الزيارات التى لا يمكن أن يقوم بها الإنسان منفرداً .

بعد الانتهاء من أحد فصول الرسالة وصلنى المنهج ويحتوى على دعوات من أسر إنكليزية لقضاء بعض الوقت معهم ما بين أسبوعين إلى يومين حسب رغبة الأسرة والطالب فقد ترك له حرية الاختيار والمحل الذى يريده وقد شمل جميع أنحاء بريطانيا . . فى المدن والريف والساحل البحرى .

وكنت حريصاً على أمرين : قرب المكان حتى لا أصرف مبلغاً كبيراً فى السفر وقصر الوقت حتى لا يضيع منى وقت كبير . . .

ولا أضيع خمس باونات كما أضاعها أحد الزملاء فقد قبل زيارة طويلة ثم عاد بعد يومين . . من السأم والضيق .

أرسلت اسم المكان الذى وقع عليه اختيارى . . لزيارته وبعد أيام وصلتنى رسالة موقعة من سيدة تدعونى إلى دارها وفيها مبادرة جميلة تضج رقة وجمال عبارة . . سنكون جد سعيدين إذا تمكنت من قضاء نهاية الأسبوع معنا فى شهر نيسان ما بين ١٣ ــ ١٦ منه . . . ولسنا بعيدين عن لندن فنحن نعيش على بعد عشرين دقيقة من محطة واترلو . . فى القرية الفلانية ووصفت المحل بدقة غريبة والسبيل إلى الوصول إليهم أذكره لطرافته .

عندما تنزل فى محطة مولون وليست مزمولدن در إلى الجهة اليمنى فى نهاية السلالم

وادخل تحت الممر الأرضى حتى تصل الطريق العام ستجد موقف الباص فى جهة المحطة نفسها . . وانه من دور واحد ورقمه ٢١٣ . . ادفع بنين ونصف (٢½) حتى تصل إلى رنكستون ماراً بها ففى الموقف الأول تمر بفندق النافورة وعندما تنزل من الباص ارجع إلى الوراء عدة ياردات سوف تجد شارعنا بالجهة نفسها . .) .

وختمت رسالتها بقولها :

(ربما تصل حوالى الرابعة بعد الظهر . . فإذا كان ذلك مريحاً لك أنا وزوجى فنحن ننتظر هذه الزيارة بفارغ الصبر والشوق . .) .

وأرسلت خريطة لتوضح جميع الخطوات مع هاتف الدار .

ساورتنى الشكوك . . وانتابنى القلق . . وبدأت تسيطر على روحى الحيرة والخوف من المجهول . . فهل هذه الرقة واللطف فيهما صدق العاطفة وعمق الود !

ما الذى يجعل أسرة غريبة عنك تدعوك تأكل عندها وتشرب وتنام دون مقابل !

لابد من اكتشاف الأمر . . وقتل الشك باليقين والسفرة مجال جديد للدراسة والاستطلاع فلم أسافر خارج لندن منذ أن وطأت رجلى هذه الأرض فقد أخذ منى العمل كل وقتى كنت أسابق الزمن وأركض بكل طاقتى حتى لا أتخلف عن كتابة الرسالة كنت ليلا ونهارا أحسب ساعات الليل وأسابقه وأعد ساعات النهار لأختلس منها ما أقدر، لابد من الراحة والسفر .

اتصلت بالسيدة بالهاتف وأخبرتها شاكراً قبول الدعوة والساعة التى سأكون معهم بها . .

لابد لى أن أدخل إلى الدار ومعى هدية . . ألم يقل المثل أنا غنية وأحب الهدية ؟ فما نوع الهدية التى سأحملها معى ؟ بدأت أفكر .

أشترى حلويات ! .

قد لا يرغبون فى الحلويات ! .

اشترى لعباً للأطفال ! .

ماسن الأطفال وكم عددهم وما سنهم ؟ .

هل أشترى هدية للرجل ؟ .

ما نوعها ؟ ما هوايته وما يسره من الهدايا ؟ .

لا . . أشترى هدية للمرأة ! .

كم سنها ولونها ؟

وخرجت من الحيرة بشراء باقة جميلة من الزهـر الفواح مختلف الألـوان فإذا أحبـوا الرائحة فقد وجدوها وإن أحبوا الألوان فها هى بين أيديهم ! .

وليست هناك أجمل من باقة الزهر تقدم فى كل المناسبات .

فالزهر رسول المحبين ورمز الحب والطهارة . .

وهدية التقدير والإعجاب . .

ورمز التعزية والألم .

حسب المناسبة فما أحلاها من هدية مقبولة فى كل وقت عند الأمم المتحضرة والشعوب التى نما ذوقها ورهف حسها . . .

وبالفعل وجدت السيدة فى انتـظارى فما أن وصلت أول الشـارع حتى أطلت بكل جسمها باسمة الثغر . . وحيتنى من بعيد وصافحتنى بحرارة وود . .

أخذتنى إلى الغرفة المعدة لاستقبالى . . كانت أنيقة الشكل نظيفة وقد اسدلت عليها الستائر الجميلة وفرشت بالسجاد الجميل . . وكل البيوت الإنكليزية بساطة فى الشكـل ونظافة فى الأثـاث وفى الترتيب . . فيهـا ما يحتـاج إليه المـرء دون إسراف من حـاجات ضرورية .

ولكن لفت نظرى صورة غاندى معلقة فى غرفة الاستقبال . . غـاندى . . وأسـرة إنكليزية ! (ما هذا اللغز الغريب ! .

هل يمكن أن يوضـع رسم فى الوطن العـربى غير رسم الحكـام ! وما العقـاب . . أو الاتهام لو وضعت صور أناس لا يحبهم الحكام ! هل يمكن لشـرقى أن يضع صـورة نولستوى أو شكسبير أو جوته فى داره ! .

إنه معجب بروسيه فهو شيوعى أو إنه معجب بالإنكليز فهو استعمارى أو انه معجب بالمانية فهو نازى . . ما أكثر التهم التى تكال جزافا فى العالم الثالث . ممنوع حتى إظهار العاطفة والإعجاب .

سبحان الله حتى الشعب العربى فقد أبناؤه حرية الفكر والعمل !

ولرب الدارمكتبة كبيرة،صفت الكتب بعناية ونضدت برعاية ظـاهرة فيهـا تمثيليات شكسبـير وقصص دكنـز وبـايـرون وكيتس وشللى وحسبت مضيفى أستـاذا لـلأدب الانكليزى .

وكان يعرض على الكتب بكل حب واحترام وكأنه يقدس هذه الكتب عندما يرفعها من الرف ويعيدها إليه . . حب عميق وتقدير للأدب . . لابد أن يكون كاتباً معروفاً أو شاعراً مرموقاً . . وإلا لما كثرت هذه الكتب الرائعة فى داره ! .

وأخيراً بدأ يحدثنى عن حياته ودراسته بعد أن جلسنا حول الموقد وكانت النار الجميلة يتأجج توقدها بالفحم الحجرى عندما بدأ الحديث وكأنه يقرأ تاريخاً قديماً .

إنه موظف يسجل الاختراعات لأنه خريج الهندسة الميكانيكية وقد مرت عليه جميع المخترعات الحديثة منذ شبابه حتى تقاعد عن العمل بعد أن جاوز الستين فقد ولد الرجل فى أواخر القرن التاسع عشر أى شهد عصر الاختراعات الحديثة التى نتمتع اليوم بفائدتها .

والغريب أن الرجل يمتاز بالحيوية والقوة ولم يتقرب الشيب إلى رأسه خوفاً من شباب الستين وعرام الكهولة الفتى . وآباؤ نا يسرع الشيب إليهم وهم فى الخمسين بل فى الأربعين وأحياناً فى الثلاثين . . فالهموم والأحداث والرعب والحيرة والقلق معاول تهدم حياة ابن الشرق ولا ترحم جسمه وروحه وكيانه .

وعندما تناولنا الشاى فى الساعة الرابعة الذى يحرص الإنكليز على شربه . . أحسست فجأة بصمت قد خيم على مائدة الطعام فقد غاب الزوجان عن الوعى فى هينمات عجيبة وفى صلاة عميقة دقيقة واحدة . . إنهما يقدمان الشكر للخالق على النعمة . . ويفوت المسلمين قول (بسم الله الرحمن الرحيم) عند تناول الطعام ! .

وكان مفتاح الحديث بيننا صورة غاندى . . سألتها عن سبب وجودها . .

بدأت تتحدث عن حياة عذبة الذكريات فى الهند توحيها لها إحدى عشرة سنة تعلمت فيها اللغة الإنكليزية والعلوم الأخرى وتأثرت بالزعيم غاندى وبحركته فى سبيل السلام بالإقناع والعمل السلبى . . والابتعاد عن العنف . . وأثرت هذه الحركة فى السيدة وسلبتها إرادتها ورأت فى غاندى المخلص الأول للبشرية من انقسامها وآلامها وحروبها وتمزقها . . ترى تعاليمه تقرب القلوب بالحب واللطف .

ولم أتفق معها فى الرأى فما زال الاستعمار الإنكليزى يرتوى من خيرات الهند ويعيش عليها ولم يقدر غاندى على إخراجهم والاستعمار لا يخرج إلا بالقوة لأنه دخل بالسلاح والجيش وما يؤخذ بالقوة لابد له من السلاح لإخراجه . .

كانت السيدة فى حلم جميل بأن إنكلترا سوف تخرج من الهند . . فرجوت الله أن تخرج

من العراق والوطن العربي . . وتعيش مستقلة حرة .

وبالرغم من أنها كانت أكثر نشاطاً وحيوية من زوجها فقد غزا الأبيض الممقوت رأسها بعنف وقساوة . . وكأنه يعاند زوجها فى سواد شعره . . وقد كانت تملك شعراً طويلاً ضفرته ضفيرتين شدتهما على رأسها ــ من بقايا ذكريات الهند ــ وعندما ترتاح تتركهما ينوسان على كتفيها بكل حياء واحتشام . . .

كانت لها السيطرة على البيت والكلمة الأولى فى التدبير والتنسيق والشؤون المالية وتلك ميزة المرأة الإنكليزية فهى تقدم كل شىء فى سبيل أسرتها ، تعتنى بالدار والأسرة والأطفال والحديقة وبالمطبخ وتنسيق الدار ولها اختيار الأثاث وتترك زوجها مرتاح النفس منصرفاً إلى عمله بكل طاقته ولا تؤذيه أو ترهقه فى مطالبها فقد أحست بأن الدار لها وهى الملكة وزوجها يحتاج إلى الراحة والهدوء والاطمئنان فأعطته حبها صادقاً وحنانها خالصاً وخدمتها عميقة دون زيف أو منة .

تحلقنا حول نار الموقد وأنا أنظر إلى جميل تصاعد لهيبها ، وحلو تصفيف الوقود ، وانصرف كل واحد منا إلى نفسه وإلى خياله وإلى وحدته . . أخذ الرجل أحد كتب الأدب وانصرف بكل جوارحه إلى القراءة وغاب عن الوجود . . وتناولت كتابى ولكن الحروف بدأت تمد رأسها ساخرة منى . . وكأنى أراها تتفاخر هاربة من تتبع عينى لها . . هربت من الكلمات وابتعدت عن الحروف لإراحة الأعصاب . . وتبديل الجو الورقى وبيئة الحرف والطباعة ؟

الساعة تشير إلى الخامسة . . وكان الحياء يغلبنى ونازعته سطوته برغم رذاذ المطر وغيوم الجو وبدأت تتصارع فى نفسى الأفكار بالثورة والاحتجاج . . لماذا جئت إلى الريف ؟

ألم آت للتمتع بهوائه الطلق ، وجوه الحر وأريح أعصابى ونفسى ؟ واستعملت رقة الانكليزى ونعومة كلماته واستأذنت فى الخروج لأتجول فى القرية . .

وكانت السيدة قد أعدت نفسها وزوجها للخروج فقالت عاتبة . .

ألا تريد أن أصحبك فى جولتك ؟

أنا قادمة معـــك ؟

كانت السيدة قد امتلأت رغبة بالحديث عن ذكرياتها وكأنها كانت مختزنة فى قرارة روحها تريد أن تتحدث وأخذنا نتجول فى المزارع والحقول وترتفع مع التلال ونحط فى الوديان وبدأت تفيض فى الكلام كانت بروتستانتية ضد الكاثوليك ثائرة على البابا الذى

أفقد أتباعه الحرية وجعلهم قطعانا لا يخرجون على أمر . . وكم فى الشرق من هذه القطعان التى إذا خرجت على طاعة رئيسها ذبحت مثل قطعان البابا !!

كانت لها قصة حب عميقة الجذور فى الهند فكان حنينها لغاندى حنينا صادقا لحبيب مضى وأيام تقضت فى ربوعها ومن لم ير الهند لا يدرك سحر الهند وروحانية الهند أيام شبابها حيث الصبوات العارمة والنزوات اللذيذة التى لا تعدلها حضارة الغرب وتقدم أوربا قالت مررت بباريس وأثينا وخير العواصم الأوربية ونهلت من رضاب هذه المدن وأردفت ولكنى كنت أشعر أننى فى سجن جميل أنيق وحبس روحى تفوح فيه الكآبة والسأم والحضارة المفتعلة . . ولكن لما وصلت كراجى شعرت بالغبطة وانسابت إلى روحى السعادة وغنى طائر الحبور فى كل جزء من جسمى . . .

انطلق لسانى بالحديث وبدأت أثرثر لا أدرى ما أقول كنت كالمجنونة ، تملك روحى الرضا وطربت النشوة فى كل الجو الذى أعيش فيه،الكل يرقص وأريد أحتضن كل من أراه . . إنها الهند إنها الجمال . . إنها الحياة . . إنها الفتنة . .

خشيت على السيدة أن تطير بين التلال من شدة هذه العواطف التى تملكتها والنشوة التى أضاعت كل أحاسيسها .

. . . بوجودى ووجود هذا الجمال النشوان فى جولتنا . . .

قلت لأردها إلى الواقع

ألست من هذه القرية ؟

قالت لا ولكن زوجى منها . . أقام بها منذ أربع سنوات وابتسمت بعدما عادت إلى وعيها وقالت :

وأنا زوجته الثالثة . . وقد تزوجنا من ثلاث سنين

وبدأت تتحدث عن حياتها وعملها فى القرية :

أنا مدرسة فى المستشفى ؟

هل تدرسين الطب ؟

قالت لا وإنما أدرس الأطفال المرضى

الأطفال المرضى ؟

نعم . . الحساب والرسم واللغة الانكليزية . . .

وبدأت تسرد على الدروس التى تدرسها . . إنها كل دروس المنهج الابتدائى فقد بدأت

الدولة بمتابعة الأطفال المرضى كيلا يبتعد الطفل عن الجو العلمى وقتا طويلا وبخاصة أن بعضهم . . يتأخر شهورا وسنين فأعدت المعلمات للمريض لتولى مسئولية التدريس وهو فى سريره برغم أن عدد الأطفال محدود . . فقد أعد المنهج وقسمته فى الصباح وآخر فى المساء لاستكمال الدراسة كيلا ينشأ الجيل جاهلا وكل طالب يدرس حسب مستواه العلمى وقابليته المدرسية .

وأعدت الردهات لتكون حلقات الدرس فيها مشوقة محبوبة وزودت بالمذياع والتلفاز فهم يشاهدون الدروس فى أسرتهم بعد أن تصف الأسرة نحو الشاشة ليستمع إليها الأطفال ويستمتع الكل ويستفيدون من المشاهدة .

وقد كانت إدارة المدرسة تساعد الأطفال على العلم بإعداد جوّ مريح هادىء لهم . . فقد شيدت المستشفى بين التلال الخضراء والمزارع الجميلة وغرست حولها الأشجار فبدت المستشفى جميلة المنظر لطيفة الموقع ومن يقدر منهم على اللهو والعبث يذهب إلى الأشجار ويتسلقها وكأنهم عصابات ترفه عن نفسها دون أن تبتعد المعلمات عنهم . . ويحولن هذه النزهات إلى دروس عملية فى العلوم والطبيعة والحيوان .

كانت السيدة تتدفق فى الحديث وتقص عليّ تجربتها ونجاحها ومقدار إقبال الأطفال على التعليم وكنا نمر بين الأشجار الوحشية والحشائش البرية التى أُيقظت أقدامنا هدوءها وسكونها وكانت تلامس أقدامنا وملابسنا مرحبة ترحيبا واضحا فقد تركت لونها على حذائى وسروالى برغم أننا كنا نسير الهوينى حتى لا نوقظها من سكونها وخيالها . وبينما نسير إذ ظهرت بطة من بين الأغصان الملتفة تمشى بكل ثقة وعدم اكتراث بنا تسحب وراءها قطارا جميلا من افراخها يصحبها الذكر باطمئنان غريب وأمان عجيب فقد اتجه الجميع نحو الماء دون خوف أو وجل ، أمن الحيوان من الأذى وأمن الناس على حياتهم الشخصية وحريتهم فى دورهم وأعمالهم فقد حرصت الدولة على خدمتهم ورعاية شؤونهم وما يخاف من كانت الدولة تخاف منه . .

كانت الجولة جميلة فقد عدنا فى السابعة وكان العشاء جاهزا فى الثامنة . . وشممت رائحة الهند فقد كانت السيدة نباتية متأثرة بالفكرة الهندية التى تمنع ذبح الحيوان والغريب ان طعامها فيه نكهة اللحم فقد صنعت كل شيء وكأنه مصنوع من اللحم .

ثم أردفت قائلة أنا أعد لزوجى طعامه من اللحوم . . ثم استدركت وأستفيد من المرق أيضا . . .

أنا لست نباتية قحا .

انصرفت السيدة إلى تنظيف الصحون ومسحها وإعادة ترتيبها فى محلاتها فالمرأة الانكليزية تعيد ترتيب مطبخها وتنظيف الموقد كل وجبة فالكؤوس لها محل والأطباق لها مكانها وترتب الأكواب والملاعق حتى لا تبحث عنها عندما تريدها .

ذكريات مسجل المخترعات .

وبدأ الرجل يحدثنى عن ذكرياته الطريفة قال :..

عندما جئت إلى لندن لم تكن هناك باصات مثل أيامنا لها محرك يديرها إنما كانت تجرها الخيل . . . فى شوارع لندن . . وكان الراكب يختار المحل الذى ينزل فيه حسب إرادته . . بمجرد الطلب من السائق الذى يوقف الخيل برغم صعوبة إيقاف الخيل وقد تكون جامحة أو فى أقصى سرعتها . . .

وكان الركاب يجلسون بجوار السائق ويتحدثون معه ويتسامرون وينكتون معه . . وكان القسم العلوى مخصصا للمدخنين والأسفل لغيرهم . وقد بقيت هذه العادة حتى اليوم فى الباصات واستمر يذكر أيامه فقال :

كان التاكسى عربة صغيرة مقفلة من الداخل يقف الحوذى فى المؤخرة ويقود الحصان بعنان طويل يشده من فوق الحجرة الصغيرة . . ويوجهه حسب ما يريد الراكب .

وأغمض عينيه وسرح فى خيال عجيب وارتسمت على وجهه بسمات حالمة وانفرجت أساريره ورأى منى انتباها عميقا والحق أنه أخذنى إلى عهد التاريخ البعيد والروايات الخيالية لأنى وجدت التاكسى سيارة تسير بالبنزين ولم أتصور فى يوم من الأيام شكل هذا التاكسى إلا أننى أرى العربات فى السينما ثم اردف :

أما القطار الجوفى أو تحت الأرض Under Ground فقد كانت خطوطه محدودة وقصيرة وكان الخط المركزى هو الوحيد الذى يسير بالكهرباء أما Distric المحلى والدائرى Circle فقد كانا يسيران بالفحم الحجرى مثل القطار وخوفا على حياة الناس أو خشية من إزعاجهم

فقد حفرت فتحات كبيرة حتى يتسرب هواء الدخان المتصاعد منها .

قلت ما تزال الآثار السوداء فى بعض الخطوط أراها واضحة .

وقد شاهد صاحبى أول سيارة اخترعت وسجل اختراعها ورآها تخطر فى شوارع لندن

وكان الناس يهربون عندما يرونها مقبلة لأن السائق لم يكن قد تمكن من السيطرة على الاتجاه فكانت تأخذ الشارع طولا وعرضا ويمنة ويسرة وإذا ما أمطرت السماء فقلما يقدر على السيطرة على المقود . . إذ لم تكن الشوارع مبلطة .

وكان مخترع التلفاز فقير الحال أصبح من الأغنياء عندما اخترعه وكان يتكفف فأصبح شهيرا . . وانتشر استعمال اختراعه وعاد عليه بالمال الوفير .

ولعل أطرف ما حدثني به عن اختراع جاء به للمحافظة على الخيل من الانزلاق والسقوط على الأرض بعد أن بلطت الشوارع وبدأت السيارات تكثر فقد كانت الأرض ناعمة ونعال الخيل تكون عاملا فى الانزلاق والسقوط . . وقد رأيت مثل هذا الحدث فى شوارع بغداد قبل منع النقل بها فى الشوارع العامة ـ وبالرغم من الاختراع غير عملى إلا أنه سجله لأن واجبه ألا يرد مخترعا فقد يكون فذا ويفيد البشرية .

فكر المخترع باختراع مستحيل التطبيق وهو أن يعمل دراجة طويلة الجسم وتثبت بأرجل الخيل على المحرك (بايدار) فتحركه الخيل عندما تسير عندما ترفع رجلها وتنزلها وأن تثبت فى مقدمة العجلة حتى لا تسقط الخيل . . .

إن الأمة التى تعنى بالاختراع وتقدره هى أمة متحضرة تقدر الفكر الجديد ومتى شجعت المخترعين وأسبغت عليهم المساعدة المعنوية والمالية وأعطتهم حرية العمل سيكون الإبداع مستمراً والتقدم الحضارى متطورا فى خدمة الأمة كلها . . وللأسف لم تبلغ الأمة العربية هذه المرحلة الحضارية فقد عمل عبد الرزاق محسوب ساعة كبيرة وقدمها هدية للدولة إبان أول معرض صناعى زراعى فى العراق وبقيت حتى أكلها الصدأ ولم يكترث بها فوقف طموح الرجل بعد أن بذل كل طاقته الفردية وصرف عليها من ماله . . وحفظت بعيدا عن الاستعمال ولم يستفد منها إلا بعد أكثر من ربع قرن فقد وضعت هذه الساعة الفريدة فى مسجد الامام أبى حنيفة بعد أن أعيدت لها جدتها .

بدأ المحدث فى التاريخ وقال :

ان أول سجل للمخترعات الكبيرة كتبت صفحته الأولى فى عهد جيمس الأول فى القرن السابع عشر وكان بادىء الأمر سجلا للامتيازات والاحتكارات التى يمنحها الملك فى احتكار الأغذية والأغذية والأطعمة للتاجر ويرفع سعرها حسب رغبته . . ولكن البرلمان ضج ومنع هذا الاحتكار وجعل الاحتكار لمن يخترع شيئا جديدا يفيد الشعب الانكليزى

لا يتحكم فى طعامه وغذائه . . . وأعطى الملك حق احتكار الجديد من المخترعات المفيدة وحق استغلالها لمدة ستين سنة .

لم أسأل صاحبى كيف تحول من العلوم إلى الآداب ومن الاختراعات المادية إلى الاختراعات اللفظية فقد تركت له حرية الحديث مادام قد انسجم وسعد . وأجمل ما تقدمه للانسان أن تسعده بما يرضى نفسه ويلذ به خياله . . والذكريات القديمة دائما تلذ للناس والحديث عن القابلية الفردية ترضى النفس المهملة متى فقد صاحبها سطوة التوجيه والتأثير الاجتماعى . ان أسعد لحظة هى التى يتحدث الانسان فيها عن نفسه فقد يخرج الموظف متقاعدا وسرعان ما يذوى ويضمحل ويموت لأن المجتمع فى الشرق بخاصة يقدر السلطة والنفوذ اللذين يحفان بصاحب السلطان . . وأعجبنى هذا الرجل عندما بدأ حياة جديدة وكأنه شاب يدخل إلى الحياة من جديد فقد قال :

بعد أن أحلت على التقاعد جمعت كل كتبى العلمية ووضعتها فى كيس كبير وألقيت بها فى مخزن الدار . .

ثم بدأت حياتى بدراسة الأدب وهذه الكتب الأدبية قد حلت محل الكتب العلمية وأنا مكب عليها أعيش مع شعر (بايرون) وحياة (جوسر) ونبضات (براونينك) وكأننى طالب يدخل الجامعة من جديد . . وقد اجتمعنا ـ محبى الأدب ـ واتفقنا مع أساتذة يقدمون لنا محاضرات فى تاريخ الأدب وشرح الغامض من المعانى وألفنا جمعية أدبية نلتقى فيها على آخر ما نشر وما كتب فنتدارسه بعمق ونتناقش فى النقد وتاريخه والتاريخ الانكليزى وصلاته بالأدب والنقد والفكر . . .

كان الحديث قد تشعب وخشيت على صحة السيدة وزوجها وكانت الساعة قد قاربت العاشرة فكان سرورها كبيرا عندما رجوتهما أن يذهبا إلى الفراش كالعادة اليومية عند بعض الانكليز وذهبت إلى فراشى مع رواية جان دارك لبرنارد شو ولكن النوم هرب بعيدا عنى وشن حربا لم أقدر على السيطرة عليها وأنى لى اللحاق بالهارب المسيطر . . وأخذت أتقلب فى فراشى حتى أرهقنى التفكير فى الأرق نفسه فكان أرق الأرق أشد من الراحة عند المستريح تعذيبا وألما .

وقد ساعد على هذا الأرق الغريب شدة الرياح وعويلها وكأنها تستصرخ الغيوم لترفه عن آلامها بدموع الأمطار التى كادت أن تفترس زجاج النوافذ بشدتها وقوة هجومها .

وتذكرت أيام بعقوبة ورياحها العاتية فى بيوتنا المتواضعة أما فى داخل لندن فلم نكن

نحس بوقع الرياح وحركتها بعد أن تزاحمت الأبنية فخففت شدتهـا وكسرت حـدتها فى شوارعها وضاعت فى الشوارع والأزقة والمنعطفات . . .

وكان الارهاق خير عامل على النوم . . .

وفى الثامنة والنصف صباحا طرقت على الباب وقالت :

الحمام حاضر

ثم تناولنا طعام الفطور . . وأخذتنى إلى قرية أخرى اسمهـا King Stone وتسمى بحجر الملك إذ توج على حجر فيها أحد ملوك السكسون . . ولا تبعد إلا دقائق بالسيارة فيها كنيسة البروتستانت . . ذهبت للصلاة . . .

وحـان وقت سفرى فـرجتنى أن أتأخـر وقتا آخـر وأن أعاود الـزيارة . . لتشعـرنى بسعادتها . . جاءت هذه المرة إلى موقف الباص . . .

وفى الطريق . . قلت لها . . هل ستذهبين إلى الهند مرة أخرى . . قـالت ان سنحت الفرصة . . . واستدركت من ينسى الهند وجوها الساحر الفاتن ضحكت ونظرت فى عينيها الضاحكتين وقلت : والحبيب الأول . . .

قالت : والحبيب الأول . . . وعطر الذكريات . . . والشباب العارم ولوحت بيدها وأنا فى الباص وقالت : والشباب العارم الأسمر . . .

٧ - وتاهــت الحسنــاء

سفرة إلى باث Bath (٨ حزيران ٥٦)

جلس الطلاب فى المحل الـذى أعد لـلانتظار . . ومضى الـوقت دون أن يتحرك الركب . . وتلك مصادفة على غير عادة الانكليز واحترامهم للوقت . .

وكانت مصاحبة السفرة ودليلها فتاة لطيفة السمات سريعة البديهـة ولما أحست بما يعتلج فى النفوس قالت :

انتظر شخصا واحدا .

فقال أحد الطلاب الظرفاء

هو ؟ أو هى . . وأكد على كلمة « هى » .

فأجابته منتصرة وبفخر وأكدت على كلمة « هو »

وأردفت تقول : دائما (هو) يتأخر .

فقلت لها . . خوف الصدود والدلال . . .

التفتت إلى لترى مقدار الجد فيما أقول . . فقالت ضاحكة

وهل يحلو اللقاء بغير صدود ودلال . .

فضحك الجميع وحضر هو وصعدنا إلى السيارة .

كانت السيارة تخترق بساطا أخضر اللون زاهى النضرة تنساب فيه الشوارع لينة سهلة فلا تقع العين إلا على تموج الحقول وانتشار الأبقار التى تسرح آمنة مع الأغنام بـألوانها النظيفة تتقافز بينها أسراب الدجاج . . وقد بدا على الحيوانات كبر الحجم وتناسق الألوان فقد خلق الله سبحانه وتعالى البلد وكأنه غسل بأحسن ما ينظف الثوب المترف . . تحس بمرح الحيوان وأمنه من المداعبات والركض وراء بعضها . . فليس بين الحقول والمزارع غير الأشجار الضاحكة حدوداً أو جريان نهر صغير فلا نجد السياج العالى والحائط المرتفع كل يعرف حدوده وماله وما عليه . . لا يريد أن يغزو ويتملك ما للآخرين . . فقد كفاه غزو بلده للأمم الأخرى وعاش هو من ثمرات هذا الغزو .

كان الطلاب خليطا عالميا من انكليزى وأمريكى وبرازيـلى ويونـانى وكندى وصينى ويابانى وكنت العراقى الوحيد بين الركب المخب فى سفره وفتى أردنى من بلاد العرب .

هذا يدرس الـطب وتلك تدرس الاقتصـاد وثالث يـدرس الأدب الانكليزى . . .

جمعتهم رابطة العلم ورف على رؤ وسهم طلب الحقيقة والثقافة والتزود من علم الغرب وتجاربه وحضارته .

وبعد دقائق محدودة بدأت الحجب ترتفع بين الطلاب وعمت الألفة والصداقة بنهم فقد أصبحوا مجتمعاً جديدا تجمعه غاية واحدة المتعة بالسفر والفائدة من تجارب الأمم التى مرت على هذه الربوع .

وأخذت السماء تهطل مدرارا وحجب الماء الذى تعلق بالشبابيك المناظر وغام زجاجها . . وسرعان ما صعدت السيارة إلى مرتفع فكان منظرا رائعا فيه تتزاحم الغيوم مع قرص الشمس تريد أن تحول دون نشر أنوارها ولكنها شهرت عليه الألوان الجبلية وبدأ قوس قزح ساخرا منها ومن دموعها .

مررنا فى ملبره Malborigh ولفت الأنظار شىء فقد اتجه الطلاب نحو جهة واحدة والدهشة تملأ نفوسهم وقالوا بصوت واحد . . حصان أبيض . . يركض فى المروج الخضراء . . وقال آخر إنه يعدو ولا يوقفه شىء . . .

نظرت من الشباك ورغم تكاثر المياه عليه . . لم أر حصانا يركض ولا يعدو فوق الحشائش . . إنها قطعة بيضاء مرسومة على وجه الأرض . . وحركة السيارة أحالتها إلى حركة سريعة ويبدو أن الإنسان قد رسم هذه الصورة . . .

إنها بالفعل مثيرة . . فقد كان التل الذى ظهرت عليه الصورة من الكلس أو الطباشير ولم ينبت فيها العشب أو الثيل . . ولابد أن الانسان عمل عمله فحولها مثل الحصان الراكض . . إنها صورة حلوة جميلة . . . .

قلت للمضيفة هل تملكين حصانا مثل هذا ؟

قالت حصانى أحسن منه وفيه حياة . . .

هذا الحصان الطباشيرى وهو معروف فقد رأيته كثيرا فى سفراتى المتعددة إلى بات . . .

ثم أردفت ضاحكة وقد رآه حصانى مرات معى .

وصلنا بات متأخرين عشر دقائق . . لأن السائق لم يعرف المكان . . إذ لم ير « بات » من قبل فوقف يسأل موظف مطافى الحريق فى أول المدينة . . بعد أن ترك السيارة جانبا .

عاد وقال السائق .

إنه لا يعرف المكان الذى نذهب إليه بالتأكيد .

فسأله أحد الحاضرين .
وماذا يصنعون لو شب حريق فى المحل الذى نذهب إليه ؟
فأجابه ظريف

ينظرون حتى ترتفع ألسنة اللهيب إلى السماء ويذهبون لإطفائها .
ولما وصلنا وجد كل طالب ورقة مدونة فيها اسمه ورقم حجرته . . وبعد أن غسلنا وجوهنا وعدنا إلى صالة الحضور . . . وجدت الوجوه قد تغبرت والملابس تبدلت .
وأخذت وجوه الطالبات تشرق بأنواع من الزينة وتفوح بأزكى العطور وأنفذها فى القلوب لا الأنوف . . وتخطر بجميل الثياب وأبهاها . . .
انها حواء . . . حواء . .
قال صاحبى . . إنها الأنثى تغرى وتمتع . . لا فرق بين الطالبة والأستاذة والصغيرة والكبيرة . . عالمة نحريرة أو جاهلة غريرة ، تحب ان تستاثر باعجاب الرجل وحبه وتصرخ انه ظلمها . . وانه يريد تملكها . . وهى الظالمة وهى التى تريد السيطرة . . ومتى فقدت المرأة أنوثتها فسوف تندم أشد الندم وإذا ساوت الرجل فسوف تذكر أيام أمها حواء

والاستحمام والاستفادة من المياة المعدنية وما تزال آثار هذه الحمامات حية فى شكلها وطراز بنائها وما زالت المياه تتدفق . . لكنها أهملت وضاعت سمعتها واندثر مجدها .
أما الطلاب فلم يغيروا ملابسهم أو يحلقوا لحاهم أو حتى يمشطوا شعر رؤ وسهم . . .
هل هو سخرَية . . أو تحد أو اغاظة لا أعرف هؤلاء ؟

كانت فرحتى كثيرة بالسفرة فقد قيدتنى بنظام فى الطعام الذى ضاع منى فى لندن فعند إعداد الفصول تشغلنى عن طعامى وشرابى ولا أحس بالوقت ولا أشعر بالجوع . . عندما أنصرف إلى العمل وأكب لأنهى جزءا من فكرة أو أصل إلى نهاية فصل من فصول الرسالة .
ما ألذ العمل العلمى وأحلاه . . ويح الكسالى . .
كم فاتهم من لذة وضاع منهم من حلاوة . . .

فالفطور حدد لنا فى الثامنة والنصف .
والغذاء يكون فى الواحدة .
شرب الشاى يكون فى الرابعة .
والعشاء يكون فى السابعة وخمس وأربعين .

سأنهض لأول مرة مبكرا . . وأنام مضطرا مبكراً سأريح جسمي وعقلي ولو لأيام محدودة . .

وبدأ رنين الجرس يداعب أجواء المحل ينادى حى على الطعام . . .

والغريب أن البنات كن قداستيقظن قبل الطلاب وكانت أصواتهن تغرد فى حنين غريب ورقة عذبة فى الممرات ليسمع الطلاب شجونها وانسابت أعذب الأغانى . . تارة بالانكليزية وطورا بالبرتغالية وآونة بالفرنسية . . التى غلبتهم جميعا فسكت الجميع للصوت العذب والجوارح الملتهبة . . وما أجمل صوت الأنثى إذا أحبت وأعذبه إذا هجرت وأبدعه إذا ضاع الأمل وبكت الأمانى . . شمل الجو سكوت عجيب . . وخيم صمت عميق ولهفة صادقة إلى المزيد . . حتى شبعت . . وكلت . . ونسينا طعام الفطور فصاحت إحدى الطالبات غيرة وحسدا هيا فقد جعنا . . فبددت الصمت . . وكأن الجميع أفاقوا من حلم جميل .

وبعد الفطور وقبل أن نتحرك عرض علينا بالفانوس السحرى صورا لأهم الأماكن التى سوف نزورها وأهميتها المعمارية والأثر الفنى الذى تركته فى البناء الحديث والقديم . . . .

وإذا بصوت مصاحبة السفرة التى كانت تشرح الصوت يرتفع ويقول :

انتهى علمى ووقفت معرفتى . . .

وبدأت دليلة حاذقة بالآثار القديمة تروى حكايات وقصصا فيها من الواقع التاريخى المصاغ بأسلوب أسطورى جميل تكمل حديثها . . طافت بنا الدليلة مدينة باث . . وهى تقول :

هذه ساحة الملك .

وهذا مربع الملكة

وذلك الهلال الملكى

قال أحد الحاضرين . . لم سميت بهذه الأسماء ؟

وأردف ساخرا . . طالب آخر .

سمى مربع الملك لأنه مربع الملك وسمى هلال الملك لأنه هلال الملك وساحة الملك لأنها ساحة الملك .

فانخرط الكل فى الضحك . . .

فما كان من إحدى الطالبات أن قالت :

سمى بالهلال الملكى . . لأن البناء الضخم الذى ترونه والدور المتراصة حوله على شكل الهلال بنيت عندما التجأ الفرنسيون بعد الثورة الفرنسية إلى باث فأكثروا من ذكر الملك تخليدا لارتباطهم بالملك وتحديا للثورة الفرنسية التى وأدت الحكم الملكى . . .

إنه تعليل جميل . . خسروا الحرب وعاشوا فى الشعارات والأسماء . . .
وشتان بين هارب من المعركة . . والمصطلى بنارها ؟
إنه أمل يحيى فى النفس الأحلام .
وذكرى تعيد إلى الروح الأمانى . .
مدينة باث من المدن القديمة يعود تاريخها إلى عهد الرومان . . فقد كانت انكلترا ترزح تحت الاستعمار الرومانى ولكن هل يذكر الانكليز وطأة الحكم الأجنبى ؟

وجد الرومان فى المدينة المياه الحارة تتدفق طبيعية وأخذو منها مكانا للنزهة والترفيه والاستحمام والاستفادة من المياه المعدنيةوما تزال آثار هذه الحمامات حية فى شكلها وطراز بنائها ومازالت المياه تتدفق . . . لكنها أهملت وضاعت سمعتها واندثر مجدها .

وطراز البناء الرومانى حيا فى الحمامات الذى انتشرت فى جميع انكلترا كما يلاحظ وجها للشبه واضحا من آثار اليونان لا يقل عن الأثر الرومانى ونجد أثر المعبد الاغريقى واضحاً على طرز الريازة المعمارية الانكليزية .

إنه خليط عجيب من هذين الطرازين فى الأعمدة العالية والنقوش الواضحة على تيجان هذه الأعمدة . . والأقواس التى استفاد منها المهندس الانكليزى فوضعها فى عمارته نجدها على (Marble Arch) القوس الرخامى وقوس النصر فى باريس وكثرة الأعمدة المزدوجة فى المبانى القديمة ، ويفخر الانكليز بأثر الرومان واليونان فى حضارتهم وحياتهم .

ولولاهما لما جاءت النهضة الحديثة فقد أثرا فى الفكر الغربى كله ولا سيما الآداب عندما نقلت مخطوطات بيزنطيا بعد فتح الدولة العثمانية للآستانة وهجرة العلماء إلى إيطاليا فبرز بوكاشيو وبتراك ودانتى .

ثم انتقلت هذه اليقظة إلى أوربا كلها فلا نعجب إن وجدنا آثارهم المعمارية والفكرية واضحة على الفكر الانكليزى .

تركت هذه الحمامات ونسى أثرها فترة طويلة حتى اكتشفها أحد الآثاريين من جديد واتخذها ملوك الانكليز وملكاتهم مكانا للاستحمام والراحة والاستجمام . وقد ذكر أن الملكة آن والملكة اليزابث أو (ليصابات) كما نسميها بالعربية من رواد هذه الحمامات .

والناس على دين ملوكهم فأحس الشعب بأهمية هذه الحمامات وأخذوا يرتادونها وبدأت تكبر وتتضخم وانحسرت أهميتها الدينية وسيطرت عليها فكرة اللهو والمرح والراحة . . وقد وهبتها الطبيعة موقعا جميلا بحسن وديانها وخضرة سطوحها وروابيها وماست برواء الجمال ورداء الروعة وكستها أنمل الأمطار . . نضرة دائمة مثل أية مدينة انكليزية . . . هذه المدينة المندثرة عادت إليها الحياة وزهت شوارعها وطرقها بالجديد المبدع . . عندما أمها الناس لمياهها المعدنية ثانية طلبا للشفاء والصحة والمتعة .

وقد سجلت البلدة زيارات الكاتبة الانكليزية (جين أوستن) التى نشرت روايتها فى القرن التاسع وخلدت هذه الزيارة لأنها كانت ترتاد المكتبة العامة فيها وتستفيد من كتبها . . . ويحس الزائر مدى ألفخر والمباهاة التى تتدفق من فم الدليلة عندما تتحدث عن الكاتبة وتشير بزهو إلى المكتبة التى خلدتها الكاتبة ولا أدرى لم أغفلت الدليلة ارتياد الكاتب الانكليزى الشهير جارلس دكنز لهذه المدينة . . اتعصبت للأنثى أو أن دكنز فوق قابليتها الأدبية ؟

كان عدد نفوسها حوالى الثمانين ألف . . بعد أن كانت أطلالا ينعق فيها البوم والغربان .

وفى صالة المدينة Town Hall رأيت أعجب هدية إنها نابان من العاج أهداهما هيلاسلاسى للمدينة فى إحدى زياراته لها . . وجاء الفنان الانكليزى ونحتهما وأدخل عليهما لمسات فنية جميلة على شكل قرنين . . ثم وضع التاج على القرنين اعتزازا بالهدية والتاج . . قرنان عليهما التاج ضحكت ملء قلبى لأنى تذكرت قول أحد شعرائنا الماجنين .

قالت لجارتها يوما تعاتبها ... صيرت زوجك ذا قرن سيفضحه
قالت أأتركه جما بلا قرن ... يأتيه زوجك ذو القرنين ينطحه

انه اختلاف المثل والتقاليد بين الشرق والغرب فهم يحبون البومة وتوضع تماثيلها فى كل مكان . ويرونها رمز الحكمة والعقل ونحن نراها دليل الخراب والشؤم . . . وتلك سنة البشرية تملى تجاربها على المجتمع وتخلق مثله وتقاليده ، ألفنا البوم فى الخرائب وألفوها على الأشجار . . . فربطنا الخراب بها .

ان تقدير الغربى للإنسان لا يعد له تقدير فإذا اشتهر فيهم كاتب أو شاعر أو أديب أو موسيقار نجد إشارات وألواحا تدل على مروره فى هذه البقاع أو سكناه فيها وأحيانا شرب فيها كأسا أو استراح ساعة . . ولا نقف عند المفكرين وقادة الأدب والشعر فقد وضعت فى

الصالة الكبيرة صورة نجار وهو مجد فى عمله يجلس على كرسى بملابس الشغل . .

لأنه صمم للمدينة ٢٠٠ كرسى للصالة نفسها وتقاضى خمسة جنيهات عن كل كرسى هكذا قالت الدليلة . . ولم أعرف سبب التخليد ؟

وأخذنا نتجول فى المدينة وبدأنا ندخل المحلات التى تستحق الزيارة وانفرط عقد الجماعة . . وكان معى أردنى ظريف اسمه الدكتور ابراهيم طليل ــ جاء لاكمال دراسته العليا فى الطب ــ وخشينا أن نضيّع محل وقوف السيارة . . قلت له :
قف فى مفترق الطرق فسوف يراك الجميع من كل الاتجاهات وسوف يطمئن الجميع لوجود السيارة . .

قال الرجل حسنا سأسيطر على الطريق . .

ولما انتشر الطلاب اختفت الدليلة الحسناء . . بعد أن أضاعت الدكتور طليل وذهب معها إلى جهة أخرى ــ جماعة ، فانقسم الطلاب قسمين فاز الدكتور بالأكثرية وضاعت الدليلة . . وقررنا أن نذهب إلى موقف السيارة . . عسانا نجدها مع الباقين فلم نجد لها أثرا . . .

وبدأ الطلاب يسخرون من دليل قوم ضل فى الطرق . . وصاحوا ضاعت الدليلة . . وتاهت فى المدينة . . .

وأخيرا وجدناها . . وظنت بأنها وجدتنا . .
فصاح الحاضرون بفرح وغبطة وجدناها . . .

ضحك الطبيعة

الريف الانكليزى فى ألوانه المشرقة النضرة الزاهية متعة النفس وراحة القلب لم أجد جمالا يسابق جمالا وروعة تسبق روعة إلا فى يد الطبيعة التى طرزت هذا الريف فقد حباه الله بالخضرة الدائمة . . ونحن نحس بها احساسا عميقا برغم جمال الطبيعة فى العراق وخطرات الخضرة فى أرجائه لكن اهمال الكثير من أراضيه أحاله إلى صحراء سافية الرمال .

تحس بها عندما تجول فى أنحاء هذا الوطن الخصب . .

وقد زاد فى فتنته كثرة أسراب الحيوانات الأليفة السارحة ، والطيور المتنوعة الآمنة الوادعة . . كلها فى مراعيها الزاهية دون راع يخاف عليها أو حارس يبعد عنها أيدى الغزاه والسراق .

تظهر صحتها فى كبر ضرع البقرة ولون الخرفان النظيفة ، فالبقرة كبيرة الحجم تنوء

بحملها بكميات الحليب ، ويكاد يصل الضرع إلى الأرض ليداعب الكلأ والعشب . وكانت الأزهار تتطاول لترتوى من لبنها أو لتداعبها . .

الاطمئنان والهدوء والرضا يشمل أبناء الريف والبراءة والطيبة تظهر على وجوههم عند الحديث معهم . . .

وهو اختلاف واضح بين سكان لندن وبين أبناء الريف الذين منحهم الله قامات مرتفعة وهامات شامخة . . وكأنهم فى مسيرتهم وقوتهم كالجندى الشاب يستعرض فى احتفال عسكرى مهيب جسمه وعضلاته .

ولم تهمل الدولة الريف فهو مثل المدينة مجهز بالماء الصافى والكهرباء والهاتف . . ففى أصغر قرية وأبعد مكان نجد الخدمات الصحية والأمنية والاجتماعية . فلا يخشى الشعب على أولاده من الجهل ولا يرعبه المرض ولا يتهدده الافلاس ولا يتوقع المجاعة أمنت له كل الضمانات . . . فنام مرتاحاً .

الدولة هى التى تخشاه . . وترهبه . . وتفكر ألف مرة فى أية خطوة تخطوها . . لأنه لن يختارها فى الانتخابات . . وسوف يشهر فيها فى المعارضة . . ويقول رأيه فيها بحرية تامة وصراحة مؤلمة فسهرت عليه ليرضى ، وخدمته ليسعد ويعيش هانئا .

ويعيد انتخاب الحزب الذى يسعى فى سبيل خدمة الشعب .

عمرها ألف سنة :

من أغرب ما رأيت كنيسة صغيرة عمرها ما بين ٩٠٠ ـ ١٠٠٠ سنة فقد بنيت فى زمن الرومان وأهملت فأخذها أحد أبناء الشعب واتخذها دار سكن له . لأنها صغيرة وبنى فيها المدفأة الانكليزية التقليدية وحفر فيها الرفوف ليضع فيها حاجاته كانت قليلة النوافذ بأسلوبها الرومانى . . إذ لم يكن الزجاج قد اخترع بعد ، إن قلة النوافذ وصغرها كان خوف برد شتاء انكلترا القاسى لعدم وجود الزجاج عند الانكليز ، ولعلهم لم يعرفوه مع أن الأندلس كانت تتمتع فى أجمل الزجاج وبعد فترة من الزمن مرّ بها أحد علماء الآثار فأشار إلى أهميتها التاريخية على أساس إنها أول كنيسة بنيت فاعتنت بها الدولة لأنها أول كنيسة بنيت فى الجزيرة كلها وانها فى Brad ford on Avon ومازال تحمل اسمها القديم كنيسة القديس لورنس st.Lourence .

الإيمان الانكليزى :

مازال بعض الطلاب يحنون إلى الصلاة والذهاب إلى الكنيسة برغم الابتعاد الواضح عن الدين فقد ذهبت جماعة منهم للبحث عن كنيسة يصلون فيها يوم الأحد صباحا وبقيت الأكثرية تسمر فى قاعة الاجتماعات .

وخرجت أتجول فى المدينة وليس أجمل على النفس من السير على الأقدام واكتشاف المجهول والتسكع دون قيد فى الطرقات والدروب ففيها يجد الانسان مالا يجد مع الجماعة ويحلق فى خيال غريب يرسم هو الصور التى يريدها والمشاهد التى يتخيلها .

كانت المدينة حالمة فى أحضان الطبيعة وبحفاوتها هادئة لبعدها عن الضجيج وكأنى أرى بعقوبة فى هدوئها وسكونها . . التى تموت الحركة فيها ليلا قبل أن تدخلها الطرق الكبيرة ونشوء معالمها البريئة الحلوة .

لم أدر بالوقت وهو يركض فقد أخذتنى الذكريات بنشوة ساحرة . . وغمرنى جو السكون الرائع . . وتصوراتى التى سرحت بها إلى أهلى وأسرتى وأنا أتجول دون هدف غير الاستطلاع ولم أشعر إلا والمدينة تعج بالناس وتزدحم الطرقات فقد بدأ السكارى يتركون الحانات وهما اثنان اثنان وقد احتضنا بسكرين الحب والخمرة ولفهما الهدوء برداء الاطمئنان . لم أجد واحدا منهم أساء لأحد . . أو خرج عن تزمته . . ولولا ترنحه الواضح لما عرفت سكرهم . .

وسألت واحدا منهم عن المكان الذى ننزل فيه وكنت سجلته فى مفكرتى فوقف بكل أدب وتماسك وأجاب بلطف عجيب وظرف ودلنى على ما أريد . . .

وما أن دخلت دربا يتجه إلى الفندق حتى سمعت صوتا نسويا يصيح « مستر عراق » فالتفت إلى الوراء فوجدتها وقد احتضنت أحد الطلاب ثم توكأت عليه . . انها الدليلة . .

ومعها من ذهب للبحث عن الكنيسة . .
قلت لها . . هل وجدت الكنيسة ؟
قالت نعم . . ولما وجدنا متسعا من الوقت عرجنا على الحانه ومتعنا أنفسنا من بيرة القرية .
إن شرب الخمرة مباح . . وزيارة الكنيسة واجب . .
وبالفعل كنت أطل من الشباك فرأيت الفتاة فى ثياب وقورة متجهة نحو الكنيسة لتؤدى صلاة الأحد . . .

غرائب الحوانيت :

هدأت السماء وأخذت الشمس تجفف من بكائها الغزير وبدأت تداعب أشعتها أوراق الأشجار وتيجان الأزهار . . وآثرت أن أتجول وحدى بعد أن جست ليلا خلال الديار . . . فوجدت التاريخ شامخا فى جسورها الصخرية ذات الأقواس وعلى أحد هذه الجسور ركبت الحوانيت الأنيقة الصغيرة واستغل أحدهم منتصف الجسر فاتخذ مقهى لطيفا يمتع شارب الشاى بجمال البناء وحسن منظره . . . .

كانت بعقوبة تركب الدكاكين فيها على نهر خريسان وكانت القنطرة الأثرية من أجمل ما فيها . . ورغم بساطة بعقوبة وتأخرها فقد كانت هذه الدكاكين فريدة فى شكلها ولعلها ميراث من العصر العباسى أساءت إليه المدنية الحديثة وحرمتها من أرث حضارى قديم . . .

واعتنت بلدية المدينة بغرس حديقة وأجرت شلالا يتدفق ماؤه جميلا ويسر نحو بساط من الأزهار المنسقة ورأيت الدكتور طليل ودخلناها وتجولنا بين أشجارها الباسقة وأعمدتها الجميلة . . ودخلنا محلا لعزف الموسيقى . . كان يعزف ألحانه الشجية . .

ولتعطى البلدية بعدا حضاريا للمكان وضعت فيه مزولة أنيقة . . ودنوت منها فوجدت الفرق بين ساعتى وتوقيتها ساعة كاملة . .

نسينا أن بريطانيا تعمل بالتوقيت الصيفى وهذا فرق التوقيت . . وأهدت القرية المدينة أو المدينة القرية تمثالا للملك ادورد الثامن تقديرا لعنايته بها . . نصبته فى الحديقة .

ولما استرخينا على كراسى الراحة . . غط الدكتور طليل فى نوم عميق . . فقد سحره المكان وطيب الجو . . واشراقة الشمس . .

عدنا قبل ان يزمع الركب على الرحيل ، فقالت الدليلة تأخر (هو) فاستدركت قائلا : حباً فى الدلال والصدود قالت اذن سيطول صهيل حصانى .

الفصل السادس

بشر... لهم كرامة

الغربة عذاب

الغربة . . عذاب . . لا يخففها إلا رسائل الأسرة . . وأخبار الأهـل . وإحساس المرء بأنه شديد الصلة بوطنه يبعث فى نفسه الثقة والرضا والهدوء .

إن انقطاع الرسائل يبعث القلق والحيرة . . فالغريب كثير الشوق لتسلم رسالة من الوطن تحمل فيها نغمات الشرق وأريج الوطن العربى ونسمات وادى الرافدين العطرة .

وقد وجدت مشكلة لم تخـطر بالبـال فى كتابـة الاسم فمنهم من يكتبها بحـرف آى وبعضهم يسجل الاسم وأوله اى (E) فكانت الرسائل توضع فى الصناديق المتنوعة . وقد يأتى بها الزملاء أو تنسى فى صناديقهم التى كنت أفحصها لأعثر على رسالة وقد لا أعثر . .

عملية طويلة أن تفحص جميع الرسائل كل يوم . . كيف السبيل ؟

فكرت بالاتصال بالموزع المسئول . . فوجدت جميع البوابين يسهمون بالعمل . . حسب أوقات عملهم . . اذن لا يمكن الذهاب إليهم فرادى فالعدد الكبير من الأساتذة والطلاب . . الذين تصلهم الرسائل . . توزع من الفراشين .

وجاء عيد الميلاد وستزداد الرسائل وتزدحم صناديق الطلاب إنها الفرصة الجميلة . . طلبت أسماء البوابين جميعهم . . وأرسلت لكل واحـد منهم إلى داره بطاقـة تهنئة بعيـد الميلاد . .

وأتصورهم يتساءلون عن هذا الاسم الغريب الذى لم يسمعوا به من قبل والانسان حريص لمعرفة المجهول . . وهذا ما حدث فقد كنت أسأل كل واحـد منهم عن وصول البطاقة فأجده مشتاقا لمعرفتى فأثرت فيهم روح الفضول . . وحفظوا اسمى .

نجحت الفكرة نجاحا رائعا . . فقد كانت الرسائل توضع فى الصندوق المخصص لرسائلى . . وعندما أدخل الكلية وأنا أقول : صباح الخير . .

وقبل أن يرد الفراش على/يقول لك رسالة هذا اليوم ـ وكانوا يبحثون عنى فى المكتبة ليسلموا لى رسائلى وطرودى .

وكانت فاتحة صداقة بينى وبينهم . . فأخذوا فى قضاء حاجاتى فهم يرسلون رسائلى ويحضرون لى ما أريد من عناوين أو نشرات متنوعة أحتاج إليها . .

كل انسان فى هذا البلد له كرامته وله شخصية محترمة ولا يختلف الفراش عن رئيس الجامعة أو وزير الدولة . . فالفراش يرتدى أجمل الملابس وأنظفها ويرتدى فوقها معطفا من الكاكى يقى ملابسه من الأوساخ ـ إن وجدت أوساخ .

ما رأيت فراشا يقف عندما يدخل الأستاذ أو أكبر موظف فى الجامعة مهما علت منزلته . . فهو يخرج ويدخل مثل غيره . . إلا أنه يلقى التحيات ويجاب بمثلها . . وليس هناك اختلاف واضح فى طراز الملابس بين هذا الجمع الكبير فهم سواسية . . بساطة وديمقراطية لا تشوبها شائبة .

لم أجد البواب أو الفراش الذى يجلس أمام حجرة مسؤول يلبى طلباته ويجيب أوامره . . ويقوم لكل قادم وينحنى ليفتح الباب بذلة وخشوع وإذا تحدث تحدث خائفا وجلا . . لأن رزقه وراتبه موكول بالرئيس . البواب يحدثك بثقة كما يحدث كل انسان مهما علا فى منصبه . .

احترام كامل للشخصية الانسانية . . لا يمكن أن يتصوره الشرقى مهما سما فى خياله وأمانيه .

يحترم الانسان هنا نفسه ولا يقبل الاساءة إليه . . فقد أمنت له الدولة راتبا يعيش منه فى كرامة . . وكفته العوز والحاجة . . فلا نجد فارقا كبيرا بين الرواتب والمخصصات كما نجدها فى الوطن العربى كله ومن الطريف أن أحد الأساتذة العرب الموفدين للتدريس فى الجامعة اشترى مرة بعض الطوابع من البواب . . وبقى منها مبلغ جيد . . فأراد أن يجود به عليه كما يجود به على فراشه فى بلده . .

رده الفراش أو البواب برقة ولطف فى الكلام مع علامات الاستنكار المشوبة بالعتاب الرقيق . . التى قرأتها على سيماه .

انه يقبل منك هدية فى مناسبة ويفرح بها ويذكرها دائما وكنت أتحفهم ببعض هذه الهدايا الصغيرة . . فربّت بيننا حبا وودا واحتراما .

الفراش انسان . . والبواب انسان . . والحارس انسان . . بكل معنى كلمة انسان له كرامة واعتداد بالشخصية . . والحرية الفردية . . فهو لا يحمل الأوراق من مكان إلى مكان بين الموظفين . . ولا يجلب الشاى والقهوة والسيكارة لهم . . إنما كل موظف ينقل أوراقه إلى الجهة التى تحول إليها بنفسه إلى الغرف المجاورة حيث الموظف الذى يليه فى العمل . .

الود الذى ربطنى بهم كون لى أصدقاء منهم فكنت أحييهم وأرسل النكت معهم وكانوا يبثون لى نجواهم ويحدثونى عن مشكلاتهم . . وقد دعيت إلى بيوتهم . . ومن هذه الدعوات واحدة وهى الأولى التى أثرت فى نفسى أجمل الأثر . . وغيرت رأيى تغيرا جذريا وكنت أريد أن أطلع على حياة الفراش . . وبرغم ترددى . . . جازفت أقول جازفت لأعرف كيف يعيش هذا الفراش . . إذ لم يدر بخاطرى أن يكون بيت الفراش بهذا الشكل .

دعوة من فـــراش :

دعانى أولهم . . والانكليزى عندما يدعو يعنى ما يقول . . واتفقت معه على قضاء أمسية معه فى داره .

كتب لى العنوان . . واسم محطة القطار النفقى أو الجوفى أو قطار الأنفاق والساعة التى أصله فيها . .

وجدته ينتظر فى ساحة المحطة . . كيلا أضل الطريق . . كان يعيش على حافة مدينة لندن . . فى بيت جميل رائع الهندسة مثل أى بيت من بيوت الطبقة المتوسطة فى لندن والطبقة العليا فى الشرق . فى الدار دوران الأرض وفيه المطبخ وغرفتان والعلوى فيه غرفتان والحمام بناء بسيط نظيف جميل . .

كان الرجل مثقفا ثقافة واسعة فهو يقرأ ويطالع ويناقش فى حدود فكره وخبرته التى اكتسبها فى الحرب الثانية . . فقد جاب الآفاق فى الجيش البريطانى . . ولما انتهت الحرب عمل بوابا أو فراشا فى الجامعة . . وكانت زوجته موظفة الهاتف . . وتزوجا .

فى حجرة الجلوس تلفاز يسهرون على منهاجه الذى حوى كل ما يريده الشعب ويتمناه التلفاز فى خدمتهم للترفيه عنهم وفائدتهم لا يتحكم فيه مسئول ويؤثر فيه وزير . . انه ملك الشعب . . ولخدمة الشعب . . مستقل كل الاستقلال عن التيارات السياسية إلا ما يمس حياة الشعب . وللمعارضة وقت مثلما للدولة وقت .

دبرت السيدة البيت تدبيرا جميلا فى الأناقة والبساطة والتواضع ليس فيه إسراف ولا نجد فيه تقتيرا . . كل حسب الحاجة . .

كان الرجل أعد نفسه لأتعشى معه . . وما دار بخلدى أن آكل طعامى فى داره . . كان قصدى الاطلاع . . وهى الأول التفرج . .

كان عيد الميلاد قد مضى وبدأنا بالحديث عن الهدايا التى تعدها الأسر لأبنائها وذويها وأصدقائها فقالت الزوجة :

أهديت لزوجى هدية هذا العيد . . وسكتت . . أتدرى ما هى ؟
بدأت أفكر فى الهدية هل هى رباط عنق . . أم بدلة جديدة لابد أن تكون آلة حلاقة كهربائية . .

لم تتركنى أفكر طويلا وإنما أشارت بيدها نحو (راديو كرام) وإذا أردنا التعريب (المذياع الحاكى) أو (الواحى المتكلم) أو (المسجل الواحى) . . فى وسط الحجرة . . من آخر طراز فى لندن . .

رأت الحيرة على وجهى – إذ كنت أظن الهدية لابد أن تكون شخصية بحتة . . فقالت : أليس سروره يسعدنا . . وإذا تمتع بصوته رب البيت فقد تمتعت الأسرة كلها بهذه المتعة ؟

الحق أن الأسرة متماسكة فهى تهدى الهدايا للجميع وتؤثر المجموع على الفرد . .

ولم تنس المرأة العشاء . . قلت لها قد تناولته قبل أن أصل إلى الدار . . فما ظهر على وجهها تبرم أو تألم لأننى لم آكل معهم . . ان الرفض معناه صدق الرافض لذلك قدمت الشاى لى على المائدة نفسها وجمعت بين اكرامى واطعامى ما أريد . .
كانت أمسية حلوة نعمت فيها بصحبة أسرة كريمة . .
ولما تركت الدار . . جاء معى المضيف إلى محطة القطار وهو يحمل معه مظلة تقى من الأمطار الكثيرة . . مع أننى أرتدى معطفا واقيا وغطيت رأسى بغطاء للطوارىء . .

أبى الرجل إلا أن يحمل المظلة حتى المحطة . . . رغم احتجاجى . . إنه إنسان . . يعرف كرامته . . لأنه من البشر . يقدر أصدقاءه ويصدق فى إكرامهم .

سقى الله أيام الدراسة

جامعة لندن مركز علم وبحث ودراسة . . وفيها من كل الأقطار العربية والاسلامية التى تتكلم اللغة الانكليزية لغة ثانية فى الدراسة . .

وجدت فيها جماعة من الزملاء المصريين مثل عبد الله درويش وكمال بشر ومحمد الجرح والفخرانى والعشماوى ومحمد أبو الفرج ومصطفى رجب على اختلاف فى الدراسات وتقدمهم العلمى .

وكان بشر والجرح على وشك الانتهاء فلم ننعم بصحبتهما إلا قليلا وقد كان الفخرانى يدرس الآثار وكان معيدا فى كلية الآداب عندما قبلت فى الجامعة وقد أسعدتنى الظروف بالدراسة على العشماوى و أبو الفرج كذلك ، كان حشدا جميلا أعاد للنفس ذكريات مصر الحبيبة وأيامها الغالية . .

وتعرفت على شاب انكليزى اسمه بوزورث ، وآخر اسمه كلبرت موريس ودعانى كلبرت إلى داره شأن العرب ودعوت بوزورث إلى شقتى وكانت بداية ود وصداقة .

ان ذكريات الدراسة أجمل ذكريات العمر وأحلاها وأعطرها وزميل الدراسة صنو الذكريات العذبة وأيامها الشذية الفواحة بالعلم والكد والعمل . . الصادق والانتاج اللذيذ الذى لا تعدله ولا تساويه متعة . .

وقد كان الأخ عبد الله درويش شديد الحفاوة فقد قضى حاجاتى وأخذ يرشدنى إلى كل ما أحتاج إليه . . فهو حلال المشكلات وقاضى الحاجات . . وقد أحسست فيه ودا صادقا وحبا عميقا يقدم خدماته مرتاح النفس .

كان يسكن مع أسرته فى (بدفورد) ولهذا كان يقضى الوقت كله فى الجامعة دارسا وباحثا . . وهذه الطيبة جمعت حوله الإخوان وحببت إليه كل من عرفه .

كنت أسعد بدعواته وقد كانت زوجه مثلا للسيدة الكريمة فإذا دخلنا دارها نجد رحابة

الصدر والابتسامة المشرقة وكلمات الترحيب الجميلة .

كنت أذهب إليه مع الدكتور المعتصم المجذوب من السودان الحبيب ولم أزر السودان ولكن ما قابلت سودانيا إلا ذكرت صفاء صديقى ورقة خلقه ومسارعته لخدمة الآخرين . . لذلك فإن كل أهل السودان أهل طيبة وصفاء ورقة فى الخلق والمعاشرة والوفاء ــ رحم الله المعتصم فقد مات فى المملكة السعودية ــ وهو من أهل السودان .

هذا الخليط العجيب من أبناء العربية جمعتهم اللغة الواحدة والفكر الواحد والأمل الواحد والهدف الواحد . . فهل يجمعهم فى المستقبل الوطن الواحد والدولة الواحدة ؟

كان المعتصم محاضرا فى الجامعة وكنت أستشيره فى كل الأمور ولم يبخل على برأى بل كان يأخذنى إلى الموظفين ليحل ما أشكل على ويذهب معى إلى كل مكان ليسهل أمورى .

ومن الطريف أنه حذرنى من استعمال حرف P عوضا عن حرف B وقال إن العرب يخلطون بين الحرفين فى النطق والحق معه فقد وجدت بعض العرب يخلطون بينهما كما يلفظ اخواننا (Th) وكأنها حرف (س) فيقولون (ماكبس) عوضا عن ماكبث .

ولما أخبرته أن (p) مستعملة فى اللهجة العراقية كثيرا استغرب قلت إنها من آثار الأتراك والفرس فى العراق . .

وطالما أضافنى فى داره وأسعدنى بكرمه وكان عبد الله درويش يغمرنى والمعتصم كل آونة بدعوة ولا سيما إذا طبخ أهله الفول أو الملوخية . . أو أكلة من الأكلات المصرية . . لذلك كنا نشد الرحال إليه . . ونتنادى قائلين هيا إلى مصر . .

وأصبحت (هيا إلى مصر) معناه إلى بيت عبد الله درويش وإلى مائدته المفتوحة .

وكان معنا أحد الطلاب العرب الأقحاح تحس بالطيبة والبساطة والوداعة والسذاجة أحيانا عليه . . والذكاء اللماح والفراسة القوية لا تفارق العربى . . أحببت فيه الصراحة . . وسرعة البديهة والنكت البارعة حتى على أهل نجد . .

وعندما ما أتضايق يقول هل أنت العربى الوحيد انى أقول نكات على أهل نجد يا يوسف . . .

كان قريب السكن منى . . وكنت أحس بالألفة والحب يسريان بيننا وأحس فى صداقته بالمتعة العقلية والروحية . . . أحببته لأنه صدى الماضى العريق وحبى للجزيرة والتغنى بنجد تمثلت بخويطر فما رأيته إلا قلت :

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد   فقد زادنى مسراك وجدا على وجد

وفى بغداد كلمة نجدى ترادف الأمانة . .

وفى يوم قال لى . . أنت تتحدث بصوت مرتفع فأخفض من صوتك عند الحديث وهى عادة عربية . . فإذا أردت أن أعرف أين يجلس العرب فى حجرة الاجتماعات . . أقف برهة وأتجه إلى الأصوات العالية . . فأجدهم فى صخبهم . .

قلت له أين تعلمت هذا ؟

قال أتريد أن تقول هناك من نبهنى إلى ذلك ؟

قلت فراستك وذكاؤك أيها العربى مدعاة الدهشة :

فضحك وضحكنا . .

خويطر خريج دار العلوم . . وقد كنت أظنه يدرس اللغة العربية ولكنه يحضر فى التاريخ وما كانت صعوبته فى اللغة كبيرة شأن كل العرب من طلاب دار العلوم لا يدرسون الكثير من اللغة الانكليزية . . ولكنه درس اللغة الانكليزية ، قبل أن يصل لندن فسهلت لديه اللغة .

لم يكن يعرف من طبخ الطعام غير الرز ويضع عليه اللحم ويقول انها أكله عربية وكنت أقول له .

هل يعرف العرب الطبخ وهم أهل الخيام والترحال؟ .

وكان يملك اسطوانة واحدة يديرها كلما ذهبت إلى حجرته مع العجوز الذى يسكن معها وهى :

يا ريم وادى ثقيف   لطيف شكلك لطيف

ما شفت أنا لك وصيف   شكلك فى الناس ظريف

حتى حفظتها وسئمت منها . . .

وكنت أحس بأنى خير منه سكنا فأنا أسكن فى شقة صغيرة منفصلة لا يربطنى بالناس شىء ، أعيش حسب ما أريد وآكل ما أشتهى . . وكان يسكن مع سيدة انكليزية يشاركها الدار .

غاب عبد العزيز خويطر عنى أسبوعا وقال أنت مدعو عندى قلت له معاذ الله :

اسطوانة سئمت سماعها . . ورز شبعت من سوء طبخة ولحمة يعوضها الله من غيرك . . ألح خويطر وقال مفاجأة . .

ذهبت معه لأنه اشترط ذلك . . ولم يعرج على مكانه . . . وأدخلنى إلى عمارة من العمارات الفخمة ذات الأبواب التى أمامها حارس أو بواب . .

قلت ما المفاجأة ؟

هل تزور أحدا ثم ترجع إلى حجرتك . .

قال لى اصبر وادخل معى ولا تتردد . .

ولجت معه بابا آخر أدى إلى ثلاث طرق أخرى . . فسار فى واحد وأنا أتبعه لأرى ما يعمل خويطر . . حتى وصل بى إلى مصعد أنيق وسرعان ما دخلناه ولم يتفوه بكلمة أو يقل شيئا . .

ثم أخرج من جيبه مفتاحا وفتح شقة . .

قال ادخل . . . ترددت فى الأمر هل يسكن هذا السكن فى مثل هذه العمارة ويؤجر هذه الشقة ؟

قال لا تستغرب . . فقد حانت الساعة اشارة للحديث النبوى الشريف عن شروط الساعة وكان شديد الحفظ للحديث وبارعا فى الفقه .

إنها شقة لا نحلم بها طول حياتنا فى الأثاث والرياش والأنوار والستائر . .

انه يسكن فى كنتن كورت . فقد بدلت حياته بعد أن الحق بالبعثة .

ولعله أول عربى من الجزيرة سيحصل على الدكتوراه ويستحقها فهو ذو خلق عال وذو ود ووفاء صادق صاف . وفراسة عجيبة . لعلها نمت من اختلاطه بالحجاج وهم يرتدون ملابس الاحرام لا يرى منهم غير وجوههم .

زملاء الجامعة

وكان معنا من العراق جمهرة طيبة منهم عبد الجبار المطلبى . . أديب ذواقة له خلق رقيق وحس مرهف وشاعرية وخيال . ويملك روح الفنان الذى لا يبالى ولو اكترث بالعلم والشعر والأدب لكان من مشاهير الأدباء وقادة الشعراء . . فى خياله الخصب وجمال عبارته وحسن لفظه .

من العراق الأخ داود سلوم فى روح طيبة شديد الحذر رقيق الاحساس يخاف من الكلمة العابرة واللفظة المارة أن تمر بمشاعره . . وقد عانى معاناة كبيرة قابلها بجلد الأبطال . . وقوة المغاوير من الرجال وما رأيته يائسا وان ملكت الثورة نفسه الرقيقة . .

شديد الدأب والعمل . . لا يكل ولا يتعب وقد بنى لنفسه مجدا وأبقى لعمله ذكرا

خالدا فى الدراستين اللتين يقوم بهما ، وقد كان معنا عبد المجيد (مكين) كان مسلما بكل معنى كلمة المسلم الغيور على سمعته وكان لا يرضى أن يسمع حرفا يمس دينه وإيمانه . . لذلك كان كثير الاعتراض عندما يدرس الحديث مع أحد أساتذته على تعليقاته .

وممن لم أسعد بربط الصلة ربطاً محكماً زملاء كرام جاؤوا متأخرين وكنت شديد العمل فى الأطروحة ولكن لم أحرم من صلاتى الروحية التى مازلت أحس فيها بالصدق النفسى الذى يربط الزملاء مع بعضهم من هؤلاء الاخوة الأكارم نبيه عاقل وكان نبيهاً وعاقلاً وهو من دمشق اجتماعى الخلق لطيف المعشر وبخاصة إذا اجتمع معه الصديق العزيز محمد ابراهيم الشوش وتجرى المطارحات والمناقضات وناصح مزرا وكان هادىء الخلق صديقاً للجميع ورضا حوارى وكان نابها عرف بلغة انكليزية عالية وبدأب شديد وعمل متواصل حريص على العربية مثل حرصه على الانكليزية ومحمود السمرة رجل مكافح واصل دراسته بصبر وجلد صادق التجربة فى لغته جيد الترجمة فى أسلوبه ، ومنهم حسين بحارنه قانونى ضليع يقظ الحس والنفس كالبئر العميق لا يمكن سبرغوره بسهولة مع خلق رضى سمح وكانت زهرة الجامعة الشاعرة الرقيقة سلمى الجيوسى ونلاحظ وديعة طه النجم مكبة على رسالتها بكل صبر وهدوء وعبد الخالق قاضى صادق الاسلام والعقيدة وكان معنا محمد المبارك ومن السودان الشقيق يوسف فضل وعون الشريف وكامل الباقر ودرس أحمد أبو حاكمة فى الجامعة نفسها وفيها على الحديدى الشاعر الرقيق وعثمان السيد أحمد اللطيف الخلق وقد كان الطيب صالح يعمل فى الاذاعة مع جماعة من طلاب جامعة لندن وفى الجامعة حكمت أبو زيد الشاعرة الجادة اللطيفة المعشر التى أحبها الزملاء وكانت أختاً لكل واحد منهم بروحها الخفيفة وظلها الحلو

إنهم جماعة من الأحبة مرت بنا الأيام حلوة عطرة أو مرة مؤلمة نذكرها ومنهم رواد الفكر والأدب والثقافة .

المرض

كان العمل المتواصل . . وترك الطعام لساعات طويلة . . والارهاق الجسمى . . والخوف من عدم التوفيق عوامل . . بدأت تؤثر فى صحتى وبدأت عندى ظاهرة غريبة . . كراهة الحروف والتبرم بالورق . . كنت أقرأ فلا أفهم . . وضاعت منى ساعات أروض قلمى الجامح بالقوة تارة واللين آونة ولكنه يأبى أن يرسم ما فى نفسى من المعانى . . ويصور ما أريده من الآراء والأفكار . .

إن الاضطراب النفسى كان أكثر عمقا فى روحى . . فقد كنت أخاف من الإخفاق وزاد هذا الاضطراب وغرس جذوره فى اللاوعى أن اثنين من الطلاب تركو الدراسة لصعوبتها . . وذهب طالب إلى جامعة أخرى . . وقدم أحد الطلاب أطروحته فرفضها الأستاذ المشرف . . وطلب منه إعادة كتابة بعض الفصول . وقد كان قد سبقنى بسنوات وكان معيدا عندما كنت طالبا . .

ذهبت للطبيب المعالج فى المحلة التى أسكنها وشرحت له حالتى المرضية وما أعانيه من معدتى من تعب ودوران وألم فى المعدة والرأس . .

نظر إلى وقال إنها علامة قرحة فى المعدة . . . وارسلنى إلى الأشعة وتأكد أنها لم تتكون أو تتقرح بعد وإنما كانت بداية للانفعال النفسى الذى أعانيه . . والاضطراب الروحى الذى أعيش فى دوامته .

أردف أن المفكرين وأصحاب القلم يصابون به ولابد أن تكون واحدا منهم .

ضحكت فقد عرف ما أنا فيه ونصحنى بأمرين .

١ ــ ترك العمل والسفر لمدة من الزمن أرتاح فيها .

٢ ــ عدم التفكير والقلق .

قلت الأولى سهلة والثانية . . لا يمكن القضاء عليها مادام فى النفس إحساس وفى القلب شعور وفى الوطن مشكلات . . وفى عالمنا هموم وأتعاب .

ثم وصف دواء وطلب منى عدم أكل غير المسلوق من الطعام وتجنب الطبخ وفضل السمك والخضروات . . . وأن أحافظ على أوقات الطعام . . لأن المعدة كثرت عصارتها

وسوف تهضم نفسها . . والا أتركُ المعدة خالية . . وأن أكثر من وجبات الطعام وأقلل من الكمية . .

وأعطانى حليبا مركزا على شكل أقراص أستعين بها إذا بعدت الوجبات . .
بدأ وزنى يقل وأخلاقى ضاقت بالحياة وكرهت كل شىء حولى . . ويح الإنسان ما أحقره وأصغره وأتفهه . . جئت للعلم وسأعود بالقرحة والمرض . .

كان عذابا لا يطاق بقيت آكل الطعام المسلوق لمدة ستة شهور متوالية . . وحافظت بقوة على تعاليم الطبيب ونفذت كل توصياته . . خوفا من أن تهضم المعدة نفسها وتتقرح . .

وكنت أزوره فى الشهر مرة . . وكان يتابع تطور المرض وأصبحنا أصدقاء . . حتى دعانى أن أقضى بعض الوقت فى شقة يملكها فى الريف . . ولكن أنى لى هذا ؟ فدونها خرط القتاد .

وحمدت الله بعد هذا الصبر الطويل على الطعام الواحد فعندما أرسلنى للأشعة وتأكد من زوال آثار التقرح أو التمزق لا أدرى سمح لى بالطعام قليلا قليلا . .
ولكن كان أثر القرحة كبيرا إذا ما أكلت شيئا ثقيلا أو زدت فى الطعام . . .

راحة بعد إجهاد

كنت حريصا شديد الحرص على الوضع المالى فليس لى غير راتب أتقاضاه من الدولة وكنت أوازن فيه حاجاتى من طعام وشراب وسكن وكتب لا أصرف إلا بمقدار . . محدود وجاءنى مقدار غير متوقع زيادة مالية محمودة . . حمدت الله على أنها جاءت فى الوقت المناسب عند تطبيق قانون جديد للموظفين فشكراً لله وألف شكر .

كنت على وشك الانتهاء من الرسالة . . طبعت بعض فصولها . . ومراجعة هذا المطبوع . وهو عمل آلى لا يحتاج إلى كد الفكر وبعث القريحة الراكدة من نومها وتبرمها بالأمر . لكن العمل المرهق المتواصل أنهك الجسم وبدد الفكر . فلابد من راحة ابتعد فيها عن الورق والقلم . . وسألت إلى أين أذهب ؟

إن أقرب مكان وأرخص منطقة هى فوكستون . . إنها على القنال الإنكليزى وستكون رخيصة لأن الجو شتاء . . وقد هجرها المصطافون . . ستكون هادئة الجو مقفرة الشوارع . . إلا بقايا المتقاعدين الذين يطلبون الهدوء والسكون . . والعجائز اللواتى أقعدهم العمر عن النشاط .

وكتبت إلى فندق من فنادقها المعروفة . . أسأل عن السكن فيه لمدة أسبوع مع الطعام فقال :

يكلفك الأسبوع إقامة وطعاما أربعة باونات ونصف وكان هذا الفندق يكلف الزبون عشرة باونات ونصف صيفا

الفندق كبير متسع واتساع ممراته وضخامة حجمه جعلته بناء فارغا موحشا . . إنه يربض على الشاطىء . . وغرفتى تضاحك البحر بشبابيكها وشرفاتها . . وقد كان فى الفندق عجوز جاوزت الثمانين مع زوجها ويسكن معنا بائع متجول اتخذ من الفندق ملاذا له فى الليل . . وسيدة نصف . . وربة الفندق . . فندق كبير ضخم ليس فيه غير أربعة زبائن وصاحبة الفندق . . كان عليها أن تدفع لنا مالا لأننا آنسنا وحشتها . . ولهذا تقاضت مبلغا متواضعا منا . . عن الطعام والشراب . .

ما كان فيهم من يناسبنى فى السن والثقافة والهواية كنت أتحدث معهم خلال تناول الوجبات . . وأنا أقرأ جرائد الصباح . . لأنهم منصرفون إلى أنفسهم .

لاحظت ربة الفندق روح العزلة التى تسيطر على . . وأخذت تتود إلى وتتحدث معى بشوق غريب بعد أن عرفت أننى من بغداد . .

والغريب أنها قرأت قصيدة شاعر إنكليزى تغنى ببغداد وللأسف لم أطلب منها هذه القصيدة . . أو أكتبها لأنها كـانت تحفظهـا . فمن هذا الشـاعر الإنكليـزى الذى تغنى ببغداد ؟

إن العامل النفسى والسأم من الحياة من جراء المرض غير كثيرا من طبعى وعاداتى . .

وأضاف إليها عاملا نفسيا هو الصورة العابسة التى ترتسم على محيا السيدة وكانت أشد تبرما منى حتى أوشكت الثورة تقفز من وجههـا . . كانت الخشـونة تتحـدث بالألم حتى بالإشارات التى تستعين بها فى حديثها . . فزادت فى نفرتى وبعدى عنها . . فقـد جئت لإراحة الأعصاب لا للترفيه عن آلام الآخرين وأتعابهم كنت جادا معها لأنى أشعر بثقل ما أحمل على كتفى ومَا رَانَ على نفسى أنا أحتاج إلى جو مرح لطيف أبعد به عن التوتر النفسى وأريح الأعصاب المرهقة عسانى أقرأ الرسالة وأصلح أغلاطها متى ارتحت وزال القلق عنى وهدأت أعصابى . .

هربنا من الهموم . . فقابلتنا ساخرة . . . أنا بحاجة ماسة إلى الهدوء النفسى والود الحميم والنظرة الحانية لأغذى روحى بالاطمئنان وأبعد عنها الحيرة والاضطراب . . لأن فقدان الهدوء يضيع على أهم عنصر من عناصر المراجعة والتدقيق وفكرت فى ترك هـذا الفندق بما فيه ما دمت لم أجد أهم ما أصبو إليه وذهبت لزيارة أسرة انكليزية لبحث الأمر معها . .

وعدت إلى الفندق فوجدته مغلقا . .

ما أصنع أأعود أدراجى وأنام مع الأسرة . . ولكن المطر بدأ يشتد والرياح زاد عويلها وصخبها وتحمل رذاذا يلفح الوجوه بملوحة البحر . . ورائحته المتميزة .

تذكرت أن السيدة رجتنى أن أذهب معها إلى المسرح . . وكنت برما بها فأبيت وكنت ساخطا عليها . . ولما ذهبت لا نتقل من فندقها أقنعت إحدى الساكنات لمصاحبتها بعد ان اشترت البطاقة ، كل شىء هادىء وكأن البيت خال مهجور .

أخـذت أقرع الجـرس . . مرات ومـرات . . ولكن دون أن يجيب أحد أين بقيـة النزلاء . . لابد أنهم فى فراشهم . . أو أنهم يخافون من طارق فى الليل البهيم ؟

وزادت لفحات الهواء . . وبدأت أحس بالألم من شدة الهواء والرذاذ الكثير رأيت فى غرفة الجلوس نورا باهتا ضئيلا بعث الأمل فى نفسى . . ولكنها كانت عالية فصعدت على الحاجز وأخذت أنقر الشباك بلطف . . وأنتظرت دون مجيب .

وحسبته أحد العجوزين فى هذه الغرفة .

وزدت فى الطرقات وكررتها بعنف وشدة . . وبقى النور الشاحب الذى ينبعث من الغرفة هازئا ضاحكا من المحاولات اليائسة التى أقوم بها .

وانتظرت فى الباب لعل الله أن يرسل ربة الفندق . . لكن لفحات البرد وشدة الهواء وبرد الجو ـ أفقدتنى الصبر والانتظار .

لابد إذن من الدخول من الشباك . . وتلفت يمنة ويسرة خوف الحراس . . أو مرور إنسان يحسبنى لصا . . إن الجو العاصف والليلة النكباء لن يدعا إنسانا يسير فى مثل هذا الليل البهيم الموحش .

وبخفة ورعب وقلق تسلقت الحاجز وفتحت الشباك ودخلت منه . . وكأنى فتحت مدينة محصنة أو انتصرت على جيش عرمرم وما أن وطأت رجلى الأرض إلا وخلعت معطفى واسترخت عضلاتى وهـدأ جسمى على الكـرسى الوثـير وأحسست بالـدفء يسرى فى كيانى . . وفى دقائق محدودة سمعت المفتاح يدار . . ودخلت ربة الفندق وإحدى السيدات بعد نهاية العرض وكانت شماتة لما حدثتها بما جرى لى . . وغبطتها أكبر لأنى لم أصحبها إلى المسرح . . لأنها تتمنى أن يسير إلى جنبها رجل . . لا امرأة . .

وبدأ الحديث بيننا رخيا ومدت روابط الألفة بيننا بروابط جديدة . . خزنتها فى نفسها وانسابت كالماء الجارى حتى فتحت مغاليق قلبها وبدأت تروى ذكرياتها وتنفض من قلبها همومها وآلامها بعد أن نام الجميع . . وهدأت الحركة . . تملكنى حديثها ولم أحس بالزوابع والأمطار التى كانت تتصاعد فى جنح الليل :

سألتنى قبل أن تبدأ حديثها . .

لم كنت متزمتا مترفعا عن الحديث معنا . . ولا تتكلم إلا بمقدار ولا تتحدث إلا بنعم أولا . . ؟

قلت : هل هو الذى لفت نظرك فى شخصيتى ؟
قالت : وطابع الشرود واللابالية على نظراتك والآلام تتجسم فى عينك .
قلت : وماذا ؟
قالت : هذا أهم شىء . .
قلت : سيدتى . . لقاؤك الجاف . . ونظراتك اللاأبالية وجوابك المحدود بنعم ولا فرض على الحديث . . ومثلما تدين تدان قالت : أنت شاب فى شرخ الصبا . . وأنا كما ترانى أتمسك بأذياله بقوة وعنف ولكنه يأبى إلا الفرار منى . . وزادنى الدهر ضربات وأنقض ظهرى . . ما شربنى من غصص كريهة مرة . .

كنت زوجة سعيدة تتراقص الأمانى أمامى والأحلام ترفرف فوق رأسى أينما سرت وأنى اتجهت . . كان زوجى يملك مصنعا كبيرا للألبسة الجاهزة . . لتزويد المحلات الكبيرة بكل طلباتها وكنت أعيش بين العمل والعمال أقضى مصالحهم وأعنى بالعمل وقضاياه ولم أكن أملك وقتا للراحة غير ساعات العطل العامة . . كنت أقضيها مع زوجى مثل طائرين مغردين . . نقضى أسعد الأوقات فى أجمل الفنادق وأضخم المحلات . . فى العالم . . فى فرنسا . . وسويسرا فلم نترك بلدا إلا زرناه . . ولا قطرا سمعنا بطرائفه إلا شددنا الرحيل إليه كانت واردات المصنع تدر علينا مبالغ كثيرة . . وكبيرة . . كان الأصدقاء والأهل والأقرباء يزورون زوجى . . ويتقربون إليه ويرجونه أن يزورهم . . وكان سخيا كريما . .

وكانت الإعلانات تملأ الجرائد . . وكانت زيارات المراسلين له كثيرة . . ومدت يدها إلى رف قريب فوجدتها قد جمعت ملفا كبيرا لكل ما قيل عن المصنع وما صور عن إنتاجه . . وقد وجدت الإطراء والثناء على ذوق المصنع وجمال ملابسه ومراعاته لكل تطور جديد فى عالم الأزياء . . .

كنت أستمع إليها وهى تقص على ذكرياتها الأولى وتتفجر السعادة فى حديثها والهناء فى نبرات صوتها . . وبدأ وجهها يشرق . . وأخذ يتبدل قليلا قليلا تبدل الوجه المكفهر العابس . وبدأ يحلو بابتسامة عذبة تهز القلب وتعطر كيان النفس الحساسة . . وبدأت أحس بسعادتها فينتشى القلب معها . . وأنظر إلى تجاعيد الأيام التى حفرتها فى وجهها وأخاديد الزمن فى الجبهة وكأنها زرد فى درع عربى قديم .

يا للذكريات كم تشفى النفس وتحيل التعاسة إلى هناء إنها دواء من غدرات الدهر وعثرات الأيام . .

يا للسعادة وذكرياتها العذبة إنها بلسم لجراح الزمن .

ويا للهناء والساعة الحلوة من دواء يشفى النفوس . . من أمراض الأيام بدأ وجهها يتحول وكأننى أرى تجاعيد الزمن تذوب كلما أطالت فى الحديث وارتوت من السعادة حديثا وذكريات . . ونفضت همومها التى تكدست فى باطنها . . كالبئر الذى غطاه رمل الصحراء . . وتراب الإهمال وزاد الإنسان فرمى قمامته حتى غطاه . . وكدر الزلال العذب فى قرارته .

بدأت ترمى بكل ما علا الماء العذب وصروف الأيام حتى وصلت إلى الينبوع . . جلبت ملف الصور الخاص بها وأخذت تعرض على صور المصنع . . والعمال . . والآلات . . ثم وقفت أمام صورة وأطالت النظر . . ثم عرضتها على .

قالت أتعرف هذه ؟

قلت لا شك أنها ابنتك أو أختك مع زوجها . .

عندها فقدت وقارها وجلجلت القاعة بضحكة خرجت من أعماقها . إن ذكريات جمالها الحلوة نفضت ما بقى فيها من هموم نفسها وقالت بطرب واضح : أنا وزوجى فى أول يوم نفتح هذا المصنع . .

دبت فى روحها حركة عجيبة ونشاط غريب . . فكانت كل مرة تذهب وترجع ببعض الهدايا التذكارية من الهند والصين واليابان ومصر وأوروبا . . انه متحف عجيب . . يمكن أن تعرف البلد الذى ذهبت إليه من شكل هداياه دون عناء وتتحدث عن كل بلد قصة . . ومن أهدى لها الهدية . . اختلطت علىّ الأسماء وضاعت فى ذهنى لكثرتها فقد كانت فاتنة المحيا ساحرة لها جمال غير طبيعى . . مذهل عندما كانت شابة يعشقها ظلها لجمالها وروعتها .

وبلا شعور التقطت مفرشا كانت قد طبقته بعناية وحفظته بقماش غال وفى صندوق جميل . . وبدأت تفرشه على المنضدة برقة وحنان وشوق . . ثم تمر عليه بأناملها . . وتعيد الكرة وكأنها فى معبد . . ثم أعادته إلى طياته كما تصنع المراهقة التى جاءتها أول هدية من حبيب غال . ولما أعادته إلى صندوقه .

قالت : إنها هدية زوجى . . إنها أغلى هدية ستبقى معى حتى أموت . . وجمعت كل شىء وكأنها أسدلت ستارة الرواية . . وسكتت عن الكلام المباح . .

وبدأت أتفرس فيها ثانية فرأيت الأخاديد تعود إلى وجهها وبدأت أحصى الطيات التى لم أرها وهى تتحدث . . لكن علامات الرضا ومشاعر السعادة لم تفارقها بعد أن بدأت روحها الصافية تنبع وبدأت تعتذر عن لقائنا الأول . . فقالت :

الزمن لا يرحم . . وقد اشتريت هذا الفندق لأننى لم أعد أستطيع إدارة المعمل وتكاثر على الذئاب يريدون افتراسى . . وافتراس المعمل . . وفهمت اللعبة .

لم أشأ أن أسأل السيدة عن مصير زوجها . . وما يضيرنى ان مات فى الحرب أو مات فى البحر ، إنه مات وترك زوجة حملت له هذا الوفاء الكبير . . الذى لو وزع على نساء العالم لكفاهن . .

وسؤالى قد يجرح ذكرياتها . .
ولكن مازال فى نفسى سؤال يلح . .
من أين حفظت القصيدة التى تتغنى ببغداد . . . ؟
قالت : إنها قصيدة يحفظها زوجى وكان يرددها وحفظتها منه فقد كان يحب بغداد . . ولن أنسى حبه لها . . لهذا سعدت بك لما علمت بأنك منها . وأصبحنا صديقين .

بدأت هى فى تصليح النسخ الأخرى بعد تصليحى النسخة الأولى وكانت تلتقط الأغلاط المطبعية شديدة الرغبة فى المعاونة . . وإذا مرت بغداد فى أثناء التصليح أسمعها ترددها بلا شعور . .

سعد النزلاء جميعهم بتغير السيدة بعد أن عادت إلى الطبيعة الإنسانية . . وأخذوا ينظرون إلى بإكبار . . عندما بدأت تقدم لى خير الطعام وأشهاه وتغمرنى بالحنان والدفء . . ولما أنهيت عملى وعدت إلى طبيعتى وهدوئى أوصلتنى إلى محطة القطار مع جميع الزبائن . وعلى وجههم علامات الحب والأسى . ما أحلى حب الناس . . وأغلى منه أن مشاعرهم الصادقة . . لا تعادل بمال الدنيا .

وفى القطار تذكرت سبب سعادتى انها أعطتنى حنان الأم وعطفها وهما أجمل ما فى الوجود وأغلى ما خلقه الله من العواطف لأنها تعطى دون مقابل .

الحكاية من أولها

عدت من مصر أحمل شهادة الماجستير موشحة بالشرف وبدأت أبحث لى عن عمل فى الكليات الثلاث التى فيها اختصاصى وهى كلية الآداب ودار المعلمين العالية وكلية البنات . .

كنت أعتمد على علمى وعلى كفاءتى . . وللأسف . . غرق العراق فى المحسوبية حتى فى قضايا العلم ...

ترفعت أن أذهب راجيا مسؤ ولا أن يوصى بى . فرفضت كل الكليات قبولى مدرساً فيها فكان الرفض سبباً فى ألم عميق . . وكان منهم من لا يحمل حتى الماجستير وأصبح أستاذا وعميدا أنا لست ضد الكفاءة العلمية والانتاج الممتاز لتكون سببا للترقية ولكن هؤلاء لم يكتبوا بحثا أو يقدموا جديدا فى عالمهم الدراسى . . إذ لم تكن الجامعة قد تأسست بعد . وكم تصدر من لم يملك غير الوساطة .

كنت مدرسا فى الثانوية الشرقية . . وابتليت بإدارة محدودة العقل وإن كان مديرها طيب الخلق . . ولكن المحسوبية . . . قاتلها الله تفتك بالعراق . . وتضيع الكفاءات الفردية . . وتقتل النبوغ الشخصى .

كنت قد سجلت الدكتوراه فى جامعة القاهرة ــ أو طلبت التسجيل ــ بعد أن اختصم استأذان فاضلان من أجل الاشراف على رسالتى فى الاسكندرية رحمهما الله وأسبغ عليهما الرحمة . . محمد خلف الله أحمد . . الذى أشرف على الماجستير ــ والدكتور محمد حسين الذى أصبح أستاذا للأدب الحديث . . فى السنة نفسها . وكل له حق فى هذا الإشراف .

كان العراق تحت الحكم البريطانى . . وينظر إلى شهادتها نظرة الراهب إلى تمثال المسيح . .

ولما رفضت الكليات تعيينى مدرسا قدمت إلى الجامعات الانكليزية طلبا للالتحاق بها . . وما أسرع ما سجلت فى جامعة لندن . . فلم تأخذ إجراءات التسجيل وأنا فى بغداد أكثر من شهر واحد دون أن أتابعها ، ولم يأت الجواب من جامعة القاهرة رغم المتابعة

والإلحاف على الزملاء والمعارف فيها . .

كنت أعددت العدة لاكمال الدكتوراه وليس لى من طريق غير الأجازة الدراسية ومدتها سنتان وبرغم أنهما لا تكفيان فقد اعتمدت على الله على أجازة عرجاء لأن المشرع لم يعرف شيئا عن الدراسة أو كابدها وإلا لما خصصها بسنتين ، وكانت الأجازة عذابا مستمرا وجرحا ينغز قلبى طوال بقائى فى لندن . . وبالفعل فقد أضاع المرض ثلاثة شهور منها . . برغم الكد والجهاد وسهر الليالى .

كيف يعيش إنسان لا يملك دخلا غير راتبه الذى لا يكاد يكفى حياته الجديدة . . القلق الذهنى وحيرة الأحاسيس أحالا حياتى إلى جحيم مشرد الآهات حائر المشاعر فى لندن . .

كنت أكملت جميع متطلبات الأجازة الدراسية . . وقدمتها لوزارة المعارف قبل الحصول على الماجستير . . وظننت بأن الحصول على الشهادة الجديدة سوف يعزز طلبى . . ويعطينى الأفضلية فإذا منحتها فسوف أحصل على الدكتوراه . . وتلك خير من الحصول على الماجستير إذا منحت لصاحب الليسانس . . ولكن : المشكلات الفردية والعلاقات الخاصة . . والعواطف الشخصية تلعب دورا بارزا فى حياتنا عربا . . فكم أضاعت من حق صريح . . وهضمت رأيا واضحا . . وأعانت باطلا لعينا : فاعتدى على الأبرياء . . وأساء إلى العاملين . .

كنت أراجع المعارف فى أمر من أمور التعليم فوصلت إلى مدير عام . . فأراد غمط الحق وتسليمه إلى قريب له . . فقلت له أخطأت يا سعادة المدير العام لأن اللوائح والأنظمة تنص على ما يلى :-

ودهش للأمر وأعطى الحق لأهله . .

ولكن كظمها فى نفسه وحفظها فى طيات قلبه . . وجد نفسه مدحورا . . إن رد الضيم طبعى وإبعاد العدوان فى دمى . . وكنت صريحا فى القول إلى حد الخشونة والجفاف . . فكان الرؤساء ينكرون على هذا الاحتجاج الدائم ويتبرمون من الجرأة ولا يريدون الحرية . . لمن يعمل معهم .

وكيف يبيح الحرية من تربى فى حضن الاماء وفى جو العبودية والذل والهوان ووصل إلى عمله بالمسكنة وبذل ماء الوجه ؟

اعتاد الرئيس الشرقى أن يقول فيسمع الاتباع . . ويأمر فيطاع دون نقاش فجرت

العبودية فى دماء العرب وألبستهم ثوب الهوان . . سماه بعضهم النفاق الاجتماعى وسماه بعضهم الانتهازية . . وأطلق عليه الوصولية . . انها ضعف فى نفس الحاكم والمحكوم ورثناه على مر عصور الظلم والاستعمار . . وتحتاج إلى سنين للتخلص منها .

لم يعجب المدير العام مناقشتى له إنسانا يعتز بقيمته الفردية ويحافظ على كرامته مدرسا يربى جيلا من أبنائه واخوانه . . كيف يريدون أن يربى الجيل حرا كريما يرفع عن كاهله الاستعمار ويحارب صفا واحدا فى سبيل بناء وطنه ويخلقون المدرسين عبيدا . . العبد لا يربى غير العبيد . . والذليل لا يقدر على إنماء الكرامة والعزة فى نفوس طلابه . . والحرية فى أفكارهم : لأن فاقد الشىء لا يعطيه ولما عقدت الجلسة للنظر فى الطلبات :

ترأس المدير العام المذكور الجلسة . . وقبل أن يقرأ أوراق المرشحين ويعرف ما بداخل الملف قال :

لنضع قواعد عامة نسير فى هديها فى اختيار المرشحين . .

قيل له لابد من ذلك .

قال لا نمنح المدرسين الذين نحتاج إليهم هذه السنة فى الفروع التالية :-
اللغة الانكليزية والرياضيات والكيمياء .

ولا يجوز أن يسافر مدرس لم يكمل ثلاث سنوات فى عمله بعد أن حصل على الليسانس .

قال صاحبى : قلت فى نفسى . . ضمنا الأجازة لك وبخاصة أن درجاتك العالية وضعت اسمك أعلى القائمة .

قلت له هل هناك شروط أخرى . .

قال لا . .

فسلمته الملف الذى فيه أوراق المرشحين . .

ولما فتحه أصابه الذعر فقد وجد اسمك الأول . .

فصاح أدب عربى . . لغة عربية . . لا لا نحتاج إليه . .

قلت لا تكسر القاعدة التى اتفقنا عليها وقد وضعتها أنت فوضع اسمك والألم يقطر من نفسه . .

فبادر ملاحظ يحضر الجلسة لما رأى وقوفه ضدك إلى طلب الملف الخاص بك . . لايجاد ثغرة يرضى بها المدير العام ليحول دون هذا الترشيح . .

وانقضت الجلسة . . وبقيت مع المدير العام لكتابة تقرير اللجنة فجاء الملاحظ وكأنه اكتشف منجما من الذهب .

وقال للمدير : العام إنه لا يستحق الأجازة لأنه حصل على الماجستير هذه السنة . . ويجب أن يكمل ثلاث سنوات حسب التعليمات التى أقرتها اللجنة . .

كانت فرحة المدير عارمة . .

كنت أنتظر النتيجة على أحر من الجمر لأنى أعرف زمن انعقادها وخرج الجميع من الاجتماع ولما رآنى صاحبى قال : الحق . . لنفسكِ . . وأردف شطبوا اسمك من قائمة الترشيح . .

إن جميع الآمال التى شمخت فى ذراها ، وباهت فى عليائها وارتفعت باسمة غبطة فى وجه ربيع الأمانى . . انهارت وهوت الأحلام . . تحت أقدام المطامع الشخصية . . والنزوات الفردية ونفاق الموظفين . . كم أذاقنا أبناء جلدتنا من غصص وآلام ؟. عفا الله عنهم . .

دخلت على الملاحظ وسألته . . فقال :

عدت هذه السنة من مصر . . وفتح الملف وأخرج شهادة الماجستير التى كنت سلمتها له بيدى . .

أخذت الملف وانتزعت الشهادة . . وأعد له الملف . . وقلت : كم مضى علىّ على الليسانس . . أبلس وسكت . .

وقلت له . متى قدمت الطلب . . ألم يكن قبل حصول الماجستير ؟ أراد أن يرد ولكن لم استمع إليه . . إنه شخص هزيل أراد أن يتقرب إلى رئيسه على وأد العلم وقتل الطموح . .

دخلت على المدير العام الذى كانت الأجازات الدراسية من اختصاصه .

كنت ثائرا . . فاقد الأعصاب . . مربداً . . فقد وجدت حقى يغتصب . . وطموحى يداس بالأقدام . .

لا أدرى ما قلت له . . لأن الغضب أنسانى تلك الساعات السوداء . .

فقابلنى الرجل بابتسامة ود وهدوء حبيب ووقار جميل بصوت الواثق ونبرات الهادىء الذى يبعث فى النفس الثقة والهدوء فانساب إلى نفسى وأحسست بأنى غرقت فى نسيم عذب بارد .

كان يرتدى ، رحمه الله محى الدين يوسف نظارة سوداء يشع الذكاء من ورائها وتنبعث الفطنة خلالها . قال :-

أرجو أن تجلس . . لأن العصبية تضيع علينا عمق النقاش وبالتالى نفقد الهدف الذى نتحدث فيه :

جلست وبدأت أحدثه . .

فقال : أمر عجيب . .

قلت وما العجب ؟

قال زعموا أنك تفتقد شرطا أساسيا . . المدة . . ولابد أن تكون ثلاث سنوات .

قلت إنهم على صواب لعين . . ألبسوا الباطل حقا . .

قال : هل يكون الصواب لعينا . . وكيف ألبسوا الباطل حقا . .

وتبسـم . .

قلت أليس ابنك أمين طالبا فى الثانوية الشرقية ؟

قال نعـم :

قلت أنا مدرسه منذ سنتين . . أقرأ دفاتره تجد فيها توقيعى . . قال صدقت وأنا شديد الاعجاب بك ولكن لم أظن أنك الذى تدرسه . .

قال : زال العائق . . إذ حصولك على الماجستير . . هذه السنة نقطة ترجح أجازتك . . ثم أردف قائلا :

أوهمونى بأنك حديث العهد فى التدريس ولم تمض المدة القانونية .

قلت : سامحهم الله . .

قال : اذهب إلى فلان المدير (العام) — وأخبره . .

ذهبت إليه وكانت علائم الشماتة والانتصار ترسم بسمة على كل وجهه وكنت وطنت الأمر على الهدوء فى المناقشة والاقناع . . ولكنه رد على بعنف وسلاطة لسان وسرعان ما نسيت نفسى . . وكانت غرفته قد امتلأت بالمراجعين من أصدقائه وذوى قرباه . . أجبته صارخا :

ألا تخاف الله وتتقى غضبه . . لماذا تقف حجر عثرة أمام كل شاب طامح . . الأنه يناقشك فى حقه فتحقد عليه . . ؟

أجاب : إنك لا تستحق الأجازة الدراسية .

قلت له : لماذا

قال : لأنك لم تكمل المدة القانونية . .

وهنا انفجرت ضاحكا بسخرية وازدراء وأحس بأنه قد أحرج أمام زواره . . قلت له :

هل المدة ضرورية يا سعادة المدير العام ؟

قال أجل لأن اللوائح تنص عليها . . وكأنه ألقى العبء عن كاهله . . وظن بأنه انتصر . .

واتكأ على كرسيه وعلامة الانتصار فى عينيه تحدٍ سافر وأنه أخذعليّ السبيل .

قلت هل جميع الشروط مطابقة .

قال : نعــــم .

قلت : أنا أكملت المدة القانونية اذن . . بهدوء وثقة واعتداء . بهت الرجل بعد أن ظن أنه انتصر . .

قال : كيف حصلت على الماجستير . .

قلت : أترك الماجستير وتحدث عن المدة القانونية ؟

قال : هل تقدر أن تبرهن ؟

قلت : البرهان موجود فى الحجـرة المجاورة ؟ أكتب ورقـة إلى مديـر الذاتيـة بهذا الشأن . .

قال : أنا أسأله بالهاتف . .

قلت أكتب ورقة تأمره بالتأكد من ذلك بدأت استشيط غيظاً وغضبا وأردفت ـــ أنت سبب التعقيد وأنت وقفت ضدى فى اللجنة وأنت قلت . . . ولم يتركنى أستمر وخشى شرا أو كلمة تجرح كرامته . . وقد كان صادقا فى حدسه هذه المرة . .

وعدت له بالورقة مكتوبة . . وفيها برهان واضح .

وقبل أن أضع الرجل الثانية فى حجرته . . قال أنا موافق دون أن يقرأها ولعله اتصل هاتفيا .

دخلت حجرة الأستاذ محيى الدين يوسف ـــ رحمه الله فقال وعلامة الرضا والفوز بادية على محياه . . إنه وافق مكرها . . قبل أن تصله الورقة . . .

والغريب أن يدخل الملاحظ عليه يريـد أن يقنعه بـأنى لا أستحق الأجازة . . لأنى حصلت على الماجستير .

فقال له : افرض أنه لم يحصل على الماجستير ألا يحق له الأجازة قال يحق له ولكنه أخذها .

حبكت النكتة وكان الملف فى يده قلت أين برهانك على أنى أخذت . . الماجستير ؟ وبالرغم من فقدان حجته بقى يناقش . . وضاق الرجل الطيبّ ذرعا فقال له بحدة :

من المسئول عن هذه الأمور .

أجاب بذلة وخضوع . .

سعادتكم . . وضخم الكلمة . .

قال : آمرك أن تصدر الأمر الادارى الآن قبل أن يخرج من مكتبى هذا .

وشربنا الشاى معا وأصبحنا أصدقاء رحمه الله محيى الدين يوسف فقد كان مثقفا كنت أقضى معه أعذب الأيام فى لبنان وأذكره بالحادثه . . قبل ليلة من حادثه المؤلم .

والغـريب أن جميع من أجيـزوا دراسيا معى لم يكملوا الـدراسة . . ويحصـل عـلى الدكتوراه واحد منهم .

تتمة الحكاية

هذه لندن . . .

بلد واسع الأطراف كبير الاتساع . . فيه حضارة أمم وتراث شعوب استعمرته على مر العصور والأيام . . كان يعيش فى بدائية وسذاجة لم يكن أهله يعرفون الحضارة . . وترف الحياة . . لباسهم الجلود . ويأكلون ما يصطادون من لحم الوحش . . .

وساذج الطعام عندما كان أجدادنا العرب ينعمون فى ترف اللباس وجميل الرياش فى أنحاء الوطن العربى والاسلامى . . واليوم ابن الحضارة يحسدهم على تقدمهم الحضارى والترف المبطر والثراء الكبير منذ قطعت الحضارة شوطا كبيراً ونام العرب وغمر المسلمين. سبات عميق . . حتى سمعوا مدافع نابليون . . من وراء الأهرام تهددهم . . وتستولى على مصر . . وتدك سنابك خيولهم المجد العربى والكرامة الشرقية فى كل البقاع العربية والاسلامية . .

هذه هى الحياة !! وتلك سنتها بين البشر . . فقد سجل الغرب الحضارة الجديدة فى التماثيل التى نصبت تشهد للبانى بفضله وللفاتح بجهاده ونضاله وكثرت النصب الحربية التى انتصرت فيها بريطانيا وتظهر فيها سيطرتها على الأمم التى استعمرتها، ففى نصب (البرث) وتحت أقدامه وفى السياج الذى أحاط بها . . فيلة الهند ، وأسود بابل وقصور الصين . .

اتيت إليها أطلب العلم بعد أن ظلمنى أبناء الوطن وأردت أن أتحداهم وأقول ها أنا آخذ الشهادة من بلد أذلكم بالضيم والهوان وترونه أحسن بلاد العالم علما وفضلا . . وأوثقها شهادة . .

أخذت الأيام تتبع الأيام والشهور تسابق الشهور فى سرعة عجيبة لا يعرفها إلا من انغمر فى العمل وأكب على الدراسة والبحث والتحرى . . فتأخذه لذة العلم عن دنياه وتستولى عليه نشوة البحث برغم تلك المتاعب والهموم . . والصعاب والقلق النفسى والحيرة المستمرة أنه ينسى الدنيا ومشكلاتها حتى يستفيق . . ويصاب بالذهول . .

وقد انتابتنى الدهشة وأنا أعد الأيام التى سوف تنتهى بها الأجازة الدراسية انها شهور معدودة ولابد من العمل ومواصلة السهر . . قبل هذه النهاية . . حقيقة أننى انتهيت من الكتابة ولكن هناك طبع الأطروحة ومراجعتها . . وإرسالها للمناقشين والانتظار حتى يأتى الوقت وتعلن النتيجة . كم سيأخذ المناقشون من الوقت ؟

أحس أستاذى المشرف بالأضطراب الذى ساورنى والرعب الذى هز كيانى . .

قال لى استمر فى العمل . . ولا تقلق . .

قلت أما وجدتنى أواصل الليل بالنهار ؟

قال بلى وأجدت وأحسنت . . وإذا نابك أمر فالبيت مفتوح لك أسكن معى وشاركنى لقمة العيش حتى تكمل الدراسة .

إنها دعوة حلوة جميلة . . وكرم صادق وأعرف أنه يعنى ما يقول ولكن هل هذا ممكن التحقيق ؟

وكان أكثر المهتمين بى الدكتور جاسم الوهابى قال :

إذا نفدت دراهمك . . فتعال واسكن معى . . إننا إخوة قلت ليس هذا هو الحل . .

قررت أن أعمل . . فى أى عمل يعود على بالمال حتى أكمل الدراسة .

ذهبت إلى دار الاذاعة البريطانية وقدمت طلبا للعمل فيها وما أسرع ما استجاب المسؤول .

وعقدت لجنة امتحان لصلاحية صوتى للعمل الاذاعى . . ثم جرت مقابلة من لجنة قبول العاملين فيها . .

ولم يأخذ الأمر وقتا . . وجاءنى عقد للعمل وخُصِص لِى فيه راتب شهرى . . كان أكثر من راتبى .

ولكن هل أقبل هذا العمل ؟ ماذا سيقول العراقيون عنى عندما أعود إلى العراق ؟ سوف يسلقوننى بألسنة حداد ، وما أمر نقد أهل العراق بقيت مترددا خائفا . . فأرسلت الاذاعة لى رسالة لبحث الأمر معى فوجدت جمعا كبيرا من إخواننا الطلاب من كل الأقطار ألحوا على بالقبول لأنى لن أعمل إلا وقتا محدودا . لن يشغلنى عن الدراسة . . تذكرت أهل العراق . . وتذكرت ألسنتهم الحداد . . وقالة ترددها الافواه . . وتشنيع تحدث به الشفاه .

إنه يعمل فى خدمة الاستعمار البريطانى . . وكان الشعب العراقى فى ذروة الوطنية

وفورة القومية . . ستبقى القالة سبة طول العمر .

قال المشرف على العمل الإذاعى .

إذا كنت خائفا من أن يسمع صوتك مذيعا فسوف نعطيك عملا داخل الإذاعة مثل كتابة تعليق أو حديث . . دون أن يذكر اسمك . . وإن أبيت تكون مراقبا للمذيعين فى نشرات الأخبار تحصى الأغلاط . . أو تحضر التمثيليات وتقوم لغة الممثلين . .

إنك أهل لهذا وكأنك خلقت له . .

يشهد الله ما خفت إلا على سمعتى بين الزملاء والقراء والأدباء ولما اعتذرت قال لى فكر ففى الوقت متسع . . والعقد معك متى وقعته تبدأ العمل معنا .

رجوت أستاذى أن يكتب لوزارة الداخلية لتأذن لى فى العمل . . لأن الكتابة انتهت وبقى الطبع والتصليح والتجليد وإعادة الدراسة والتأكد من المصادر والمراجع . .

وزاد فى الطين بلة أن الفصول التى كتبتها وطبعتها . . وقمت بتصليحها فى فوكستون . . شوهت من كثرة ما صلحت ولابد من إعادة الطبع والبحث عن كاتبة محترفة . . سلمتها المطبوع والجديد مما لم يطبع . . ولما أنهت العمل . . يا هول ما رأيت . .

حشد من الأغلاط وإن كان أقل من الأولى ولم تضع علامات الهجاء العربى . . فعلى أن أضع العين والهمزة وإشارات الياء والصاد والحاء . . مع الأغلاط فى كتابة الأماكن العربية وأسماء الشعراء والمؤرخين . . إنها لا تعرف إلا أن ترسم ما تكتب دون فهم . .

آلاف من الأغلاط والتصويبات ورسم العلامات . . فإن ساعدنى الزملاء الانكليز فى إصلاح الإملاء فعلى أن أقوم بالعمل الآخر . . وهل سيحرص زميل على الدقة مهما كان مخلصا ؟

بدأت أحك الكلمات وأمسح الإشارات . . وأصبحت عدتى الموس والقلم والمساحة . . أكثر من (٣٥٠) صفحة . . ياهول العمل . .

هل سأجد خيرا من هاتين الكاتبتين لإعادة الطبع ؟ . . سوف أضيع المال والوقت وقد تطول الحكاية . . وتعود الأغلاط . .

العمل الممـــل

اتكلت على الله . . وبدأت العمل الممل . .

منزلة الاستاذ

كان أستاذى كتب لى وصية بضرورة عملى بعد أن أنهيت الرسالة . . لأن جواز السفر كتب عليه (لا يسمح لحامل هذا الجواز خلال إقامته فى المملكة بالعمل بأجور أو بدون مقابل) .

تسلم الموظف المسئول الرسالة التى تقول بأننى أنتظر الامتحان ولابد لى من الاختلاط بالشعب لأتعرف عليه من قرب خلال العمل ، فأشار الموظف على بالذهاب إلى اتحاد الطلبة . . ففى الاتحاد قوائم يحق للطلاب العمل فيها . .

قلت له : أريد أن أعمل عملا غير ما يسمح به للطلاب . .

قال : حدد طلبك . .

قلت : منحى أجازة عمل مفتوحة . .

قال : ليس هذا من صلاحيتى . . قالها بأدب ورقة واعتذار . . وأردف . . انتظر قليلا . . وعاد ومعه رئيسه . .

سأله عن مصدر الوصية . . فلما قال له أستاذه المشرف بدأ عليه الاهتمام الزائد وعندما عرف أنه أستاذ فى جامعة لندن . . أخذ الجواز دون سؤال أو مناقشة وقال لصاحبه : إنه أستاذ . . قالها باحترام عميق . . واردف هل ترد طلب الأستاذ بدقائق معدودة تمت الموافقة . . وتمنى لى التوفيق والنجاح . . ما أرفع مكانة الأستاذ فى الغرب . . وأقلها عند العرب !!

ذهبت إلى وزارة العمل . . فوافقت على أن أختار أى عمل أريد وقدم الموظف المسئول القائمة لى . . وجدتها أعمالا تعطى للأجانب بلا مهارة . . منها حمال فاكهة وضحكت فى داخلى . . ورجانى أن أعود إليه . . فكبرت القائمة وكان فيها ندل فى مطعم وجابى فى سيارات المصلحة . . ونقل الأوانى فى المطاعم من أمام الزبائن . . وتنظيف المواعين داخل المطعم . .

فضحكت بسخرية . . فقال المسئول . . ألم تجد ما تريد قلت لا وألف لا . . انتبه وسألنى . . ألم تعمل من قبل . . قلت كلا أبدا قال ما كنت تصنع طوال بقائك فى بريطانية . .

قلت أحضر للدكتوراه . .

جلس باعتدال واهتمام فى كرسيه . . وظهرت عليه علائم أخرى وقال . . أنا آسف أشد الأسف . .

اذهب إلى محل سكناك وخبرنى عن أقرب مكتبة لك حتى أجد لك العمل الذى يناسبك فيها . . واعذرنى لأنى لم أعرف شيئا عنك . . قلت الاعتذار منى لأنى أجهل مثل هذه الأمور . . كان الزملاء الأجانب يفضلون العمل فى المطاعم لأن العامل فيها يحصل دائما على خدمة مستمرة من الآكلين ولو كانت قليلة ففيها وارد أكثر من أى عمل . .

أما الذين يملكهم الحياء والخجل وتدفعهم الحاجة فيأخذون الأعمال غير المنظورة التى تكون داخل المخازن مثل كتابة العناوين أو ربط السلع التى يشتريها الزبائن وإعدادها للإرسال . .

إنه خوف من كلام المجتمع المتأخر . . إنه لا يريد إلا المنضدة والجلوس أمامها ولو سمع الزملاء بأنى أعمل مثل هذه الأعمال لكانت سبة تبقى طول حياة الإنسان .

العمل هنا شريف . . لا فرق بين خادم المطعم الذى نحتقره فى العراق ونسميه (بوى) ووزير الداخلية بسطوته وسلطانه . . كلهم يعملون لهذا الوطن . . ويقدمون خدمة لهذا المجتمع . .

الاسكافى والأستاذ

ومن الطريف ما رواه أحد الزملاء . . أنه ذهب إلى إسكافى لإصلاح حذائه . . ولما أعطاه عنوانه . . ليعود إليه ثانية سأله أنت طالب فى الجامعة . .

أجابه باعتداد وكبرياء . . نعم . . فأردف الإسكافى : هل تعرف الأستاذ فلان . . أجل إنه أستاذى الذى يشرف على رسالتى . . أرجوا أن تبلغه تحياتى . .

إسكافى ؟؟ وفى لغة بغداد رقاع يسلم على أستاذى . . . ترددت كثيرا فى تبليغ هذه التحية . . ولكن رغبة فى اكتشاف صدق هذا الرقاع المحت لأستاذى باسمه . .

فأقبل على وقال إنه صديقى . . وكنت البارحة معه فى داره . . إنه رجل لطيف . . أليس كذلك ؟

كدت أصرع من هول ما سمعت . . وتمالكت نفسى . . وقلت إنه سلم عليك . .
ما وجد الأستاذ غضاضة من صداقة الإسكافى لأنه يعمل فما قيمة أصحاب الحرف فى الوطن العربى ؟

لا يجد العامل غضاضة عندما يقول إنه ينظف الشبابيك أو ينقل الزبالة أو يسوق سيارة الحريق . . إذ لا فرق بين البواب وأصحاب العمل والرؤساء . .

حلّت المشكلة

كنت أظن بريطانية بلد الطبقات ففيها مجلس اللوردات وفيها الرأسمالية الضخمة وفيها الأمراء وألقاب الإمارات العجيبة الغريبة . . ولكن ذهلت لاحترام الانسان لأخيه الإنسان واعتداد كل واحد بكرامته وشخصيته . . إنه شعب يعمل ولا يرى غضاضة إلا فى العاطل والمتسول والكسلان . .

مازالت مشكلتى قائمة . . أريد أن أحلها من أى باب قبل أن أذهب إلى المكتبة وأعرف مكانها . . كنت راغبا فى الابتعاد عن الكتب بعد أن أشبعتها دراسة وسئمت من الحرف والصحيفة فذهبت إلى اتحاد الطلبة عسانى أجد عملا خارج لندن يكون يدويا أنسى فيه الفكر والدرس ورصف الكلمات واختيار العبارات إنه نوع من العناد . . أو من الدلال . . الذى لا مبرر له ولعل بقايا ما عندى . . من المال دعانى إلى التحمل وعدم الاندفاع فى اختيار العمل . .

تفرست فى الاعلانات وكانت فى مختلف الاختصاصات التى لا يمكن حصرها من الحرف والمهن وكل ما يرغب الإنسان من عمل وما يناسبه من وقت . . ولكنى جئت متأخرا . . وقد بقيت الأعمال التالية :

١ ــ حصاد إجماعى .
٢ ــ جابى فى السيارات .
٣ ــ أعمال مختلفة قدمتها وزارة العمل .

خير من كلها العمل مع جماعة من الطلاب والطالبات والابتعاد عن جو لندن إنه عمل يوحى بالشاعرية . . تذهب فى الصبح تقطف الأثمار أو تحصد الحنطة أو الشعير . . وتأكل وتشرب . . على حساب الملاك . . وننام فى الليل بعد أن نسهر ونرقص ونغنى . . على شرط أن تجلب معك حذاء طويلا . . وقفازات لحماية نفسك من الأشواك والأوساخ .

خيال عذب جميل العيش فى المروج الصفراء والسنابل الزاهية والثمار اليانعة من تفاح وكرز . . والطلاب والطالبات يشتركون فى غناء ومرح . . بعد حفلة سمر كل ليلة . . فى الريف الإنكليزى النضر ووجوه الحسان الفاتنات . .

سجلت اسمى بالرغم من أن الإخوان المجربين حذرونى من أن الوارد يكون قليلا لا يساوى مشقة العمل والربح محدود وكثير التعب . . اخترت وقتا متأخراً حتى أفكر أكثر . . وكأن الله ألهمنى بأن المشكلة ستحل ولكن كيف هذا ما لا أعرفه ؟ وأخذت السكينة تدب إلى روحى دون أن أدرى لذلك سببا . . وأعجب من عواطفى التى هدأت واضطرابى الذى بدأ يضمحل . . وانسابت إلى روحى هدأة راحة عجيبة . .

ذهبت لزيارة الدكتور جاسم الوهابى . . لأنى أجد فى حديثه كثيرا من الاطمئنان والصدق والود . . فوجدت نسخة من القانون الموحد الجديد . . وفيه نص بإمكان الايفاد لغرض الدراسة إنها قشة الغريق . . ونور شمعة فى حندس اليأس وحسب الإخوان صعوبتها لأنها منوطة بمجلس الوزراء . .

كان للدكتور جاسم الفضل الكبير فى بعث الأمل فى روحى . . وأحضرت تقريرا من أستاذى بضرورة تمديد إقامتى لثلاثة أشهر حتى أكمل الرسالة ونص فيها على أننى طالب (مثالى) . . ولما ترجمت الرسالة وذهبت لأحد المسئولين . . كتب بقلمه . . فوق مثالى جيد وطمس الأولى . . جزاه الله خيرا ومن حسن الحظ لم أر هذا إلا بعد عودتى إلى العراق . .

أعدت الأوراق لإرسالها إلى العراق وكنت قد كتبت رسالة إلى وزير المعارف السيد خليل كنه ـ أشرح له الأمر . . فما أسرع ما أرسل برقية إلى السفارة باستعجال إرسال التقرير عنى . . جزاه الله أكرم الجزاء . . ولابد أنه لن يذكر هذه المكرمة التى دعتنى أن أزوره وأذكر فضله . . دائما . . فلولاه لعانيت أشد المعاناة والضيق .

وحلت المشكلة عندما وافق مجلس الوزراء بناء على توصية وزير المعارف على التمديد سلمت أستاذى نسخة من الرسالة مجلدة وأوصانى بأخذ النسخ وتقديمها للجامعة وفى الطريق إلى المسجل الجامعى مررت بصندوق الرسائل فوجدت رسالة من جامعة القاهرة تقبلنى طالبا على شرط أن أقضى سنة أخرى حتى أتمم سنتين وأقدم الرسالة :

وبلا شعور قلت . .

صح النوم يا جامعة القاهرة .

وكم ضيعت الاجراءات الرسمية فى الوطن العربى من جهود وأهدرت من أموال متى يكون للعرب فكر الإنسان وحزم الأمم المتقدمة . . وبساطة العمل الحكومى .

.. بين الأمـــواج

لماذا أتيت إلى لندن ؟

ولماذا أتيت لأ تعلم اللغة الانكليزية ؟ ولماذا اخترت بريطانية ؟ أسئلة ثلاثة . . طالما سألت نفسى . . الاجابة عنها . . ففى الإجابة تصوير لحاجة العرب النفسية . . ورسم للفكر العربى فى الدنيا العربية كلها . .

إنه شعور النقص الذى ركب العرب بأن الغرب هو سيدنا وقائدنا فى كل شىء ومنه يجب أن نأخذ كل شىء . . والمؤسف أن نتعلم منه لغتنا وأدبنا ونأخذ شهادة بالشريعة والحديث والفقه الاسلامى والتاريخ العربى . .

لست ضد التعليم بالغرب . . لأن الدراسة فيه تطلعنا على جوانب الحضارة الغربية الخافية عنا بدراسة فكر شعوبه . . وأسلوب بحث العلماء فيه . . فنزداد علما بأمور لا نعرفها . . لأن الص القريبة تظهر الخير والسيىء من الأمور . . أمامنا وتتجلى واضحة أمام حواسنا ، لكننا ننظر إلى الغرب . . وكأنه بناء جميل متناسق البنيان جميل التراكيب نرقبه من بعد . . وعندما نقترب منه نجد ما علق بجدرانه من أقذار وما اعتراه من شقوق . . وتعرية من جراء الزمن . . وما أصابه من هزال من تقادم البناء .

ان المتخرج فى أوربا ينال من التقدير والاحترام والرعاية اللاشعورية أكثر ممن يتخرج من الوطن العربى . . وقد ركز الحكام هذا الرأى لأنهم اندحروا سياسيا وعسكريا أمام صولة الغرب وجبروته لأن أكثرهم كانوا ضباطا فى الجيوش القديمة . . التى خسرت أمام الحلفاء . . فبقيت مرارة الانحدار كامنة فى أعماق نفوس المعجبين بالغرب وبعلمه وفضله على العالم العربى . . وقد أصبت بخيبة أمل عميقة عندما قبلنى الغرب وأرسل لى أوراق الدخول وقابلنى بالترحاب وأرسل لى منهج الدراسة وجميع النشرات الجامعية للسنة المقبلة الجديدة . . قبل ابناء قومى العرب .

لو أن القاهرة أجابت طلبى قبل لندن وكنت قدمت أوراقى لها قبل لندن لسافرت إليها خوفا لما يحوكه المدير العام لايجاد مبرر لالغاء الأمر الوزارى هكذا دار فى خيالى . . وتجسم

فى ذهنى وأقلقنى . . ألا يجوز أن تسقط الوزارة وفى كل وزارة لائحة جديدة . . وأمر يخالف ما سبقه ؟
أقطع الشك باليقين ، وأتكل على الله .

إذا ما انتابك القلق وهدت فكرك الحيرة . . والتردد . . اختر بسرعة اتجاهك . . ان سيطرة اللاشعور على تصرفات الانسان مهما سمت ثقافته وعلت منزلته الفكرية ناتجة من المخزون الكبير من التجارب التى تؤثر فى تصرف البشر . . فقد كنت يوما أحول بعض المال . . وقال مدير المصرف . . إنه يحمل الماجستير وأنه يفهم الإنكليزية فهما كبيرا . . فدخل قوله فى اللاشعور الرغبة التى كنت أتمناها فى يوم من الأيام وأنا واقف أمام مكتبة تعرض الكتب الانكليزية فى واجهتها فلم أفهم عناوين بعضها . .
كيف أكون أستاذا ولا أفهم حتى العناوين ؟
درسنا اللغة الانكليزية والفرنسية والتركية . . وكانت مشوبة بالإكراه للنجاح . . وما دمت فى قسم اللغة العربية لا أحتاج إلى سواها وهذا الشعور يسيطر على طلاب الإنكليزية والفرنسية والألمانية عند دراستهم اللغة العربية . . فلا يكترثون لغير اللغة التى يدرسونها .

وقد أضعت،من إهمالى اللغة الانكليزية أجمل ساعات الحياة وأعذب أيام العمر فى دراستها وإتقانها حتى ألحق بالركب وأساير التيار العلمى . . فى لندن .

أتيت لندن لأعود بشهادة مكتوبة باللغة الإنكليزية وأرطن مثل غيرى . . لأن بريطانيا مستعمرة للعراق وأن أرتدى رداء الحكم الوطنى والاستقلال التام . .

هـذه لندن . . البلد الـذى حكم العالم وسيـطر على مقـدراته . . ولعب بـالشرق والغرب . . واستعمر بلادنا وعاش فيها كما أراد وخلق فيها رجالا وأمات أبطالا . . وسلم فلسطين لقمة سائغة . . وما تزال جيوشه رابضة على أراضينا الغالية .

خلق رجالا وأنبت وزراء وشكل مجلسا للنواب وآخر للأعيان وأراد أن يكون العراق مثل انكلترا . . ونسى التراث الحضارى لأهل العراق وتقاليد العرب القبيلة فى تصرفاته التى تحولت إلى أحزاب تؤيد الحكم أو تعارض الدولة . .

إن الديمقراطية لا تفرض على الناس بالقوة فالشعب العربى مازال شعبا وثنيـاً يؤمن بالفرد ويقدس البطولة الشخصية ويركض وراء الزعيم متى لمع وظهرت عليه بوادر السيطرة والتسلط . . يعبد القوى وان كان ظالما ويسير فى ركاب السلطة وان استبعدته ما دامت ترضى غروره النفسى ولو سخرته فى مصالحها وأعلنت له مثـلا براقـة وأهدافـا مشرقـة

لامعة . . ينخدع الإنسان ولا تهمه المثل العالية والأهداف السامية . . يدوسها برجليه متى وقفت أمام رغبات الفردية ونزواته الشخصية .

حالة البدوى فى الصحراء . . لا يهمه إلا نفسه . . وكل مدار العالم حول ذاته وما يملك مثل نياقه وخيمته . . لا يعرف من العالم غير أن يعيش وأن يغزو . . ويتوقع الغزو والنهب . .

وأنا ذلك البدوى الذى يجرى فى دمى تراب الصحراء وأحس بصوت الرياح فى أذنى وأتذوق حليب النوق وأحس بحلاوة عجيبة وطعما لذيذا وان بعدت بيننا السنوات وورثت حياة المدن . . أصبحت غريبا كل الغربة عن رمالى السافية ورياحى العاوية وضباع هذه الصحراء السارحة وذئابها الغاضبة المتوحشة . .

أنا فى لندن فى سجن صغير فى سكن تتحكم فيه امرأة . . بل تتحكم فى أمر جمهرة من أمثالى فيهم النساء والرجال . . أريد الخلاص ولكن لا أعرف السبيل إليه . .

إنه عالم لا أعرفه . وبيئة غريبة فى كل مظاهرها وأساليب حياتها تسير على اليسار ونسير على اليمين .

حسابها يختلف كل الاختلاف عنا كل شلن ١٢ بنيا وكل بنى ٣ فاردن والياردة ثلاثة أقدام ومثلها الوزن . . وقياس المسافات . . والأوزان . . وحسابنا مئوى واضح مفهوم . كل شيء غريب . .

ولكن الفتى العربى فيها غريب الوجه واليد واللسان . .

كنت أسمع العراقيين يجتمعون فى فندق فى منطقة (بيكادلى) . . فى شارع باسم الفندق انه ريجنت وقربه حديقة غناء سميت باسمه أجمل الحدائق وأحلاها تنسيقا . . مفتوحة لراحة الجمهور والترفيه عنه شأن كل الحدائق يدخلها الشعب بلا أجور . .

أخذت أتفرس فى وجوه الناس . . وقفت فى منطقة متوسطة أرقب الرائحين والغادين كل إنسان مشغول بنفسه وقضاياه . . لا يلتفت إلى الواقف أو السائر . .

تذكرت حكاية العربى الذى جاء إلى لندن وبقى حائرا لا يعرف من الانكليزية حرفا وخطرت له خاطرة ذكية . . .

وقف على الناصية وأخذ يسب كل من يمر به باللغة العربية وبألفاظ بذيئة . . واستمر فى هذا الأمر . .

وسمعه عربي يتلفظ بهذه الكلمات فقال له :
أما تستحي من نفسك . .
فصرخ من الفرح . . وجدتك . . ورجاه أن يحل له مشكلاته . .
إنها حكاية قديمة نرددها للطرافة فهل أكررها ؟

اشتريت جريدة مسائية وبدأت أقلب في صورها وأحاول جاهدا فهم المقالات التي كتبت فيها ولو لا أنني أعرف الانكليزية لقلبت الجريدة وظننت السيارات التي فيها مقلوبة . .

حاولت جاهدا أن أقرأ مقالا واحدا بل عمودا أو نصف عمود . فكنت أسير في ظلام الجمل وبين آونة وأخرى أرى كلمة تنير نفسها ولكنها لا ترسل بضيائها إلى ما يجاورها من الكلمات . .

نحيت الجريدة جانبا . . واستغرقت في تفكير عميق . .
كيف أكتب رسالة الأدب العربي وباللغة الانكليزية ؟ . .

كيف أترجم الشعر العربي بمعانيه العميقة وجناسه وتوريته . . ومحسناته اللفظية وخياله الواسع وإيماءات كلماته وألفاظه إلى اللغة التي لا أقدر أن أفهم منها عمودا في جريدة يومية ؟

إن هناك شوطا طويلا وجهدا مرهقا لا يملكه إلا أيوب (عليه السلام) هل يمكن أن أدافع عن رأي أكتبه أو أناقش قضية أثيرها أثناء البحث ؟ ما يكون مصيري أمام لجنة المناقشة والامتحان وتجربتي في الماجستير التي استمرت أربع ساعات وأكثر وكان حشد الحاضرين يزيد في النفس رعبا وطلبات المناقشين الكثيرة تهد الجسم وتضيع الفكر وتطيش اللب . .

كنت فيها المجلي وكنت فيها القادر الواثق من نفسه وعلمه فما تفرّ عني كلمة أو تشرد مني لفظة بل كنت أتتبع الحرف الواحد كيلا يتغير المعنى . . وأثبت على الرأي الذي أبديته ولا أتحول عنه . .
والآن ما العمل ؟

هل أعود إلى العراق خوفا من المجهول ؟ العودة قاصمة الظهر ؟
هل أذهب إلى القاهرة . . أو إلى الطلب الذي قدمته للجامعة . . يا لله كيف جفتني القاهرة وأنا الذي أحببتها . . والويل لها كيف تهجرني وأنا لم أنس لياليها ونيلها وخير الصحب

والأحبة فيها ؟ إنهم العرب . . لا يكترثـون للوقت ــ ولا يقدرون المشكـلات فضاعت عليهم أمور كثيرة فى التقدم والحضارة . .
طريقان أسهلهما يتفجر بالمرارة . .

ومنى انقطعت أسباب النجاة وبدت أنياب اليأس تفتك بالإنسان تتفجر الطاقات الذهنية ويتحول الجسم إلى كتلة من حياة وحيوية وعمل . . ان الله خلق فى الإنسان طاقات تتفجر عند المحن وتظهر عند الأزمات . . ما أبدع خلق الإنسان . . ومـا أعقد هـذا الانسان الضعيف التافه .

مفاجأة سارة :

العمل والتقدم إلى الأمام . . خير من التراجع والحسرة والندم وأن الموت فى حومة القتال خير من أن تفطس هاربا .
قررت العمل والنضال . . فهرب اليأس وابتعدت الحيرة وران على قلبى هدوء جميل انساب إلى كل جارحة فى جسمى . .

سجلت فى مـدرسة لتعلم اللغـة الانكليزيـة . . وانصرفت بكـل طاقـاتى وبـدأت الكلمات تتسارع لتجد لها مكانا فى عقلى . . ووجدت تلك الطاقة الكامنة تعين على الحفظ والدراسة والتتبع . . وبالفعـل كنت أنهى الكتاب المعـد للطلاب لسنة طـويلة فى شهر واحد . . وشجعنى الأساتذة وأعجبوا بهذا التقدم السريع . .

ودخلت مدرسة أخرى فى المساء لأستمـع إلى النطق الصحيـح من أفواه الأسـاتذة الانكليز فى تكوين الجمل وأسلوب تلفظها . .

وشاركت طلاب الثانوية الانكليزية فى محاضرات أسبوعية تلقى عليهم . . فى الإنشاء وما أزال أذكر أن الأستاذ قال اكتبوا عن (الجدول) . . وكتبت موضوعـا يتسم بالفكـر العربى والروح الشرقية . بأسلوب الشاعر الذى يجلس على نهر جميل حالم . .

وجاء فى الأسبوع التالى . . وكأنه لم يقدر على تلفظ اسمى فقال من كتب هذا الموضوع ورفع الكراسة فى يديه . . ولكن كانت الكراريس على شكل واحد . . فلم أجب لأنى استبعدت أن تكون هذه كراستى . . وعاد إلى الكراسة وبدأ يقرأ الاسم بصعوبة فقفزت من مكانى خائفا من تقريع هذا الأستاذ . . وتذكرت ما صنعه أستاذ كان يدرس العربية لى . . عندما قال لن تكون فى يوم من الأيام أديبا . . ورأيته بعد ذلك يتوسل بى أن أصلح

له حديثا لأنه لا يثق إلا بى . . خفت . . وانتظرت واجف القلب . . فقال :

إنه أحسن من كتب فى الصف . .

كانت هذه الكلمة مدعاة فخر . . وتشجيع أحسست بعدها بأنى بدأت أسير فى الأسلوب الناجح . . والطريق المستقيم . .

لم أكتف بهذا ولكن كنت أذهب للسينما كلما أصابنى السأم ، ولم أكن أسمع غير كلمات متصلة وحوار لا أول له ولا آخر . .

كنت أفهم . . (نعم . . لا . . أدخل . . أخرج) عندما يقولها الممثلون منفردة . . ولم أترك نشرة الأخبار من المذياع واتخذت لنفسى دفترا صغيرا وضعته فى جيبى . . أكتب كل كلمة أسمعها وكل اصطلاح أمر به . . وأعيد كتابتها مرات عديدة ثم أرمى بالورقة . . أقف أمام عناوين المحلات وأسماء الحوارى والأزقة والمدارس والمستشفيات . . أسجلها وأراجعها . . فعرفت أن هناك كلمات يونانية وفرنسية وألمانية وسكسونية .

انها لغة شملت كثيرا من حضارات الأمم وأخذت من ألفاظها كما أخذت من مدنيتها وطرز بنائها وأسلوب جامعاتها . . الشعب البدائى الذى ما كان يعرف النسيج الساذج ويلبس ملابسه بعد أن يصنعها من جلود الحيوانات . . أخذ كل شىء وطوره فيما يفيده ويفيد حياته . . وخلق له شخصية تميزه . . وبلغ به الغرور والعنجهية أن رأى نفسه يعيش فى قارة مستقلة عن أوربا .

ولن أنسى مساعدة الأسرة الكريمة التى سكنت معها ومساعدة السيدة الفاضلة فما كانت تكل عن الجواب وتشرح لى الغامض . . فقد تعلمت منها أشياء لا يمكن أن أعرفها فى المدرسة وبين الكتب . . مثل مصطلحات الأكل والشرب والطعام والسفر .

كنت أفرح بالكلمة الجديدة كما يفرح الطفل بقطعة من الحلوى وأطرب للعبارات التى أسمعها أو أفهمها وأتملى الأقوال وأفحص الشواهد لم أمل أو أتعب من الحفظ والتقصى فقد أحسست باللذة وكأنى أكتشف عالما جديدا عندما أجوس بين القصائد وأتملى معانيها .

وبعد نضال طويل وجهاد مع اللغة وجدت نفسى غيرى بالأمس وألفيت نفسى قادرا على الفهم والاستقلال والعمل دون معين أومساعف فأخـذت أدرس الأدب الانكليزى وأتتبع تطوره وعصوره وأعجبت كل الاعجاب بالعصر الابداعى . . فهو قريب الاتجاهات بالشعر العربى فى الغزل والنسيب وفيه حسرة وحرقة . . وفيه انفراد وبعد عن العالم وفى

طياته تجرى المياه وتغرد الطيور وتنتشى الرياض والحقول . . وتغذى فى نفسى الغريبة اشجانها وتزيد فى النفس لذتها .

كنت بدأت بعد ستة أشهر أتمرن على كتابة الأطروحة باللغة الانكليزية فقد كانت المواد متوفرة عندى ولابد أن تصاغ باللغة التى سوف أناقش فيها . . فوجدت بعض هذه الفصول صالحة إلا بعض الهنات . . فوفرت على زمنا وتعبا . بعد أن كنت أقرأها على المشرف احتفظت بها . .

وبرغم رضاه عنها فلم تكن ترضى خيالى الأدبى وقابليتى الأدبية . . وبالفعل أعدت قراءتها . . وأعددتها بالصيغة النهائية . .

إذا أردت أن تتعلم السباحة فادخل إلى النهر . . حكمة تعلمتها ونحن صغار فقد كنا ندخل النهر ونتعلم السباحة فى نهر ديالى . . أو نهر دجلة . . وما دمنا تحت الرعاية فلن نغرق . . ولن ندخل العباب حتى تشتد سواعدنا ونترك رعاية الأدوات التى نحملها وكانت من كرب النخيل التى نشدها حول جسمنا . .

كانت هذه الدروس هى الرعاية التى رعيت بها لغتى والأسرة التى عشت معها المشجع الذى يدفعنى إلى معاركة الأمواج . . وحمدت الله أن وفقنى ولولاه لما وفقت .

الأسرة التى أسكن معها تعيش فى قرية . . بعيدا عن لندن ولو أن القطار الأرضى كان يصلها فقد اجتمعت كل القرى فشكلت لندن الكبرى . . وكانت خير معوان لى فقد كانت تمنحنى بخلقها الراحة النفسية . . والاطمئنان بالخدمة الممتازة وتسهيل كل أمورى من غسيل للملابس وكيها وشراء ما أحتاج . .

كانت تأخذنى معها فى نزهاتها . . وزيارتها وكان أصدقاء الأسرة يدعونى عندما تدعى هذه الأسرة . .

أحسست بأنهم أهلى وأسرتى واخوانى . .

لكن الذهاب إلى الجامعة والعودة يأخذ منى النهار كله . . عندما تكون عندى مقابلة مع أستاذى أو أن أستعير كتابا . . ولم يكن البيت قريبا من محطة القطار إنما يبعد عنها . . وفى بعض الأيام أقاسى من الأمطار الكثيرة والبرد ولفح الرياح . . وأنا أحمل كتبى وحاجاتى معى . .

لابد أن أنتهى خلال سنتين . . هذا هو السباق الذى كنت أسابق فيه الزمن . . وبعد عام كامل . . .

العودة إلى لندن

تحولت إلى داخل لندن . . ولم تنقطع صلتى بالأسرة . . فقد كان الرجل الطيب (البرت) يأخذ ملابسى الوسخة . . ويعيدها مكوية نظيفة مرتبة كل أسبوعين .

كان العمل متواصلا كما قلت ـ انسانى طعامى وشرابى وسهرت من أجله الليالى وصافحت مقلتاى الشمس وهى تدق باب الشباك تحيى هذا الطالب الغريب الوحيد تحية الصباح .

ما كنت أترك الدار عندما أبدأ فى كتابة فصل من الفصول وقد أبقى أياما طويلة وتعلمت الطبخ وخدمة السكن . ومن حسن الحظ . . كانت الشقة بإشراف سيدة تنظفها أسبوعيا وتغير أغطية الفراش . . والخاوليات . . وتعيد ترتيبها . . . بعد أن رجوتها ألا تأتى يوميا . .

انفصلت عن الناس انفصالا تاما . . عندما جد الجد وبدأت الأيام تركض إلى نهاية الأجازة الدراسية . . ولولا زورات الدكتور جاسم الوهابى وغدواته واتصلاته بى بالهاتف بين الحين والآخر لما عرف بى أحد . . ولو مت فى فراشى . .

كان رعاه الله ووفقه يأتى فى نهاية الأسبوع ويحضر لى آلة الحلاقة فأحلق ذقنى أو لحيتى . . ويأخذنى بالقوة إلى نزهة خارج لندن أو يستضيفنى فى داره ويقدم لى خير الطعام فهو طباخ ماهر عركته القدور وعركها فكان طباخا يشار إليه بالأيدى لا بالبنان فيخفف عنى ويريحنى من الارهاق العلمى ومتابعة البحث .

موضوع الرسالة

كان موضوع الرسالة موضوعا له حساسية خاصة بالنسبة لجامعة انكليزية . . فهو أثر السياسة والمجتمع فى الشعر العربى فى العراق . .

ولم يترك الشعر فى العراق جانبا من السياسة الا ولجه وسخر من المستعمر ووزراء الدولة وحاكمها الانكليزى . . ومجلس الأمة وأعضائه كانت فترة حرية عجيبة أن يأخذ الشعر هذه الحرية الكبيرة فى مهاجمة الحاكمين دون هوادة . . ويسخر منهم بقساوة عجيبة . .

والشعر العربى فى هذه الفترة صوّر عواطف الأديب العراقى أصدق تمثيل . . فما كان يرضى عن شىء يراه . . كان ثورة عارمة . . وسخطا قاتلا وغضبا دائما . . ورثها عبر القرون الطويلة . . من اضطراب الوضع السياسى والفكرى فى العراق . .

والأديب العربى ذكى لا تفوقه أصغر الأمور . . مهما حاول الحكام تغطيتها بالشعارات وإسباغ براق الأسماء عليها . . إنه يفهم دون مشقة . . وقد سجل خير سجل عن حياة هذه الفترة بعد أن أمن الحاكم واطمأن إلى أنه لا يعمل فى صالح أمته . . بل فى خدمة مصالح الحكومة الانكليزية وإرساء قواعدها فى الوطن.

والحق أن بعض الوزراء كانوا شديدى الغيرة على أوطانهم وأشد صلاحا من العناصر التى ادعت المعارضة وجلست فى ديوانها تعارض وتفسد الفكر العربى . . والتراث العراقى . . باستجلاب الآراء الأوربية وفرضها على المحيط الأصيل وأثبتت الأيام أنها كانت تلهث فى سبيل الحكم والسلطان وأبهة الجاه الكاذب . . وما تورعت عن خدمة الآراء التى هدمت المجتمع العربى والفكر الأصيل والتراث الاسلامى . . وجلبت عليه المتناقضات . . وولدت فيه الصراعات التى أخرته عن مسيرته العربية وفكره الإسلامى الأصيل . .

الشعب العراقى . . بسيط النفس تجوز عليه الشائعات ويصدق بسرعة . . ما يسمع وكلما كبرت الاشاعة كانت أسرع تصديقا .

ان الطيبة والبساطة . . تفقدان الإنسان الوعى العميق والإدراك الناضج . . فهو يتحكم بالعاطفة . . وتتحكم العاطفة به . . أكثر من الاحتكام للعقل فهو جندى شجاع ومقاتل جرىء . . وشاعر مبدع لكنه بحاجة إلى رأى ثابت وعقل راجح . . وروية طويلة .

ولعله لو أوتى الحرية . . وعبر عن مشاعره بصدق ووضوح ونفس عما يعتلج فى نفسه . . من عواطف واتجاهات لتغير كثيرا ، لأن إفساح المجال فى التعبير وإيصال الحقائق يبرد حدة العاطفة ويخفف من غلواء النفس الجامحة . .

كنت أحس بالأديب وما يعانيه . . وأتتبع ما فى همسات النفس . . وروحات الخيال فى أمانيه وأنا أكتب عن الشعر العربى فى العراق . .

أتتبع الحقائق وأدرس المصادر وأنقد أصحابها خوف الحكم المبتسر والرأى الفطير فقد كانت الجرائد والمجلات مصدرى الكبير . . وكان الخيال الشعرى يصعد إلى سماوات المثال . . فأفحص الشعر وأرى دوافع الشاعر وغرضه . . وكم من قضية فردية مرت على تخزى قائلها تركتها ومشكلة تسىء إلى أسرته لم أذكرها . . لأنى أخطط لبناء كبير . . والقضايا الصغيرة تعيق استمرار البناء ورفع صرحه . . وشموخ ذراه ــ وشرفاته . .

أكتب رسالة أسجل فيها سجلا تنتفع به بلادى وتسير فى هديه أقلام الباحثين أنا المسئول الأول عن كل حرف أكتبه وفكر جئت به لم أمر بفترة حرجة مثل هذه الفترة فكنت فى صراع دائم مع المصادر والمراجع وعواطف الشعراء فى سبيل الحقيقة العلمية لأظهرها بالصورة الصادقة والوجه الحقيقى والإطار الأمين الواضح المشرق .

إن بحث أمور العراق وصلاته بالانكليز لم يكن أمرا هينا . . الرسالة كلها شتم بالانكليز ونبذ استعمارهم . . والنقمة على نظام الحكم الحالى والمؤسسات القائمة . .

كيف يكون موقف المناقشين وهم يرون بلادهم تشتم وحكامهم يقذفون بالإهانات . . ويقرأون شعر الشعراء الناقم على الانكليز وعلى من أعانهم على حكم العراق . .

هل يرضى أستاذ عربى أن تعد رسالة كلها شتم فى بلاده وهل يستريح عربى وهو يقرأ هجاء فى الأمة العربية . . وما مصير طالب علم كتب بحثا فى مساوىء قطر من أقطار العرب وظلم حكامه واستبدادهم وبطشهم ؟

ومن البداية لن يسمح بأن تكتب مثل هذه الرسالة وان كتبت لن يرضى عنها المشرف . . وان رضى فسوف ينال عقابه من اللجنة المناقشة . . وان مرت الرسالة فالويل له من الحاكم . .

تصورت هذا وأنا أعد الرسالة . . وبالفعل كان الأستاذ الأول الذى عملت معه لا يقر له قرار . . ويحاول أن يتنصل من آرائى ويتهم المصادر العربية بعداء الانكليز . . والتحيز الظالم لهم . . ولما أخذت أستشهد بآراء الانكليز وكتاب التاريخ . . سكت ولكنه لم يقنع أو يطمئن على الأسلوب الذى أسير فيه . .

لم أتراجع أنها الحقيقة . . ولم أبدل الواقع أو ألبسه ثوبا من الباطل كما يزيف الكتاب الحقائق فى صالح الحكام المستبدين . .

سمع مسئول فى السفارة العراقية بما جرى بينى وبين الأستاذ فصعق . . ورجانى أن ألين وأن أسايره فى هواه وأكتب ما يرضيه . .

قلت له : إنها رسالتى وأنا المسؤول عنها . .

قال : ألا تريد أن تحصل على الدكتوراه ؟

ضحكت من قوله لأنه لم يدرك حقيقة الأمور وظنها أمورا سطحية فأجبته . . الحصول على الدكتوراه سهل . . ولكن نتائج الحصول عليها هو الأهم فى المستقبل سوف ينعكس على وعلى الباحثين وكل من أراد أن يقرأها . . أتريد أن أغش وطنى . . وأزيف حقيقة التاريخ . . وأبقى معذب النفس . . قلق الضمير طول عمرى وما مشاعر وآراء الباحثين عندما يطلعون على ما كتبت ؟

قال : أنت عنيد . . برغم الخلق الكريم . . ورقة حديثك . . وتبدو سهل القياد . . بسيط الظاهر . . وأنت عنيد . .

قلت : لو عرفت كيف زور التاريخ . . وكيف يسخر المعاصرون من هؤلاء لما قلت إن الخلق الرضى واللين الاجتماعى من صفاتى الفردية يعود نفعها على . . أما عنادى فى سبيل العلم واصرارى على ذكر الحقيقة فسوف يعود نفعها على الأمة كلها . . وشتان بين مصلحة الأمة وسمعتها . . وبين خلقى ومصلحتى الخاصة .

وطال النقاش . . ولم أضجر منه . . وحاولت شرح الأمر ويسر فلم يوافقنى ولعله سُخِّر لاقناعى . . عن العدول عن الموضوع !!

وأحمد الله فقد صدق ظني . . وصار الحدس حقيقة فقد نوقشت الرسالة . . وكان الأستاذ . . آربرى يقول أعجبتنى صراحتك ولولاها لأخفق البحث . .

ثم قام وصافحنى . . وقدم لى شكره وتقديره لأنى لم أجامل بلده . . أو أزيف الحقيقة .

ساعة الامتحـــان

فكرت فى الإجراءات الرسمية التى مررت بها عندما قدمت مناقشة الماجستير فقد تقدم الأستاذ باقتراح بطلب الامتحان بعد أن قرأت الرسالة وتأكد القسم من صلاحيتها ولابد أن القسم ناقش الوقت ووافق عليه . . ومن ثم عرض على مجلس الكلية ولا أعرف النظام الذى سارت فيه الرسالة ولكنها معقدة كل التعقيد ففى مكان تبرز مشكلة مع أننى كنت محظوظا فالأستاذ المشرف هو العميد وهو رئيس القسم . وبذلك سمع كل الجميع بأننى سوف أناقش ولو كانت لى صلة بالاعلام لذكرتها الجرائد . . وأطنبت فى فضائلى ؟

وعلى أن أحضر ملخصا أتلوه أمام اللجنة وأدافع عن وجهة نظرى وفى المناقشة العلنية يريد أن يظهر كل مناقش مقدرته وتلك البلية . .

إنها أساليب متعبة وطرق مرهقة تجلب للطالب والأستاذ المشرف المتاعب النفسية والجسمية . . وإذا كانت هناك إحن بين الأساتذة فالويل للطالب . . بما يصب الأستاذ على رأسه . . لينتقم من المشرف .

تذكرت هذا وأنا أقابل أستاذى فى شأن الامتحان وساعته . . وكنت خائفا أستر دوافع الخوف وأخفيها للظروف مع المثبطات الكثيرة التى عشت فيها . .

قلت لأستاذى المشرف أريد أن أرتاح بعد أن انتهت الرسالة فقد أصبت بانهيار عصبى واضطراب روحى وألم دائم فى المعدة حتى أخذت أنسى أموراً كثيرة لكثرة ما حشدت فى ذهنى من القضايا العلمية والشواهد الأدبية . . حتى أكون حاضرا لكل سؤال .

إنه يوم الحساب . . فلابد من أن آخذ وقتا أقرأ الرسالة ثانية وثالثة وأراجع المصادر . . وبدأت أناقش نفسى باللغة الانكليزية وأضع الأسئلة المحتملة . . وكم كنت أتمنى أن تأتى معجزة تنقذنى مما أنا فيه . ولكن لم أجد معجزة تنقذنى . .

كان الزملاء الانكليز يناقشون فى محتويات الرسالة وأرجوهم التأكد من صحة اللغة

أناقشهم فيها وأتحدث معهم فى موضوع الرسالة . . وأطلت فى العمل رهبة . . وأضعت شهرا بين لقاء الأستاذ والابتعاد عن لقائه .

وقابلت الأستاذ وسألته عن الرسالة ومحتوياتها ولغتها وطريقة العرض . .

كان يجيب بثقة كبيرة . . ويرد بهدوء الواثق من عملى قلت له أريد أن أسمع بصراحة . .

قال : بأى شيء ؟

قلت : هل لغتى جيدة . . هل أفصح عن قصدى بطلاقة ووضوح . فضحك وقال يمكنك أن تعرف مقدرتك من عدد الأغلاط التى مرت على فهل هى كثيرة . . ان الأغلاط التى مرت على يمر بها الانكليز أنفسهم . .

أتدرى أن فى أسلوبك لغة واصطلاحات جديدة لا يعرفها الكتاب الانكليز . . أنت أديب بالعربية وتمكنت من أن تطوع اللغة الانكليزية لأسلوبك . . كنت أجد متعة عندما أقرأ معك الرسالة .

جزاك الله خيرا أيها الأستاذ المشرف . .

ثم ضحك ثانية وسألنى ببساطة وعفوية . . وكأنه يتحدث عن موعد أشرب الشاى معه . .

متى تريد أن نناقش رسالتك ؟

لولا الحياء لفغرت فمى دهشة . . ولكن لم أكتم استغرابى عندما قلت : هل الأمر موكول إلى ؟

وهل لى رأى فى اليوم والساعة . . ؟!

قال نعم . . الأمر بيننا فإذا اتفقنا نعلن الامتحان . .

أخذت أدارى استغرابى . . وقلت له أفكر فى اليوم المناسب ، استدركت ما رأى لجنة الامتحان . .

أجاب ننتظر راحتك واستعدادك النفسى . .

أيوافقك يوم الاثنين المقبل . . كان اليوم الأربعاء أو الخميس . .

قلت على بركة الله . .

بمثل هذه البساطة والعفوية اتفق معى أستاذى على ساعة الامتحان وموعده ومكانه . . تعلمنا أن نلبى الأمر ونطيع التعليمات كالقطيع لا رأى له الا رأى الراعى معلم الابتدائية . . ومدرس الثانوية وأستاذ الجامعة وإن بعدت المقارنة . . يرون أنفسهم أعلى

من الطالب ويضجرهم مناقشة الطالب وسؤال الطالب . . وجاء الحكم فى الوطن العربى فساق القطيع بعصاه . . إلى سجونه وسياطه . . ان هذا التراث من الطاعة الذى سرى فى دمى واختلط فى عقلى وتفكيرى لم يَرْضَ بتلك الجلسة الهادئة واللقاء الواضح البسيط وساورتنى الشكوك بمقدرة الأستاذ على أن يضرب الموعد بهذه السهولة . . واليسر . .

فذهبت على الفور إلى مسجل الجامعة وقلت له :

متى أناقش رسالتى ؟

قال : ألم تراستاذك المشرف بعد ؟

قلت : نعـــم .

هل ضرب معك الموعد . .

نعم . .

متى سيكون موعد المناقشة .

فى الاثنين المقبل . .

هذا هو الموعد الذى أخبرك به أستاذك . .

لكنك لم تكتب لى بالموعد . . تذكرت الأوامر الادارية . . التى تصدر فى مثل هذه الأمور فى العراق . .

نحن هنا ننفذ طلبات الأستاذ . فإذا تعذر اللقاء . . أو تغير الموعد أو طرأ طارىء على لجنة المناقشة نخبرك قبلها حتى لا نجشمك الحضور . . ونضيع وقتك ؟ . .

خرجت من عند المسجل وعدت إلى حجرة الطلاب أحدثهم بالبساطة والعفوية التى ضرب فيه موعد الامتحان . .

وأعجبت من منزلة الأستاذ الكبيرة ومدى صلاحية العمل الذى عنده . . إنه أستاذ . . له كرامته . . وله الكلمة المسموعة والرأى الذى لا يخالف . .

متى احترمت الأمم رجال العلم وأساتذة الجيل فاعرف أنها قد تقدمت فى الحضارة لأن أمة تضع الثقافة والعلم قبل السطوة والسلطان أمة لها حق الحياة . . إذ أن الأمة التى يقودها العلماء بوقارهم العميق وتدبرهم للأمور وتضع الثقافة فى المقام الأول سوف يكون لها قصب السبق فى مضامير الحضارة ولها مكانتها بين الشعوب . .

ان العالم متى أحس بكرامته وحريته فى أداء واجبه سوف يبدع ويخلق المعجزات العلمية . . وهذا ما نراه فى الغرب . . ومتى خاف العالم فلن ينتفع بعمله ولو حوى صدره

علوم الدنيا كلها لأن الارهاب والضغط على حرية العالم سوف يملآن نفسه بالألم والانكماش وهكذا الحرية تنبت العلم وتزدهر فى ظلاله الحضارة .

وهكذا الظلم يموت الإبداع فى ربوعه ولن يسيطر على شعب له مكانة عزيزة تحترمها الأمم المتحضرة . .

ذهبت إلى الكلية قبل الموعد المضروب . . وجلست مع الزملاء أتحدث معهم لأدارى عصبيتى وأسكن تأثرات العواطف . . ولما حان الموعد . .

طرقت الباب المكتوب عليه (امتحان فى الساعة العاشرة والنصف) ولم أجد غير كرسى واحد لى فقد جلس المناقشون . . ثم صب لى أستاذى كوبا من الشاى لأشاركهم شرب الشاى . .

كانت بساطة الجالسين وتواضع المناقشين . . تبعث الهدوء والرضا وأخذت أهدأ . . وأهدأ ونسيت أننى فى قاعة امتحان وبدأت أناقش وأرد وأحاجج . . وكأنى فى مجلس خاص . . لم أر للأساتذةسورة غضب . . أو أحس بهجمة مضرية أو أشعر بشعور الزراية والتهكم . . عندما كنت أعرض آرائى وأقدم أفكارى . . .

كانت الأسئلة واضحة وصريحة . . وليس فيها لبس أو يعتريها غموض كانت الأسئلة كثيرة ولكنها مركزة لم تخرج إلى التجريح والهجوم انما بنيت على الروية والهدوء برغم أن الرسالة وما فيها يثير أعصاب الانكليزى متى قرأ شعر العراق فى شتم وطنه وهجاء شعبه وسخرية الشعراء منه .

كان أحد الأسئلة . .

ألا ترى الانكليز فى احتلالهم للعراق والوطن العربى قدموا شيئا مفيدا للوطن العربى أو للعراق بصورة خاصة ؟

قلت يحتوى السؤال على شقين . . الأول يدخل فى حدود الرسالة والثانى ابن عمها . . ضحك الأستاذ اربرى . . قال ما تقصد بابن عمها قلت نحن العرب أبناء عم فى كل أقطارنا . . وسؤالك عن الوطن العربى سؤال عن ابن عم العراق .

قال : نسيت ولك الحق . .

قلت : ان القضايا الحضارية والاقتصادية ليس من شأن هذه الرسالةالتى ركزتها على السياسة وأثرها فى الشعر . . ولم أجد فى الشعر إلا ما قدمته وصورته دون زيف . .

وبلطف وهدوء قال :

ألم تر فرقا بين حياة العراق فى العهد العثمانى وخلال الاحتلال البريطانى ؟
قلت ان منطق الزمن والتطور الحضارى لابد أن شمل العراق ولا شك بأن الاحتلال البريطانى أيقظ العرب كلهم وأعطاهم مثلا لحضارة الغرب . . ورسم لهم صورة حية للمقارنة دفعتهم للحضارة الغربية لكى يتساوى العربى مع الغربى . .

ولاشك بأن الاختراعات الغربية من قطارات سارت على وجه الوطن وطيارات طارت فى سمائه أفادت العراق . . والعرب ولكن ما كان المحتل يريد فائدة البلد الذى احتلها إذا أراد أن تسير جيوشه فى أرض احتلها ليقدر على السيطرة فجاء بالقطار . . والطيارات .

قال إن ما قلته لا جدال فيه . . ولكن أرجو أن تجد شيئا من حسنات الانكليز فى بلادكم فى المستقبل وتذكرنا فيها بالخير . . وان كانت هذه الحسنات لأجل احتلال بلادكم لكنها أيقظت فى العرب روح التحدى وبدأ فى التعليم والاستفادة من الحضارة الغربية . .

قلت إن المقارنة التى كنا نعقدها مع حضارة الغرب تكفى لبعث الحياة الجديدة فى الكيان العربى . . ولولا هذه المقارنة لما سارعنا فى التقدم واقتباس حضارتكم لأننا أحسسنا بالتخلف وشعرنا بالنقص . . وهذا الاحساس بالتخلف وهذا الشعور بالنقص دفعنا إلى النهضة ومواكبة العصر الحديث . .

وبعد ذلك نظر الأساتذة بعضهم وفهمت أن المناقشة قد انتهت . . فما كان من أستاذى إلا أن وقف . . فوقفت ثم مد يده مصافحا وقال . . أرجو لك الخير والسعادة . . وخدمة العرب فى مستقبل حياتك العلمية . .

شكرت الحاضرين وصافحتهم وخرجت . . فوجدت اخوانى على أحر من الجمر وانهالت على القبلات والمصافحات جلست بينهم وكأنى أرمى عن كاهلى حجر مثل ثقل الجبال الكبيرة ولم تدم المناقشة الا ساعة واحدة أو حوالى الساعة والنصف . .

وكانت أول رسالة أكتبها إلى أسرتى تحمل . . العنوان التالى :ـ
إلى أسرة الدكتور يوسف عز الدين . .
محلة الفضل ــ بغداد ــ العراق .

هدوء بعد العاصفة

أحمد الله حمدا لا يفنى

وأشكره شكرا خالدا لا ينسى

انتهت الأتعاب . . وهدأ الاضطراب . . وبدأت الصحة تعود ، بكل بطء مثقلات خطاها وذهبت إلى الطبيب . . فقال شفيت القرحة دون عملية فقد كنت مريضا جيدا . . فإن الدواء الذى أخذته . . والمحافظة على أسلوب الطعام فى تناول المسلوق هذه الشهور أفادتك . . ونظر إلى الأشعة بين يديه . . واستمر ضاحكا وقال :

إياك والتفكير فإن المفكرين يصابون بمثل ما أصبت به وإياك والانفعال . . فإن رد فعله فى المعدة عميقا وكبيرا ، نظرت إليه . . وعلى وجهى طيف ابتسامة حزينة . . إنه يريد أن يمنعنى من لذة الحياة ولا يدرى . . ومتعة الفكر دون أن يكترث . .

هل أبلد عقلى . . وأحبس عواطفى وإحساسى . . إننى كتلة من أعصاب حساسة . تجرحها خطرة الكلمة ونجوى الاشارة . . وهس الشفاه .

استمعت دون إجابة . . فقد أدى دوره . . وقام بعمله على أحسن سبيل . . وأخذ ورقة الوصفة بين يديه وقال :

هذا دواء أرجو أن تستمر فى تناوله . . لأن شفاء القرحة ليس معناه . . أنك نجوت منها . .

فقد تسبب لك ارتباكا مستمرا مادامت قد نزلت بمعدتك وألقت مراسيها فى جدارها . . .

ضحكت من قوله وألقت مراسيها . . وقلت له . . هل أنت شاعر ؟

قال : لا . . ولكنى من بلد على الساحل وأبى يعمل فى القوارب . .

كنت قد أعددت له هدية تناسبه . . وقدمتها له . . شاكرا على الرعاية والدقة . . وحسن اللقاء . . وما قدمه لى من خدمات وودعته . .

قام من مجلسه وصافحنى بحرارة . . وقال نسيت دعوتى لك إلى الريف لتقضى معى وقتا فى دارى . .

لم أنسها ولكن سوف أحتفظ بهذه الدعوة . . متى عدت إلى لندن . أحسست بعد الامتحان بأنى ألقيت عن كاهلى حملا من أثقل أحمال الحياة التى قاسيت منها . . وشعرت

بالحرية فى العمل . . والانطلاق فى الوقت . . وكأننى طير فكّ من أساره . . أو سجين ترك السجن وملك حريته . . وبدأت أفقد التفكير والسيطرة . . والنظام . . بهذا الانطلاق الواسع . .

أنام الساعات التى أريد . . أخرج فى كل مكان . . وأعود بلا موعد . . . ولا خوف من ذهاب الوقت . . ونظرت إلى أكوام الأوراق والمسودات التى كتبتها . . وإلى الكتب والمراجع التى كانت قدمت لى أحسن الخدمات . . إنها الصديق الذى لا يمل . . والأنيس الذى لا يشتكى من صحبتك . . أو يضجر من لقائك . . . ولا يحتج إن أهملت . . يقبل عليك بكل طاقته متى أقبلت عليه . . ولا ينفر منك مهما هجرته . . ما أجمله من صديق . . وما أوفاه من زميل وما أصدقه من محدث . .

وقد صدق آباؤ نا عندما قالوا :

أعز مكان فى الدنى سرج سابح . . وخير جليس فى الزمان كتاب

فكرت فى مصير الأصدقاء الأعزة . . والصحب الكرام . . وعز على ترك كتب العلم والفكر دون رعاية ودون فائدة . . تعود على الباحثين . .

كان معنا زميل يشرف على قسم الكتب العربية فى المتحف البريطانى اسمه (لينكز) أصبح متصوفا مسلما وسمى نفسه (أبا بكر) قلت له عندى مجموعة من الكتب العربية وفيها النادر مثل المسامير . . والدرر والمعلوم والمجهول وأريد أن أقدمها هدية للقسم . .

قال إنها هدية مقبولة . . ولكن هل يمكن كتابة أسمائها باللغة الإنكليزية قلت . . هدية وتعب . .

كان وقتى ملكا خالصا لى فلم لا أخدم العلم . . وقدمت له القائمة . . وفى الصباح أرسل من تسلمها منى . .

وبعد أسبوع وصلتنى رسالة شكر من القسم ومعها مبلغ من المال . . الحق أننى فوجئت . . وقابلت الزميل . . قال نحن قدرنا الهدية ومشاعرنا بالرسالة . . وأرسلت لك هذه الهدية المالية لأننا لا نقدر على غيرها . . ولا نملك وساما لنعلقه على صدرك .

قلت أقول لك الحق . . ان ندرة هذه الكتب هى التى دعتنى لإهدائها إليكم لأنى أتصور بأن الطلاب العرب سوف يأتون بعدى . . ولن يجدوا هذه الكتب فى لندن . . بل السوق العربية فأحببت أن أخدم من يأتى بعدى . . وأخدم اللغة العربية . . إنها حسبة لله تعالى وللعلم .

قال قد قمت بالواجب . . وأعاد لى الصك الذى رجوته أن يعيده إلى المتحف وضحك . . .

أنت على أهبة السفر وتحتاج إلى كل قطعة صغيرة من المال . . ولن يضير المتحف البريطانى دفع مثل هذا المبلغ فى كتب عربية نادرة . . وسوف يستفيد الطلاب منها والأعمال بالنيات ولك على نيتك أجر .

أما الكتب الانكليزية . . فقد أعددت العدة لأخذها معى إلى العراق . . أخذت أخطط لأرى لندن وما لم أره منها فى خلال هذا الشهر . . وأعوض عما فاتنى من مشاهدته . .

مدينة لندن القديمة :

امتدت لندن امتدادا كبيرا وضمت كل القرى والمدن التى كانت تحيط بها وقد بقيت بعض هذه الأقسام لها استقلالها الخاص فى أمورها الاجتماعية . . وبقيت قطعة صغيرة هى لندن القديمة تسمى المدينة (city) فيقول ذهبت إلى المدينة وعدت من المدينة ناسيا باقى لندن الكبرى وضواحيها وتوابعها . . لم تكن لندن سوى قرية صغيرة تحتضن نهر التايس الذى ركبته من كل جهة من جهاته . . وكثرت عليه الجسور . . وقد يكون للرومان الذين استعمروها الفضل الأول عندما بنوا حولها السور لحمايتها من الغزاة وقسم من هذا السور يمكن مشاهدته فى أنحاء مختلفة من المدينة . . احتفظ به الأثاريون . . وصانوه من العبث والتلف ليبقى رمز الحياة الأولى لمدينتهم وليشعروا الناس بأهميتها التاريخية وقدم المدينة .

ويمكن أن تعرف اللندنى أو أبناء المدينة من اللهجة الغريبة والأسلوب القديم فى الحديث وليست من السهولة عليك أن تفهم هذه اللهجة إلا إذا شددت أعصابك وأرهفت سمعك . .

ففى هذه اللهجة إمالات وحذف واختصار فى الحروف تذكرنا بلهجات القبائل العربية فى الجزيرة . .

لا تتعدى مساحة المدينة عدة كيلو مترات مربعة ولكن هذه المساحة المحدودة فيها شريانان من أمتن شرايين الأمبراطورية البريطانية أولهما كنيسة القديس القديمة التى تسيطر على عقيدة الانكليز والشريان الثانى المصرف المركزى . .

وقد لا يعرفها السائح وهو يمر بها أنها مركز للحركة التجارية والصحافة . . والنقابات

ولا يجوز للملك أن يدخلها دون إذن من محافظ المدينة فهو يقف فى مكان قبل أن يدخل فيستقبله المحافظ بموكب بعد أن يأذن له بالدخول إليها . . لأن هذه المدينة لها استقلالها الداخلى . . ولها شرطة خاصة لحمايتها والسهر على مصالح الشعب فيها . . وهى غير الشرطة التى تراها فى شوارع لندن . .

وفى الكنيسة التاريخية التى يعود بناؤ ها إلى القرن السابع عشر تقام الاحتفالات الملكية الرسمية . . وبرغم الحريق الذى أتى على كل معالم لندن وقنابل المحور فقد كانت تعاد إلى سابق شبابها بعد كل حادثة تخريب .

*

كان معهد الوثائق القديمة فى المدينة وكنت أذهب فيه للبحث وأمر على محلات تمرين طلاب الحقوق والمحامين . . فأجدنى منتقلا من القرن العشرين إلى بطن التاريخ فى طراز البناء والأثاث وأسلوب تناول الطعام وشكل الآنية والكؤوس المعدنية بشكلها الضخم فأحس بالتاريخ حيا وكأنى أعيش فى قرون قديمة .

فى المدينة متحف ضم تراثها الحضارى بنى على طراز قديم ولعله من بقايا تلك العصور فنجد آثار القوط واضحة على طرازها وأسلوب البناء فى الأعمدة العالية والتيجان التى ترفعها وتزين البناء .

ويحس الانسان بالدروب الضيقة التى بقيت على عهدها ولكنها مرتبة ونظيفة . فيعود إلى القرون السالفة عندما كانت الحيوانات وساطة النقل فيها .

حديقة كنز كـــــتن

لا تبعد هذه الحديقة عن المسكن غير مسافة قصيرة . . أذهب إليها عندما أحس بالتعب وعندما أريد أن أستنشق الهواء الطلق . . وهى امتداد للحديقة المشهورة فى العالم هايد بارك .

كانت هذه الحديقة الواسعة التى أصبحت رئة لندن الخضراء ملكا للكنيسة ولما جاء إلى الحكم هنرى الثامن صادر جميع الأملاك الخاصة بها بعد النزاع الذى جرى معها.وكانت هذه الحديقة جزءا من الأملاك الكبيرة .

وقد اتخذها مكانا للصيد والمتعة وسرعان ماجاء أوليفر كرومويل وأعلن النظام

الجمهورى وكانت هذه الحديقة من مكتسبات الشعب إذ فتحها لهم ولم تقفل فى وجوههم حتى اليوم .

وكانت فى بابها تجرى عملية الاعدام شنقا . . فبعد أن كانت مكان إعدام للخارجين على الملك أصبحت مكانا للهجوم على السلطة ففى ركنها الخطابى الذى لا يخفى مكانه على أبناء العالم الثالث يذهبون إليه ليمتعوا نفوسهم بحرية الحديث التى تشمل كل قضايا العالم . . تنفيسا عن كبت وخوف واضطهاد .

وقد لا يكون للكلام تأثيره المباشر يمكنك أن تقول ما نريد دون أن تخاف الحبس والتعذيب والنفى . . ويمكنك أن تهاجم جميع المؤسسات وأنت مطمئن إذا ذهبت إلى دارك لن يطرق بابك زائر الفجر فيروع أطفالك ويخيف زوجتك . . ويمكنك أن تبشر بكل رأى لا تتوقع الشرطى يأخذك إلى مقر الحبس ويمنع أهلك من رؤ يتك إنها حرية . . يسخر منها بعض الانتهازيين فهل وجدت فى ديارهم ؟

إن جراءتك لن تساعدك على سماع واحد من المئة من الحديث عن سلطة بلدك فى لندن نفسها لأنك تخشى الرقيب برغم بعد آسيا عن أوروبا ان ما يسمع عن الملكة والسلطة المسئولة فى بريطانية ونقدها والهجوم على الوزراء يخاف سماعه أبناء العالم الثالث . . لأنهم سمعوا شتما بالسلطان .

إنها الحرية خير من الخبز واللباس والترف والتبختر فى النعيم المقيد والذل المقيم . . ما أجمل أن يقول الإنسان ما يريد ويذهب إلى داره دون اكتراث . . وما أحلى التعبير عن المشاعر العميقة والنصح الجميل ويروح صاحبه ويغدو وقد امتلك حريته . . لا يعرف الحرية إلا من ذاقها ، إنها شراب الحياة . . لا يتذوقها إلا أصحاب الذوق العالى ولا يحس بحلاوتها إلا من اتاهم الله الحس الدقيق . . والشعور المرهف . . إنها مثل شراب الصوفية الحقيقى .

كنت أستمع إلى الخطباء . . فى يوم من الأيام فتقدم الشرطى من خطيب من هؤلاء الخطباء توقعت أن يلقى القبض عليه ويضع الجامعة فى يديه . . ولكنى لم أرَ علامات الرعب على وجه الخطيب ولم يترك المنصة ويركض هلعا إنما بدأ يناقشه ويرد عليه . .

علمت أن الخطيب جاء متأخرا وأنه يؤثر فى خطابته على الخطيب القريب منه . . ورجاه إبعاد منبره حتى يسمع الناس كلام كل واحد ولا يختلط صوته بصوت زميله !!!

وفى هذه الحديقة المتسعة يجد الشعب التسلية التى يريدها ففيها برك للماء وبحيرة كبيرة ومطاعم مختلفة وساحات كبيرة يستفيد منها أبناء الشعب كله حسب رغبته . .

وفيها متحف جميل وحديقة منفردة بالأزهار العجيبة بأشكالها وفنون ألوانها واختلاف أوراقها وأزهارها . . وأينما سار المتفرج يجد شيئا يستفيد منه . . فيها ، تمثال (البرت) بزهوه . . وقد خيم عليه حب الملكة فكتوريا . .

وقرب التمثال قاعة للموسيقى ومتحف للرسوم والصور التاريخية التراثية . . وساحات للرقص وركوب الخيل . . والاستماع إلى الموسيقى إنه امتداد كبير شمل مساحة كبيرة . .

هذه الحدائق كانت يوما من الأيام ممنوعة على الشعب وكم أريق على حشائشها من موبقات . . وسال فى قصورها من خمور وملأت أجواءها من تنهدات . . الألم والحزن على المبارزات التى كانت تراق فيها الدماء عندما كان الأبطال يتحدى بعضهم بعضا من أجل حسناء اختصما على صداقتها أو ثار لسخرية سمعها من رجل آخر . . أثناء الحوار والمناقشة . إنها مساحة كبيرة يجتمع فيها الخصمان وكل معه سيفه ليقتل صاحبه . . قوانين الماضى كانت تسمح بمثل هذه المبارزات العلنية فقد كان لها حكام يحضرون المبارزة وشهود يشهدون على نظافة المبارزة واتباع قوانينها . .

ومن أطرف ما حدث فى إحدى المبارزات التى جرت بين رجلين من أصحاب الألقاب الكبيرة على ساحة هذه الحديقة . .

وكان من عنف المبارزة أن قتل أحدهما الآخر فحمل اللورد إلى داره والدماء تتدفق من جرحه وسجّى على فراشه . .

وجاءت زوجته عاجلة ولم يكن خوفها على زوجها وهلعها على موته إنما قالت إن دماءه أتلفت فرش السرير الذى يرقد عليه !!

لله أيتها النسوة العاقات ؟!

فراشك خير من زوجك ؟

تحولت الحديقة إلى ساحات للحب والعشق والتقاء المحبين . . ففى أيام خروج الشمس تراهم اثنين اثنين . . يتمددون دون أن يعبأ منهم بمن يمر . . لأنهم فى شغل شاغل عن كل الناس . . يعرضون أجسامهم شبه عراة تحت أشعة الشمس التى تطل عليهم بين آونة وأخرى . .

كانت الأسرة الحاكمة تحكم اسكتلندة وانكلترا وويلز وإيرلندة وتنشر حمايتها على أرض لا تغيب الشمس عنها وكان الملك يرأس مجلس الوزراء . . حتى مات آخر ملك يعرف الانكليزية وجاء الوريث من ألمانيا ولم يكن قادرا على فهم ما يدور فى الاجتماعات . . ففوض رئيس الوزراء بالرئاسة وأصبح تقليدا سارت عليه الاجتماعات . . أن يرأس المجلس رئيس الوزراء . واستمر هذا التقليد ولم يحضر الملك جلسة واحدة بعدها .

وكانت هذه الخطوة أول مؤشر نحو حكم الشعب . . واستقلال السلطات الشعبية فى إدارة دفة الأمور . . وأصبح الملك يملك ولا يحكم وغدا صورة للدولة ورمزا للحكم . . حافظ عليه الانكليز بكل قواهم . . برغم المحاولات التى جرت لتغيير نظام الحكم . .

أصبحت صلاحيات الملك محدودة بتوالى السنين وتعاقب الأيام . . ولكنهم حافظوا على أملاكه الشخصية الواسعة والمقاطعات الكبيرة التى استولى عليها الملوك وورثها أبناؤهم . . ومن هذه الحدائق هايد بارك وكنز كتن ورجمند وغيرها . . كانت حدائق ترفيه وتسلية ومتعة للملوك وأصبحت للشعب ، الدولة ترعاها وتدعمها وتعتنى بأشجارها وحدائقها وبركها . . لمتعة الشعب . .

وفى الحرب الثانية قطعت جميع الأسيجة . . للاستفادة من حديدها فى صنع المدافع والطيارات بعد أن شح الحديد من البلاد .

ومن يمر أمام مدخل البيوت الضخمة والقصور العتيدة يحس بالعودة إلى القرون القديمة عندما يرى الحارس بملابسه التقليدية يقف دون أن يمنع أحدا من الدخول لأن الباب طريق على جانبيه قصور الأسرة المالكة ويصل إلى الناحية الأخرى من الحديقة . . . ولا يؤذن إلا للسيارات التى يسكن أصحابها فى الداخل . .

واستأجرت السفارات والمترفون وأبناء الأسر الغنية قصور كنز كتن وفيها بيت السفير العراقى . .

انتشرت المصاطب فى أجزاء الحديقة وحول البرك الصغيرة وتحت ظلال الأشجار وإذا جلست سوف ترى الطيور المائية كالبط والأوز تسبح وتمرح وتعبث دون خوف من أذى أو تهديد . . والشعب يقدم لها ولصغارها الخبز فتسرع إلى التهامه هى وصغارها وحول كتل الخبز تتجمع الصغار والكبار من الطيور والعصافير والبط . . و . . .

وإذا أبقيت فى يدك بعض الفتات فلا تدهش إن حط على يدك طير أو أكثر لأخذ رزقه فى اطمئنان . .

ووزعت كراسى مريحة من القماش فى أرجائها للاستلقاء والراحة يمكن أن يستأجرها أبناء الشعب لقاء ثلاثة بنسات لكل أربع ساعات . . فإذا استأجرها الانسان فى الصباح يجب أن يجدد الأجرة الساعة الثانية أو الواحدة حتى الساعة الخامسة وهى الفترة الثانية . وبعد الخامسة فهى بالمجان لأن الحدائق تغلق أبوابها عند غروب الشمس وفى الصيف تبقى حتى التاسعة . .

وقد حجز ركن من الحديقة واعتنى به المهندس وشكله على شكل ممرات وعرائس مظللة بالأشجار يهرع إليها العشاق فى لقاء عاطر وفوقهم التقت الأشجار فى احتضان جميل تخفى همساتهم وتحميهم من لفحات الشمس . . وقد أعدت فتحات يمتع العشاق أنفسهم بمنظر الربيع الدائم فى الحديقة التى تدهش الممتع بحلو التنسيق وبنائها الفنى وشكلها الهندسى الرائع .

هذه الحدائق بقيت فى جميع أنحاء لندن الكبرى . . انها رئات تتنفس منها لندن . .

وإذا نظرت إلى الخريطة نجد البقع الخضراء فى كل جوانبها . . وفى هذه الحدائق الصغيرة والكبيرة ينتشر فى ممرات الحدائق وعلىالساحات الخضراء كل أنواع البشر بألوانهم المختلفة وأشكالهم المتناقضة . . هذا يداعب كلبه . . وذلك يطير طيارته . . وذلك بوضع مع حبيبته يدخل السجن فى الشرق . . ويرسل صاحبها إلى الموت فى الوطن العربى . . وذلك انصرف إلى كتابه أو جريدته . .

ويمكن أن نرى جميع الهوايات واضحة . . وبخاصة أيام شروق الشمس . . قدمت الدولة كل الخدمات التى نراها ضرورية لرضاء الشعب وراحته . . وصانت الحرية الشخصية بكل قوتها وكيانها . . فلا يمكن أن يتعدى انسان على حرية الآخرين مهما علت مكانته أو يعبث بها عابث وإن سما فى الوظائف واحتمى بالسلطة . .

فى أيام الصحو . . يجتمع المتسابقون فى الطيارات الورقية فهذا طائرته على شكل العقاب وذلك طائرته على شكل الغراب يتسابقون فى ارتفاع الطائرات . . وترى مظاهر الغبطة والسرور عندما يسمع الإطراء على شكل الطائرة . . ويسعد عندما ترتفع بالجو . . ليسو أطفالا مراهقين إنما فيهم من أحيل على التقاعد ولهم جمعية يجتمعون فيها . . ويقررون ساعات السباق وأيامها . .

وهناك هوايات أخرى غريبة . . مثل سباق الزوارق التى تسير بالنفط أو بالبانزين أو بالمحرك . . يحضرون هذه الزوارق فى يوم معروف وقد جلبوا معهم أدواتهم فهذا يلبس

حذاء طويلا من المطاط يصل إلى وركه وذلك ينظف زورقه ويستعدون . . والفرحة تقفز أمامهم عندما يرون زوارقهم تشق عباب هذه البركة الصغيرة . . ومعهم محكم يسجل الدقائق التى قضاها الزورق فى الوصول إلى الهدف وتعد لهذه السباقات جوائز للفائزين .

إنه أسلوب جميل للاختراع والابداع فكل واحد منهم يحاول أن يجد اختراعا يساعده على الفوز وأسلوبا يعينه على الجائزة . .

وترى جماعة أخرى أحاطت مكانها بسياج ووضعت لها هدفا ترمى عليه السهام اليدوية . . وبعد أن توضع الاشارات وتحسب نقط التفوق . . يفوز الرامى بجائزة . . ويشترك مع المتسابق زوجه وأولاده بالتشجيع والتصفيق . . وتسمع أصواتهم المرحة وصرخاتهم المحببة وتحس بهمسات الحزن فى الإخفاق . . وينصرف الجميع عندما تدق ساعة المغيب . . بعد أن يجمعوا أدواتهم وهم يتحدثون بحماسة عن ساعات السباق ونتائجه بفرح وغبطة . .

وعندما تجمدت البركة شتاء . . أصبحت قطعة بيضاء كالزجاج . . أسرع الموكول بالبط ينقلها إلى أماكن أمينة وأخذ يقدم لها الطعام والملجأ الآمن بين الأشجار . .

ومن جراء البرد الشديد تجمد (التايمس) وأخذ الأطفال يلعبون على صفحته . . فسقط طفل فى مكان لم يتجمد تماما فمنعت الدولة التزلق عليه وعلى البحيرات . . .

ويظهر أن لندن كانت تمر بها شهور شتاء قارس فقد تجمدت البحيرة الكبيرة (الحية) وسميت (السربنتاين) لأنها معوجة الشكل . . وعلى سطح البحيرة عندما تتجمد ينزلق الرجال والنساء وتصبح مكانا للمتعة والسرور . .
وتجرى سباقات فيها تمنح الفائزة جائزة وأراد أحد المغامرين أن يقوم بعمل جديد يلفت نظر الناس فجاء بعربته وكانت تجرها الخيل فسار على صفحة ثلج البحيرة وخرج منها بسلام وقدم أحد الأغنياء له مئة جنيه تقديرا للشجاعة . . التى أظهرها والجرأة التى تحلى بها وما أكثر المبلغ فى أيامه !؟

وفى الحديقة أماكن هادئة ويمنع فيها دخول السيارات والدراجات البخارية ويسمح للأطفال امتطاء دراجاتهم الهوائية . . واللعب بها . .
وزينت هذه الحدائق ببعض التماثيل المرمرية . . انهم يعرفون للشعب قيمته . . ويعرف الشعب أهميته . . وأثره فى الدولة . . ولن تأتى حكومة إلا بالانتخاب العام فلابد لمن يريد أن يفوز أن يرضى هذا الشعب ويخدمه ويحترمه ويقدم له ما يحتاج . .

حديقة للأطفال

للإنكليز فى بلادهم حب لشيئين بارزين فى حياتهم الاجتماعية وقد يتفوق أحدهما على الآخر هو حب الكلاب والقطط وحب الأطفال . . بل ان الأسرة ترعى الكلب أكثر من رعايتها لأولادها . .

لأن الكلب أصبح جزءا من حياة هذا الشعب الذى كان الانكليزى فى يوم من أيامه الأولى مزارعا أو فلاحا يحتاج إلى حراسة الكلب ورعايته . . ولما كبرت القرى وأصبحت مدنا حافظ هذا الشعب على كلابه واستمر يعتنى بها . .

وبادله الكلب وفاء بوفاء . . وأحبه الإنسان لذكائه وشدة تعلقه بسيده ومربيه وبأسرته وتحضر وأصبح يقضى بعض الحاجات للإنسان . . فأحبه . . وخلد حبه بإنشاء مقبرة خاصة بكلابه غاية فى الإتقان والأناقة .

وللطفل مكانة عند الشعب البريطانى . . فهو الجزء الثانى المدلل . وان شئت الجزء الأول . . فالطفل وهو فى بطن أمه يعتنى به الطبيب ويحافظ عليه وتوصف له الوصفات وتخصص الدولة لأسرته الطعام والحليب والمخصصات وتزور الطبيبة أو الممرضة الأم حين الحمل وتعنى بها عناية كبيرة . . وتحدد لها طعامها وشرابها . . وتنقلها إلى المستشفى متى حان موعد ولادتها . .

ان الرعاية الكبيرة للأم والطفل فى بريطانية مدعاة تقدير . . وليست هذه الرعاية وقفا على الانكليز فهى تشمل الأطفال الذين يقيمون فى الجزيرة .

كان الزميل عبد الله درويش يحدثنى عن العناية التى تلقاها زوجه وأطفاله بإعجاب وإذا ولد الطفل فهو بريطانى يحمل الجواز من اليوم الأول دون مناقشة أو تردد حتى إذا بلغ سن النضج يحق له اختيار الجنسية التى يريدها . فقد قال أحد الزملاء إن ابنه ولد فى بريطانية ثم عدنا إلى الاسكندرية وإذا بمندوب من السفارة الانكليزية يطرق بابنا ولما استقر به المقام قال بحثنا عنك حتى وجدناك قلت لماذا ؟ قال إن ولدك بريطانى الجنسية بالولادة وسوف يصل بعد فترة للسن القانونية فإذا أراد أن يحتفظ بالجنسية البريطانية سوف نزوده جواز سفر .

فى حديقة كنز كتن مساحة كبيرة . . خصصت للأطفال فيأتى الآباء والأمهات بأولادهم . . فيمرحون ويلعبون ويتسابقون على أرضها وزودت الحديقة بأنواع شتى من الألعاب وأشكال طريفة يصرف الطفل فيها نشاطه ويمتع نفسه . . ولابد لى أن أذكر أهمية

الطفل وكرامته على الدولة وعلى الشعب وعمق رعايتها له فإن الشرطى لا يدخل البيت الذى يدخل إليه المجرم ويلقى القبض عليه أمام الأطفال حتى لا يرعب الأطفال ويكرهون الشرطة وعادة ينتظر الشرطى خروج الأطفال إلى مدارسهم ويستأذن فى الدخول إلى البيت ومن سخريات الصدف أن قابلت فى لندن معاون مدير شرطة جاء للدراسة والاطلاع على أساليب الشرطة فى بريطانية فى اقتفاء أثر المجرمين والمتهمين . . حدثنى ساخرا فقال :

إنهم ــ يقصد الشرطة ــ يبذلون مشقة كبيرة . . ووقتا كبيرا يبحثون عن أدلة الجريمة ويتركون المتهم يسرح ويمرح . . بحرية مطلقة وبذلك تضيع آثار الجريمة . .

قلت له ما تصنع أنت فى العراق . .

لا أكلف نفسى هذه المشقة وأضيع الوقت . . إنما نلقى القبض على جميع الذين نشتبه بهم ونحدثهم بكلام لطيف . . ونخدعهم . . ونضحك عليهم ونطالبهم بالاعتراف . . فإن أبوا . . فلنا طرقنا الخاصة التى تعرفنا بالمجرم والبرىء . .

قلت كيف . . هل تقرأ ذلك فى سمات وجوههم . . قال نعم أنا عندى فراسة كبيرة وأعرف المجرم من وجهه . . وإذا رفض الاعتراف . . لنا أساليبنا الخاصة . . بإنزاله إلى السرداب . . واستعمال الفلقة . . أو . .

ولم أدعه يكمل فأنا أعرف هذه الوسائل فقد سمعنا ما يكفينا ألما انها أساليب بدائية تقشعر أبداننا من ذكرها . . .

أذكر أن أحد المسؤولين . . طلب مدرسا ليدرس ابنته اللغة الانكليزية للمرافقين الأشاوس . . وطلب منه أن يحضره له .

وبعد أسبوع سألته ابنته عن المدرس . . قال طلبت من المرافق أن يتصل به فإذا وصلت محل عملى ذكرينى بالهاتف . .

ولما ذكرته ابنته . . سأل مرافقه عن المدرس الذى طلبه فما أسرع ما رد عليه المرافق .

سيدى اعترف . .

كل انسان مجرم فى الشرق العربى حتى يثبت براءته . . وهذه هى القاعدة وليس كل انسان بريئا حتى يثبت ادانته . . للأسف الشديد . .

نظرت إلى ضابط الشرطة الذى جاء يتعلم أساليب اكتشاف الاجرام فى لندن . . وقلت . .

وماذا تعلمت . . قال . . انهم لا يفهمون . . انهم أغبياء يضيعون الأوقات هدرا . .

وأخذ يحدثني عن طاقته في القبض على المتهمين قال بفخر علمت أن متهما ذهب إلى داره . . وانتظرت حتى أدركه الليل وفكرت لو أنني طرقت الباب . . سوف يهرب مني . . قلت وما صنعت . .

قال في الساعة الثالثة وكان الوقت صيفا . . أتيت بسلم وتسلقت الحائط ونزلت عليه وكان ينام بجواز زوجته . . وضربته برجلي . . وقلت له قم وشهرت مسدسي عليه . . وأخذته إلى المركز . .

وقلت له . . هل تقدر أن تفر مني ؟!

حكايات وقصص تجري في عالم العرب . . في كل قطر . . كيف ينتصر العرب وهم في رعب دائم من السلطة . . ؟

تحول العرب إلى قطعان ترعاها الذئاب ؟!

ومتى كانت القطعان قادرة على التطور والتجديد والذئاب تلتقط كل يوم منها خروفا أو كبشا ؟!

*

أخذني الحديث إلى هموم العرب وأرجو الله أن يكشف هذه الغمة ـ وينير السبيل لنا في الجيل المقبل . . ويعتني بالبشر كما يعتني الانكليز بالكلاب وبالأطفال . .

*

هذه الحديقة التي خصصت للأطفال تدل دلالة واضحة على حضارة الغرب.فإن الطفل هو الذي يقود أمته ومتى نشأ على الخوف والرعب فسوف يبقى طول عمره خائفا متردداً تافه الشخصية ضعيف الإرادة . .

ان الاستقلال والحرية التي تمنح للطفل في الحديث والمناقشة ومبادلة الرأي تخلق منه انسانا قوي الارادة واثق النفس برأيه وقدرته وشخصيته . . وتظهر حرية الطفل في أنواع الألعاب التي تنتشر في هذه الساحة . والتي يقوم بها الطفل تحت رعاية المشرف .

هنا ساحة رمال يعبث فيها الأطفال يقفزون فيها ويحفرون الأخاديد ويبنون البيوت . . دون أن يتدخل المشرف في اللعب وتلك أراجيح متنوعة الألوان والأشكال يختار منها الطفل

ما يشتهى وما يريد . . وأكثر الأطفال يقفون فى الصف ينتظرون دورهم دون صراخ أو احتجاج . . لا يعتدون على غيرهم أو يغتصبون حقا من غيرهم . .

وعلى أرض الحديقة أو ساحة اللعب شجرة قد ماتت ولم تبق غير جذوعها خاوية خالية من الأوراق . . فاستغل الفنان الأغصان وصور عليها تماثيل حيوانات الغابة تلك صاعدة وأخرى نازلة ومنها قد اختفت فى ثقب الجذع وظهر رأسها يطل على الأطفال . . كما جسدوا بعض الأطفال وهم يتسلقون الجذع . . وفى تجويف كبير جُسدّت أسرة من الأسر بأطفالها . . ومعهم بابا نويل وهو يحمل كيسه . . ليوزع عليهم الهدايا . . والأطفال ينظرون وكأن هذه التماثيل تتكلم وتتحدث مع بابا نويل . .

وفى قاعدة الشجرة أصناف أخرى من الحيوانات مثل السلاحف . . والضفادع وفى كل هذه التماثيل إيحاءات بالبيئة والمناخ . . ووسيلة للتعليم واعطاء الخبرة بصورة عملية . .

وخلال أيام الشمس المشرقة تحضر سيارة مجهزة تجهيزا حديثا . . وتفتح أركانها فتكون مسرحا . .

يجلس الأطفال أمام هذا المسرح ويبدأ عرض مسرحى من العرائس الجميلة . . وقد أبدع العارض مع فرقته فى الحديث وصاحبت العرض الموسيقى . . انه فن قديم بقايا من خيال الظل الذى عرفه العرب ويسمى فى مصر (قراكوز) وكتب فيه ابن دانيال الموصلى . .

تحس بالغبطة على وجوه الأطفال والانسجام والمتابعة والمتعة . . والتسلية . . والفائدة . . فقد يعرض بعض قصص التاريخ بأسلوب الأساطير والخرافة التى تقربها إلى ذهن الأطفال . .

ليت شعرى متى يعنى بالإنسان فى وطننا قبل أن يعنى بالطفل ؟!

واستقرت بها النوى

كانت أول دعوة لطيفة تلقيتها من الدكتور عبده عزام وهو يسكن فى (نوتنك هل كيت) Notting Hill gate فأحببت هذه المنطقة لأنها سكن صديق عزيز وأستاذ فاضل ولأنها أنست بوجود الدكتور عزام . . ورجوت أن أجد فيها سكنا لى . يفهم من اسم المحلة إنها كانت تلا وأنها كانت بوابة لمكان يعود لصاحب الاسم . . وقد كانت هذه المنطقة

بعيدة عن مدينة لندن بعدا سحيقا . . وكانت منطقة مزارع وبساتين وغابات ومياه . . فإن Bays Water معناه وجود مياه وخلجان فى هذه المزارع وفى اسم شوارعها كلمة (حديقة) . . أى أن المحلة كلها كانت بستانا كبيرة قسمت إلى هذه العمارات والبيوت . . وفى أول الشارع وفى منتصفه وضعت أحواض من الرخام لتسقى منها الماشية بعد أن بلط الشارع وبعد أن انحسر الماء منها . . يجدها السائر فى الطريق . . وواحد منها قرب محطة كونيزى Queen's Way وقد كتب على طولها :

كن شفيقا ورحيما بجميع الحيوانات . لتنزل الرحمة على ديفيد بنيامين (١٨١٥ - ١٨٩٣) .

ما أسرع زحف الحضارة على المروج . . وأشد نهم البشر إلى اغتصاب المساحات الكبيرة من المزارع . . وانتبه الانكليز فحافظوا على مساحات خضراء لا يمكن أن يتجاوزها البناء . . . هذا اليوم

أخذت أتجول فى الشوارع . . للاطلاع والاستفادة من المقارنة وفى نهاية الشارع اعلان بوجود مكان للسكن . . وكانت ربة الدار تعده وتنظفه . .

ولما سألتها عن المكان قالت إنه لا يؤجر إلا لطلاب الجامعة . . قلت وصلت إلى مقصودك . .

واتفقت معها على الأجرة . . كانت سبعة عشر جنيها انكليزيا فى الشهر . . تتضمن الأجرة التنظيف وتغيير المفارش والخاوليات أسبوعيا مع نصف قنينة حليب يوميا !!

بدأت الحديث مع السيدة ربة المنزل واستغربت أن تحمل سيدة انكليزية مثل هذه الآراء . . انها بروتستانتية متعصبة بدأت بحملة غريبة فى قدح الكاثوليك ورجال الدين كالقسس والرهبان التابعين للبابا .

وقالت إن كل الكاثوليك فقراء لأنهم لا يملكون الطموح وأن القسس يركزون فى نفوسهم الكسل ويقولون لهم إن رغبة الإله فى أن تكونوا فقراء . . وبذلك يقفون أمام طموحهم ورغبتهم فى العمل . . .

وترى الكنيسة الاسكتلندية أقل مستوى من كنيسة انكلترا . . ولكنها تعجب أشد العجب بالقابلية الكبيرة لنشاطهم أما أهل ويلز فنراهم مثلاً للحذق والمهارة . .

ولكن أغرب وأعجب الآراء التى سمعتها عن السود فهى تراهم : منحدرين من

القرود وأنهم إذا ما ساروا يترنحون مثل الغوريلا وهو دليل على أصلهم . . وانهم شعب كسلان لا يحب العمل وليست له قابلية فى الإبداع . . لأن دماءهم تختلف عن دماء البشر لأنها شديدة الكثافة . . لأن الجلد الأسود يخلق فى النفوس كل هذا . . وهم يأكلون لحوم البشر . .

غريب من مسز بريكر هذا الرأى ولم ترض بمناقشتى وبرهانى على أن الله خلق البشر وهم متساوون فى التكوين الجسمى والخلقى والفكرى . واتفقت معها على يوم الحضور ولما ذهبت إلى الجامعة . قال أحد الزملاء إنه غال . . قلت له ميزاته الجيدة تستأهل . قال أنا أستأجر شقة بثلاثة باونات و١٥ شلنا فى الأسبوع مع الفطور أى أننى أدفع أقل من ١٦ باون شهريا مع الفطور وأنت بغيره تدفع ١٧ جنيها[1] .

إنه على الطريق المركزى الأرضى وإذا أردنا النحت نسميه (القطرضى) فهو يسير تحت الأرض أو أسفل الطريق . . فليس كل القطر تسير فى أنفاق وإنما فيها ما يمكن أن ترى السماء وأنت فيه . . بل حتى قطر الأنفاق تظهر على الأرض بعد أن تترك مركز لندن . . إذ لا ضرورة من حبسها تحت الأرض . .

كانت الحجرة كبيرة الحجم أكثر من عشرين مترا مربعا من بنايات قديمة لأنها عالية السطح . . وكان الشباك المطل على الطريق بكل واجهة الطريق . . وزجاجه كأنه صنع من الرخام فهو ثقيل عندما تريد أن تفتحه لذلك أعد له آلة رافعة ترفعه وتسده . . . وفى الشتاء إذا ما أغلقت الشباك تنساب وراءه مجموعة من الستائر الخشنة الثقيلة وبعدها ستارة كثيفة القماش مبطنة بقماش سميك . .

وفى صدر الحجرة الموقد الإنكليزى التقليدى فقد حول من حرق الخشب إلى مدفأة غازية . . كبيرة الحجم . . .

الحجرة فيها سريران وكل ما يحتاج اثنان من الأدوات الضرورية للطبخ والأكل والشرب . . انها حجرة كبيرة للجلوس والمنام والطبخ ففيها مطبخ غازى وضع فى جانب منها وجانبه مغسل أنيق . . وخارج الحجرة الحمام . .

إنها حجرة شقة أو شقة حجرة . . فيها كل ما أحتاج وأكثر مما أحتاج إليه . وكم من منقطع أو طارق سبيل من إخواننا العرب والزملاء الأجانب استضافت هذه الحجرة ؟!

---

(١) الجنيه واحد وعشرون شلنا

وتائه لا يعرف له مستقرا نال فيها الدفء والطعام والشراب ؟! فى الشارع العام كل ما يحتاج الإنسان . . من الضروريات من طعام وشراب وعلى ناصيته موقف لسيارات النقل العامة . . تذهب إلى شارع إكسفورد وأول شارع جامعة لندن . . وقريب منها محطة للقطار الأرضى (القطرضى) وعلى الناحية ذاتها فرع لمصرف من المصارف الكثيرة المنتشرة فى كل أنحاء بريطانية .

ذهبت إليه وفتحت لى حسابا فيه . . لأنى أتسلم راتبى من السفارة كل شهر صكا . . وهى طريقة سهلة كان يقوم بها المحاسب النشيط عبود البلداوى . . خير من الذهاب إلى السفارة وتسلم الراتب نقدا . . فأودع كل شهر راتبى وأصرف حسب الحاجة التى أريدها . . وظاهرة الصرف بالصكوك واضحة فى بريطانية فإذا أكلت أو شربت أو اشتريت حاجة أو دفعت أجور الدراسة أو سافرت بالقطار يمكن أن تدفع المبلغ صكا . . وجرى العرف قبول هذا الصك . . لغرس الثقة فى النفوس . . وللأسف استغل هذه الثقة بعض اخواننا فى الشرق وأساء الاستعمال . . فجرّ على الآخرين المصاعب . . والحذر . إن انفرادى بالحجرة . . وضرورة العمل المتواصل . . وعدم الخروج من السكن دفعتنى إلى أن أطبخ بعض الطعام . . . وأعتمد على الطعام المعلب والمجهز للطبخ وما أكثره فى هذه الربوع . .

فكنت أجهز نفسى بما احتاج إليه لأسبوع أو اكثر . . برغم أن السوق قريب منى .

طريفة مع المصرف :

ومن طريف ما حدث لى مع هذا المصرف . . أننى ذهبت لإيداع راتبى فيه أول الشهر . . فقال لى المحاسب أو الموظف المسؤول عن المصرف . .

هل عندك وقت لمقابلة المدير ؟
المديـــر ؟
نعـــم ؟
ولمـــاذا ؟
لا أدرى ولكن يرجو أن يقابلك . . ؟!
قلت : خير البر عاجله . . .

وقادنى إلى حجرته . . فتلقانى بترحاب وود واحترام وكأنى رئيس شركة أو ممول كبير . . ولما استقر بى الجلوس على الكرسى سألنى هل تريد حسابا على المكشوف ؟

استغربت هذا السؤال . . فلست تاجرا . . أو مضاربا ؟
قلت لماذا هذا السؤال . . قال يمكننا أن نعطيك مبلغا لحاجتك الضرورية حتى يأتيك المال ولكن أرجو أن تحدد المبلغ الذى تطلبه . .
زاد استغرابى وقلت أرجو أن توضح سبب هذه الثقة التى أولانى المصرف إياها . .

قال : جاء هذا الشهر منك صك ولم يكن حسابك كافيا ليغطى محتويات الصك . . وراجعنى المحاسب وأمرت بصرف الصك لأن رده معناه عدم الثقة بك . .

شكرت المدير على لطفه وقلت معذرة . . لا أريد حسابا على المكشوف ولكن سوف أحسب كل ما عندى قبل أن أصرف الصك . .

ألح الرجل وظن أن المال يأتنى من العراق بواسطة السفارة العراقية ولما أفهمته بأنى أتسلم راتبى شهريا منها . .
قال وهذا زاد الثقة فيك . .

وبدأت أصرف بمقدار ما عندى فى المصرف من مال : ولكن أعجبنى المدير وأعجبتنى ثقته فقد ظن أننى بحاجة إلى عون المصرف فبادر قبل أن أسأله ؟
ما أجمل الثقة وأحلاها بالناس ؟

متحف الشمع وغرائبة

كنت استفدت من الشهور التى أعددت فيها نفسى لتعليم اللغة الانكليزية فى زيارات متنوعة . . وجولات فى أرجاء لندن وبعض المتاحف وفى هذا الشهر لابد أن أزور ما فاتنى زيارتها قبل أن أترك لندن .

كانت الزيارات الأولى للمسرح والسينما ودور الموسيقى وبعض المدن الساحلية . . فلابد من زيارة متاحف الرسم ومتاحف العلوم والفنون . .

وكان متحف الشمع بعيدا عنى . .

أخذنى (القطرضى) إلى بيكر سنريت أو شارع بيكرو لا أدرى إن كان حقا كان فيه خباز أو أن لقب من سكن الشارع هو الخباز . .

ان زيارة هذا المتحف ليس للاطلاع والمتعة والفرجة حسب . . لأن الفن فيه قد بلغ مبلغا وأبدعت يد الفنان أو الفنانة فيه وصورت الأشخاص وكأنك تشك بنفسك لقربها من الواقع عندما ترى التماثيل وذكرت قول البحترى :

= يغتلى فيهم إرتيابى حتى تتقراهم يداى بلمس

فيه تماثيل لقادة العالم ورؤساء الدول . . وبعض الشخصيات البارزة فى العالم الحديث . . وكل دولة تحاول أن تضع تمثال رئيسها فى هذا المتحف . . وفاتهم أن الحاكم المحبوب من وضع تمثاله فى القلوب لا فى متحف الشمع . . فحب القلوب خير مكان وأغلى من متحف الشمع . .

ليس فى الدور الأول ما يلفت النظر غير دقة التماثيل والعناية الواضحة بأفراد الأسرة المالكة . . وتمثال الفتنة النائمة أو الجمال النائم ويلفت النظر فى حركة الصدر وارتفاع النهدين فيحس الناظر إلى المرأة وكأنها نائمة حقيقة . وهى تتنفس .

ولما دخلت وجدت شرطيا يقف بالباب . . ووقوف الشرطى معناه أرجو عدم الدخول . . وقد خدعنى التمثال لأنى لما خرجت بعد جولتى وجدته يقف فى طريق الخروج ولما تفرست فى شكله من قرب ضحكت من نفسى . . وعلمت أن الفنان بالغ فى الدقة حتى أوهمنى أننى أعيش فى الحقيقة . .

الدور الأرضى أو السرداب هو الذى يوحى لك بتاريخ البشرية . . بقوتها وضعفها وجبروتها وتفاهتها بحبها الدافق وبغضها المشين . .

يذهب الناس للفرجة وقضاء الوقت وسرعان ما ينسى هؤلاء العبرة العميقة وتاريخ الانسانية ومآسيها وأحزانها . . ويذكرون المفاجآت ودقة التمثال وبراعة الصنعة أما الجاذب الإنسانى . . فلم أسمع منهم من تحدث عنه :

فى السرداب وما أدراك ما السرداب عذاب البشرية المسكينة وسطوة الحكام الجائرين وبروز الحكم الفردى وتحكم الجبارين فى كل بقاع العالم . .

أية آلات اخترعها الإنسان للتعذيب ؟ وما أقسى الإنسان وهو يتفرج على الإنسان وهو يسحق بعجلة كلها سكاكين أو يرمى من على القصر على السيوف أو يغلى بالزيت وهو حى . .

هل أثارت أدوات التعذيب السخط والكراهية فى النفوس على حكم الإنسان وقساوته ؟! وضراوته على أخيه الانسان ؟

قاسى المسلمون فى الأندلس من هذه الآلات وتلك الوسائل ما يشيب لهولها الطفل . . وابن الشرق مازال يعانى من هذه الآلات وأكثر من هذه الآلات قساوة . .

حدثنا التاريخ عن تنور الوزير عبد الملك بن الزيات وكيف كان يعذب خصومه . . ولما رجاه إخوانهم بالرفق بالناس قال :

الرحمة خور فى الطبيعة . . .

وانتشرت هذه الكلمة بين الناس واضطربت لها أهل بغداد وخافوا من سطوة ابن الزيات حتى دار الزمن دورته . . وأخذ ابن الزيات إلى التنور لينال على آلته العذاب الذى عذب فيه خصومه ويضعف الإنسان فى داخل الوزير القاسى ويظهر تخاذله وظهر جبنه أمام الموت والعذاب فصاح ارحمونى . .

وكان أحد الحمالين يسير وهو يحمل حمله فرد عليه . .

ألم تقل يا بن الزيات . . الرحمة خور فى الطبيعة . .

يذكر المؤرخون هذه الحكاية تشفيا بابن الزيات . . وفاتهم أن ابن الزيات لو وجد شعبا قويا وأمة تمنعه عن مثل هذا العمل وأحس بسطوة الشعب المسلم لما تجرأ على هذا العمل إنه شاهد من التاريخ على ضعف الشعب وعلى أنه أصبح قطيعا لا يقدر على رد المظالم عن نفسه . .

إنه قطيع يؤخذ للذبح متى أراد الحاكم لا يسأل أو يناقش . . إن فترة ابن الزيات هى فترة الحكم المطلق وعدم الاكتراث بالشعب ؟ والابتعاد عن المثل العربية والاسلامية التى حاربت التعذيب والمثلة . . أين كان القضاة والمفكرون ورجال الدولة والقادة من عمل ابن الزيات . . إن إدانته وحدها إدانة المجتمع الذى يعيش فيه ابن الزيات . . ان عصرا قبل التعذيب الانسانى عصر متخلف منحط . .

هذا متحف أعاد شكل بربرية الانسان وحكم الفرد . . واضحة حية . ولعل الصورة الوحيدة المرسومة بالزيت التى لم أنسها طول عمرى . . والتى غطيت بستارة هى صورة رجل وقد جثمت على صدره امرأة حلوة . . وأخذت تحز رأسه بالسكين إن صورة الرعب والألم والهلع تصرخ من خلايا الزيت . .

هل يوجد فى العالم مثل هذه النسوة ؟
أين رقة المرأة . . وحنانها ؟
كيف تقدمت الحضارة برعايتها وخلقت الأجيال ؟
إنها صورة لا يمكن أن تنسى . .

وقصة المتحف بذاتها عبرة . . وحكاية بداية (مدام تسو) بحد ذاتها رعب وخوف انها فرنسية . . من بنات الثورة الفرنسية المشهورة التى هدمت المثل وحطمت فرنسا كلها . . وقضت على سلطة الكنيسة وامتيازات النبلاء . . واستحر القتل بالناس وحرقت (تسو) بنار العذاب لأنها كانت تصب التماثيل لأصحاب السلطة والتاج والكلمة الرنانة المسموعة فى فرسايل .

ثم أصبحت آلة بيد زعماء الثورة وقادتها وكان روبسير الطاغية شديد الاعجاب بها ولما رأى تمثال (مارا) أدهشته الدقة وهو فى ساعاته الأخيرة ، فوقف فى الطريق يدعو أبناء الشعب لمشاهدته . . ويشتم شاروت كردواى التى خلصت الشعب الفرنسى من المقصلة التى كان يرسلها إليهم ولم ينج حتى العالم الفرنسى لا فوزيه منها . . الذى لم ينس العلم وهو فى آخر لحظة قال لطلابه ، متى قطعوا رأسى ارفعوه وكلمونى . . ولما رفعوا رأسه لم يجدوا فيه حياة .

كان على مدام تسو أن تعمل تماثيل شمع لهذه الرؤوس الكبيرة التى تهاوت تحت ثقل المقصلة . . والطريف أن روبسير ذاق ما أذاق أعداءه وعملت له تمثالا من الشمع . .

هربت مدام تسو إلى لندن وكان معها تماثيلها . ومنها تمثال الملكة مارى انطوانيت

ولويس السادس عشر واستأجرت عدة أماكن لهذه الرؤوس الطائرة والمجد الغابر . . وتحطم الملكية كلها . . حتى استقرت فى المتحف .

وقد عمرت حتى جاوزت الثمانين وقاربت التسعين وكانت تجلس هى فى مقعد بائع التذاكر اليوم دون كلل أو ملل وخلقت مدرسة من مدارس الفن الخالد . . وخلد اسمها فى تاريخ الفن .

إنها المصائب والدماء . . ورؤوس القادة والأبرياء . . خلقت مدام تسو . . وخلقت فنا جديدا عسى أن يكون عظة . . للبشر . . وهيهات أن يتعظ البشر لأن الانسان كثير النسيان . .

الضمان الطبى

انكلترا بلد الرأسمالية العريق . . وفى أرضها تعـذب العمال وقـاسى الفلاح . . عندما غزت الصناعة حياته . . واخترعت المغزل الآلى الأول الذى كان يدير أكثر من آلة للمغزل . . ودعا الاختراع إلى تشريد الكثير من العمال الذين كانوا فلاحين وهربوا من أسيادهم أصحاب الاقطاع الواسع . . فقد كان الغنى يشترى المقاطعة بكل ما فيها من حيوانات وأبنية وأشجار وبشر . . وكان له مطلق الحرية بالتصرف بهؤلاء دون حساب أو خوف عقاب إنهم ملك اليمين يتمتع بثروات الحيوانات كما يتمتع بجمال الحسان . .

ولا عجب أن قامت الثورة على الإقطاع وكتب المصلحـون فى سبيل إعتاق هؤلاء العبيد ومنحهم حريتهم . .

وفى الثورة الصناعية باستخدام الرأسمال الكبير تمكن بعض الفلاحين من النجاة من الاقطاع والعمل فى المدن فوقعوا فى براثن رأس المال وزودهم أسوء الغذاء وأتعس أماكن من السكن وأردأ أنواع اللباس ، فقد كانوا يحشرون حشرا فى أماكن تعافها الحيوانات المتوحشة واستخدم الأطفال الصغار فى الأعمال المرهقة دون رحمة . .

نشأ كارل ماركس على هذه الأرض ودفن فيها وكتب كتابه المشهور رأس المال . . بعد أن رأى مقدار معاناة أبناء هذا الشعب من تدهور حياته الاجتماعية والاقتصادية وقال إن الثورة سوف تكون فى البلاد الرأسمالية وفى انكلترا . . والطريف أن آراءه لم تقبلها جموع العمال ولم يطبق منها شيء وما ثار العمال وإنما أخذ بنظامه الفلاحون فى روسية . .

وتحتفى المكتبة الانكليزية بكتبه وتنشرها دون أن تتأثر فيها هذه الأمة الغربية . . وفى انكلترا حزب شيوعى له جريدة توزع على الانكليز ولهم منبر دائم فى حديقة هايدبارك يخطبون ويبشرون بكل حرية بمبادئهم وآرائهم . .

إن الشعب متى وثق من نفسه . . ومتى اختار حاكمه بنفسه وسهر الحاكم فى مصلحة شعبه فلن تغيره الآراء وتبدله النظريات إلا بعد إقناع وهضم عميق . . والشعب البريطانى

مر بتجارب كثيرة أخذ حقه فى الحرية بنفسه . . واستولى على السلطة بقوته . . وفرض شروطه على الملك ليسير فى هديها . . وبقى محافظا شديد المحافظة على ما أخذ وحرس هذا الحق . . لذلك تنتاب الزائر الشرقى الدهشة من اللقاء الودى ورقة الكلام التى يلاقيها من الموظف والبائع والمسؤول أينما سار وأنى اتجه . . فقد ألف الكبرياء والتسلط والطرد والاهانة فى بلاده من الموظف متى راجعه فى قضية من القضايا . وعليه أن يلين فى الكلام ويرقق فى الطلب ويتفنن فى عرض رغبته . . وأن يجد الوقت الذى يكون فيه المسئول فى مزاج رائق . . وهدوء نفسى . .

وكل شىء فى هذا البلد تقوم به الشركات ولا تسيطر الدولة على شىء منها . . وبدأت الرأسمالية تتضخم ورؤوس الأموال تتحكم فأخذت الدولة فى حد هذه السلطة المالية الجديدة بفرض الضرائب التصاعدية . . وبدأت تفكر بحماية الشعب من أحابيل الرأسمالية فأخضعت أمورا تتصل بالشعب لسيطرتها . . وحمايتها ورقابتها ومن هذه المؤسسات سنت القوانين لتأمين الطب لكل أسرة وكل من يعيش على الأرض الانكليزية .

والأطباء بشر فيهم الخير وفيهم الشر وتأميم الطب وضع حدا لأولئك الذين لا يرعون إلا ولاذمة عندما يراجعهم المريض . .

وقد راجعت المؤسسات الطبية باختلاف أشكالها وفحصت فى العيادات وذهبت للفحص فى المستشفيات . . فلم أجد أجمل من معاملة الطبيب والممرضة والموظف المسؤول عن الإدارة . وكأنى أدفع لهم من جيبى شيئا . .

ولاشك بأن هناك أطباء انضموا إلى خدمة الصحة الوطنية وأدوا خدمات كثيرة . . لأن سمعة الطبيب تجلب له عددا كبيرا من المرضى وعلى كثرة العدد يستوفى الطبيب نسبة مئوية من الدولة .

ولكن اليهود للأسف أساءوا هذا الأمر فقد حدثنى أحد الاخوان الانكليز بأنه كان يتعالج عند واحد منهم فى هولند بارك حيث يسكن وكان الطبيب اليهودى يعاملنى بجفاء . . ولما أخبرته بأننى جئت لعيادة خاصة تبدلت معاملته وكثرت حفاوته . . وأخذ يوصلنى حتى الباب .
وما كان يرفض طلبا فى دواء أو علاج أو أجازة . . . !!

ان تأميم الطب أراح الناس كثيرا فقد كانت السيدة التى أسكن عندها تلهج بالثناء والشكر على هذا الأسلوب الجديد . . وقد أجريت لابنتها أكثر من خمس عمليات جراحية

وهى كثيرة الصلة بالأطباء والمستشفيات . . فما سمعتها تشكو من أمر فى العلاج والرعاية . . من الأطباء والممرضات .

وليس العلاج والدواء إلا مساهمة عامة من كل الشعب يدفع مبلغا من المال مثل التأمين على السيارات أو الدور والحياة والدولة تنظم هذا الأمر والانضمام إليه اختياريا إذ ما تزال العيادات الخاصة والمستشفيات الفردية تعمل عملها وتقوم بنشاطها . .

لاشك بأن العلاج فى العراق بالمجان والدواء دون مقابل فى جميع المؤسسات الصحية فى مختلف أرجاء العراق . .

ولكن أبناء الشعب يفضلون الذهاب إلى الطبيب الخاص والمستشفى الخاص لأنهم يرون الطبيب يتفضل عليهم بالعلاج ويحسون بالممرضة تمن عليهم بحقن الابر وأن المضمد يتنازل فى تضميد جراحه . .

وقد أفرد بعض الأطباء أياما للتداوى وكتبوا هذا اليوم وعلى الأكثر (الجمعة) مجانا للفقراء .

والعراقى حساس شديد الاعتداد بحالته . . فلا يذهب إليه إلا المضطر . . اما كان حريا به أن يداوى الفقير دون أن يعلن هذه المرحمة على الناس . .

ومما لا شك فيه أن كثيرا من المراجعين يفرط فى الذهاب للفحص الطبى عندما يجده سهلا . . ميسورا . ولكن الوقاية خير من العلاج . .

التأميم شغل الرأى العام العالمى لأن الصراع الفكرى قائم بين الرأسمالية الغربية والاشتراكية الشرقية . . ولابد أن تتطور الرأسمالية لتصل إلى حد من الاشتراكية . . كيلا يفقد الشعب كل شىء لأن الرأسمالية طحنت البشرية وقاسى العمال من جشع الرأسمالية وتسلطها . .

والعراق بلد يحب أهله الحرية الفردية . . وكره التسلط الرأسمالى ولكنه لا يبيح للآخرين أن يكون آلة فى مجتمع يفرط فى حقه الفردى . .

وما تزال المعارك مستمرة بين الأحزاب الانكليزية حول المفاهيم الاشتراكية الجديدة ويرى حزب العمال ضرورة تأميم مراكز الأعمال الضخمة . . وما يعود على الناس بالخير وما يمس حياتهم اليومية . . وتأميم الطب إحدى الخطوات التى تكسر من حدة الرأسمالية دون أن تقتل الطموح الفردى .

ومن الضرورى إفساح المجال للتقدم العلمى وترك الباحثين الذين نـذروا أنفسهم لرفع المستوى العلمى . . لأن الطبيب أو العامل أو المهندس متى حددت واجباته . . وقنن دخله لن يبدع فالإنسان الطموح هو الذى يقدم البشرية ويسهم فى تطور حضارتها . .

لاشك بأن الاشتراكية تفيد الشعوب الفقيرة المتأخـرة وترفـع من مستواهم المـادى والاجتماعى . . وتساوى بينهم فى الحقوق العامة . . وتجعلهم جميعا يخدمون الدولة التى لها الحق وحدها فى كل الأرباح والجهود الفـردية ونتائجها .

فهل تفيد الآراء الاشتراكية الأمم الغنيـة التى تتدفق الخيرات فى أرجائها والخصب فى كل جنباتها ، الاشتراكية التى تعتمد على طعام الرأسمالية وعلى زراعته . . وقمحه وتقنينه فيها ألف رأى ورأى ؟!

سفرتان إلى اكسفورد وكمبردج

جامعتان من أعرق جامعات بريطانية . . فقد نشأت كل واحدة منهما تحت الرداء الكهنوتي والدين المسيحى . . فلا نعجب أن وجدنا الأسماء تدل دلالة دينية واضحة . . والمصطلحات مشتقة من طبقات رجال الدين .

ويظهر الدين فى الأردية السوداء التى يجبر كل طالب على ارتدائها مادام فى الحرم الجامعى . فى الدراسة والشارع والمطعم ولا يمكن للطالب ترك هذه الجبة الجامعية السوداء . . وأقول الجبة لأن الملابس الحالية قد أخذت من أنظمة الجامعات الاسلامية فى الأندلس ونقلها طلاب العلم معهم فقد كان طالب العلم يرتدى العمامة والجبة ويحتفى به حفاوة كبيرة عندما يجاز فى اختصاصه الذى جاء من أجله فى المسجد الذى درس فيه علومه .

انها منافسة قديمة بين أعرق الجامعات فى أمرين لا ثالث لهما :

الأول الرياضة الممتعة بأنواعها وبسباق الزوارق .

والثانى المستوى العلمى .

تبعد اكسفورد وكمبرج حوالى الخمسين ميلا بالقطار عن لندن . . وخير سبيل للنزهة فى دروبها أن تسير على القدمين .

تأسست إحداهما فى القرن الثانى عشر والأخرى فى الثالث عشر وبذلك فكمبرج تأسست قبل وصول الرومان إلى الجزيرة .

ولعل خير ما فيهما المكتبتان الكبيرتان الغنيتان بالكتب القديمة والحديثة واشتهرت إكسفورد بكلية مودلين وببرجها الشامخ فى الجو الذى طالما اتخذه الطلبة مجالا لترفيه مع جسرها على الجردنيل .

وتبارى المهندسون فى إنشاء أبنيتها وكنائسها المتعددة . .

فلا يعجب الزائر عندما يرى الأساتذة والطلاب وهم فى الأردية السوداء . . فإنه تقليد مسلم قديم . . ظن بأنه من اثار الرداء الكهنوتى . .

وهذا ما لا نجده فى جامعة لندن فقد تركت كل هذه التقاليد الجامعية العريقة لأنها

تأسست بعد أن تركزت هذه التقاليد فى الجامعتين الشهيرتين . . وأصبحت جامعة لندن مدرسة علم حديثة .

فى هاتين السفرتين إلى الجامعتين كنت أحس بالتاريخ القديم حاضرا يسير معى ويشير إلى وكأننى أعود إلى القرون القديمة وأتصور القساوسة يتجولون فى حنايا الجامعتين يعلمون الدين المسيحى ويفرضون سلطة البابا على الطلاب .

ففى طراز الأبنية وأسلوب حياة الطلاب والحياة الاجتماعية للجامعة تحس بالتراث القديم حيا فى كل صوت من أصوات الأبواب التى تصر عندما نفتحها أو نقفلها .

وقد حرص المشرفون على الطراز والاحتفاظ به ولم يغيروا فيه . . وجددوا الداثر محافظة على الأصل .

*

يعجبنى النظام والدقة فى الأعمال التى تقوم بها المؤسسات المسئولة عن السفرات .

فبعد أن تتأكد من عدد الطلاب تصدر كراسة فيها كل التعليمات التى توضح أمر السفرة والاهتداء بها فقد يضل الطلاب . . ففى هذه النشرة يجد المشاركون وضوحا فى الهدف وتحديدا فى الحركة مثل ساعات التحرك والوقوف ومكان المبيت ورقم الحجرة واسم الفندق الذى سوف ينزل الطالب فيه وعنوانه ورقم هاتفه . . ويزود الطالب خريطة مع النشرة لتزيد فى الإيضاح .

وبين يدى الكراس الذى أعد لسفرة إكسفورد فعلى الغلاف صورة المحل الذى سوف ننزل فيه وعنوانه وفى الصفحة الأولى تاريخ السفرة ١١ ــ ١٣ نوفمبر ١٩٥٥ وقد نوهت الصفحة بالمكان الذى سوف ننزله ونتناول فيه الإفطار . . مع عنوانه كاملا وأسماء المسئولين فيه . . ورقم الهاتف .

وفى الصفحة الثانية ساعة الوصول وهى الساعة السادسة مساء وأوقات تناول طعام العشاء وحفلة الاستقبال التى تقيمها الجامعة للوفد . . الزائر من لندن .

وهكذا تستمر الصفحات وتذكر زيارات متنوعة لمختلف الكليات وأهم المعالم التى تزار وأماكن الغذاء والعشاء وتناول الشاى ومكان وقوف السيارات وساعات التحرك والاتجاهات التى تسير فيها،وفيها زيارات الكليات ومشاهدة المسرح وإلقاء محاضرات عن مدينة اكسفورد ووقت الصلاة فى الكنائس فيها لمن يريد . . وتلك لازمة ضرورية فى كل

السفرات فلا تغفل الصلاة . .

وأسهم فى هذه السفرة جمع من مختلف العالم ففيهم من الهند اثنان والباكستان وكوريا وسويسرا وكينيا وتنجانيقا طالب واحد ومن ألمانيا اثنان وكندا اثنان أما فرنسا فقد أسهمت بسبع طلاب . . فيكون عدد المشاركين معى عشرين طالبا فيهم ثمانى طالبات ست منهن من فرنسا واثنتان من ألمانية .

كان الجميع يعامل بالعدد فعندما وصلنا إلى اكسفورد قسمنا النصف الأول فى فندق والنصف الثانى فى فندق آخر . . لم يحجز للبنات مكان وللرجال مكان آخر . . فهنا المرأة مساوية للرجل فى كل الأمور . . ولا يخاف على المرأة أو تحاط بهالة خاصة ورعاية دون الطلاب فهى تنام فى الفندق نفسه وتكون حجرتها بجوار حجرة الطلاب دون تميز .

كانت المشرفة ذكية فإذا ذكرت اسمك سمت القطر الذى جئت منه . وهذا دعاية لقطرك .

إن الكليات فى أكثر الجامعات الانكليزية لم تؤسس حسب المواضيع والفروع فقد تدرس كلية العلوم والطب مع الآداب وتدرس الكلية فرعا واحدا وقد انتشرت الفروع حسب البنايات وحسب ما أسس من أجله البناء فالفلسفة قد تدرس مع الحيوان فى بناية واحدة .

ولعل من مظاهر الجامعات الانكليزية . . ان أكثرية طلاب الدراسات العليا ليسوا من الانكليز إذ أن الانكليزى يجد عمله الذى يناسبه بعد الشهادة الجامعية ، لأن الشهادة ليست كل شىء فى حياتهم .

وظاهرة غريبة رأيتها فى اكسفورد ونحن فى الطريق فقد كان معنا راهب أو قس كندى يدرس فى الجامعة وقد نال عناية خاصة من الطلاب لملابسه ومسوحه . .

وانطلق أحد الهنود بالغناء باللغة الهندية ولكن لم يجد من يردد معه اللازمة فتبرع الراهب وهو لا يجيد الهندية بحفظ اللازمة وانضم إليه الألمانى وإحدى الفرنسيات . . بحفظ اللازمة وترديدها بعد الهندى . . وما انتهى الهندى حتى بدأ الراهب الغناء بأغنية جميلة سحر كل الطلاب فكان صوته جميلا وغناؤه ممتازا حوّل السفرة إلى متعة حتى وصلنا إلى اكسفورد .

ومن طريف ما حدث لى . .

ذهب الركب لرؤ ية قرية صغيرة قديمة ومررنا بكنيسة . . وأراد بعض الطلاب أن يصلى فنزلنا من السيارة وكان الجو باردا قارس الهواء . . ودخل الطلاب فوجدوا القس قد بدأ في صلاته . . ويظهر أن مراسيم صلاة المسيحى أن يبدأ الجميع من أولها . . فآلمنى شدة البرد ولسعاته . . وأدخلت رأسى من الباب الموارب . . فسرى الـدفء إلى وجهى . . فدخلت الكنيسة . . فسرى فى جسمى وما أحلاه . . فولجت الباب وأغلقته ورائى فدخل بعدى طالبان واشتركا فى الصلاة . . فظن بأنى شديد التدين وطالت الصلاة . . وسرى الدم فى جسمى من جديد بعد أن يبست أطرافى من البرد . . وخرجت مع المصلين . . بعد أن استراحت جوارحى . . وسال الدفء فى العروق .

وفى الطريق سمعت أحد الطلاب يقول لصاحبه هـذا الطالب طيب الخلق كـريم الفضائل فاضل عميق التدين . . ولم أتركه يستمر فى إطـراء الفضائـل . . دفعنى حب الاستطلاع إلى شكره وسألته إن كان يعرفنى من قبل .

فقال رأيتك تدخل الكنيسة مع اثنين . .

نظرت إليه وابتسمت وقلت له : لا ياصاحبى . . الحقيقة أننى كنت أحس بـالبرد فدخلتها أطلب الدفء والحرارة والاستماع إلى صوت الأرغن الجميل . .

لا أدرى ما كان وقع المفاجأة على نفسه . . !!

وفى الطريق مرت كوكبة خيول سباق فوقفت السيارة . . ليرى الطلاب هذه الخيول وأعجبنى حبهم للخيل ووصفهم لها وجمال التعبير والاعجاب بها ، ذكرنى هذا الاعجاب بالعرب والخيل وصهيلها وأجدادى وفتوحهم فهل تنفع الذكرى ؟!

يا لله أين الخيل العربية التى وطأت جميع العالم من الشرق إلى الغرب . . واليوم أهملت إلا فى حفلات الاستقبال الرسمية فى بعض الدول العريقة واستعمل العرب الدراجات البخارية حفاوة برؤ ساء الدولة فكانوا أكثر تطورا من أبناء الغرب . . !!

ولما وقفت السيارة تنتظر مرور هذا الموكب الجميل لم أسمع من يستعجل السائق أو يظهر على وجهه الضجر والملل إنما كان يحس كل واحد منهم بمشاهـدة هذه الحيـوانات الجميلة بمتعة ولذة تسرى على وجهه ومشاعره .

صدق المنجمون . .

ومن الطرائف التى حدثت لى فى كامبرج . .

دعينا إلى مسرح يعرض فيه أحد حواة الهند أعماله المعروفة من ضرب بالسيف وادخاله فى صندوق فيه فتاة واخراج الطيور من القبعة وتفريغ عدة مناديل من أبريق ، وغيرها مما أصبح معروفا . .

وبعد أن انتهى من ألعابه ربط عينيه برباط وشدهما وثاقا وجاء مساعده بسبورة وقال : أنا أعرف كل لغات العالم فمن شاء أن يكتب بأية لغة فسوف أشرح معناها وأقول له اسم اللغة التي كتبها على السبورة وبالفعل عرف اللغات التى كتبت من ألمانية وأسبانية وعربية . . وأردت أن أكشف اللعبة . .

صعدت على خشبة المسرح وكتبت جملة باللغة التركية بالخط العربى الذى كان العثمانيون يستعملونه .

قال إنها الفارسية

قلت ما معنى العبارة فسكت ولم يعرف معناها

قلت له واحدة

وكتبت له جملة باللغة الكردية

قال الفارسية .

قلت تعرف معناها فبهت .

قلت له الثانية . . واستدركت وقلت :

أتريد الثالثة . . قال لا فضجت القاعة بالتصفيق واحتفى الزملاء بى وبرزت بطلا من أبطال المعارك ولم تكن غير جملتين اثنتين . .

وهكذا الحوادث تخلق الأبطال . . وتجعل العييّ خطيبا . . فظن بعض الحاضرين بأنى تركى . . لا أدرى لماذا ؟ خرجنا من المسرح جماعات متفرقة وكان معى قسم من الطلاب والطالبات . . ونحن نتحدث عن المفارقة التى حدثت للحاوى الهندى . . فلحق بنا بعض الطلاب من العراق الذين يدرسون فى جامعة كامبرج عفا الله عنهم ولا أريد ذكر الأسماء . ولعلهم يتذكرون الأمر وهم يقرأون هذا !!

وأخذوا يسيرون خلفنا ويظهر أنهم عرفوا بأننا لسنا من كامبرج وأخذوا يسخرون ويضحكون منا من بعيد . .

أخذ بعضهم يشتمنا بما لذ له وطاب دون أن نعرف سببا إلا لأننا غرباء لا نعرف لغتهم العربية . .

كنت أضحك من سذاجة هؤلاء ومن سوء تصرفهم وما أردت أن أفضح بلدى بهؤلاء وتجاهلت الأمر وبدأوا يندسون بين الطالبات برعونة ويغازلون بعضهن ويعلقون تعليقات بذيئة . . وتناوشونا بكل شهى النغم من الكلام المرذول وبكل عذب الرنين من الألفاظ . . السمجة . . .

ان كان فى المرذول نغم وفى السماجة رنين ، وهم يمعنون فى مالا يمكن ذكره . . وكنت هادىء النفس وقد تمالكت أعصابى . . ولعلهم جاءوا حديثا إلى كمبرج أو أنهم ضيوف على أحد الطلاب . .

سارت معنا جوقة الشتائم حتى باب الفندق . . ثم التفت إليهم قبل أن أدخل . . ووقفت بالباب . ووقفوا لوقوفى ودهشوا . . ولا أدرى ما كان ينتظرون هل أدعوهم إلى الداخل ؟ . . فقلت لهم :

والله خوش استقبال . . نشكركم على هذا اللطف . . فقد مثلتم العراق أجمل تمثيل . . . تصبحون على خير . . فى أمان الله . .

فلو أن قذيفة انفجرت فى سكون الليل ومدافع أطلقت لما هزت أعصاب الاخوان . . فقد ذهلتهم المفاجأة . . وكان الجمع قد دخل الفندق وبقيت وحدى . . وبدأ الاعتذار الرقيق والندم والشعور بأنهم وقعوا فى الفخ . .

قلت لهم ويحكم أنا فلان . . ماذا أقول عنكم وأحدث عن أعمالكم ؟

فخرج أحدهم و احتضننى وقال حقا أنت فلان . .

ولماذا تشك . . ثم مد يده فى جيبه وأخرج قصيدة قال قطعتها من النشرة التى تصدرها السفارة ونحن نرددها شوقا إلى العراق إنها من شعرك . .

يا لندن طال الفراق وليله . . يا ويح ساعات التفرق لندن

قلت غفرت لكم سيئاتكم . . لرقة مشاعركم على ألا تعودوا لمثلها . . وترون مالا تسرون . . .

الفصل السابع

حان الرحيل

تدفق الذكريات

كانت أمي رحمها الله عندها لازمة جميلة فيها معنى الحنين للوطن وشدة الارتباط بالأرض فإن كل انسان غريب إذا لم يكن بين أهله وعشيرته وقبيلته . . ولابد أن يعود إليها . . فإذا ألم بها الحب والحنين إلى الأسرة تقول :

يا غريب اذكر هلك . .

وأهلي وموطني الشرق والعرب أجزاء من روحي ومن ذكرياتي العذبة . . وقد أنهيت العمل الذي جئت من أجله فأنا أردد قول أمي رحمها الله (يا غريب اذكر هلك) بحذف الهمزة للسهولة .

والإنسان مهما طالت إقامته في أي بلد ـ غير مصر ـ يحس بأنه غريب وانه بعيد عن المجتمع وتقاليده . . وقد ينكمش عنه الناس . . ومصر البلد الوحيد الذي زرته لا يحس فيها الغريب بالغربة مطلقا لأن القاهرة خليط من كل الأجناس والألوان والأمم ولهم جذورهم المختلفة المتباينة ففي مصر من جميع أمم الشرق والغرب فيهم الأتراك والجركس والطليان واليونان والعرب سكنوا القاهرة . . فهي مثل أمريكا في اختلاف شعوبها وتباين الأصول . . ومتى اختلفت الأصول وضاعت الأنساب فما يجد الآخرون غضاضة . لذلك فالقاهري يحبك لشخصك وأخلاقك وحلو شمائلك . . وقد صقلتهم الحضارة والتطور الاجتماعي واتساع الثقافة فوسعت مصر كل الشعوب . .

بدأت أفكر في العودة إلى العراق . . وأنا أردد !

ما مثل صفصاف العراق ونخله   كلا فما باريس منه ولندن

كان الشوق يدفعني . . بكل قوة نحو العراق . . والوطن العربي . . فقد رأيت كثيرا من معالم لندن وأهم مؤسساتها ومناطقها . . ولأترك بعضها للمستقبل .

كنت أفكر بأرخص وساطة وأجمل سبيل وأمتع وسيلة للسفر عبر القارة . . حتى بغداد وأقول القارة لأن الانكليزى يرى نفسه يعيش فى قارة خاصة به . وإذا ما أراد السفر إلى أسبانية أو فرنسة . . يقول إننى مسافر إلى القارة . . وقضيت عطلتى فى القارة . . وهذه عادة أهل القارة . .

إنهم قارة منفصلة لا يعترفون بانضمامهم إلى أوربا . . والحق أنهم شعب مختلف فى حياته وتقاليده ودينه والمكايل والوزن والمساحة وحتى النقود تختلف عن العالم كله . .

إذن لابد من حملة استكشاف عن الأسعار والقطر والبواخر فقد جئت من العراق بالقطار ثم أخذت السفينة من استانبول حتى نابولى ثم أخذت السيارة إلى روما ومنها بالقطار إلى لندن فهل أعود بالطريق نفسه . . . ؟!

أريد أن أقف فى كل مكان يعجبنى وأنام فى بعض العواصم لأتعرف عليها وأتزود معارفها وأطلع على حياتها . . ألم يقل الشافعى

سافر ففى الأسفار خمس فوائد . .

كان الدكتور جاسم الوهابى دعانى إلى زيارة بروكسل الذى نقل إليها من لندن فأول الطريق سيكون إلى بلجيكا . . انها الخطوة الأولى . . وسفرة ألف كيلو متر تبدأ بالخطوة الأولى . .

حددت الطريق . . وأزمعت على الرحيل . . وقلت :

إلى القطار إنه أرخص سبيل وإنه يمر بكثير من العواصم .

أزف الفـراق

ودعت لندن . . والأصحاب الكرام والزملاء الأحبة . . . وكانت آخر حفلة أقامها الدكتور عبد الجبار المطلبى فى بيته وقد حبانى بكل طريف ولطيف لذلك لم أنسها . .

أصعب المشكلات السمات الكثيرة التى يحتاج إليها المسافر العربى .

رفعت سمات الدخول والخروج بين دول أوربا على اختلاف اللغات وتباين النظم والغيت بينهم حواجز المرور والكمارك ، أما العرب أبناء اللغة الواحدة والمصير الواحد والتاريخ الواحد فالنظام العربى فى دوله . . . يخاف ويرتعد من الزائرين . . ولو كانوا أبناء العم العرب . . بل إن العرب يخاف بعضهم من بعض أكثر من خوفهم من الانكليزى

والأمريكي ولو كان جاسوسا عريقا فى عمله . .

والسفارات هى الوجه الصادق للأمة وحسن المعاملة تعكس لك رقة الشعب وجميل خلقه .

اللقاء الحسن . . والترحيب الجيد يعطيك أسلوب حكم ذلك القطر . .
فقد أعطتنى هولنده وبلجيكا والنمسة سمات الدخول إلى بلادها وأنا أنتظر دون أن أذهب وأعود ودون تسويف . . أما يوغسلافية وتركية فتأجلت السمة إلى اليوم الثانى . . والمسؤول اليونانى رجانى أن أعود إليهم بعد الظهر . . .

لاحظت اليوغسلافى شديد الحذر والريبة بالناس ولا يكلمك إلا بمقدار يخاف أن تند منه كلمة أو تخرج عبارة وكأنه محاسب على كل ما يقول ويؤول قوله وكلماته وألفاظه .

وفى السفارة اليونانية وجدت ترحيبا حارا وكلاما جميلا بل بالغوا بالحفاوة والتكريم لما عرفوا درجتى العلمية التى حزت عليها وأشعرونى بأنى أكبر من حجمى . . فقد زودت خرائط وصورا ومنشورات تتحدث عن الحياة فى اليونان ومدى تطورها وأهم معالمها ومحلات السياحة والاصطياف فيها .

وقد أقبل على الفراش الموجود فى السفارة اليوغسلافية بكل جوارحه لأنه عاش فى العراق والبلاد العربية وقضى أيام شبابه فيها . . فهو يطرب لكل عربى يسمعه يتكلم العربية وتتدفق عواطفه بالاقبال أراد أن يحملنى كل عواطفه وحبه إلى العراق والوطن العربى . . على عكس الموظفين الآخرين .

حاولت ألا أطلع الإخوان على موعد السفر كيلا أحرج الأعزة والأحبة منهم . . وأن ساعة التوديع قد تكون مثار تدفق العاطفة . . فقد عانيت فيها فكم من صديق ذرف الدموع وهو يترك لندن . . ونحن نظنه يبكى على فراقنا . . وهو يودع ذكرياته الحلوة ونحن جزء من هذه الذكريات . .

والغريب أن بعض الاخوان عرفوا ساعة سفرى فوجدتهم فى محطة فكتورية مثل الأخ داود سلوم والصديق مكين . . وفاجأنى الأخ عبد الوهاب العيسى بسيارته يحضر أمام الدار ـ جزاه الله خيرا ـ كان الخروج مبكرا قبل طلوع الشمس فكان شروق الشمس منظرا جميلا فقد كانت تتسلق الكون لتصافح رؤوس الأشجار وأوراقها الصفراء الباقية تتمسك بها دون أمل فى الحياة فقد هدها الخريف وبعثرها الهواء على الأرض وبعد أن كانت صفراء

من البرد حولها الضباب إلى سوداء . . لبست لونها حزنا على زهراتها المتساقطة وأوراقها الصفراء التى تذروها الرياح فى ساحة الحديقة الواسعة التى سيأتى الزبال ويرميها مع القمامة . .

كانت بقايا الرذاذ الذى قد هطل تغطى وجه العشب الأخضر وكأنها حبات من اللؤلؤ نثرت على قطعة قماش أخضر تبرق مع أشعة الشمس بألوان حلوة متنافرة حمراء وخضراء وصفراء .

ولما انتصفنا الحديقة بذلت الشمس طاقتها الكبيرة واخترقت السحب وقهرت الغمام الذى حاول أن يحجبها عنا . . فأسفرت ضاحكة الطلعة بهية النور منتشية بانتصارها فازاحت خمارها .

كانت ليلة السفر مؤرقة فلم يهدأ لى فكر ولم يستقر بى قرار وتلك طبيعة المسافر . . عندما يزمع على رحلة طويلة . .

دخل معى الاخوان محطة فكتوريا لأننا بكرنا فى الوصول وأخذنا نتذاكر ساعات لندن وذكرياتها الحلوة والمرة وبلا مقدمة . . قال أحد الاخوان .

ألا تحس بالندم وأنت تترك لندن ؟

قلت : لا وألف لا . .

قال : سيأتى اليوم الذى يعضك الندم ويؤنبك الضمير . .

كنت مندهشا للصديق الكريم لهذا التعريض أو اللوم ونحن فى ساعة السفر ولم أدر لماذا تذكر ساعة العتاب الآن ولا أعرف سببا واضحا له . .

قلت : لم أندم . . يا صديقى

قال لأنك أضعت فرصتين يحلم كل عربى أن يحصل على واحدة منهما . ورأى على وجهى علامات الاندهاش والاستفسار فاستمر فى قوله . .

لم ترض أن تكون محاضرا فى الجامعة

رفضت أن تعمل موظفاً فى الإذاعة البريطانية .

أجبت

أن أعيش راعى الشياه فى الوطن العربى أحلى عندى من أكون ملك الامبراطورية البريطانية . بلدنا يحتاج إلى كل كلمة تعلمناها فى الغرب ضحك وقال :

أرجو لك تحقيق الأحلام وخدمة الوطن . .

وما أن دق جرس القطار . . حتى ودع الرفاق .. ولكن قول صاحبى . . والجهد الذى عانيته من الإعداد للسفر . . ترك على وجهى علامات من الأسى والحزن والهم . . فانصرفت إلى نفسى أسليها بالنظر من الشباك . . إذ لم يكن معى فى الطريق إلى الدوفر إلا سيدة وابنها . . ولما رأت انصرافى وذهولى . . سحبت ابنها لتجد إنسانا آخر تقضى الوقت معه فى الثرثرة . . وما بعد الثرثرة . . . وتركتنى وحيدا .

سار القطار لا يلوى على شىء وكنت أمر بالمزارع والمروج الجميلة . . وأرجو من الله أن يرزق العراق والوطن العربى بعض هذا الجمال الساحر والفتنة النشوى . .

ووقف القطار على حافة البر والبحر . . وبدأ المسافرون يحملون حقائبهم والحمال يزداد صوته ارتفاعا كلما زاد تدفق النازلين من القطار والصاعدين إلى الباخرة . . فقد اعتاد الغربى حمل حقيبته معه بيده . . وقد تحمل الحسناء التى يخدشها لمس الحرير فى الوطن العربى حقيبتين تنوء بحملها . . ويمرّ الناس دون أن يمدها أحد بالمساعدة . . انها المساواة ؟ ألم تطالب بالمساواة وها هى تذوق جزءا من عذاب المساواة التى كان الرجل يحملها عنها . .

الشعب عملى يحمل أمتعته وأدواته وحقائبه أو يدفعها على عربة أعدت له . . ولا يرى غضاضة فى ذلك . . فى كل أسفاره ورحلاته أما الأشياء الثقيلة فترسل سلفا .

كان لنا صديق لا يحمل حقيبة صغيرة بها أدوات الحلاقة وملابس النوم من داره إلى المحطة . . يستأجر حمالا صغيرا يسير وراءه إنها المظاهر الكذابة قاتلها الله . . يخاف أن يعيبه الناس لأنه حمل هذه الحقيبة الصغيرة ، فوقع فى أسوء عيب .

ركوب البحر

للقنال الانكليزى فضل على بريطانية فقد حماها من غارة الأعداء ومنحها الأمان والسلامة منذ أحاطها البحر بتلاطم أمواجه وثورته الدائمة التى قلما يستكين أو يستريح . . . وبرغم الطائرات التى أرسلها الألمان بالآلاف على لندن وبريطانية فإن موقعها الجغرافى كان يسخر من الألمان . . وقد حماها فى موقعة دنكرك عندما انسل الانكليز بعد خسارتهم دون أن يتمكن الألمان من تحقيق كل أهدافهم . .

ولعل البحر هو الذى علمهم الصبر والهدوء ورباهم على البرودة فى الطبع والتحكم فى العاطفة من كثرة صراعهم معه . . وصراعه لأبنائها .

لم تكن الباخرة مزدحمة . . لأنها أيام الشتاء وبخاصة شهر شباط البارد وفيه تقف كل حركة للنزهة والمتع أكثر لأن الانكليز يحبون الشمس ويرحلون إلى مشرقها كل سنة . .

لم أقدر أن أتصل بالهاتف بالدكتور الوهابى . . برغم محاولات الموظف المسؤول عن الهاتف واتكلت على الرسالة . وهى كافية ولكن ما أعرف من سوء توزيع البريد فى أوطاننا العربية وتأخيره وضياع الرسالة وسرقة محتويات الرسائل أثارت فى النفس الشك والقلق وعدم الاطمئنان حتى فى بريد أوربا .

وانتشر الركاب على سطح الباخرة يمتعون أنفسهم بالجو الجميل وشاءت الصدفة الغريبة النادرة أن يكون البحر هادىء الصفحة وما أجمل البحر الساجى وأنت لا ترى للماء نهاية . .

ولما رست الباخرة . . وجدت نفسى فى متاهة . . ففى المحطة عدة قطارات منها الذاهب إلى ألمانيا أو فرنسة أو بلجيكا . . وخوف الضياع استعنت بالحمال . . وتظاهرت بحاجتى لحمل الحقيبة للسفر إلى بروكسل . .

حمل حقيبتى ولما أحس بأنها خفيفة نظر إلى وجهى يتمعن غريب وظننى ساذجا أو مترفا وسلمنى بطاقة من المطاط السميك عليها رقمه . . ومقدار أجره . . وذهب أمامى لا يلوى حتى ساحة الكمرك .

لم يكلف الموظف نفسه ويتهم المسافر ويفتش حمله وإنما قال : هل معك سكاير أو شاى أو قهوة . . .

قالها بسرعة . . وبأدب وابتسامة مشرقة . .

وما أن قلت له لا . . .

كان الحمال أسرع من إشارة الموظف فقد ترك المحطة وسار إلى الرصيف الذى يقف عليه القطار المسافر إلى بروكسل . . وأخذ أجرته وبطاقته وودع بحرارة . .

كل قطارات أوربا مريحة وسريعة ونظيفة . فيها خدمة الشعب والسهر على راحته وتلبية مطالبه . . وما أن تحرك القطار حتى مر بنا بائع الشطائر دون أن يرفع صوته أو ينادى بما يحمل فيصك صوته أذنك ارتدى الملابس النظيفة وفوقها الصدرية البيضاء الأنيقة .

وصل القطار متقدما وقته بخمس دقائق . . لذلك رأيت الدكتور الوهابى يذرع أرض المحطة بلا مبالاة . . ودهش وأنا أقف أمامه . . وأسعدنى سروره وطيبة نفسه وكرمه . .

كان الجو ممطرا وقد انفتحت القرب بأفواهها الكبيرة على حد قول الرواة فى التاريخ حتى وصلت إلى الفندق الذى حجزه لى لأنى أبيت أن أنام معه . . وتلك عادة لى أحب أن أتمتع بالحرية الكاملة . . ولا أضايق الأحباء . .

عودة إلى القرون الوسطى

أخذنى لقضاء الأمسية بعد أن استرحت فى الفندق . . ولم يقل لى إلى أين .

لابد أنه مطعم من المطاعم . . أو مقهى من المقاهى . . ركبنا الترام . . ونزلنا قرب ميدان كبير يفصله عن خط الترام زقاق صغير ولا يمكن أن تهتدى إليه بسهولة ويسر .

إنه مطعم ومقهى ومتحف . . يطل على ساحة كبيرة grand place إنه طرفة من الطرف التى تدهش العين وتدفىء الجسم وتمتع الأذن ففى كل حنية أثر من اثار القرنين التاسع عشر أو الثامن عشر أو أبعد من هذا التاريخ . . يتكون من دورين وفى الوسط انتصبت دلة كبيرة أمام موقد غطيت ناره الراكدة بالزجاج . . فأعطت صورة ممتعة وعلقت على الجدران سيوف قديمة . . وخناجرأثرية . . وخوذ حرب وسروج خيل . . وحزم من السنابل الصفراء التى نسقت بشكل جميل جذاب انه طراز غريب تفنن المهندس فى عرضه على الزبائن للإمتاع . . وتذكيرهم بالماضى وجمال ما فيه . . تجديد ومتعة .

وعندما صعدنا السلم أو الدرج . . انتصب شخصان وكأنهما يحرسان السلم أو يقدمان له التحية . . وقد حملا رمحين من رماح القرون الوسطى يرتديان ملابس الفرسان . . وقربهما تمثال حصان . . وعلى ظهره السرج . . وقد شمخ بأنفه . . ورفع رأسه وكان الدور الأول . . كوى أو (روازين) أعدت فيها منضدة واحدة صغيرة مع كرسيين تطل على الساحة الكبيرة . . وقد امتلأت بكل زوجين اثنين . . وكنا الشاذين فى هذا الجمع الكبير . .

ولما جاءت بائعة الورد نظرت إلينا لأنها احتارت لمن تقدم الورد ليقدمه للاخرى

فقد رأت رجلين . . ولم تكلف نفسهابعرض أزهارها . . وأعرضت عنا إلى المنضدة المجاورة .

أهل بلجيكا نسخة من الفرنسيين مشوهة . . فهم يظنون بأن لهم استقلالهم وشخصيتهم ولكنهم يتكلمون الفرنسية . . ويسيرون فى خطى كل شىء فرنسى . . وأخذوا منهم خشونة الطبع وغلظة الحديث .

ان هذا المكان يمثل مدينة بروكسل القديمة بما فيها من ذكريات القرون القديمة ، فيها زهو الحضارة وغناء الثروة التى حصلت عليها من مستعمراتها الكثيرة ، ان هذه الساحة الكبرى بنيت فى القرن الخامس عشر وفيها أنشأ أصحاب الحرف أماكنهم مثل أصحاب الأسلحة كالسهام والسيوف والسراجين والقصابين والخياطين ودابغى الجلود تبدو فى جمال فاتن جميل ويلفت النظر شعار مصرف روما الذى يتمثل بالذئبة التى ترضع طفلين . . ومع ذلك فقد قيل لى ان فنون الأمم الأخرى متمثلة فى الإيطالى والفلمنكى . . وهناك بعض المتاحف التى لم يتم لى رؤ يتها فى البيوت القديمة التى يزورها السائحون خلال النهار .

وكنت أتمنى أن يتسع لى الوقت صباحا لأرى فى النهار ما رأيته فى الليل فقد قيل لى بأنه يحتشد بالزائرين . . لكن لم يفتنى المرور فى بعض شوارع المدينة الضيقة التى ذكرتنى بشوارع بغداد قبل أن يدخلها التطور مثل الفضل وحمام المالح وعيفان والقراغول ، والطريف أن نجد شارع العشب وسوق الجبن والفحم وشارع القصابين . .

المهم أن الفنان الغربى ترك لمساته ومازال حياً فى البناء والرسم والتصميم إنه خالد بعمله لا يهدمه من جاء بعده انها الحضارة تخلد أبطالها وروواد فنها وعلمها وأدبها .

كانت ليلة ممتعة رأيت فيها القرون الماضية جلية واضحة . . وفى الصباح . . جاء الدكتور الوهابى . . وذهبنا إلى القسم الثقافى وكان معه الدكتور محمد على الياسين . . وأنهى أعماله وفتح البريد . . ووقع الرسائل . . انه سبت ٥٧/٢/٩ . . وعمل فيه إلى منتصف النهار .

صفحات التاريخ :

قال ألا تريد أن ترى جزءا من التاريخ يحدثك وتتحدث معه . . قلت الكتب هى لسان التاريخ . . وطالما أرهقتنى بالحديث . . دون أن تسأم منى أو تمل من صحبتى . .

قال : سنرى شيئا جديدا لم تره من قبل . .

قلت أنذهب إلى متحف . .

قال متحف حى . . إنها معركة واترلو التى اندحر فيها نابليون أمام الانكليز . .

وضع تمثال أسد على الرابية . . وفى يده كرة . . فما كان يقصد من ذلك . .

أيريد أن العالم كله بيد الأسد البريطانى . . وان سطوته احتضنت الكرة الأرضية كلها . . أم أنها كرة قدم يلهو بها هذا الأسد بعد أن حطم الانكليز نابليو ن ؟

تُـركت ساحـة المعركـة . . ولم يُعتن بهـا العنـايـة التى مـلأت العـالم بشهـرتهـا وبسمعتهـاالتاريخيـة التى غيرت خـريطة العالم كله . . ولعل بلجيكـا تـرى فى انـدحـار نابليون . . مدعاة ألم وهوان إذ سيطر الانكليز وفرضوا قوتهم عليها بعد المعركة .

وخير ما فى الموقعة . . الصور المجسمة التى رسمت لها تسمع صليل السيوف ووقع سنابك الخيل وارتفاع صهيلها . . وترى آلام الجرحى مرتسمة على وجوههم وتنصت إلى أنينهم على أرض المعركة . . فقد صورتها (البانورما) أحسن صورة وأصدقها . .

فقد رسمت من تحت خيمة كبيرة . . وجسمت الخيل والرجال وبقيت بعض الأكواخ ونثرت الدروع وتروس العربات المحطمة ، والرجال وهم يهوون من ظهور الخيول . . ننظر إلى هذا من رابية عالية .

فإذا أرسلت نظرك ترى كل شىء مجسما من كل جانب ولو أن الصور تتحرك وتماثيل الخيل تصهل لما رابك أمر فى صدق المعركة وأنها حقيقة . .

إن تسليط الأنوار ووضع التماثيل المختلفة للجنود والضباط المتحاربين . . مع خيلهم وعرباتهم تكاد تنطق . . فإن الموسيقى التصويريـة فيها إيحـاء غريب . . وإيحـاء نفسى ساحر .

لا أدرى لماذا لا يرسم العرب لوقـائعهم ، والمسلمون للفتـوح ، مثل هـذه الصور وتذكرنا وأبناءنا بالانتصارات العربية والفتوح الاسلامية للعالم . . فتبعث فى النفس الثقة . ونعلم أبناءنا تاريخنا . . وقد رسم الرسام سعيد تحسـين[1] الدمشقى البـارع صورتـين لمعركتين كانتا معلقتين فى المكتبة العامة . . يمكن أن يستلهم المثال منهما ما يريد .

السؤ ال أين ذهبت الصورتان وهل حافظ عليهما أصحاب الذوق الفنى الرفيع . . فى مكانهما فى المكتبة ؟!

إلى جانب (البانوراما) متحف من الشمـع لصور محدودة للمعركـة ومنها صـورة لنابليون يجلس قرب النار وقد وضع يده على معدته لأنه كان ممعودا أو مصابا بالمعاد على وزن صـداع مرض المعـدة وجلس فى الحجرة المجـاورة قواده يتشـاورون . . وصورة القـائد الانكليزى المنتصر ولنكتن وبعض تماثيل نحاسية للمدافع والآلات الحربية التى كانت فى المعركة . .

---

(١) توفى فى حزيران ١٩٨٦ وقد درست عليه الرسم رحمه الله .

كانت جولة ذهبنا فيهما إلى القرن التاسع وعدنا إلى القرن العشرين بالترام إلى بروكسل . . التى لا تبعد غير عشرين ميلا عنها . . وقد قال الدكتور جاسم الوهابى

إن بلجيكا مرتبطة من أقصاها إلى أدناها بالترام فيمكن أن تنتقل فيه إلى جميع أرجائها مثل ربط بريطانية بالباص وفيه يمكن للمسافر أن يجول أنحاءها إذا استعمل الحافلة وعرف خطوطها فيها . .

إلى رفيق الدراسة

أخبرت الأخ أحمد نجم الدين الذى كان يدرس فى كولون بسفرى إلى بروكسل فتفضل بدعوتى لزيارة كولون ومشاهدة الجامعة . . وأحمد من يعقوبه ووالده مدرسى وهو من أسرة معروفة بدماثه الخلق والطيبة وهو زميلى فى الاسكندرية وأيامها الحلوة .

وكان من الضرورى اعلامه بوصولى وأخبرته ببرقية بأنى سأكون فى الساعة ٢ر٥٨ . . ولما راجعت وقت السفر وجدته يوم الأحد . .

وبدأنا نضحك فقد كنا نظن العطلة يوم الجمعة وفاتنا أنها يوم الأحد فاختلط الأمر علينا . . لأن نهاية الأسبوع السبت وليس الخميس والجمعة كيف فاتنا الأمر .

أرسلت له ببرقية أخرى وكتبت أن الوقت ٢ر٥٠ ثم تذكرت أننى لم أذكر الثمانى دقائق الأخرى . . وأردت ابراق أخرى فقال موظف البريد . . خير لصاحبك انتظار ثمانى دقائق من أن يضيع مالك ... وفى هذا الوقت القصير كان الدكتور جاسم قد تحدث بالهاتف مع باريس وعاد .

سبحان الله . . نبرق البرقية فى الوطن العربى وقد تضيع وقد لا تصل فقد حدثنى صديق . . أنه أرسل برقية من بغداد إلى البصرة يخبر أسرته بأنه قادم بالقطار . . وذهب إلى البصرة وفى الصباح دق موزع البرقيات الباب . . فخرج الصديق . . فقال موزع البريد لكم برقية . . قال له أنا صاحب البرقية . . عفا الله عنك وعن البريد والبرق . .

وصلت إلى كولون أو كولونيا . . فقال أحمد . . أصبحت غنيا مترفا . ترسل برقيتين فى يوم واحد . . قلت السبب أننى لا أعرف قيمة العملة فى بلجيكا .

شربنا الشاى الفاخر مع أحمد . . مع أسرته وعائلة ألمانية وقلت لأحمد . . إننا فى

أوربا . . ومن عاشر القوم أربعين يوما صار منهم ، فأرجو أخذى إلى مكان أنزل فيه قريب منكم . .

وكانت أم باسل قد أخفت الحقيبة . . وقدمت عشاء لذيذا طالما اشتقت إليه . . انه طعام أهل العراق المفضل (البامية والتمن) وزادت على الرز (الرشدة) ما أسرع ما تعلمت أم باسل طعام أهل بغداد . . هل ملت الملوخيا والفول ؟

أخذنا الحديث والشوق إلى الذكريات القديمة عن مصر والاسكندرية وبعقوبة ولم نحس ونحن نتجاوز الساعة الثانية صباحا .

ما أحلى عودة الذكريات ولا سيما أيام الدراسة . . والشباب يلهو ويدرس فى صرح الجامعة ففيه يرف الأمل على الرؤوس . . والخيال يذهب فى الآفاق . . ؟

بعد أن تناولت طعام الفطور قال أحمد ألا تريد أن ترى الجامعة قلت متى استغنى طالب العلم عن التمتع برؤية مؤسسات العلم ؟

ظهر أحمد أنيق الشكل فقد ارتدى البرنيطة وتأبط حقيبة . . وحمل المظلة .

قلت لا يعوزك غير الغليون . . لكى تكون انكليزيا . .

كان يعرف أسماء السيارات وسنة إصدارها والشركات التى تصدرها . . وهى معلومات جديدة فأنا لا أفرق بين السيارات فهذه مارسيدس وتلك فوكس واكن وأخرى هلمن انكليزية وهذه أمريكية . .

كان يتغزل كما يتغزل المحب بالحبيبة . . عندما يرى سيارة جميلة . .

فقد أصبحت من أمانيه أن يشترى سيارة مستعملة لذلك بدأ يتعرف على ألوانها وأشكالها وأسمائها فأرجو أن يحقق هذه الأمنية الغالية . .

لم أفكر بهذا الحلم لأنه جميل وفوق طاقة فكرى،والسعيد من فكر بما يقدر عليه . . والشقى من يدفعه الطموح إلى أمر لا طاقة له به . .

جامعة كولون :

وما أن شملتنا رحاب جامعة كولون الا واقترح أن أزور أستاذه وأتعرف على مستشرق يدرسهم اللغة العربية . . وقد امتدح أحمد علمه وفضله واتساع معلوماته باللغة العربية .

قلت لأحمد . . إنك رجل جغرافى . . ومعلوماتك فى اللغة العربية لا تزيد على

معلوماته وأنت عربي . . القياس مع الفارق . . فكيف يكون حال مستشرق ؟!

وألح أحمد ولا يمكن أن يرد طلب أحمد . . صعدنا درجات الجامعة واجتزنا الممرات حتى وصلنا إلى صالة طويلة سرنا فى ممراتها من باب إلى باب حتى وصلنا إلى مكتب الأستاذ وكان لكل باب جرس . . يستأذن الداخل بواسطته . . واستغربت أن يكون داخل القسم وفى كل حجرة مثل هذا الجرس . . ولما رأى أحمد استغرابي .

قال بعد الحرب الثانية تفشت السرقات واختلت الموازين ولم يأمن الناس على حوائجهم وأنفسهم . . وضاعت الثقة وانعدم الأمان . . قلت هى ضريبة الحرب . . وضريبة الخاسر عندما يسرح جيشه . . ويجد الآلاف منهم بلا عمل ولا مورد رزق . . ان جيشا يبقى فى ساحات الحرب مقاتلا بعنف وضراوة فى الخنادق يعتريه الخوف والجوع والرهبة سيتحول إلى انسان آخر فى مثله وخلقه وتتحول روحه إلى نفس أخرى يحتاج إلى فترة طويلة حتى يكون سويا .

فتح الباب الأستاذ كاسكيل Cuskel فرحب برقة وأدب وأفهمه أحمد بأننى حصلت على الدكتوراه وأنا عائد إلى العراق ولابد للداخل فى أى مكان جديد أن يلقى نظرة على الزوايا والحنايا قبل أن يستقر به المقام . .

وجدت نفسى فى متحف عربي إسلامى شرقى زينت الجدران بصورة من آيات القرآن الكريم وآلات موسيقية شرقية وثريات عربية وشمعدانات إسلامية . . مع بنادق أثرية مختلفة الأشكال والحجوم وأخشاب حفرت عليها أيات من القرآن الكريم وأمثال عربية قديمة . . وفى الزوايا وضع الهاون والطشت والابريق و(الدنبك) العراقى . .

انه متحف ينقلك من الغرب إلى الشرق دون تمهيد . وقد حافظ الأستاذ على هذه الآثار أو التحف ووضعها بعناية فائقة وترتيب جميل . . وحرص واضح . . فى مكتبه .

أخبرنى بأنى سوف أراه لدقائق معدودة لأنه مشغول . . وبالفعل لما دخلنا هذا المتحف

أو المكتب المتحف كان مكبا على قراءة كتاب الأنساب لابن الكلبى وهو صورة مصورة خطها جميل واضح وقال إنه أخذها من مكتبة الاسكوربال وعنده نسخة أخرى . . والنسختان ناقصتان وأخبرنى بأن الكتاب سبق ان اعتنى به الألمانى فردناند وستنفليد . .

كان الأستاذ رقيق الخلق شأن الألمان وأحسست بصدق العاطفة والاحترام الصادق

والتواضع والخجل . . وتلك صفات العلماء . . فكل عالم يزداد تواضعا ويسهل خلقه إذا زاد علمه وعمق إدراكه . . لأن يرى كل شيء صغيرا . . أمام سعة علمه واتساع معارفه .

سألته هل تريد أن نتحدث بالانكليزية أم باللغة العربية قال باللغة العربية . .
قلت فأل خير وعلى بركة الله . .

سافر الرجل إلى كثير من الأقطار العربية كانت عنايته بالأدب القديم والتراث الاسلامي أكثر من عنايته بالأدب الحديث فهو لا يعرف من الأدباء غير طه حسين ومن العرب غير الدكتور فاضل الجمالي . فقد صادفه عندما عاد من أمريكا .

واسترسل الأستاذ في الحديث كان شديد الحذر في صوغ جمله . . والتحدث معي لأنه كان يترجم أفكاره الألمانية إلى اللغة العربية . . وعندما تخونه العبارة يمسك يده ويعصرها كيلا تفلت منه كلمة فيها غلط لغوي . .

أشفقت على الرجل من هذا الموقف الصعب . . ولكني أعجبت كل الاعجاب بالثقة التي وضعها في العرب وعشقه للتراث الاسلامي فقد كان واضح الصدق لأن الكلمات كانت تخرج من قلبه قبل أن تصل إلى لسانه . . تتدفق بالأحلام العراض والآمال الحلوة فكانت وارفة الظلال مجنحة المنال .

قال بعد صمت طويل وبعد أن صاغ العبارات وتأكد من سلامتها : سيكون للعرب امبراطورية كبيرة . . ؟

قلت نعم . . واستدرك وسيتوحد العرب،أما نظام الدولة أما أسلوبها أما شكل الحكم فسوف يحققه المستقبل . . وأرجح تكون دولة كبيرة على شكل اتحادي
قلت في نفسي اللهم حقق دعاء الألماني . . بعد أن خاب أمل العرب في أنفسهم . .

وجرالحديث إلى العراقفذهب إلى حجرة مجاورة وجلب مجلة المستشرقين Orintis che Cie litraturzting وكان في العدد العاشر الصادر ١٩٢٦ مقال عن الأدب العربي في العراق كتبه الأستاذ ثاده من هامبرغ Van Artursshaade

وبدأ يقرأ فيه ويقف على أسماء الزهاوي والرصافي والشعراء الذين جاء ذكرهم في المقال وكان عنوان المقال (الحركةالعصرية في الشعر العراقي الحديث)

ثم جاء بمقالة أخرى فيها عن شعراء العراق . . كان خصوم الزهاوي لا يصدقون عندما يخبرهم بأن المستشرقين كتبوا عنه وكانوا يسخرون من الزهاوي ويتجاهلون شهرته فيزيده ألما .

أعجبنى الأستاذ فى عمله فقد رتب مصادر البحث ترتيبا جميلا وكان يتناول المقالات بسرعة وبيسر فقد جلب أكثر من مقالة ومن أكثر من مكان . .

وحدثنى عن عراقى دعاه إلى داره وأنه يملك مكتبة جيدة قلت فى نفسى يدعو الأجانب ويشح على أبناء وطنه . . وذكر أنه تسلم الجزء الثانى من كتاب الأستاذ يعقوب سركيس . .

وكنت أعلق على بعض المقالات وأناقشه فى الأمور الفكرية والأدبية ـ وكنت كلما أردت إيقاف الحديث تشعب وطال وعندما أستأذن بالانصراف يرجونى أن أجلس وجاء بمقال له نشره فى إحدى المجلات وأهدانى إياه مستلا من المجلة

فكانت فرصة جميلة أن قلت ختامها مسك . . وقمت .

كم من هؤلاء المستشرقين المجهولين يخدمون العربية والفكر الإسلامى برغم أنهم ليسوا من المسلمين . . هذا إنسان خدم اللغة العربية دون غرض سياسى . . فقد نذر نفسه لخدمتها وبدأ يدرسها ويجمع مصادرها . . إنه فى جامعة علمية وإن كانت صغيرة بالقياس للجامعات الكبيرة . . يعيش كالراهب الذى لا يتوقع أن ينال غير المتعة العلمية واللذة الفكرية . .

جلنا فى أرجاء البناية وتمتعنا بالمشاهد الحلوة والمناظر الجميلة . . أسراب الطالبات والطلاب تسرح فى أرجائها هذا حامل كتابه وذلك محادث زميله أو عاكف على جريدة . . وتلك الفتاة تهرع إلى المكتبة ما أجمل طلاب العلماء فى صروح العمل .

نهر الريـــن :

الرين لفظة ألمانية معناها (الجارى) فهو مثل الفرات الذى ا شتق اسمه من سرعته تعيش عليه دول ومدن وقرى يخرج من سويسرا حتى يصل بحر الشمال وفى حدود إيطاليا يشق طريقه عبر السهول والوديان والجبال انه نهر يوحد الممالك فى شحن البضائع ، ضفافه الخضراء زاخرة بالحركة والجمال ومياهه القذرة مصدر الرى والكهرباء ووسائل النقل الرخيصة .

إنه أداة الوحدة والحب بين سويسرا وفرنسا وإيطاليا ، فقد وحدت مصالحهم هذه المياه القذرة السوداء بمعاهدات من القرن التاسع عشر وقد بقيت مؤثرة ولم تنقطع التجارة فى مختلف الصناعات والمحصولات الزراعية والحديد والزجاج والخمور تنقلها سفنهم إلى كل أنحاء المدن . التى تعيش على ضفاف هذا النهر القذر .

إن من يتتبع أثر هذا النهر فى شعر الشعراء وروايات القصاص مثل بايرون وشاتوبر يان وهوكو يحس بالهزة الوجدانية الجميلة التى تركها الشعر والنثر فى نفوس هؤلاء الأدباء عند ما كان نهر الرين حلوا وجميلا إن الأشرعة البيضاء تسرح على مياهه منسابة كالحمائم وتتردد فى ضفافه ضحكات الصبايا وتحلق مع الشعراء فى خيالهم المجنح ويتمتع بالأشعار رقة وجمالا . هل هذا (الرين) الذى ألهم الشعراء دفقات الرومانسية الأولى وعمت العالم منه ؟ : ان الصناعة الحديثة والحضارة الجديدة والمصانع الشامخة ونفاياتها قضت على السحر الأخاذ ولم تُبقِ الحضارة على تلك المياه صفاءها وحلاوتها .

ما أشد فتك الحضارة وجحود الانسان وآثامه على صفاء الكون وجماله . .

حق البطون

تمتعنا بالطعام الفكرى وإن لم نشبع إذ أن العلم والثقافة والفن لا يشبع منها طالب العلم والمعرفة،يعيش طالب العلم فى نهم مستمر ورغبة جامحة . . لأنه الزاد الذى لا يصيب الإنسان بالتخمة وكلما ازددت علما وجدت فى نفسك نهماً ولذة لأن بحر العلم والمعرفة واسع كبير والسعيد من حصل على قطرات منه . .

ذهبنا إلى مطعم الجامعة وقد وقف الطلاب صفوفا لأخذ الطعام فوجدت الوجبة هنا إجبارية معروفة سلفا للطلاب وقد حدد لها ثمن موحد . . يأخذ الطالب صحنا كبيرا من الخزف الصينى مقسما إلى ثلاثة أقسام توضع الأنواع فى كل قسم منه . .

وفى لندن نجد المطاعم الجامعية كثيرة . . والطالب يختار الطعام الذى يريده حسب ذوقه وحسب جيبه . . وهو أرخص من أسعار السوق فقد حددت الجامعة الأسعار . .

لم يرضَ أحمد أن يقف فى الصف وأنا ضيفه أخذنى إلى حجرة مؤثثة أثاثا أنيقا . . فيها كراسى وثيرة . . حسبتها غرفة جلوس الطلاب الذين يدرسون دراسات عليا . . ولكن وجدتها جزءا من المطاعم يجلس فيها من شاء ويأتيه من يخدمه ويقدم له ما يشتهى من الطعام . .

قلت أرهقت جيب أحمد . .

لم يكن فى الحجرة غير انسان واحد انفرد يتناول طعامه فى زاوية الحجرة . . وسيدة تحدث معها أحمد عن شؤونه الدراسية والثقافية لأنها تعمل فى قضايا التبادل الثقافى . .

ثم جاء الطعام فكان فاخرا . . يرهق الطاقة وأنا مازال أعانى من بقايا ألم المعدة . . وكثرة الطعام ظاهرة عند الألمان والهولنديين فهم يقدمون كثيرا من الطعام ولا عجب فهم من أصل واحد . . ولا أدرى لم لم تصل هذه العادة إلى فرعهم الثالث فى لندن . . فالطعام محدود ولا يشبع أمثالنا الذين اعتادوا على امتلاء الأوانى وتدفق المناسف . .

زورة فى المدينة :

جسنا خلال أزقة المدينة التى شمخت من جديد بعد أن حطمتها الحرب وتركتها حطاما . . إنه شعب مجد عامل تحدى الخراب وشمر عن ساعد الجد . . فبعد أن تخربت كل ألمانيا أعيد بناؤ ها من جديد وبأسلوب حديث وقد طوروا أساليب البناء . . واستفادوا من خبرات السابقين من مهندسى المعمار . .

أما الإنكليز فقد حافظوا على البناء الذى تهدم والمؤسسات التى انهارت من جراء الحرب بالأحجار نفسها وبقى شكل الشوارع القديمة والازقة كما كانت قبل الحرب . .

فلا يجد الزائر للندن قبل الحرب وبعدها فرقا كبيرا كما يراه زائر المدن الألمانية ، هذه الأمة التى خسرت الحرب أعادت بناءها المنهار وازدهرت تجارتها وصناعتها من جديد حتى تبرع اديناور بمبلغ ٦٦ مليون باونا مساعدة للقوات المحتلة لبلاده . .

لا نريد مناقشة مساعدة المستعمر لسيده المنتصر وإنى أتحدث عن نشاط هذا الشعب الذى أقال عثرته وصارت خسارته انتصارا على خصمه . لله أنتم العرب ما أطول ما تنامون . .

حدثت بأن الفتاة الألمانية من شدة الجوع وغلاء الأسعار وارتفاع أسعار ضروريات الحرب قد وصلت إلى حالة مزرية بعد اضطراب الوضع الاقتصادى . . إذ لم تبق مؤسسة أو معمل أو مصنع أو وسائل نقل إلا وقد خربت . . بل إن المدن انهارت كلها وأصبحت خرابا وتاه الشعب وذل فى حياته .

كانت الفتاة الألمانية تتمنى أن تجد أمريكيا لمصادقته للاستفادة من سيكارة واحدة منه ؟

هذا هو السبب الذى نجد المدن الألمانية حديثة الطراز متطورة فى البناء المعمارى الجديد فى كل شىء فيها . . إنه الصبر والجد وحسن الأخلاق . . ودماثة التصرفات .

قال لى أحد الأصدقاء . . إن الألمان يضايقوننى بحسن أخلاقهم ورقة شمائلهم .

أصررت على أحمد للعودة وأصر على تناولنا العشاء فى مطعم جميل مازلت أذكر أناقته والجو الساحر الجميل الذى يشمله . . إنه مطعم . . أو مقهى . . أو ملهى سمّه ما شئت فقد كانت الموسيقى الرقيقة تشنف القلوب قبل الآذان إنه تحت الأرض فى سرداب كبير متسع فيه من الصور المختلفة وقد نشطت الفتيات على خدمة الزبائن بملابسهن المحتشمة الجميلة وهى ملابس الجنوب الألمانى . . الصدار الأبيض الجميل الذى ربط الصدر فعاركت محتوياته الربطة . . وأبرزت صدرا جميلا وكأنه قد نحت بيد ماهرة . . وارتدت التنورة الجميلة . .

وبائعة السكاير علقت على صدرها صندوقها . قلت كيف تمكنت هذه الرقبة المرمرية التى تنوء بحمل ثيابها الحريرية من حمل هذا الصندوق . . إنها المساواة والحاجة إلى المال .

ذهبنا إلى محطة القطار بالترام وكان الجابى يعلن عن أسماء المحطات التى يمر بها بمكبرات الصوت . وهو يسوق الحافلة فى الوقت نفسه . . بعد أن يصعد الركاب ويسلمون أجرة الطريق . . يغلق الأبواب بحركة ذاتية

فى بروكسل

عدت إلى بروكسل وكان العمل على قدم وساق للتحضير للمعرض العالى ومن أجله أخذوا فى بناء ممرات مرتفعة للسيارات وأنفاق لتسهيل المرور فى المدينة ليقام المعرض ١٩٥٨ وقد اكتسحت الناس فكرة تشاؤم غريبة . . بأن هذا المعرض سوف تعقبه حرب جديدة . . لأن المعرض السابق جاء بالحرب العالمية الثانية . .

شعوب مادية . . غلبتها المادة فى كل شىء وما تزال قاعدة الخرافة تعشش فى أدمغتها وتهاجم الشرق بأنه بلد الأسطورة والخرافات . . .

قررنا الذهاب إلى امستردام . . فقطعنا الرحلة عندما وصلنا أنا والوهابى (روتردام) التى سخرت من أنقاضها وسمقت بعزة وكبرياء من بين الركام أشد قدرة وباساً وأجمل عمارة وأوسع طرقا وساحات . . وقد أقيم للمدينة تمثال لرجل قوى شامخ دليل هذا العمل الجبار . .

اختار الدكتور جاسم فندقا يعرفه . . جميل الطراز . . حفى الخدمة . . وهولندة بلد الرائحة الزكية والعرف الجميل . . أنى سرت تجد الأزهار وفى كل بناية تعبق روائحها وتمتع

العين بنظراتها فنجدها فى البيوت والشوارع والمطاعم والمقاهى . وكأنك تسير فى حديقة زاهية . . وقد تصدرت الأزهار حياة هولندة وغدت تجارة رابحة . .

ومازالت طواحين الهواء التاريخية تزين مزارعها وقراها فهى أداة لطحن الحبوب وسحب المياه للزراعة . . وتصريف الزائد منها إلى خارج المزارع . .

الحياة الاقتصادية بالقياس إلى أوربا رخيصة . . وقد امتازت بميزة أخرى كثرة الدراجات الهوائية فهى وسيلة من وسائل النقل الشعبى . . تراها كأسراب الطير على متنها الطفل والمرأة والرجل والموظف الذاهب إلى عمله . . والأستاذ المتجه إلى الجامعة . . كل يستعمل الدراجة . . وقيل إن ٩٩ ٪ من سكانها يعتمدون عليها فى النقل . . وقد خصصت طرق خاصة للدراجات مع طرق المشاة والسيارات . .

وكان منظر النسوة وقد وضعن الأطفال فى السلال الجميلة وهن يخرجن لشراء حاجات البيت منظرا جميلا فعلى شفاه الأطفال البسمة الحلوة والثقة بمقدرة الأم على الحفاظ عليهم . . وحراستهم برغم الأخطار .

كان الدكتور جاسم حفيا بى وأراد قضاء العطلة معى فأسعدنى فقد كانت الفنادق تستقبله بترحاب وود . . وقد حرمنا من مشاهدة معرض السيارات فقد كان مقفلا عاد الدكتور جاسم وبقيت فى امسترداِم لأواصل سفرتى الطويلة فقد ترك فى نفسى فراغا عميقا . .

مما يلفت النظر حجم العملة الهولندية وسهولة التعامل بها فقد سارت على النظام العشرى . .

أما فى لندن فقد كنت أنوء بحمل (البنيات) لأننا نحتاج إليها فى الهاتف وشراء الطوابع وغسل الثياب وغيرها من الأمور الكثيرة وقد وضع داخل الجيب ما يسمى بجيب (البنى) . . ولكن ثقله والحرص عليه يشق هذا الجيب برغم أنه مصنوع من قماش سميك . .

فان كوخ

لم أترك اليوم يمر دون الاستفادة من الذهاب إلى معرض الصور فقد كنت أرسم الصور قبل أن تدركنى هواية الأدب ولابد من زيارة إلى الرسام المشهور فان كوخ والاستفادة من رسومه والتمتع بفن الرسام الهولندى المجنون

وقفت مدهوشا أمام رسومه التى تخالف كل من رأيت من الرسامين هذه الألوان العجيبة والخلط المدهش فى إبراز الصور مما لا يلائم ذوقى الفنى انه صراخ فى الألوان وعياط فى خلط الالوان فهل هى حياته مصورة فى الزيت وأخلاط الزيت. إن وجود اللونين الأخضر والأصفر ظاهرة على رسومه ولا آدرى علام اتخذ هذين اللونين ؟. إن حياة الأديب والشاعر تجدها فى أدبه وفى فنه وعاش كوخ حياة صاخبة وخصاماً مستمراًمع أبيه لأنه أخفق فى حياته وانتقل من عمل إلى آخر . .

حتى قُيِّضَ له أن يرى (كوكان) عندما ذهب إلى أخيه فى فرنسا فتحول هذا الصراخ وهذا العنف وتلك المعاناة إلى هذه الألوان فأضاف من الرسم إلى شخصية الفنان شيئا جديدا لم يعجبنى ولم يمتعنى وإن أدهشنى . . وهذا الذى لم يعجبنى أعجب (كوكان) وربطه برباط شخصية جديدة فى الفن فى القرن التاسع عشر .

لاشك فى أن سلوك الفنان الصاخب رد فعل لطفولة غير سعيدة وشقاء الطفولة يصاحب المرء طول حياته وتظهر فى أدبه وفنه .

ولا أشك فى أن الفنان فيه جانب من الجنون والشذوذ العقلى فقد قيل بأن فتاة قالت له إنه صاحب أذن جميلة . .

لم يشكرها على هذا الإطراء المنتظر
ولم يرسمها على كلمات الاعجاب إنما .
قطع أذنه وأهداها تذكارا لها ؟

لا أدرى كيف تقبلت المسكينة هذه الهدية التى تثير الاشمئزاز ؟

لا شك فى أن الرسام الشهير غريب التصرفات فقد ثار على مجتمع قروى أراده أن يكون واعظا فى قرية وأصبح فنانا عالميا عندما اطلع على سوح الأدب واتسع أفقه الفكرى بدراسة « دكنز وفكتور هوجو وشكسبير وهم رواد الأدب الأصيل مع دراسته الرسم على (كدكان) وغيره من الفنانين . . ووجد فى ألمه وشقائه منبعاً ثرا خلطه بالطبيعة الفنية بأشكالها المبدعة .

الفن وسيلة ايضاح :

وقد لفت نظرى . . جمع من الطلاب يتحلقون حول صورة وقد وقف بينهم مدرسهم . . ولما تبينت الأمر وجدته يشرح للطلاب ، صورة (العشاء الأخير) للمسيح وكان الطلاب يناقشونه ويسألونه بحرية وبطلاقة . .

وفى ركن آخر يشرح مدرس التاريخ للطالبات إحدى المعارك الحربية . . ومن ثم جلسن مع المدرس والمدرسات ودخلن فى نقاش تاريخى عن حوادث كثيرة وكانت الصور عديدة تصور ملابس الفرسان فى سيوفهم ودروعهم . . وخوذهم الفولاذية . .

وانتابنى شعور الأسى لتأخر العرب فى رسم حوادث التاريخ الاسلامى والوقائع والفتوح وفيها ما يملأ النفس فخرا والأعطاف عزة وشرفا .

رسم الأوربيون كل الأعلام حتى الذين عارضتها أراؤهم ووقفوا ضد دينهم وتقاليدهم . . وصوروا حتى الخرافات وكرامات القديسين والرهبان والقسس .

لم يمنع الانكليز أن يضعوا تمثالا لكرومل الذى وقف أمام البرلمان وأخذ يطرد النواب ويضربهم بالحذاء . . ولم يمنع الكاثوليك من تعليق صورة مارتن لوثر وهو الثائر على البابا وعلى نظامه الساخر وتعاليمه . .

الصورة وسيلة تعبير وتقريب للتاريخ وفيها حفظ التراث العالمى والفكر التاريخى فما أجمل أن نرى صورة موقعة بدر أو الخندق أو معركة القادسية واليرموك يدرسها كل مسلم وعربى فيعرف ألوان اللباس والسلاح وأسلوب القتال إلى دراسة حوادث التاريخ .

الشعب الهولندى يعرف عدة لغات فلم أجد صعوبة فى التفاهم ووجدت اللهجة الأمريكية هى المسيطرة فقد تركها الأمريكان أينما حلوا كما تركوا دولاراتهم ينثرونها فى كل مكان فى عبث صبيانى وشراء أشياء قصدها المباهاة والفخر والخيلاء . .

فقد قابلت فتاتين فى أحد المخازن وقد حملتا أنواعا من الأوانى الخشبية والملاعق وأشياء كثيرة بعيدة عن روح الفن والأصالة . .

وسمعت إحداهما تقول : ما أسخفنا صرفنا النهار كله فى البحث عن المكان واشترينا أشياء لا نريدها .

قالت الأخرى . .

ستذهبين إلى أمك وتقولين لها كنت فى هولندة . . وكنت فى ألمانيا وذهبت إلى النمسا . . واشتريت هذا لك . .

وسوف تفرح أمك وتتحدث دائما عن الهدايا وعنك . .

كانت الجرائد الانكليزية هى النافذة التى أطلع من خلالها على أخبار العالم . . وأصبحت صديقا لبائع الجرائد وأخذ يحدثنى عن حياته وشبابه وقد كتب على محله،أجيد الانكليزية والفرنسية والألمانية والايطالية والروسية . . ولا شك فى أنه يعرف الفلمنيكة لغة الأم . .

فكم يعرف المثقف العربى من لغات . .؟

بعض المسئولين الذين يعملون فى السفارات لا يعرفون حتى اللغة العربية . .

إلى هامبـــرغ : Homburg

كان الوقت الذى خصصته لهذه السفرة شهرا أتجول فيه فى أوربا . . وأحتك بالشعب وأحاول أن أتعلم منه . . وأصقل ذوقى من فنه . . وأتمتع بما أقدر عليه من المتع البريئة . . وكانت معنا فى الجامعة أسرة ألمانية . ولما أكملت الدراسة عادت إلى هامبرغ وألحوا على بأن أمر بالميناء الألمانى الكبير . . ما دمت فكرت بجولة فى أوربا . .

قلت إنها دعوة غريبة . . لن يخسر فيها الألمان شيئا وعندى وقت كاف إلى هامبرغ . .

أخذنى القطار المتجه نحو هذه العاصمة العريقة فى الشمال وكانت فى جنبى سيدة رماها القدر بالجحيم الثقيل . . كثيرة الثرثرة وأخذت كل الوقت فى الحديث دون أن تدع أحدا من الجالسين أن يتحدث .

سيدة تمسك بقوة عجيبة على أذيال الشباب الداثر . . ولابد أن هذا العنف بالإمساك سوف يصيبها بالانهيار ولا تحس إلا وقد ولى الأدبار مرتعشا منها . . لبست وتعطرت وتجملت بكل ما يصلح العطار به ما أفسد الدهر

كانت تتحدث الإنكليزية بطلاقة ولكن اللكنة الأجنبية واضحة ليست اسكتلندية وليست إيرلندية ولم تأت من ويلز . وكانت تتحدث الألمانية عندما تنسى ثم تتذكر . وتعود إلى الانكليزية حدثتنا عن أيرلندة وحرب الجنوب فيها . . ومشكلات الشمال والاضطرابات السياسية وأسبابها ودواعيها .

لم أطق أن تدلى هذه السيدة بدلوها فى سياسة أمة بعيدة عنها . . ثم بعدت فى التطرف وهاجمت الكاثوليك فى كل الدنيا . .

قلت لها أليست أيرلندا جزيرة واحدة . . وشعب واحد ولأهلها الحق فى الوحدة وحل مشكلاتهم بأنفسهم وتشجع الركاب وكأنهم كانوا يخافون أو يجاملون هذه السيدة . . وآزرونى ضدها .

ولكنها لم تكترث . ثم قالت هناك جالية إنكليزية بروتستانية يجب أن يكون لهم الحق فى الحياة . . وعليهم أن يطوروا الكاثوليك وهم يتكاثرون بسرعة . . وأنهم فقراء وهم لا يعملون . . والكنيسة الكاثوليكية تغرى بالاتكالية والكسل ليسهل السيطرة عليهم ويستمتع رجال الدين بأموالهم . . ألا ترى أسبانيا وإيطاليا من الأقطار الكاثوليك المتأخرة ولو كانوا من البروتستانت لعمتهم الرفاهية . . وتقدموا على الأمم الأخرى .

لم أدر مقدار الكراهية التى تضمرها هذه المرأة إلا من خلال الحديث الطويل . والغريب أنها اندفعت فى حماسة تهاجم الكاثوليك دون أن تفكر بوجودهم معنا فى صالة السفر أنها مسافرة إلى الشمال حيث يكثر البروتستانت . . وقد تركت عاصفة كبيرة من النقاش بين الركاب بتحديها وعنفها وتطرفها . . وهاجمها الحاضرون . . وكنت المحايد الوحيد بينهم .

لم أكترث بأقوالها فقد كنت أسمع من ربة الدار فى لندن مثل هذه الآراء عن الكاثوليك وما كنت أتوقع مثل هذا التطرف الدينى فى الغرب الذى يدعى المدنية والحضارة

فى هامبرغ

وهى العاصمة الشمالية لألمانيا وفيها أضخم الموانى وأكثرها حركة . . وتفاخر أهلها بأنهم حكومة مستقلة داخل الاتحاد الألمانى الكبير . . إنها الحرية التى لا يتنازل عنها الانسان ولو كانت فى إطار محدود . . فالمدينة لها شعارها وحكومتها ومجلس شعب خاص بها . وقد كان لنابليون فضل كبير فى توحيد ألمانية التى كانت فيها حكومات كثيرة فكل مدينة حكومة إقطاعية تطورت بعد التقدم الصناعى الكبير ولما احتل نابليون ألمانية جمعها ووحدها فى عدد محدود من هذه الإمارات أو الحكومات . وإن كان للمحتل فضل فهذا فضل نابليون على

ألمانيا فى وحدتها السياسية .

لم تكن أمامى مشكلة فقد ودعت بالمحطة إحدى الحقائب وأخذت معى الحقيبة الصغيرة وفيها ما أحتاج إليه من ضروريات اليوم . .

وبعدها ذهبت إلى محل لحجز سكن لى ويمكن للمسافر أن يأخذ ما يروق له من السكن . . وهى خدمة جميلة منتشرة فى جميع أنحاء أوربا تجدها فى محطات القطار والمطارات والقصد خدمة أبناء الشعب والعناية براحتهم ولا يتقاضى هذا المكتب غير أجور رمزية لا تتعدى الخمسين فلسا . . ويسألك الموظف عن المنطقة التى تريد السكن فيها وما مقدار ما تريد أن تدفعه من المال . . ويحاول أن يجد فى القائمة التى بين يديه ما يناسب دخلك ورغبتك الخاصة . . ثم يزودك خريطة تدلك على المحل الذى حجز لك فيه المكان . .

ما كان الفندق بعيدا عن المحطة فقد سرت دقائق محدودة فوجدت المشرف قد حجز لى غرفة نظيفة . . ومرتبة وأنيقة ولن تجد شيئا غير نظيف أو مرتب فى جميع أنحاء أوربا سواء أنزلت فى الفندق الكبير أو الصغير أو سكنت مع عائلة . . وفى كل يوم ينظف المحل وتبدل الخاوليات والمناشف . . نظيفة مكوية .

والشعب الألمانى شعب ودود جاد من أكبر الشعوب الأوربية عددا وأكثرها همة وله كبرياء عجيب واعتداء بالكرامة الفردية تشربت روح الفروسية فى نفوسهم . .

وقد كان سببا فى حربين عالميتين . خسرهما بعد أن اتحدت كل الدنيا ضده . . وحاول اليهود غرس الشعور بالذنب والإثم فى نفوس أبنائه بعد الحرب الثانية وضخموا عدد الضحايا التى قدموها . . ونسى اليهود أنهم السبب الأول فى هذه الحرب وأنهم الذين كانوا يوشون بإخوانهم اليهود لكى يخرجوا من ألمانية إلى فلسطين وقد كانوا يعلنون تعذيب اليهود ويبالغون حتى يخيفوا الآخرين ويدفعوهم إلى ترك ديارهم .

ولما دخلت أمريكا ألمانيا . وسيطرة اليهود معروفة فيها حكموا عليها بغرامات مالية يدفعها الشعب الألمانى . . وكأن اليهود وحدهم الذين نالوا السجن من حكومة ألمانية وفرضت عليها تعويضا ما أنزل الله به من سلطان . ونسى هؤلاء أن هتلر لم يسجن اليهود وحدهم إنما كان السجن لكل القوميات المختلفة وتلك من مظاهر الحكم الفردى لا تفرق بين قوم وقوم إذا كانت هناك معارضة ضده . إن الشعب الألمانى الذى فرضت عليه الشروط فى ١٩٤٥ كان يحارب العالم كله . .

فاغتنم اليهود الفرصة وفرضوا بوساطة الأمريكان عليهم الغرامات الكبيرة وحاولوا غسل دماغ الشعب بأنه هو صاحب الذنب فى ارتكاب المذابح فى الحروب .

والحق أن الصهيونية تعرف مدى قوة الألمان المالية وأرادت أن تقضى على القوة الاقتصادية التى تهددها . . بوساطة أمريكا صاحبة رأس المال اليهودى .

ومع كل هذا فمازال الألمان برغم ما بذل الحلفاء أمريكا وبريطانية وفرنسا فى غرس عقدة الذنب فى نفوسهم يكرهون اليهود كراهية التحريم . . برغم نفاق الساسة الألمان حبا فى ا لحكم والسيطرة وتقربا إلى أمريكا قلعة الصهيونية .

اتخذ اليهود من السامية سلاحا ضد الألمان فقد قيل لى إن اليهودى يعتدى على الألمانى فلا يرد عليه خوفا من اتهامه بالمعاداة للسامية .

إن المارد العملاق الذى أراد اليهود القضاء التام عليه نشط من جديد وعاد يأخذ مكانته بين العالم . فقد أعيدت ألمانية من جديد بعزم جديد . . وأعيد بناء الكراهية لليهود . . وسيكون ويال أمرهم الخسران .

فقد حدثنى صديق أنه كان يستمع إلى إحدى الاذاعات وكانت تمجد اليهود فأراد العراقى غلق المذياع فقال له صديق ألمانى لا تفعل : فقام إلى المذياع وأغلقه ولعن اليهود بغضب وحدة فما كان من الألمان إلا التفرق خوفاً من أن يصيبهم سوء وذهب العربى إلى داره فاتصل به أولئك بالتليفون وأخذوا يدعونه إلى بيوتهم تكريما لشجاعته وتقديرا لعمله .

مهما كان لليهود فهم شعب يعرف ما يريد ويخطط لما يريد ويصل إلى ما يريد بأية وسيلة وبكل الأساليب . . وقد حقق أسمى أهدافه وغاياته وأنشأ حكومته برغم أنف العالم كله . .

وحقق حلمه بعد آلاف السنين من السخرية به . .

أتمنى أن يقتدى العرب باليهود فى التخطيط والوصول إلى الهدف

اتصلت بالأسرة الكريمة عسانى أستفيد منهم فى إرشادى إلى معالم المدينة الكبيرة . . وما أسرع ما استجاب الوالد . . وألح على بأن أحضر داره . . لأنه أرسل من يأخذنى وهو يحدثنى بالهاتف . . كان كرما غريبا من أسرة غربية وهكذا أهل الغرب عندما يدعونك بصدق وإذ اعتذر بالهاتف كان صادقا فلا مجاملات ولا دعوات سطحية يعرف داعيها مقدما انها المجاملات (أو مسح الوجه) .

ومـا أن وصلت الدار بسيـارتهم إلا وانهالت على كلمـات الترحيب الحقيقيـة والود الصادق وذكريات اللقاء فى لندن .

وقد كانوا يحسنون اللغة الإنكليزية جميعهم فكانت جلسة جميلة . . وأعدوا غداء ألمانيا لذيذا . .

على مائدة الطعام Mr. Jone

إن الأناقة والنظافة وحسن التنسيق وانتشار الزهور والخضرة فى كل زاوية من زوايا المنزل طابع حضارى فى كل أنحاء العالم المتمدن ، وجلسنا إلى المائدة فران صمت لدقيقة واحدة رأيت الشفاه تتحرك بخشوع عميق . . ودعانى الرجل إلى الطعام بعد تقديم الشكر والدعاء والصلاة للخالق العظيم على منحه نعمة الطعام للبشر . .

كان الحديث لطيفا عن الحياة بصورة عامة وما تركته الحرب من ويلات ومقدار الرجال الذين ذهبوا ضحية للحرب وكثرة النساء بالنسبة للرجال . . وتلك طبيعة الحروب القاسية فقد قال شاعرنا :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتموا   وما هو عنها بالحديث المرجم

وبعد الانتهاء من الطعام تماسكت الأسرة بالأيدى فكان على يمينى الأب السيد يابنه (Jane) وعن شمالى فتاة من بناتهم وهزوا الأيدى عدة مرات . . وارتفعت الضحكات قبل ترك المائدة .

سفرة صغيرة :

أخذنى الوالد بسيارته الصغيرة وأرانى معالم المدينة وأهم شوارعها وأصرت الطفلة الصغيرة أن تأتى معنا وتجلس قربى . . فقالت لها أمها أنت مدعوة هذا اليوم .

فقالت لا أريد أن أذهب أريد أن أتحدث مع الفتى العربى الأسمر . . اللغة الانكليزية . . وسوف أشرح له معالم المدينة إنها فرصة العمر أن أتحدث اللغة وأعبر فيها عما أراه وبذلك أستفيد من دروسى . .

كانت تتحدث لى وكلها شوق لتصف لى بدقة المعالم وأحس علامة الغبطة على عيونها ووجهها عندما تحس بأنها قد أجادت التعبير . .

وقد تركها والدها تتحدث فى حرية تامة وكان يصلح لها بين الفينة والأخرى . . بعض العبارات وكانت تسألنى رأيى . . فأشجعها وأدفعها إلى الحديث . .

آن فرحة الطفلة المراهقة كانت ترسل بيننا سعادة وسروراً فقد بذلت كل طاقتها فى الاستقصاء الذى كان يجرها إلى اللحن فى الأفعال . . فأحاول برقة أن أقول لها إن الإنكليز يقولون كذا . .

بدأ الظلام يرخى سدوله . . وبدأت الأنوار تملأ الشوارع وتحيل الليل إلى نهار جميل المسيرة مشرق القسمات وطلع بى الرجل إلى جبل عال وجلسنا فى مقهى شربت الشاى مع بعض الحلويات التى يكثر أهل ألمانيافيها الدهون . . ونسيت مصابى فى معدتى ولدلى هذا الطعام . . أثقلت كثرة الدهن المعدة وأحسست بالضيق فأحس الرجل بما طرأ على وجهى من انقباض داريته . . وعاد بى إلى داره . . وأخبر زوجه فقال سوف أشفيك بدواء لا تعرفه .

واستحضرت من الصيدلية كيسا من علبة منسقة الأكياس ووضعته فى ماء وغلته ثم صبته فى كأس . . كان اللون جميلا أصفر القوام . .

وما أن شممت رائحته حتى تذكرت بغداد وأهل بغداد ، إنه (البابونج) أو (البيبون)الذى تقدمه الأسر لأطفالها وشربته وكان دواء شافيا . .

ودار فى ذهنى اسم العقاقير والأعشاب التى كنا نتداوى بها صغارا مثل (تيهان) و(حب السفرجل) . . و(طين أرملى) . . و(ورد لسان الثور) أو(ورد ماوى) وهى أعشاب طالما سخرنا منها بعد أن تعلمنا على الأدوية الغريبة الكيماوية ولم نعرف مقدار الآثار السلبية فيها .

وانتشر استعمال الأعشاب فى ألمانية والتداوى بها وأطلق على استعمالها الطب الشرقى أو الطب العربى .

يا لله . . ننسى الطب الشرقى وقادة الاختراع والاكتشاف والصناعات الكبيرة . . يبرهنون على أن الطبيب العربى المسلم كان على حق فى كل وصفاته الطبية وعلاجه للأمراض . .

انهم يأخذون وصفات الشرق باحترام ونحن ننظر إليها بسخرية . . ولا ندرى بأننا نسخر من أنفسنا . .

هل جرت هذه الأعشاب ؟ عند المثقف .
هل درس الأطباء والعلماء تأثيرها ؟ فى الوطن العربى ؟

تخضع ألمانية للآلة وتسيطر على حياتهم الصناعية فقد كثرت الآلات لخدمة الناس وتسهيل أمور الشعب الألمانى . . فأنى سرت وأين اتجهت تجد هذه الآلات . فهذه خصصت لبيع الطوابع وأخرى لبيع البطاقات المتنوعة . . وأخرى وجدت لبيع الأفلام على اختلاف أشكالها وتنوع أرقامها . . ويمكن الحصول على الشطائر أو الفواكه أو الخبز والبيض . . وإذا كنت مستعجلا ولا تريد أن تنتظر دورك لإيداع حقيبتك الثقيلة فيمكن أن تضعها فى إحدى هذه الآلات وتأخذ المفتاح معك بعد أن تودع مبلغا من المال للوقت الذى تريده . . ولكن إذا طال هذا الوقت فلن تقدر على فتحها بل يجب دفع مبلغ آخر . . عند المسؤول الذى يفتح القفل من مفتاح معه .

ودعينا إلى طعام العشاء وكان أحد الشباب الأمريكى يدرس فى جامعة هامبرغ صديق العائلة Gelman Dichson وبدأ الحديث يأخذ مجرى جديدا . .

كان شديد الإعجاب بمبدأ إيزنهاور فى الشرق الأدنى ولم أتمكن من إخفاء ألمى من الأمريكين وما جنوه علينا فى الوطن العربى . .

قلت له إنكم تدفعون العرب نحو روسية عندما تؤازرون إسرائيل . . قال إننا ساعدنا العرب ووقفنا ضد العدوان الثلاثى . . قلت إن الرئيس الأمريكى هو الذى ساعد العرب لأن سياسته . . دعت إلى ذلك ولكن طريق السياسة الأمريكية الطويل سوف يخلق لكمْ الأعداء وإذا ما ترك إيزنهاور الحكم سوف يتبدل الأمر .

وضعتم أسفينا يخدم مصالحكم ويؤذى كرامة الشرق والعرب . .

وذكرته بما صنع اليهود فى العالم كله . .

كان رب الأسرة شديد الحماسة لأقوالى . . ووجدت الأمر غريبا بادئ الأمر وظننت الرجل يجاملنى لأنى صديق ولكنى وجدته أمرا طبيعيا عند كل الألمان . .

وأراد الأمريكى التخلص من الحرج لأنه كان محدود المعلومات عن العرب وعن الشرق وكان يسأل عن كل حقيقة فهو لا يعرف وعد بلفور ولا يعرف تاريخ العرب إلا من خلال روايات ألف ليلة وليلة وأننا نعيش فى الخيام ونركب الجمال . .

فانزلق إلى الحديث عن خطيبته . . وأنها سوف تأتى إلى هامبرغ وتتزوجه . . وأخذ يحدثنى عن قصص تكتبها . . وعن أسلوبها الأدبى فآثرت أن أجاريه لأن المناقشة مع الجهل

لا تفيد شيئاً . . لأن كل ما أقوله له لن يؤثر فيه غير أننى أردت أن أنهى الحديث معه عاطفيا فقلت له :

ماذا تعملون لو أن روسيا أخذت نيويورك قال نشن حربا شعواء .
قلت لماذا ؟
قال لأنها جزء من الولايات المتحدة الأمريكية . .
قلت إنها ولاية واحدة لماذا تسعر الحرب من أجل ولاية ؟
قال الكرامة وحب الوطن .
قلت إذن لماذا لم تفكروا فى فلسطين وهى جزء من الوطن العربى ؟
حاورنى لإقناعى . . فوجدته قد مال إلى ورأيت الرجل يجهل كل شىء عن العرب والتراث العربى وقالها صريحا أنا معكم . . ولكن لم أسمع عربيا يتحدث عن حق فلسطين طوال حياتى .

وأنا أسمع كل يوم عشرات المرات وقرأت الصحف وأشاهد التلفاز وأنتم غائبون عن الصورة الأمريكية . .
أنتم مقصرون . . وأننا جاهلون . .
صدقت وأحسنت قلت : بمرارة وأسى :
فقال : سوف أقرأ . . حمدت الله انها البداية . .
ليت شعرى كم من الطلاب والساسة العرب والسفارات فى ألمانية تحاول أن تقنع الناس بعدالة قضيتنا إنهم غاطسون فى الملذات . . لأنهم غير أكفاء . . ومنهم من لا يحسن حتى اللغة الألمانية . . وجاء . . يمثل العراق والعرب ؟

هذه هامبرغ المدينة التى لم يبق منها الانكليز غير الأنقاض من الخراب قوية عـارمة وسمقت العمارات هازئة من الأيام .وقد تحدت كل عوامل الدمار والخراب انـه الشعب الألمانى الذى أعاد الصناعة وأخذ يعين حكامه بالمال انه شعب حى . . وحرام أن يقسم ويعبث فيه هؤلاء الساسة ويذلونه .

فقد هدمت كل المصانع وفكت وسرقها الحلفاء ولم يبق من الصناعات غير الذكريات وكل ما تكسر منها فما كان من الشعب الألمانى إلا أنه : •

وضع علامة المارسيدس بنزو هى النجمة . . فى أحد الشوارع وبدأت التبرعات تنهال عليها . . وأعيدت الصناعة وازدهرت التجارة فهذا ميناء (هـامبرغ) لا يقـر قراره من

الصادرات والواردات .

لم تنس هامبرغ بسمارك الذى وحد ألمانية وجعل منها أمة حية فقد خلدته بتمثال فى أحد شوارعها . . اعجابا بما قدمه للشعب من خدمة ممتازة .

وعالجت الدولة مشكلات السيارات بإنشاء مواقف متعددة الأدوار . . وتخلصت الشوارع من الزحام الذى يسببه وقوف السيارات . . على الجانبين . .

وكان (السيد يانيه) حفيا بى ذكرنى بالكرم العربى . . وبعض العادات الاسلامية فإذا عطس الإنسان يقولون لى شيئا . وإذا جلست للطعام يدعون لى بالشهية المفتوحة . .

وكان آخر المطاف يوم الأحد أخذنى هذا الرجل إلى مقهى لطيف يطل على نهر إلبه Elbe وكنت أرى البواخر وهى غادية بالحمولات ورائحة يالصناعات المختلفة .

إنها منطقة حلوة جميلة تذكرنا بجمال البقاع الفاتنة انها sullberg . . . . بعيدة عن المدينة . . وفى الطريق كانت قطعان من أرام النقا وغزلان أوربا الأنسية والحيوانية تسرح فى هدوء واطمئنان .

كيف أشكر هذا الرجل على لطفه . . مازلت أذكر كل ما قدمه . . انه مثل كل الشعب الألمانى الكريم .

أخذنى إلى المحطة وجاءت الأسرة كلها تودعنى وتتمنى أن أعود ثانية . . لكن الأيام لم تسمح . . وكم من أمنيات لم تتحقق وكم من أحلام أضاعتها الأيام . . وما كل ما يتمنى المرء يحصل عليه .

فقد كان هذا آخر عهدى بها مبورج وأهلها الكرام الذين منحونى الحب الصادق والود العميق ولكن لم أقدر على الوفاء ومازلت أشعر بالمنة واللطف الذين حبانى بهما السيد يانيه وأسرته الكريمة .

كان القطار يسابق الريح فقد بنى قطار كهربائى جديد وفيه درجتان الأولى والثانية وكانت أربع درجات وفى العراق ماتزال ثلاث درجات بقيت كما أخذناها من الانجليز الذين حذفوا الدرجة الثانية وبقيت الأولى والثالثة ثم عدلت إلى الأولى والثانية ، أرسلوا بالعربات القديمة وباعوها لنا . تلك العربات ذات المقاعد الخشبية تنقل الركاب بين محطات العراق .

ليالى الأنس

البطاقة التى أخذتها لأغطى بها مصاريف القطار حتى بغداد لم يدخل ضمنها هامبرغ . . فيجب العودة إلى الطريق الموصل إلى قطار الشرق . . عدت إلى كولون ثانية . . كانت الرحلة طويلة . . استغرقت أكثر من ثلاث ساعات . . وبالرغم من جمال الطبيعة وحلو المناخ فإن للمتع ساعات يفقد الناس بعدها الإحساس بها . . فالكأس الأولى فى الصحراء بعد عطش هى أحلى وأجمل الكؤوس . . وجمال الحياة وترفها يحس به الانسان فى الساعات الأولى أو الأيام الأولى أو السنوات الأولى ومن ثم يحس بالملل والرغبة فى التغيير والابداع . . لذلك نجد أهل انكلترا يرحلون إلى الأماكن التى فيها الشمس الساطعة والرمال السافية ويحس بجمالها أكثر من أولئك الذين أحرقتهم الشمس وصيرت جلودهم سمراء وأحيانا سوداء .

والعربى يحب الفتاة البيضاء لأنه سئم جمال السمرة وسحر العيون العسلية فتملكه جمال الفارسيات والتركيات والكرجيات وبذلك اندس الأجنبى إلى عقولنا وتسربت الرطانة إلى لغتنا والأخلاق الغريبة مع من ملكت الإيمان . . ثم سيطرت على الحكم وسيطر أبناؤ هم على العرب وانهارت الدولة العربية وضاع التراث الاسلامى . . وقد قال العرب نصف الجمال فى البياض وقال الشاعر :

وان رجال الله بيض وجوههم ولا شك أن السود أهل جهنم

وإذا تساوى عالمان فى الشرف والعلم والخلق فيفضل جميل الوجه على غيره للإمامة . . فى الصلاة فالصباحة والجمال عند العرب ميزة من المميزات المحبوبة برغم خوفهم من زرق العيون وحذرهم بقولهم (ومن أزرق العينين فالحذر الحذر) لأنهم يظنون بأن الغول له عيون زرقاء ولعلهم يخافون من البحر وزرقته .

توجهت إلى (شتكارت) متخذا الطريق نحو استانبول وبغداد لأن البطاقة تخولنى حق النزول فى أية محطة وقطع الرحلة ، وهذه ميزة تمتعت بها فى الوقوف فى كل مكان كنت أريد أن أقضى فيه الأيام فلو سافرت مباشرة من لندن إلى بغداد لن تستغرق السفرة أكثر من أسبوع . . لأن القطارات فى أوربا سريعة جدا لا تكاد تقدر على عد أعمدة الهاتف من سرعتها أو أحيانا يصعب قراءة أسماء القرى التى يمر بها القطار . .

هيا ننزل فى (شتكارت) فقد حدثت عنها كثيرا وسمعت من اخوان عن جمالها وسعتها . . ما شاقنى إليها، والأذن تعشق كما تعشق العين .

كنت وصلت المحطة متأخرا وحاولت أن أبحث عن مكتب الاستعلامات فلم أفلح . . فلم أجد مفرا من الاستعانة بالشرطة . . فرحب الشرطى بى ترحيبا كبيرا . . ودلنى على شعبة فى الشرطة لمساعدة الناس فى كل مشكلاتهم الآنية ومنها البحث عن سكن . .

وجدت الشرطى يقضى حاجات الناس الذين اصطفوا أمام مكتبه . . ولما عرف أمرى سلمنى عنوان فندق وقال .

خذ الحافلة (الترمواى) وبعد ثلاث محطات انزل . . واتجه إلى اليسار نحو هذا العنوان . . بعد ثلاث محطات من المسيرة نزلت . . لم أجد محطة فقد نزل الناس ونزلت . . فليست هناك محطة كما فى الاسكندرية أو القاهرة لأن اشارات المحطة كتبت على أعمدة لونت بالأحمر والأخضر . .

كنت أظنها إعلانات عامة . . ولكل مشكلة حل هو السؤال والتأكد من الاتجاه قابلت أول إنسان وسألته بالإنكليزية عن العنوان . . فابتسم واعتذر فأشار إلى الجهة التى يقع فيها الفندق والشارع . .

حمدت الله أن خطوت الخطوة الأولى . . وإذا به يركض ورائى وهو يصرخ بى . . فوقفت ودلنى على الخطوة الصحيحة . . وأشار بيده إشارات متعددة منها إلى أعمدة موضوعة فى الشارع وقد كتبت عليها كتابات كانت لى أقرب إلى الرموز . . ولم أسمع منه غير أصوات لم أميز منها شيئا .

وإذا قرأت فهل يمكن أن أفهم الألمانية . . وتجمع جماعة على هذا الفتى الأسمر الغريب فى هذه المدينة الأثرية . . فانبرى أحدهم يدلنى على الطريق فقال :

سر فى هذا الطريق مستقيما حتى تصل إلى سلالم ترتفع إلى التل . . فذهبت أسير وأسير لأصل إلى هذا التل المزعوم وبعد مشقة وصلته ولكن بين البيوت والمنعطفات العجيبة . . بدأ الظلام يخيم على المدينة ودخلت فى أزقة لم أعرفها وأخذت أصعد الدرجات . . حتى أعلاها فكان طريقا آخر أو قرية يرفرف عليها الظلام إلا شمعات تدل السابلة على السبيل للوصول إلى دورهم . . وقد غرست الأشجار . . فحالت ظلالها الكثيفة دون اختراق الأنوار الغازية هذا الظلام . .

لم يكن أحد يمر فى الطريق . . وكأنى أعمى أتحسس هذا الطريق ولم أجد من أسأله عن العنوان بعد أن بعدت أنوار المدينة عنى لم يبق إلا السؤال والاعتماد على أهل المدينة . . فأجاب أحد المارة اصعد السلالم مرة أخرى ثم عج إلى اليسار فسوف تجد الفندق أمامك . . يا للحيرة . . وضلال الغريب فى البلد النازح . . رحم الله أبا الطيب .

ملاعب جنة لو سار فيها سليمان لسار بترجمان

صعدت السلالم حتى وصلت إلى أعلاها وكانت مصطبة عريضة حسبتها النهاية . . غير أننى لم أجد ممرا صغيرا أو ما يوحى بأنه يفضى إلى مكان أو شارع . . وأخذت أصعد . . وأصعد وأخذت أعد المجموعات حتى وصلت أكثر من ٣٠٠ درجة . .

كدت أسقط إعياء وتعبا من تسلق هذا الجبل العالى . . وأخذت أضحك وشر البلية ما يضحك . .

أجئت للتمتع والراحة أم جئت للأعمال الشاقة والألم ؟ ونظرت إلى أسفل الجبل وإلى الهوة البعيدة الغور . . ورائى . . فلم أجد غير الظلام الدامس يحتضن الفراغ ويروع الناظر ويدهشه . . وبعض الأنوار المتفرقة تتراقص فى كبد الظلام الموحش تبدو عندما تتحرك أغصان الأشجار . .

وجلست أريح النفس وأفكر فى المأزق الذى وصلته . . وكيف أخرج منه ؟

والتفت إلى جهة أخرى . . حيث الأفق . . فوجدت المدينة كلها ترقص فى ضياء باهر وكأنها تحترق من شدة الأنوار وتميس طربا بألوان رائعة وكأنها باقات من الأزهار الجميلة انها فتنة رائعة . . فأذهلنى هذا الجمال البديع وهبت نسمات عليلة أخذت تسرى فى كل ذرة من كيانى . . انها حالات الذهول بالجمال . . حقا إن الجمال يذهب الأتعاب . . أخذت أمتع الطرف بمتع نفسية وروحية وسرحت بخيال عذب جميل . . ان من يذهب إلى (شتكارت) ولا يراها من أعلى الجبل فى الليل الصافى لم ير شتكارت . ولا يعرف حلاوتها وجمال مناخها .

وأخيـرا تنبهت إلى أن الساعـة تجاوزت منتصف الليـل ولم أشعر بـالسـاعـات التى ذهبت . . فى ذلك الطريق المقفر المظلم الـذى لا أول له ولا آخـر . . وليس هناك من أرقام . . أو شواهد لأنى وصلت إلى طرف المدينة . .

لابـد أننى لا أفهم إذ كيف أصـل الـطريق . . لابـد إذن من العـودة إلى أول الدرجات . . ووصلتها بسهولة فالنزول أسهل وأكثر راحة من الصعود . وهكذا الصعود إلى المجد صعب سلمه والنزول إلى الحضيض جميل وسهل . . فقل الرجال الذين يصلون إلى رؤوس الجبال ويشرفون على القطعان.. طالما حل الضحك مشكـلاتى . . وعندمـا وصلت إلى القاعدة أو الأرض بدأت أضحك وسخرت من نفسى . .

جلست على آخر درجة من السلم . . أهيم بالسكون الحالم والهدوء اللطيف وسحر الطبيعة . . وروعة الخالق الذى أبدع هذا الكون وصوره فأحس صوره .

ومن كبد الظلام برز شبح كما يظهر جنى علاء الدين من المصباح وكان طويلا مفرطا فى طوله يرتدى معطفا أسود اللون فانعكست ألوان الشارع عليه فأخذ يبرق فى هذا الظلام . . وقد غطى وجهه بالقبعة . .

لابد مما ليس منه بد . . فى هذا الطريق وفى هذا الوقت لا اختيار لى إلا السؤال . . وهجمت عليه بالسؤال بالانكليزية .

أتعرف هذا العنوان ؟

طرب الرجل وابتسم ورفع قبعته تحية قال نعم .

وأخذنى معه إلى قرب الترام إلى المحطة التى كنت تركتها ولم يكن الفندق يبعد غير خطوات عن مكانى . . وسلمنى إلى ربة الفندق . زبونا جديدا هشت به وبشت له بعد انتظار طويل . .

وأخيـرا تذكـرت أن صاحبى الألمـانى أراد أن يقول لى إن الفنـدق قبل أن تصعـد الدرجات . فقال ان الفندق بعد أن تصعد الدرجات . لأنه لم يفرق بين (قبل) و(بعد) بالانكليزية . ليت شعرى كم أرهقتنى (قبل) وتذكرت الآية الكريمة واعرابها وكيف كنا نجد صعوبة فهمها فى النحو ــ لله الأمر من قبل ومن بعد .

إنها مغامرة طويلة . . أراد أحد الألمان أن يجرب معى اللغة الانكليزيـة . . فسرنى وساءنى . فإياك أن تثق بمن يعرف جانبا من اللغة حتى لا تضيع وقتك إلا إذ كنت تحب

المغامرات والمتع غير المتوقعة .

كانت ليلة جميلة فقد رقدت فيها دون أن أعرف كيف نمت إنها أحلام جميلة تختلط بالخوف والرهبة . . بعد يوم طويل مشحون بالأتعاب وما أحلى الراحة فى الفراش بعد المشقة والتعب وأجمل الثمار بعد أن يكد الفلاح فى الزراعة والعناية . . ويقطفها جنية ناضرة شهية .

لا شىء أجمل من العمل . . وأطرف من المغامرات وتلك إحدى فوائد السفر التى تلونه بألوان لا تعرفها وأنوار تسطع عليك وتنير لك تجاربك فى الحياة . .

الحلوة بين أحضان الثلج

ذهبت إلى محطة القطار هادىء النفس مطمئن القلب راضى المشاعر بعد تلك المغامرة الحلوة الساحرة . . ومررت (بموينخ) إلى (سالبزغ) فى الطريق إلى فينا وكانت أغنية أسمهان تتردد فى ذهنى .

لـيـالى الأنس فى فـيـنـه نـسـيـمـهـا مـن هـوا الجـنـة

ولكن مرورى (بسالزبرغ) وجمال الشتاء فى الشهر الثانى ورؤ ية الأرض البيضاء التى تدثرت بالثلج وكأنه القطن المندوف أغرتنى بالوقوف فيها . .

انها من غرائب الطبيعة التى لم أمتع النفس بها من قبل إنها مدينة السحر الثلجى والفتنة البيضاء .

فلابد لى أن أغتنم الفرصة لمشاهدة الأرض البيضاء والتلال البيضاء والأشجار البيضاء وجبال سمقت فى الجو تزهو بالتيجان البيضاء . .

إنها لم تخطر بالبال عندما وضعت منهج السفرة .

لابد من رؤ ية (سالزبورغ) وقد شاقنى هذا النشاط على وجوه الناس وجمال ملابسهم وأناقتهم إذ لم أر قبل هذا ملابس التزحلق وأدواته .

إنهم يرتدونها . . صغارا وكبارا دفعنى لمشاهدة هذه الرياضة أو هذه الهواية . . كيف حول البشر كتل الجليد التى تقتل الناس إلى متعة إنهم استقلوا الطبيعة فى سبيل التسلية والرياضة . . وتلك قوة ارادة الشعوب التى لا تخاف من البرد أو الحر أو الأمطار . . تحاول الاستفادة منها واستغلالها . . وفى الوطن العربى كم اكتسحت الأنهار المدن ودمرت الفيضانات البشر والبيوت والمزارع .

إن إنشاء خزانات المياه تحول دون هدم العمران وخزن المياه يروى عند الحاجة فكنت أرى كثيرا من السدود المختلفة فى الطريق .

إن الأرض مقدسة وغالية فكل شبر محسوب له حسابه فما تركوا جبلا أو سهلا أو واديا إلا استفادوا منه واستغلوه وأحسنوا الاستغلال وعادت عليهم الأرض بالبركة والخير . .

وزاحموا البحر ودفنوه فقد أخـذت هولنـدة أميالا من البحـر واستغلتها فى الـزراعة والاستيطان . . وبلادى الخصبة تعصف بها الرياح السافيات بين دجلة والفرات .

ها هى جموع مختلفة من الطلاب والطالبات والمدرسين والمدرسات يصعدون فرادى وجماعات أعدوا العدة للنزهة والرياضة . . وعلى وجههم علامات الـرضا والاطمئنـان والهدوء .

أخذ القطار يخترق الأنفاق حتى وصل إلى الأرض البيضاء والأشجار البيضاء فكان يسرع فى مسيرته وخطاه لم أر غير قطعة واحدة من الجليد وكأنها مزرعة من القطن الأبيض الجميل وعليها قضبان السكك تتلوى سوادا كأنها الأفعى .

وعندما بدأت الحقائب تنزل . . والقطار يخفف من سيره ونزل الناس من المحطة كنت معهم دون حذاء سميك وأدوات التزحلق .

*

الاستعلامات هى دائما التي تدلنى متى أردت شيئا فوجـدت أقرب مكـان للتزحلق هيلاين وهل أجد مكانا أنزل فيه ؟!

نعم هناك فنادق عديدة معدة لهذه الرياضة . وأضافت الموظفة لا تبعد القريـة غير عشرين دقيقة بالقطار ونزلت فى فندق جميل خفيف الظل .

إن عشرين دقيقة عن سالبزغ تستحق أن يرى الإنسان منظرا لم يره طول حياته . . فقد قرأت كثيرا عن هوايـةالتزحلق ورأيت جـانبا منهـا فى الصحف والتلفاز ولكن متعـة المشاهـدة والاحساس بالعواطف وحركة الناس والجو الحقيقى أجمل من الجلوس أمام الشاشة . .

صاحب هذا الفندق الذى تحضنه الثلوج من كل جانب والتى اشرأبت المدخنة بينها تبعث بدخانها فى الجو وتبدد برودة الجو وقساوته . . يملكـة احـد أحـد ابـطال الجيش النمساوى . . حارب فى روسيا وبترت ساقه وعطبت الأخرى فهو معوق عن العمل . . ولكنها الإرادة القوية والصبر فى مجاهدة الأيام أعطت هذا الضابط النمسـاوى دفعة من

الصبر . . ولم يذهب إلى دار العجزة ويعتمد على تقاعد الضباط وينام فى داره إنما استغل هذا الفندق ليعيش على نفقته . . ويديره وسط قسوة الطبيعة بعيداً عن المدينة اعتـزازاً بكبريائه وعزة نفسه .

*

خرجت فى الصباح الباكر لأخذ المصعد المتسلق أو المصعد الجبلى لأنه يرتفع على حبل واحد . . وعلى هذا الحبل تصعد حجرات صغيرة تتسع لراكبين أو أكثر يطل من نوافذها ويمتع العين بالمناظر المتباينة فى ألوان الثلوج وأمواجها على الوديان والوهاد والجبال . .

والصعود بالمصعد ذاته متعة جميلة فلا تحس إلا بانسياب هذه الحجرة المعلقة وهى تصعد حتى ترتقى أكثر من نصف كيلو متر . .

ولما تركت هذه الحجرة وخرجت إلى الهواء الطلق أحسست بأننى أعيش فى بحر أبيض لا تتلاطم أمواجه . . ولم أجد غير خطوط متعرجة بين هذه الثلوج انها طرق الأقدام . .

وسير الانسان الذى سخر الطبيعة لإرادته . . وقهرها برغم جبروتها . . وعظمتها فقد بنى مدينة امتدت على هذا الجبل الجليدى . . لم أجد سيارة أو أداة للنقل غير الأقدام ولعلها اختفت فى البيوت لارتفاع حجم هذه الثلوج . . وعندما نزلت الوادى لم أبصر إلا الثلج فقد غاب كل شىء عن عينى ولولا أن أجد السابلة يسيرون أمامى مثل قطار الدوح لانتابنى الخوف . . والجزع فى هذا الجو الغريب .

وما أن ارتفعت إلى ظهر التل حتى بدت المدينة . . لا أنيس فيها غير الثلوج وحركات المرضى من وراء الزجاج فى مصح بنى على القمة تديره الراهبات . . اللواتى نذرن أنفسهن فى خدمة هؤلاء إيمانا بأن ذلك سوف يعود عليهن بالرحمة والمغفرة وتساءلت كم من فتاة أرسلها الحظ العاثر إلى هذه المرتفعات . . جاءت إلى الصحراء لتنسى هجر حبيب أو موت غال . . انها تركت الدنيا بعد أن تركتها . . فهذه الفتيات كأنهن الزهرات اليانعات . . أليس بؤس الحياة وصدمات الدهر قد ألوت بهن فوهبت المنكوبة الحظ نفسها لخدمة البشر الذين أساءوا إليها . . غريب أن تقابل الإساءة بالاحسان . .

إنه التسامى والخلق الرفيع . . من فتاة انتقمت لنفسها من البشر بخدمتهم ومواساة جراحهم بعد أن هجرها رجلها وأساء إليها . . !! فخدمته وتسامت فى الخدمة . وبنى إلى جانب المصح كنيسة القرية . .

ومن الطريف أن وجدت جموعا من أبناء القرى كانوا حشدا كبيرا يسيرون بنظام دقيق لا يتدافعون وهم يدخلون فى هدوء وسكينة إلى الكنيسة . .

انها مناسبة وضحت لى عندما رأيت فتاة قد تزينت ولبست ملابسها البيضاء . . انه عقد قران . كانت البساطة واضحة على العروسين فى الزينة وطراز اللباس فلم أجد مبالغة فى الزينة التى أراها فى المدينة ولا أكداس الحلى والحلل عليها ، قد تدلى شعرها ونـاس بجديلتين ضفرتا بجمال وعناية وعلقت بها أزهاراً بيضاء ماتزال أوراقها الخضراء تزهو نضرة وخضرة . انه الجمال الطبيعى الرائع الرقيق الأنيق ورحم الله المتنبى :

حسن الحضـارة مجلوب بتطريـة وفى البـداوة حسن غـير مجلوب

كان الجميع خليطا عجيبا من النساء والرجال . . وتلك مناسبات القرى التى يحتفظ القروى فيها ملابسه الفاخرة فى صرة أو صندوق حتى يلبسها فى مناسبات وقد كان لى صديق عزيز عندما يرتدى الملابس الجديدة يقول : إنها ملابس الجمعة والعيدين . .

لذلك فلا نعجب إن رأينا نماذج اللباس وطرازها من خمسين سنة أو طراز السنة نفسها فالشابة هى وحدها ترتدى ملابس هذه السنة وسوف تحتفظ بها ما عاشت أو بليت الملابس أو جاء خير كثير . .

وكان أبناء القرية ببساطة الريفى المحببة يسارعون ويسلمون على . . فقد عرفوا هذا الغريب جاء إلى قريتهم سائحا سواء أكانوا من النساء أم من الرجال ، الطيبة والسذاجة وصفاء النفس الذى ما شابته المدينة ودنسته الحضارة الحديثة . .

كل من حضر الحفل قد وضع الأزهار البيضاء فى الأربطة أو فى القبعات . . إظهارا للمشاركة الوجدانية والعاطفية . . إن حب الزهور طبيعة الإنسانية السامية والبشرية التى تتذوق حلاوة الحياة وجمالها . .

أحس الجميع بأنى واغل فى القرية وأسرع أحد هؤلاء وببسمة حلوة وعبارات هامسة قدم لى وردة بيضاء بعد أن رأى صدرى الوحيد الذى لا ينتشى بالعطر والزهر . شكرته وصافحته . . ووضعتها فى عروة السترة . . وكنت سعيدا بهذه المشاعر الطيبة . .

ولم أطل معهم وسلمت على صاحبى فرد الجميع على . .

البراعة الغريبة فى هذه الرياضة تدعو الانسان إلى متعة عجيبة وكنت أتمنى أن أقدر على أن أشاركهم هذه المتع اللطيفة والرياضة المفيدة . . ولكنى اكتفيت بشراء نماذج صغيرة لهذه

الأدوات الرياضية وكانت على أشكال علب الكبريت أو على تماثيل صغيرة جميلة . وزعتها في بغداد لبعض الاخوان ووضعتها في مكتبي أذكر فيها هذه البلدة الجميلة وحلو أخلاق أهل الريف العذبة . . وبراءة النظرات وصدق الحديث . .

وتلك أجمل الذكريات وأحلاها في السفر .

فين . . بلد العين

جميل أن يحس الانسان بالحرية . . بعد أن تدوسه سنابك الأجنبى . . وأجمل منها شعور الحر بعد استعباده وتجرعه غصص الذل وعلاقم الهوان . . وحنينه إليها وشوقه إلى لقاها وسعادته بها . . وكأنها الحبيب المشفق الذى بعد ، والغالى العزيز الذى حيل بينه وبين الأحبة . . ما أجمل عودتها وأوبتها . . بعد رحلة قاسى فيها المحب الحر الصغار والذل فى سبيلها . . .

ليس هناك فى الدنيا أجمل من الحرية للإنسان الأصيل ولا أعذب من نسيمها لمن تذوق افاويق لماها وعاش فى أحضانها .

الحرية لا يعرف قيمتها إلا من سعد بها وقاسى المذلة والهوان بعد أن صادرها الأجنبى .

هكذا شعرت بالغبطة تشمل قلوب كل فرد فى النمسة والحبور يرفرف على كل كلمة يتحدث فيها عن أيام الحرب ودخول روسيا (فينا) عاصمة النمسة الريقة الاعطاف المخضرة الجوانب والجنبات زاهية التاج الحضارى كالزهرة الشذية فى صدر النمسة . . ترف بألوانها الزاهية . .

منحها الدانوب حنانا وأسبغ عليها ريق الحياة وزهوها فعاد مشرقا . . ومناطق النفوذ الأجنبى قسمتها إلى شوارع هذا طريق للروس وآخر للانكليز وثالث للأمريكان محرم أن تجوز من طريق إلى طريق إلا بجواز . . وسؤال وجواب وتحقيق . . فلا يقدر الصديق على زيارة صديقه وهما فى الشارع نفسه لأنه فى الجانب المقابل . . ولا يقدر الوالد أن يذهب لمشاهدة أسرته لأنها فى شارع جانبى تحت السيطرة الأخرى . . ما أسوأ هذه الحياة وأثقلها على شعب تعود الحرية وأسبغ الرقة والحب على الشعوب . .

ليت شعرى كم والد مات بحسرة رؤ ية ولده وكم سيدة ماتت وهى تتلوى شوقا لرؤ ية

بنيها قاتل الله المصالح وحب السيطرة كم أذلت نفوسا . . وأرهقت عواطف البشر . . وأذلت كبرياء الناس . .

مازالت بقايا الحرب هنا وهناك ولكن الجمال الحضارى ومذاق الحرية الذى تسرب إلى القلوب أعاد للوجوه البسمات وللشعر رفيفه الطلق ، يعيش نشوان من سكرة النسيم وسحر الكون . . مرتفع الرأس . . الشامخ العرنين .

والشعب النمساوى جزء من الشعب الألمانى وهذا ما حدا بهتلر إلى احتلالها لأنه نمساوى حن إلى أصله .

فأذاقها احتلاله الهوان . . فقد تعدت هذه الدولة حدود التجمع القومى بعد أن قويت بالحضارة والعلم الحديث واستندت إلى الدولة وإلى الحياة الديمقراطية وصانتها من خوف وقدمت للشعب كل ما يحتاج . . فكانت الديمقراطية حضن الشعب ولا يرضى النمساوى أن يقول إنه ألمانى ويقول لك هل يرضى الأمريكى أن يسمى بريطانيا .

أم يرضى أهل استراليا أن يكونوا من الانكليز . . انهم شعب واحد لكن الحضارة وتعميق روح الحرية وسعادة الفرد فى الوطن الجديد أنساه الفكر القومى . . والحرية . . هى سعادة الانسان فى كل ما يريد فى أكله وشربه وقراءته وسفراته وتفكيره وتجمعه وتملكه . . ألم ينشر التجمع القومى الحرية للأمة ؟ قبل التحول إلى الدولة ؟

لن يكون لأمة أو لشعب من الشعوب كيانه بغير الحرية وبغير أن يحس أن يملك نفسه وفكره وما له وحياته . . إنه يعيش إنسانا ولن يعيش مثل القطيع . . إذا هش الراعى بعصاه سار وأشار إليه وقف يطيع الأوامر والإشارات دون وعى وإدراك خوفا وذلا .

الحرية هى التى دعت أمريكا للثورة على ظلم إخوانهم وبنى جلدتهم الانكليز . . واستعلاء الحكم فى بريطانية على بنى جنسهم هو الذى فصل أمريكا عن انكلترا والقوانين الظالمة التى فرضتها الامبراطورية على القارة الجديدة دعاها إلى العصيان وطرد اخوانهم . الظلم ظلم لا يتبدل والهوان هوان لا يتغير . . يرفض الأبى الظلم و يترك الحر الهوان والاستبدال بالحرية والاستقلال حتى وإن كان حكامه من بنى جلدته

هذه سويسرا تتكلم ثلاث لغات الفرنسية والألمانية والإيطالية لأنها فى الأصل ثلاث مقاطعات من ثلاثة شعوب كانت هذه الشعوب تتناحر حبا فى السيطرة وتتقاتل فى سبيل الاستعلاء والحكم لكنها عاشت دولة فرضت شعوبها نوع الحكم الذى تريده بعد أن

ضمنوا حريتهم واستقلالهم وكرامتهم بالنظام الجديد ، فلا شعب يستعلى على شعب ولا بلدة تشمخ إباء وكبرياء على أخرى ولا حاكم يدوس كرامات الشعوب من أجل شهرة الحكم وحب السلطان .

الرفاهية والعدل والأمن والمساواة تشمل كل البشر كلهم سواسية أمام القانون . . حقيقة وواقعا فليس فى الغرب قوانين لا تحترم ولا يمكن لدولة أن تعصى الأنظمة لأن حسابها عصيباً . . من الشعب القوى الأبى الواعى .

هذه القوميات الثلاث تفانت فى سبيل سويسرا فتركوا قومياتهم وتركوا أمما انتموا إليها وتجمعوا فى اتحاد رائع . . فقد وجدت فى هذه الوحدة الحرية والسعادة والأمن ولأجل واحدة من هذه الثلاث يترك الإنسان وطنه لأنها تحميه وتسعده بالهدوء والرضا والكرامة الإنسانية .

لم أتعب فى الحصول على الفندق . . فقد نزلت من القطار وكان الفندق الذى حجزته لى الاستعلامات فى أشهر شوارع النمسة . . أو أنه أصبح شهيرا لأنى حفظت اسمه وعرفت كيف الوصول إليه انه شارع (ماريا هلفا) إنها مريم أم السيد المسيح نشرت اسمها فى كل مكان . . أليست هى الأم الحنون . والأمهات نبع الحنان وحضن الأمن ودفء السعادة . . إنها العقيدة المسيحية التى نجدها واضحة فى كل أوربا ولعلها من مخلفات سنوات أو قرون قديمة فقد انصرف الشباب عن الدين وبعدوا عن المسيحية . . ولفهم العلم وغمرتهم نظرياته . . لأنه لم يأكل الفراغ الرهيب من نفوسهم ويقتل الحسرة والقلق من قلوبهم بعد الخواء الروحى والغربة النفسية .

السائح لا يضل فأينما ذهب فالخرائط متوفرة والإعلانات كثيرة كلها تقدم لخدمة السائح والغريب . . فى كل محطة قطار ومطار وموقف سيارة تجد مكاتب الاستعلامات التى لا يكل الموظف فيها من شيمة الصبر والابتسامة العذبة . . وتقدم مختلف الخدمات . ولن تجد مشقة فى التعرف على المدينة والتجول فى الطرقات والأزقة ومعرفة معالمها وأسماء التماثيل والساحات والأبنية الكبيرة . . إغراء للسائح فى البقاء لأكبر عدد من الأيام .

خرجت من فندق (بافاريا) وهو فى إحدى منعطفات الشارع وأخذت أسير دون هدى . . انه حب الاستطلاع والتعرف على سمات المدينة وسماتها تظهر فى شوارعها وما فيها من حوانيت وزينة وعناوين وتختلف سمات هذه الشوارع وأنا عائد فى الشارع نفسه لذلك كنت أقف بعد مسيرة لأتعرف على الشارع من وجهين . . لأن المعالم متغيرة . .

كان الشارع مزدحمابالمارة والسيارات إنه من الشوارع العامة . . الشديدة الحركة .

ووقف أمامى الموسيقى (هايدن) بتمثال جميل انه أمام كنيسة وفى الزاوية مقهى لطيف أنيق يغرى الناظر إليه بدخوله لجمال التنسيق ورقة التنظيم . . المقاعد نظيفة ولونها هادىء جميل تقوم على خدمته فتيات فى عمر الزهور تقدم لك الطلبات بابتسامة حلوة يظن الغشيم أنها وقعت فى حبه من رقة الحديث وعذب القول ورقة الابتسامة . .

دعنى أجلس فى ظلال « هايدن » انه فرانس يوسف هايدن الذى توفى سنة ١٨٠٥ الذى كان يقود الفرقة وأغمى عليه فظنوه قضى نحبه وبعد موته دفن فى مدخل العاصمة . .

والطريف أن أحد طلابه قطع رأسه وبقى الرأس فى كلية الموسيقى ولم يدفن إلا مؤخرا مع الجسم فى القرن العشرين . . . !

جلست أمتع نفسى بمنظر السابلة ففى النظر إلى السابلة متعة متى كان الجالس خاليا يريد أن يسبر غور النفوس ويدرس أشكال الوجوه ومعرفة أجناسها وأشكالها وأصولها من شكل الأنف وبروز الخدود وامتلاء الشفاه . . كأنى عالم من علماء الأجناس البشرية . .

بائع الجرائد الأبى :

مر بى بائع الجرائد انه شخص طويل القامة ضخم الجثة وكأنه مصارع كان يمشى معتدل القامة يفيض بالاحترام والثقة وهو يخطو بملابس باعة الجرائد انها معطف خاص بالجريدة التى يبيعها . . ارتدى فى رأسه قبعة عليها اسم الجريدة . . ووضع على صدره اسمها . .

ما كنت أدرى كل هذا . . فقد أخبرنى هو بذلك . . بعد أن سألته عن الجرائد الإنكليزية التى يبيعها . .

أجاب بطلاقة غريبة دون أن تحس بأية لهجة أجنبية فى حديثه أنها لغة مهذبة لغة المثقفين . وبكل أدب رقيق واحترام جم قال لى :

لا أبيع غير جريدة واحدة . . وشرح لى ما قلت وهو يشير إلى المعطف والقبعة . . ثم وضع إصبعه على صدره وابتسم فقد راقه أن يتحدث إليه إنسان فقد كان يسلم الجريدة ويتسلم المبلغ ويمضى إلى سبيله دون حديث غير البسمة . . والاحترام وكلمات الشكر . .

أحس الرجل بما فى نفسى من احترام له . . وشعر به عندما تحدثت إليه . . ونسى أنه هو الذى فرض الاحترام . . أخذ الجريدة وتسلم المبلغ . . والإنسان يحس بالخاطرة أوالغريزة أحيانا بما يتصوره الإنسان المقابل . . وتلك الفراسة معروفة عند العرب قال الرجل . . الجرائد الإنكليزية أمام المقهى . .

وسعدت بالرجل الأبى المترفع وأحببت أن أتحدث إليه وأن أطيل معه الحوار . .

ــ هل تبيع الجرائد من وقت طويل ؟!

قال : لا منذ وقت قصير !

وكأنه أراد اختصار الجواب وما أراد الاطالة لكنه لم يشف غلتى . . وكدت أسكت وأتركه ينصرف إلى طيته ولكن احساسه بأنى لم أقنع بهذا القول دعاه أن يقول :

ــ إنه عمل ، خير من لاعمل . . وانه خير من غيره . . ففتح لى بابا سعدت بأن ألج فيه لأعرف من هذا الرياضى الوقور المحترم الذى يبيع الجرائد . .

فدخلت إلى صلب الموضوع كيلا يهرب من الجواب . . فقلت له هل زاولت عملا من قبله ؟.

نعم كنت مهندسا ميكانيكيا وأصبحت ضابطا فى جيش هتلر وأنت تعرف ما حدث لجيش هتلر وسرحت بالطبع . . لأنى فى جيش هتلر . .

قالها بنبرة الألم . . ولابد أنه حرم عليه العمل ولابد أن ضايقه الأمريكيون وكأنما اقترف جريمة لأنه كان فى جيش هتلر . . كم من الأبرياء الذين يأخذهم الحاكم ويجندهم . . متى خسر ينصب كل العذاب والنقمة على هؤلاء لأنهم جند الحاكم السابق ، هؤلاء الذين أسميهم القطعان التى تسير مع الراعى لتعيش فلو بعدت عن القطيع فسوف يفتك بها الذئب . .

سكت فقد عرفت المأساة التى صبها الحلفاء واليهود على هتلر ومن كان مع هتلر وأعرف مقدار حقدهم على هؤلاء . . ولا أستبعد أن يعدّ اليهود الكلمات الرقيقة والعطف على هذا الضابط نوعا من اللاسامية التى حاربوا فيها الألمان وأذاقوهم الوبل . . كذبا من أجلها ــ قلت له : هل يمكن أدعوك لتشرب شيئا معى ؟!

فابتسم وسرته كلمة التكريم :

قال : لا يجوز لى أن أجلس . . وان سمحت لى بالجلوس فإن المقهى لن يسمح وإن

سمحت المقهى . . فلا أسمح لنفسى ترك عملى والجلوس . . وإن سمحت نفسى فقد يمر أحد المسؤ ولين ويسمعنى مالا أحب سماعه . .

أليس فى هذا العمل وحده كفاية ؟! ماذا أراد لا أدرى لكنه . . احسن القول وسلم بلطف وانصرف إلى مقهى آخر أو سار فى طريق آخر فإذا مررت أيها القارىء فاعلم أن بائع الجرائد قرب تمثال هايدن انسان كبير النفس . . وكم أذلت الحروب من كبير النفس وسحقت من عظيم القدر وأذلت كبرياء الأمم ؟

والعبرة التى أخذتها أن الرجل محترم ومكرم مادام يعمل فمهما كانت قيمة هذا العمل لن يشعر بالغضاضة . . لأن من يعمل خير من المتسول الذى يعيش عالة على غيره . . .

العرب فى فينة :

فى النمسة جالية عربية فيهم الطالب والسياسى والهارب من بلده نجاة بنفسه من ظلم الحكم لأنه خالف الحاكم فى الرأى والعقيدة وكم جرت هذه الحرية على المفكرين الويلات لابد أن تكون مع الحاكم ولابد أن تصفق له وتكذب فى مدحه وتختلق الأكاذيب من أجله . . والاّ فأنت خارج على الحكم . .

وأما عدد الطلاب العرب فقد جاوز الثلاثمائة والخمسين وفيهم حوالى الخمسين من العراق ، إضافة إلى الأردن وسوريا ولبنان . . الأكثرية جاءت بصورة خاصة . . ويجتمعون فى مؤسسات خاصة بهم ولا تسمع إلا اللغة العربية وارتفاع أصواتهم عندما يتناقشون ويتحدثون . . فالحديث والمناقشة والنكت تسمعها وأنت بعيد كل البعد عنهم . . وتفهم ما يدور دون مشقة . . الغريب ان العرب لم يتعلموا الحديث الهامس أو الحديث الهادىء لعل هذا الصوت تعبير عن مدى المعاناة النفسية والحيرة الروحية والظلم الطويل الذى عاش فيه أجدادنا والصياح رغبة جامحة للثورة أو التنفيس . . عن معاناة عميقة الجذور أو أنه بقايا الصحراء والبداوة التى نهى القرآن عنها ولكن العرب لم يسمعوا الآية . . « إن الذين ينادونك من وراء الحجرات » . .

كلنا أسير هذه العادة الغريبة فى ارتفاع الصوت وكثيراً ما قال لى الأصدقاء إنك تتحدث بحماسة غريبة أى أن حديثى بصوت عالٍ . وبكل ما أملك من مشاعر وأحاسيس مدفونة فى اللاشعور .

أكثر المقاهى التى يرتادها العرب قريبة من الجامعة . وفى شارع قريب منه ،

ولا توجد مثل هذه المقاهى فى لندن بل فى بريطانية كلها وقد أراد الطليان فتح مثل هذه المقاهى لكن الجو الانكليزى وعادات الانكليز غلبت جو هذه المقاهى .

جاءنى الندل . . وفوجئت بأنه يسألنى باللغة العربية عن طلبـاتى . . كانت دهشـة غريبة . . تعلم الساقى اللغة العربية ولم يتعلم الـطلاب اللغة الألمـانية التى جـاءوا من أجلها . .

كان الأستاذ ذو النون أيوب يتصدر إحدى المناضد وقد حف به الطلاب . . وكان يعكف على دراسة اللغة الألمانية فى الصباح ويقضى وقته فى لعب الورق فى المساء .

انه يقتل الوقت صابرا منتظرا وأرجوا ألا تطول أيام الصبر وساعات الانتظار . . وأن يعود إلى وطنه والا يحرم مواطن من وطنه . . ومن نسمات بلده وأفيائه الحبيبة .

سفرة داخل المدينة

إن خير سبيل وأسرع وسيلة للتعرف على المدن فى أوربا أن تتصل بمكاتب السياحة . . فهناك سفرات وسياحات مختلفة . . حسب رغبة السائح . . ليوم أو يومين أو ساعات . . يمكن أن تجول أو تسافر إلى أية منطقة فى تلك المدينة أو القطر . . فهى تقدم كل طلباتك وبأسعار ليست عالية . . لأن كثرة هذه المكاتب يدفعها إلى اجتذاب أكبر عدد ممكن . . فأطلب دليل كل مكتب وأقرأه بعناية . . وعادة تكتب باللغات العالمية والانكليزية منها . . درست هذه المنشورات . . التى قدمها لى الفندق ولم يكن عندى وقت للذهاب إلى المسرح أو الأوبرا والسينما أو مشاهدة المعارض المتعددة . .

واخترت الوقت الذى يناسبنى وكان فى الصباح . . فاتصل الموظف المسؤول بالمكتب الذى وافقنى ماليا . . وزمنيا . . وفى الوقت الذى حددته لهم حضرت سيارة كبيرة من السيارات التى تجمع كل سائح وأخذتنى من الفندق . .

كل هذه السيارة الطويلة العريضة لى وحدى ؟

عجيب أمر هذه السياحة . . لم تختر سيارة صغيرة . . ؟ انها سيارة مريحة ولكن أأبقى فى المقعد الأول . . قلت لابد أن السائحين أمثالى فى فنادق أخرى وسوف تجمعهم السيارة . . وجال فى عدة شوارع دون أن يصعد معى راكب . .

ثم وقف السائق وذهب الدليل إلى فندق فى شارع لا يمكن أن تدخله هذه السيارة الكبيرة . .

قلت : إن السائحين سوف يحضرون سريعا . . ولكن الدليل جاء راكضا ورجانى أن أنزل معه . . وسرت معه خطوات فوجدت سيارة صغيرة أنيقة . . ووجدت فى السيارة سيدتين من أمريكا . . وكندا . .

وسلمت وردتا السلام بشوق ولهفة وسكت بعد السلام وران صمت عميق . . ثم بدأ الحديث بين السيدتين . . كان الحديث عن أيامهما الماضية وشبابهما الهارب وذكريات العمر . . الحلوة دون حياء أو حذف . . كان الحديث عن أوربا والمغامرات الغريبة . . وكانتا تتسابقان فى الحديث . . وكأنهما فى حلبة لسباق أو ملعب كرة القدم فما تلتقط أنفاسها

واحدة حتى ترد الثانية . . وتجذب حبل الحديث وما أن تتنفس الأولى وتستقر أنفاسها حتى تقتحم صاحبتها بأسطورة وقصة . . حديث لا أول له ولا آخر أسماء مدن وأماكن لهو وساعات متع ورسم صور لمناظر . . لا يمكن أتابعها لسرعتها وكثرة انتقالها .

وكانت كلمات . . رائع وجميل وممتاز وفاتن وشهى وممتع ولذيذ تتردد . . على الشفاء تشجع صاحبتها عندما تتحدث عما لا يقال لتطرب لوقائع مثيرة . .

قلت أمرى إلى الله . . الواحد القهار . . هل سأقضى سياحتى وجولتى مع هاتين الثرثارتين . . وقد تجاهلت الحديث وكأنى لا أفهم اللغة الانكليزية . . وكنت أحس من النظرات التى كانت تتبادلها السيدتان علامات الاستغراب والتعجب . . وبالرغم من أنهما لم يتكلما عنى أبدا .

لكن العلامات القاسية ونظرات الاستنكار كانت تلهب وجهى بين آونة وأخرى ولسكوتى وأنا أقول يا نار كونى بردا وسلاما .

وأنقذنى الله فقد بدأ الدليل يرفع صوته . . وأخذ منهما زمام الحديث وتنفست الصعداء وأخذت الهواء ملء الرئتين وشكرت الله فقد خيمت ساعة من السكون . . فى ظل شرح الدليل لما تحركت السيارة وبدأ يتحدث عن المعالم وما حل بها من الدمار . . ولفت نظرى العمارة التى بناها الروس للسكن وقيل إن طول العمارة كيلو متر أو أكثر وأنها تحوى عددا كبيرا من الشقق لتكون دعاية طيبة بجهود روسيا ، ثم اتجه الدليل إلى مجلس الأمة النمساوى . . لمشاهدة البناء وطرازه وقد لاحظت عناية السائح الغربى بطراز البناء وسنة البناء فلكل عصر نوع من البناء وأسلوب من الهندسة وهى أمور لا أحسنها ولا أعرفها فلا أفرق بين العصور والقرون إنها بناية جميلة وأحس بالجمال بالمقارنة مع بعض الأساليب والطرز التى رأيتها . .

كنت دخلت إلى مجلس الأمة العراقى فى يوم من الأيام وهى المرة الأولى والأخيرة طوال حياتى وهذه المرة الثانية أدخل مجلس أمة وأذكر فى تلك الزيارة أن أحد النواب وقف وكنت أظنه يطالب بتعبيد الطريق أو بناء المدارس أو انشاء المساجد فما كان منه إلا أن قال :

ان المساجد ليس فيها أباريق ليذهب بها المصلون إلى المراحيض وطالب الدولة بتوفير الأباريق والحصران . .

هذا نوع غريب من النواب ونموذج من مجلس لم يتبق فى ذهنى منه غير هذا النائب . . فكانت خيبة الأمل كبيرة فى مجلس يعين من شيوخ القبائل والجهلة والمحاسيب وتلك صورة

صادقة لنظام الحكم فى العراق . . عكس حالة التأخر والاهمال فى العراق ، بلد الخيرات ليس فى مساجده أباريق من الطين وليس فى المساجد حصران يصلى عليها المصلون ؟

البرلمان النمسوى صرح الحرية التى بنت جدرانه بسواعد أبنائه . . ووضعت الصفوة قانونه ونظامه . . تحطمت بعض جوانبه خلال الحرب الثانية . . لكن أعيد بناؤه فكان خليطا من الطرز الحديثة والقديمة وأنا الذى لا أميز بين الطرز أحسست بالمحاولة الجبارة التى بذلها المهندس ليعيد الانسجام بين القديم والجديد فقد أنشأ الصالة الجديدة على شكل المسرح الرومانى الذى رأيته فى كثير من المسارح وظهرت الأعمدة الرومانية مع الصور اليونانية . . إنه خليط مثل الخليط الهندسى الذى أحمله فى فكرى لكنه قد نسق بتوافق جميل واحتواء رائع . .

كانت سلالمه جميلة مصقولة من الرخام وقد حفت به تماثيل لآلهة اليونان . . مثل إله الحرب هيرا وزوجته بيتر وأبولووزيوس وصور أخرى لم أقدر على معرفتها لجهلى الشديد بآلهة اليونان إنها تماثيل جميلة وكلها عارية . . وبدأت عورات الرجال . . والنساء . .

وكانت إحدى هاتين السيدتين تصرخ بين آونة وأخرى عندما ترى الرجال العراة . . انها صورة رائعة . . صورة جميلة . . لذيذة فقلت بضجر . .

يا سيدتى انها تماثيل عارية . . وليست صورا رائعة فابتسمت بخبث وسرها التعليق . . بل أسعدها أن نطق أبو الهول وقالت أقصد صورة التمثال . . هل تعرف أن تتكلم ؟
قلت بمكر أشد من مكرها وخبث أعمق من خبثها .
نعم انها صورة جميلة . . وتماثيل عارية . .
قالت لو كنت أدرى بأن غلطتى سوف تفك لسانك لقلتها من السيارة .
ضحكت وقلت :

هل تركتما لى مجالا للحديث ؟
قالت أردنا أن نلفت نظرك وأردنا أن تتحدث ولكن أبيت إلا السكوت والصمت . .
ضحكت فما كنت أدرى بأن صمت الرجل يفعل فى المرأة مثل هذا الأثر . . وبدأت أتحدث إليها . وحمدت الله أن حديثى جلب الهدوء والصمت . . لأنى أردت أن أعرف شيئا عن المجلس أنه يشتمل على قاعتين واحدة للشيوخ أو الأعيان وقد أهملت بعد ان أوقف تمثيل الأعيان أو تعيينهم . . واستعملت للاجتماعات العامة . . الكبيرة .

والقاعة المهجورة . . أجمل القاعات وأكثرها سعة وطراز بناء فالشرفات تحملها الأعمدة الرومانية فى شكل تماثيل من الرجال والنساء فيحس الناظر وكأن هذا الجمع قد حمل شرفات الشيوخ أما المصابيح فقد صممت على شكل قناديل جميلة يحمل كل قنديل منها ملاك . . فى كل كرسى مقلمة ومحبرة وكأننا فى قاعة للمحاضرات فى القرن التاسع عشر . . أغطية المقاعد أو الكراسى تسحب إلى الخلف ثم يوضع فيها ما يراد من أوراق وكتب . .

والطريف أن هذه الأغطية كانت أداة من أدوات الضجيج وإحداث الضوضاء ضد المعارضين وهذا ما كنا نقوم به ونحن طلاب فى المدارس الثانوية عندما نريد أن يغضب أستاذنا دلالة السأم والاحتجاج ، وكم أستاذ ضعيف أصيب بهذا الشغب المراهق فهز أعصابه دون أن يعرف دواعيه نظام الحكم جمهورى . . ولا يختلف رئيس الجمهورية عن غيره فهو يستعمل الحافلة وسيارات المصلحة . . ويذهب للسوق لشراء ما يحتاج إليه بنفسه . . إنه من الشعب . . وكأننا فى أيام الإسلام الأولى عندما نام ابن الخطاب على الأرض . . قرير العين .

الامم المتحضرة والمفكر :

والأمم المتحضرة تقدر مفكريها وأدباءها وفنانيها بتخليد ذكراهم فكثرت تماثيل الرواد فى كل أنحاء العالم الجديد .

وها هو تمثال (شوبرت) الذى ألف عدة مقطوعات . ولم يكترث به عندما كان فقيرا ومعلما يعزف على الأرغن فى الكنيسة المجاورة لسكنه . . ويسكر فى بار رخيص الثمن لا يبعد عن داره . . ولما مات اشتهرت ألحانه ونصب تمثاله تكريما للفنان المجهول الفقير الذى

وقد أقيم فى فينة ناديا فى القرية التى كان يزورها اسمها (كرن سنلن) أصبحت اليوم جزءا من العاصمة . . ولصق له تمثال فى حائط دار كان يرتادها . . ولو أعطى له ثمن التمثال وهو حى لعاش سعيدا .

وفى هذه المدينة الساحرة بلد الفن مات (شتراوس) ولما حولت المقبرة إلى حديقة عامة نقل جثمانه برعاية وعناية إلى المدافن المركزية وليتهم أبقوا قبره وتركوه مرتاحا فى مدفنه .

واسم شوبرت على عدة أماكن فهنا جلس ، وهنا شرب ، وهنا سكن . . انها ذكريات شوبرت المعلم الفقير . . وشهرت الموسيقى شتراوس لانها غذاء الروح . .

بتــهوفـن :

كان الحزن من أهم مظاهر هذا العبقرى الأصم وكان هذا الحزن نبع الهام وعبقرية فذه لم يؤخره الصمم وإنما تسامى به إلى الألحان الخالدة . ولعله من القلائل الـذين خلدتهم البشرية لعبقريته الموسيقية التى ماتزال ترددها الأجيال الرفيعة الذوق الفنى .

لا يلام إنسان وجد الحزن يتدفق مع لبن أمه من والد سكير لا يبالى،أثرفيه رفض والده الزواج من أمه لأنها كانت خادمة وماتت وحرم عطفها وحنانها فعرك الزمان عوده وأخذ يعول الأسرة صغيرا . . بالعزف أوقاتا طويلة . . وكان لفينة أثر من هذه النزعة الموسيقية التى جاءها من قرية قرب (بون) . ليست مشهورة .

وفى العشرين من عمره تفتحت مواهبه وأدهش الأساتذة الكبار وتتنبأ لـه موزارت بالمستقبل الذى تتلمذ على موسيقاه ودرس عليه . وعلى (هايدين) وبعد أن أتقن الموسيقى بدأ الإبداع يتسرب من بين أنامله فأدهش المنافسين بما كان ينقل للمستمعين من صدق العاطفة وعمق الشعور الحزين . . فتلاقت القلوب من أثر هذا العزف الصادق على آلام الرجل فبادلته صدق الحب وأصالة الموسيقى يمثلها وخلدته .

كانت الطبيعة ملهمته الأولى وظلال آلامه أصالة أنغـامه وادراكـه الصادق للحـزن وصبره عليه قضى على يأسه . فتغلب على زملائه فاجنر وباخ وهايدن . وأن العصر الذى عاش فيه والبيئة التى خلق فيها عمقت هذا الألم الذى حوله إلى أمل وقوة وعناد فى موسيقى رائعة خالبة .

هل للصمم أثر فى هذا التدفق الفنى ؟
هل شعوره بالعجز عن السماع زاده تألقا .
هل الآلام وممارسة اليأس دفعت فيه الابداع ؟

إنها اجتمعت كلها فى هذا الرجل الفذ الحزين فلجأ إلى الموسيقى واحتضنها وعمق ألمه إخفاقه فى الحب . . فكانت المقاهى والحانات والموسيقى خير ملاذ له . لا أقدر على فهم كل موسيقاه ولكن أحس بألم الرجل ومعاناته فى الموسيقى وأحس بدبيب الحياة وحـركة الطبيعة وقصف الرعد وحركة الخيل . . ولعل أحسن ما فى الموسيقار ثورته على نابليون بعد

حبه له وغضبه على اكتساح العالم واستعباد الشعوب وتعديه على وطنه ألمانية ومسكنه النمسا .

فإذا كان فكتور هيجو أديب الآلام والابداع فإن قرينه موسيقارها وخالقها .

وفى فينة عدة متاحف للفنانين الذين رفعوا اسم فينا عاليا مثل بتهوفن فقد خلد الأماكن التى عاش فيها ومنها بيت (هايلى شتاسة) الذى كتب فيه وصيته فقد بقيت الغرفة التى مات فيها بأثاثها وشكلها ، ومن الطريف أنه داعب الحوذى وقال له عندما عاد به إلى الدار .

لا شك أنك لا تعرف من يركب معك .

فأجابه : لا شك يا سيدى

فأردف . . معك أعظم موسيقار فى كل الدهور وأشقاهم كذلك . وفى كل مكان ذهب إليه أُحتفى باسمه وتفاخر به أصحاب المكان وسجلوا اسمه عليه .واصبحت أماكن معروفة تقام فيها الحفلات الموسيقية لمتعة اصحاب الذوق المرهف من الرواد . . فقد كان الفنان يسكن بعيدا عن العاصمة ويعود فى الشتاء إليها . .

هذا الموسيقار الأصم كان مثلا للوفاء فقد حمل ابن أخيه الذى حاول الانتحار فى ليلة شاتية ممطرة فى العربة المكشوفة فأثر الجو السيء فى صحته وشدة البرد والمطر الشديد فى ليالى النسمة القاسية . . فى جسمه .

وقد نقل ثراه مع شوبرت وناما معا فى مقبرة واحدة لا يمكن أن تمر بالنمسة دون أن تحس بالألحان الحلوة والموسيقى الرائعة . . لهذا الموسيقار الكبير . . الذى كانت جنازته موكبا موسيقيا شارك فيه رواد الألحان والتأليف وخير المحبين والطلاب

زورة للتاريخ .

مقر الامبراطور فرنسيس جوزيف . .

إن فى هذا القصر وكل القصور العبر والعبرة لمن يفهم غدرات الدهر ويعرف تقلبات الاحداث . . فكم من قصور تركها أهلها دون أن تسكن ؟ وكم من ملوك أخرجوا من قصورهم حفاة عراة ؟ وكم من صروح احتلها أعداء ذلك الملك . . وتنعموا فيها . . بعد أن ظنوا أنهم خالدون ؟ يتكبر الحاكم ويستبد متى اعتقد بأنه خالد على عرشه وأن كرسيه تنخر فيه الصروف والازمان ؟ إن شهوة الحكم عميقة فى النفوس ولها لذة غريبة ومتعة قاتلة ، لا نشعر بها ولا يمكنَ أن نحس بهذه الحلاوة ونتذوق أفاويقها وكيف يعرف من لم يتذوقها . . ويعرف طعمها من بعدت عنه نكهتها ؟

هذا القصر يفخر أهل النمسة بجمال بنائه ، وارتفاع شرفاته ، نزل فيه قاهر البلد نابليون واتخذه مسكنا له ولأهله . . فأذل الأرض والشعب والملك .

ما زالت أثاره ظاهرة الترف تعبق بفخامة الكراسى وروعة المنضدة ، وترف الفراش الذى قضى فيه نابليون ليلة ومات فيه ابنه الوحيد مسلولا ونحت الفنان للطفل تمثالا ووضع فى سريره وكأنه ينام فى فراشه فى ساعته الاخيرة ووضع مع الطفل الطير الذى كان يحبه ومات وكان إلى جانبه . . ابن نابليون يموت بالسل ؟ وهو مرض الفقراء ؟ إنها حكمة الله وقوته . . وقدرته وحكمته . . .

إن قصر الامبراطور أثر فى تاريخ البلاد ، ومن النمسة عرف اسم الامبراطورة (ماريا تريزا) فقد بقى العرب يستعملون ريالها الى عهد قريب لشهرتها التاريخية وأعمالها الكبيرة . .

هذه المرأة التى طبقت شهرتها الحربية الآفاق ولدت أربعة عشر طفلا وقد خلدها الرسام هى وأولادها وزوجها فى كل فتراتها بمختلف الأشكال فعاشت الصور وتوارت الامبراطورة واندثرت فى التراب ، ان ريشة رسام القصر بقيت فى عمل دائب لكثرة الرسوم واختلاف المناسبات فافنى عمره فى فن رائع خدمة للقصر وأهله وليعيش من ريشته فى نعيم .

ولعل أشهر بناتها الملكة المنكوبة مارى انطوانيت التى قطع الجلاد رأسها فى الثورة الفرنسية دون أن تدرى بمصيرها السيء .

إن اثر قصر فرساى واضح فى هذا البناء . . وقيل لى إن : إحدى هذه الحجر كلفت مليون قطعة من الفضة حتى سميت غرفة المليون وعندما زرتها كان أحد الفنانين يعمل على إصلاح جزء من أجزائها التى أتلفتها الطبيعة القاسية والمناخ العاتى .

إن العناية المستمرة والإشراف الدقيق ورقابة العيون حافظت على هذا الأثر التاريخى . . فكم من آثار رائعة سرقت و تحف ثمينة سطت عليها الايدى ؟ .

والرقابة الفنية أعطت رواء للأثر وتحفه الفنية الرائعة . . والا كانت جامدة بلا حياة تدب فى حناياها أو مشاعر تسير فى حجراتها ، بعد أن رحل عنها أهلها وسوف يرحل الآخرون فهل يتعظ البشر ؟ وصدق الشاعر .

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

استغل أهل النمسة كل مكان تاريخى استغلالا ذكيا ناجحا فى نشر الدعاية للسياحة فحولوا القلاع الضخمة والقصور المترفة إلى أماكن لهو وترفيه وتسلية . . وأبرزوا فى إعلاناتهم الاماكن التى يمكن للسائح أن يزورها . . ومن أجمل المحلات التى زرتها بعض المقاهى الجميلة التى تطل على فينا من ذروة الجبل . . فتجمع بين حركة الطبيعة الساحرة وهدوء الجمال الناطق بالفتنة الحلوة والهواء المطلق الصافى .

شوهت مياه النهر الجميل الحياة المتحضرة أضاعت منه الروح الخيالية التى استمد الشاعر أو الموسيقار منها وحيه بالنفايات الكثيرة التى ترسلها المصانع فاستحالت مياهه الى سائل غريب متنوع الألوان سواده قاتم اللون حالك السواد.

أين الدانوب الأزرق ؟ وصفاء مائه الرقراق ؟

أين همسات المحبين ؟ ونجوى العشاق تترد فى أجوائه .

أين ضحكات العشاق ؟ وقهقهات الغبطة لذة باللقاء فوق مياهه .

تمتاز أوربا بالغابات النضرة الكثيرة التى تسبغ على العالم الغربى جمالا زاهيا وخضرة ضاحكة ، وتميس فى أغصانها الأوراق نظيفة براقة تضاحك الشمس عندما تداعب وجه الأوراق بضوئها وكأنها قطعة بيضاء مسترخية على قماش أخضر جميل . .

وفى الغابات رأينا الغزلان السارحة ، والأرانب البرية تقفز بين الأعشاب بحرية وانطلاق وكانت بعض الثعالب الحذرة تمر بخوف وحذر شديد بين من امامنا

فقد جربت البشر الذى كان يصطادها فى مواسم محدودة فولد فيها الخوف والحذر فقد رأى أخاه . . وقد فتكت فيه رصاصة أو قضى عليه كلب الصيد . . فلا يأمن الانسان . . لكثرة خيانته . . وشدة فتكه بالحيوانات الضعيفة .

نحو الشرق

يحس الانسان بالانتقال الحضارى عندما يترك النمسة ويدخل حدود يوغسلافيا ويتجلى الفرق واضحاً فى كل جزء من أجزاء الحياة الاجتماعية يبدأ فى فقدان الاناقة والجمال والمظهر المتطور فى اللباس . . ويتجلى فى خشونة الطعام ويفتقد الانواع المتعددة التى فيها العناية الكبيرة والذوق السليم . . ويظهر الاهتمام بالنوعية التى تغنى الجسم فليس بين المطاعم مباراة من أجل كسب عدد أكبر من الزبائن . . فالدولة تسيطر على المطاعم وفيها الأنواع التى تغذى الشعب ليأكل ويريد ان يشرب وان يشبع ويرتوى فما تهمه

نوع اللقمة وان غلفت بالورق أو لم تغلف . . وقد توفر الخبز والمواد الغذائية دون العناية بالشكل والنوع والمظهر كما تراه فى أوربا .

إن احتكار الدولة لقوت الشعب ولباس الشعب ، وشراب الشعب ، خلقت منه قطيعا لا يقدر على الاحتجاج ولندرة الطعام والشراب فقد اكتفى بما يسد الرمق والأود . .

بدأت أرى صفوفا تقف لأخذ الخبز الكبير الحجم ولم أر غير نوع من الخبز . . انه رخيص الثمن . . ولكنه ردىء الشكل بشع المنظر . . قد يكون فيه كل المواد الضرورية للجسم ولكن أليس المنظر الحسن ضروريا لفتح شهية الإنسان ؟ يظهر ان هذا المنظر مقصود لصد شهية الناس حتى لا يأكلوا كثيرا . .

الخبز فى النمسة وأوربا أنواع غريبة متنوعة الأحجام والأشكال والمواد كما أنها مختلفة فى الإعداد وأنواع الأكياس الجميلة التى توضع فيها . . لإغراء المشترى لوفرة البضائع وكثرتها وتنافس التجار .

كنت أعرف عن يوغسلافية هذا الأمر لذلك صممت على عدم شراء أى شىء منها خلال سفرة القطار التى حسبت لها يومين نمرّ بها فى الطريق إلى اليونان . . هى أهون مشقة وأحسن طعاما وأكثر حرية من يوغسلافية . . فاشتريت فى حقيبة صغيرة حفلت بالأكياس الجميلة التى تقدمها محلات بيع المواد الغذائية طعاما لهذين اليومين وخبزا يكفى هذه السفرة القصيرة . .

وبدأت الرحلة فى الثانية بعد الظهر . . الطرق حلوة الاشراقة زانها الله بالخضرة فى سهولها ووديانها وجبالها . . فما مررنا بأرض جرداء أو بقعة لا تزهو بالعشب برغم تموج السهول وارتفاع الجبال . . كان القطار ينساب بيسر وسهولة وكان الجو باردا . . إنه موسم من مواسم الشتاء التى غدت سهوله وبقاعه الثلوج واختفت مظاهر الجمال الصيفى وتساقطت الأوراق ولم يبق منها غير الأغصان تتمايل يمنة ويسرة من هبوب الرياح التى تهب على أوربا أيام الشتاء القارص المتجمد .

كانت الأشجار الدائمة الخضرة تحاول جاهدة أن تتخلص من أكاليلها الثلجية ولكن هطول الثلج حال دون تحقيق رغبتها فى الالتجاء الى الشمس والاستنجاد بها ، فهدأت واستسلمت بعد اليأس خانعة ذليلة صاغرة يائسة . . وتلك سطوة الطبيعة ومسيرة الحياة وسيطرتها الويل للضعيف والهوان له . . من سطوة المتجبر المستبد إن ظلم .

كانت القاطرة تلهث والمناظر المتغيرة تركض وأنا مطل من نافذة قطار الشرق السريع

فتبعث فى النفس المتعة والجلال . . هذا الجبل الشامخ قد ناء بحمله من تراكم الثلوج ويبدو عليه النشاط فلونه الأسود أذاب بعض حمله الثقيل . . وكأنه إنسان تهاجم رأسه وافدت الشيب .

القطار كان يهدر فى مسيرته الشاقة مطمئن الخطو إذا علا الجبال وسار فى السهول والوديان . . حذر المسيرة وكأنه يخشى أن يسقط فى هوة . . ففى الجبل ووسط نفق يسرت له المسيرة الطويلة . . وما أكثر الأنفاق فى الطريق . .

كان للجو أثر كبير على نفوسنا فنحس بشدته وقسوته برغم التهوية المعتدلة فيه كانت قطرات البخار التى يتنفسها الإنسان تستحيل إلى قطرات من المياه تلتصق بزجاج النافذة فتحول دون الرؤ ية الواضحة فلا بد أن تزال بين آونه وأخرى .

سكان النمسة شعب نظيف مؤدب لطيف متحضر ها هم على الجبال هم وأطفالهم يتزحلقون فوق الثلج وقد أشرقت الشمس فبدأت ألوان الملابس الجميلة الأنيقة . . حديقة جميلة ومرج ألوان زاهيه ، يتنعلون حذاء التزحلق الضخم الأنيق المثبت بأربطة تغاير لون الحذاء وقد لصق بالزلاقة برباط آخر زاد فى متانته وثبات الأقدام عليها .

والطريف أن بعضهم اتخذ زلاقات كبيرة أو زحافات عند تعذر حركة المواصلات . . واستعمل الانسان يده فى دفعها وكأنه يسبح فى النهر . . يدفعها بقوة أو هدوء حسب رغبته وأحيانا تستعمل الخيل والبغال لجر هذه الزحافات وحمل البضائع وبخاصة الأخشاب والحطب . .

عناية الناس بالحطب واضحة فهو الذى يحميهم من هذا السقر القاتل فلا تجد بيتا الا وفى جانبه أكداس من هذا الحطب الذى رتب بأناقة ونضد فى صفوف وأكوام متناسقة . . إن النار فاكهة الشتاء . . وهى أكثر فائدة من الطعام والشراب . . إنها طعام الشتاء .

هذه القرى والبيوت يراها المسافر . . صامدة أمام هجمات القر . . إنها تمثل جهاد البطل الذى لا يترك أرضه . . يريد الحياة فى وطنه وهل فى العالم أجمل من الوطن . . ؟ يستعذب الإنسان كل الصعاب . . من أجله .

كل بيت صغير فى القرية تسطع أنوار الكهرباء فى جنباته فقد ارتفع القطار حتى وصل Bad o sien ثم دار حول الجبل ومر حوله واستأنف سيره وهبط عدة وديان . . ولم تختف مظاهر الحضارة . . وترفها عن عينى وأهمها الكهرباء . للإنارة . . وللأعمال الصناعية المختلفة . .

ليت شعرى كم مدينة من مدن العالم الثالث عرفت الكهرباء . . ولم أقل خدمات الهاتف والصحة والتعليم لأنها من الكماليات التى لا يحلم بها أكثر أبناء الامة العربية . فقد تعود الشعب فى الشرق على الظلام الدامس والبرد والجوع فى بلاد الشمس المشرقة والحرارة القاتلة وضياع المياه فى البحار . لن يعرف معنى ضياء الكهرباء وخطوط الهاتف . إلا الشعب القوى .

فى القفص الحديدى

العراق يقاطع كل الدول الاشتراكية . لأنه يخاف أن تتسرب هذه الآراء إلى أفكار الشعب ويتأثر بها . . لأن بريقها يخطف أبصار الفقراء . . وشعاراتها تجلب قلوب المعوزين والمحتاجين مع أن الكتب والمجلات التى تنشر فى لبنان نجدها فى كل مكان مهربة مع الزائرين والعائدين . . نقرأها بلهفة ونشتريها برغبة عميقة .

وحجر حرية الفكر تدعو الناس الى دراسة المذاهب الممنوعة والآراء المحبوسة . . فأصبحت كلمة (اشتراكى) غولا يخاف منه كل المسؤولين . . والسفر إلى هذه البلاد هى المجازفة الكبيرة لا مجازفة بعدها .

وعاملت هذه الدول الشعب العراقى أو أبناء الأمة العربية بالمعاملة نفسها ونظرت لنا نظرة العدو الذى يريد أن يخرب بلادها .

وكان يدور فى خاطرى بأننى سأصل الى بغداد . . بأقصر الطرق وأرخصها . . القطار هو السبيل الوحيد فى رخص السعر وسرعته . . إذ لم أكن يوما من الأيام فكرت فى ركوب الطائرة . . لأنها حلم من الأحلام الذى ما ظننت أنه سيتحقق لى فى يوم من الأيام إنها أمنية أتمنى أن تكون حقيقة ولكنها كانت بعيدة المنال .

ولا أدرى لم حاولت مرارا أن أتجنب هذا الطريق فقد كنت أحس إحساسا داخليا غامضا أن أتخذ طريقا آخر وفكرت فى أن آخذ الباخرة إلى بيروت . . أو أن أذهب الى مصر ومنها إلى العراق .

أنا لا أكترث بما يسمى بالحاسة السادسة أو وقوع الأمر مسبقا لذلك حاربت هذا الدافع الذاتى وصممت على الذهاب عن طريق يوغسلافية ما دامت الأمور ميسرة عن هذا الطريق . . وأنه أرخص وأسرع . إلى العراق .

وعللت رغبتى العميقة بالسفر إلى مصر من خفقات حنين الشباب إلى مرابع الصبا ومرابع أيام الدراسة . . التى تلازم الإنسان طوال حياته . . برغم ما فيها من جوع أو حرمان أو آلام . إن الشباب هو الربيع الذى يشتاق إليه الإنسان . . أليس الربيع فيه الأزهار والأشواك . . . والشمس والأمطار . . .

ما أن اتجه القطار نحو يوغسلافية إلا عاودنى شعور غامض وأحلام يقظة غريبة . . وكأننى أهوى إلى قاع . . أريد أن أتسلق جداراً عاليا لأتخلص إنه إلحاح غريب على التخلص من المرور بيوغسلافية . .

كان الجو المكفهر وهطول الأمطار ورؤية الأوحال السوداء وتجمعات المياه فى برك هنا وهناك . . وسحنة الناس الجادة ووجوهم العابسة . . ومحياهم الكئيبة . . وأشكالهم الحزينة تقبض النفس . . أين تلك الوجوه الباسمة الضاحكة والمحيا الجميل المشرق . .

لعله رد فعل نفس ما كنت أسمعه عن هذا البلد . . ظهر فى ربوعها . . أو خوفى من السلطة فى بغداد من أن تحاسبنى على مرورى بهذا البلد جسم هذه الرؤية الحزينة ؟

أنا إنسان لا أحب المشكلات وأتخذ من الآية الكريمة . . (ادفع بالتى هى أحسن) حكمة ومنهجا أسير عليه . . لذلك لم أخلق لعالم المجازفات ولم أحس يوما برغبة فى العمل السرى وكرهت اغتياب الناس . . وكنت أحدثهم جهرة وعلانية . . أكره الغموض . . الرموز . . والأحاجى ورحم الله الرصافى حينما قال :

أحب صراحتى قولا وفعلا   وأكره أن أميل الى الرياء

لم أشتر بطاقة يانصيب أو أعتمد على الغش فى الامتحانات كيلا أكون فى موقف الذليل المهان . . فقد أعطانا الله عقلا وهدانا النجدين فما فائدة التردد والخوف من المجهول . . ضع رجلك فى الطريق المجهول . . وادخل الطريق المخوف وقابله خيراً من التردد . . والنكوص لأن فساد الرأى أن يتردد الإنسان وينكص على عقبيه . .

دفعت نفسى نحو هذا الطريق وأخذت القطار حتى وصلت إلى بلغراد بأمان وسلام وهدوء .

وفى بلغراد كان على أن أغير القطار إلى قطار يذهب إلى استانبول . . وكان الوقت كافيا لهذه العملية . . قرأت كلمة استانبول على القاطرة . . وأخذت أول مكان صادفنى . .

ولكن المحل كان مزدحما،لا يمكن أن تضع رجلك أو تحرك جسمك وسط هذه الحقائب وهذه الفوضى والصخب . . والضجيج . .

قلت وصلنا الشرق . . وصلنا إلى قتل النظام وتقطيع أوصاله وتعذيبه . . واهانة الإنسانية كلها . .

ترك القطار بلغراد . . ومر بمدينة (نيش) وكان يهدر فى سيره . . وبالفعل بدأ الركاب ينزلون وصعدت فرقة من فرق الرياضة الذاهبة للسباق وجلسوا معى ، وكانوا يتحدثون لغة لم أسمع بها ولم أعرف حتى لفظة واحدة منها . . وتحلقوا حولى وعلامات الغبطة والسرور تتراقص فى عيونهم . . وكأنهم اكتشفوا كنزا ثمينا فقد سمعتهم يرددون كلمة بغداد والعراق . . التى ذكرتها لهم فى اللحظات الأولى وأخذوا يصافحوننى بحرارة وود لا أعرف سببه . .

وانفرجت الأزمة . . فقد كانوا من المسلمين . . الذين لا يعرفون شيئا من الاسلام . . سوى السلام عليكم قالها لى واحد منهم برهبة واضحة . . ثم رتل بعض آيات من القرآن الكريم .

فكانت نسمة عذبة فى وسط زحام الكلمات وضجيج الألفاظ . . وبدأ أحدهم يتحدث باللغة الإنكليزية التى كسرت ألف مرة . . وفهمت أنهم يسافرون إلى صوفية . .

صوفيـة ؟

وكأن سطلا من الماء البارد قد نزل على . . بلغارية . . قلت وكأننى لم أسمع الكلمة الأولى . .

قالوا نعـم . .

ما العمل ؟ أظلمت الدنيا أمامى . . وتصورت ما سيحدث لى من الشرطة : فوضت أمرى إلى الله وأحسست بأن الحاسة السادسة كانت صادقة . . كل الصدق .

أحس الرياضيون بما خامرنى من ألم . . عندما سكت فجأة وانتابنى هم . . خيم على محياى . . وعصف بالبسمة التى أشرقت على وجهى .

أخذ هؤلاء يهونون على الأمر . . وما يعرفون ما أفكر فيه . . ولعلهم أكثر منى فزعا لو دخلوا إحدى الدول الرأسمالية . . وأكثر منى خوفا من السلطة لو ذهبوا لديارنا . .

أخذوا يقدمون لى بعض الهدايا . . ويعلقون فى صدرى شعار ناديهم أو بلدتهم . .

لا أدرى . . وحمدت الله أن كان معى الطعام قدمته لهم . . ففرحوا بما رأوا . . ولكنهم كانوا يحترسون أشد الاحتراس من الطعام ومن أكله :

وما أن تركنا (نيش) حتى وقف القطار بمحطة دخل علينا موظف الجمرك وشرطة الجوازات .

لم يكترث موظف الجمارك بشيء إذ لم أكن أحمل غير ما أحتاج إليه من ملبس ليلى . . وكيس الطعام . ولكن موظف الجوازات بدأ يسألنى عن سمة المرور . . والحق كان لطيفاً ومؤدبا فأريته سمات العالم الذى أمر به . . ولم أكن أدرى أننى أدخلت إلى بلغارية . .

احتفظ الشرطى بالجواز حتى وصلنا محطة كبيرة ولعلها صوفية . . ووقف الرياضيون معى بعد أن ذهبت محاولتهم أدراج الرياح . . لإعادة الجواز . . جاء من المحطة موظف يتحدث الانكليزية بطلاقة . . وأفهمتهم بأننى ذاهب إلى استانبول .

قال نعم هذا القطار ذاهب إلى استانبول . .
قلت إذن ما المشكلة . .
قال . . ليست عندك سمة دخول أو مرور . .
قلت ألا يمكن أن أمنح سمة مرور وأنا فى القطار لن أخرج منه . . ويمكن أن ترسلوا معى من يراقبنى ويرافقنى إذ من المستحيل أن أقفز فى بلد لا أعرفها وأنا : غريب الوجه واليد واللسان . .

وقف القطار وبدأ الركاب ينزلون زمرا . . ذهب موظف الجوازات واتصل بالمسؤولين فى صوفية . . أو بموظف أكبر منه منزلة لا أدرى . . وحاول إقناعه . . ولكن ذهبت أتعابه أدراج الرياح . .
لم أكن أفهم لغة الحوار . . ولكن الإشارات التى كان يؤشر بها الرجل . . والحديث الطويل الذى طال مع الموظف الثانى . . عكس لى الجهد الذى بذله الموظف . .

ثم عدت إلى القطار . . وكان معى شخصان حمل كل واحد منهما قطعة من القطعتين وسارا دون أن يتكلما . . ونزلنا إلى المحطة التالية . . وكأننى خروف يسير وراء الراعى دون أن يعرف ما مصيره ؟

لا أدرى كيف يتصرف معى هؤلاء . .
هل . . سأذهب إلى المدينة . . وهناك أحاكم لأننى اجتزت الحدود خلسة ؟
هل سأحاكم لأننى خرقت القوانين والأنظمة . .

استسلمت للقدر . . ولم أعد أتكلم كلمة واحدة . . وساد الوجوم على قسماتى . . وران الهدوء على نفسى ولما أحسست باليأس ارتاحت جوارحى . . واليأس راحة النفس .

أشهد أن المعاملة الكريمة التى قوبلت بها لم أنسها فما سمعت موظفا يصرخ فى وجهى . . أو رأيت شرطيا يجلس أمامى . . حقا لم أفهم شيئا ولكن قسمات الوجوه برغم أنها رسمية الصفات لكنها كانت شديدة الأدب . .

وبعد فترة من الزمن . . جاءوا بدراجة بخارية أخذ السائق الحقيبة ووضعها أمامه . . وأخذت حقيبة الطعام الصغيرة . . معى وأشاروا على أن أركب وراءه ؟

إلى أين ؟

إلى المجهول ؟

كنت قرير النفس . . هادىء الجوارح . . وضحكت وقلت . .

إنها مغامرة جديدة . . وحوادث جديدة . . برغم أنفى . . سارت الدراجة تقطع الطريق سريعا وبدأ الليل يرخى سدوله . . وأخذت تجتاز الحواجز الكثيرة . . كنا نقف عندها . . ويتحدث السائق وغمر . إنها أول مرة فى حياتى أركب هذه الواسطة . . وكانت نسمات الليل الباردة تداعب وجهى وترد لى نشاطى . . ورغبتى فى الوصول إلى هذا المجهول . .

وكانت السفرة طويلة . . حتى رأيت من بعيد محطة مضاءة إضاءة كاملة . . فنزل الشرطى وأوقف . . الدراجة . . وحمل الحقيبة وأدخلنى إلى فناء المحطة . . وتلقانى شرطى آخر وعاد الشرطى بعد أن حيانى التحية العسكرية ولكنى تقدمت منه وصافحته . . فابتسم ابتسامة الرضا وصافحنى بكلتا يديه . .

وعاد وأخذ يتحدث معى ولأول مرة أسمعه يقول إنه دكتور من العراق . . وهذا كل ما فهمته منه . . وكأنه يوصى بى خيرا . .

وتبعت الرجل وأدخلنى حجرة داخل الفناء فوجدت زوجته وأطفاله . . إذن هذا ليس سجنا أو توقيفا . . إنها محطة قطار . . ورحبت الزوجة وأجلستنى فى مكان مريح . . وقدمت لى شايا . .

ولما رفعت رأسى وجدت صورة كبيرة (لتيتو) معلقة فى صدر هذه الحجرة . . علمت بعدها أننى عدت إلى يوغسلافيا .

أين أنا من يوغسلافية ؟
أفى شمالها أم فى شرقها لا أعرف . . .
ومن حسن الصدف أن كانت معى بعض الهدايا الصغيرة قدمتها للأطفال واستفدت من الإشارات والأوسمة التى وضعتها الفرقة الرياضية على صدرى . . وعم الأطفال والوالدين السرور والحفاوة . بهذه الإشارات والأوسمة . . الجميلة الملونة . .

كان مدير المحطة . . يعرف نتفا من الانكليزية . . وكانت الزوجة تعرف قليلا من الفرنسية وكانا يبددان الصمت بين آونة وأخرى بكلمات من تلك اللغتين فأحييها ونضحك وأخذانى إلى غرفة جانبية فوجدت فراشا مفروشا فهمت أنهما أحسا بالإرهاق الذى أعانيه . . وتمددت دون أن يغمض لى جفن .

وبعد ساعة أو أكثر . . جاء وحمل الرجل الحقيبة وحاولت أخذها منه لكنه أبى الا أن أحمل كيس الطعام الذى لم يبق منه إلا النصف . فقد وزعت للأطفال بعض الفاكهة . . التى سروا بها . وخرج بى إلى فناء المحطة . . وأركبنى قطارا . . فهمت منه أنه ذاهب بى (نيش) ومن هناك آخذ قطار الشرق إلى استانبول . .

صعدت إلى المركبة فلم أجد فيها أحدا فقد كانت الساعة الثالثة أو الثانية صباحا . . فقد ضاعت على الأوقات ولم أشأ أنظر إلى الساعة .

ونمت نوما عميقا بعد أن وضعت الحقيبة قرب رأسى . . ولم أكترث لكيس الطعام . . كان التعب قد هدنى والارهاق الروحى وخوف المجهول هز كيانى وعندما نمت أحسست كأننى استرجعت ما فقدت من طاقتى وكان نومى عميقا . .

لم أحس بما دار حولى حتى استيقظت صباحا . . فوجدت القطار قد طفح كيله . . وحولى جموع من العمال واقفين أو جالسين . . دون أن يزعجنى أحد . .

انه قطار عمال . . يخرج فى الصباح . . وجلست فى مكانى معتذرا . . دون أن أفهم ما يقولون . . أو يفهموا ما أقول وجاء مفتش البطاقات .

كان منظرى وملابسى تختلف كل الاختلاف عن منظر العمال بملابس العمل فأنا أرتدى كامل الملابس ورباط العنق . . وكنت أنيقا بالقياس إلى ملابسهم .

أعطيته بطاقة القطار العالمية . .
نظر فيها . . وسألنى . . وما عرفت ما سأل . . ثم قلبها وما فهم شيئا ثم نظر إلى

وسألني ثانية . . أخذت البطاقة منه . . وأشرت له على كلمة استانبول ويظهر أن الرجل لا يعرف حتى الكلمات الانكليزية . .

أصابه الملل والحسرة . . فسلمني البطاقة ثانية وهو ضاحك وكأنه يفهم الأمور حتى لا يوصم بالجهل . . وقال لى . . شيئا لم أفهم منه غير كلمتين نيش استانبول . . وتلك هما مفتاح الطريق . .

وما أن وصلت إلى نيش حتى نزلت . . لأبحث من جديد عن القطار . .

فى الطريق إلى استانبول :

كانت فرحتى بالقطار لا يمكن وصفها فقد أزيلت عن روحى غمامة سوداء وأشرقت فى وجهى سماء صافية جميلة . . وازدهرت الجنائن أمامى . . وصفقت الجداول خريرا عذبا موسيقيا . . ومن شدة الرعب . . والحذر الشديد بادرت المسؤول عن المحطة عن القطار أقول : .

هل يذهب القطار إلى اليونان ؟

قال نعـــم

ألا يمر فى صوفيـــة . .

لا . . .

هل يذهب إلى استانبول

نعـــم . . . .

ونظر فى وجهى وحسبنى لا أفقه لما يقوله . . وهز رأسه . . لا أدرى إن كان أسفا أو سخرية ؟

ثم ذهبت إلى سائق القاطرة . . وسألته السؤال نفسه فأكده لى . . .

ولما دخلت العربة . . سألت الجالسين معى إلى أين يذهبون . .

فقال واحد إلى اليونان والآخـر إلى استانبـول . . وجلست مطمئن النفس هـادىء الروح . .

كم ساعة ضاعت منى لا أدرى يوم أو يـومين لا أعـرف فقد تـاهت على المقـاييس والساعات ولكنى الآن أسير إلى اليونان ثم إلى استانبول . .

وكانت مدن اليونان عامرة بكل حاجات المسافر سهولة فى الحصول على الطعام والشراب . . الفاخرين الجيدين . .

مدينة الذكريات .

ومررنا بمدينة الذكريات التاريخية التى تقلبت بين يدى تركية واليونان انها سالونيكا . . التى سميت ذى سالونيكا . . ومنها خرجت الخطط التى دمرت الدولة العثمانية . .

كانت فيها جالية (الدونمة) وهم اليهود الذين طردتهم الكاثوليكية من الأندلس وتظاهروا بالاسلام وقبلتهم الدولة العثمانية . . فى هذه البلدة تآمرت الصهيونية على الدولة العثمانية ودمرتها عندما رفض السلطان عبد الحميد منح أرض لليهود وطنا قوميا لهم فى فلسطين .

وقد حاولت قادتهم رشوة السلطان عبد الحميد ولكنه غضب وطرد الوسيط الذى جاء إليه فصرف تلك الرشوة فى اسقاط عبد الحميد بتشويه سمعة الرجل ونشر الحقد والبغضاء ضده بين الجيش العثمانى فى سالونيكا ومساعدة جمعية الاتحاد والترقى التى غذتها وقوتها . وبعدها دخل الجيش العثمانى برئاسة محمود شوكة العراقى الذى من أصل المماليك إلى استانبول وتم عزل السلطان ومن الطريف أن يذهب قره صو (اليهودى) ويبلغه بأمر العزل مع الوفد .

انتقض السلطان لا لما أصابه ولا حزنا على عزله إنما ساءه أن يدخل الصهيونى شماتة به فقال لهم بسخرية وألم : كيف سمحتم لهذا اليهودى أن يدخل دار الخلافة معكم .

وبعزل السلطان تم للغرب وللصهاينة القضاء على الدولة الاسلامية وفتح الأقطار العربية أمام الصناعة الأوربية والاستفادة من الموارد الأولية فى الصناعة بأسعار رخيصة . .

وبعد سقوط السلطان عبد الحميد بتسع سنوات صدر وعد بلفور وتدافعت جموع اليهود على فلسطين .

وحكمت سلطة (الدونمة) متمثلة بكلمة طلعت باشا وأنور باشا البلاد ثم جاء كمال مصطفى وأكمل اللعبة ومنع الاتصال بالعرب والإسلام تنفيذا للمعاهدة الأجنبية . لإبعاد الأتراك عن العرب والإسلام .

هذه الأستانة

وما أن وصلت الفندق حتى استغرقت فى نوم عميق . . وأحلام لذيذة . . فقد كان سفر القطار الطويل وخوفى مما لا أعرفه . . شد أعصابى . . وكنت شديد الحذر واليقظة . . أحاذر من حركة صغيرة تصدر فى القطار . . وانظر . . إلى الهمسة التى تصدر من الناس . . أحسست فى الفجر حلاوة مرت فى كيانى . . وقشعريرة سرت فى روحى . . وأنا أسمع المؤذن بصوته الرخيم ينادى .

الله أكبر . . أشهد أن لا اله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله . فلو سرت فى روحى أجمل المشاعر . . وأحلى الأحاسيس لما أحسست بهذه اللذة العجيبة . . التى تذوقت فيها لذة لا تعدلها لذة .

وعندما قال . .
الصلاة خير من النوم
اهتززت فى فراشى . . أجل الصلاة خير من النوم . .
هل هى اللغة العربية هزت مشاعرى . .
هل الآذان أرهف حسى ؟
هل صوت هذا المؤذن وعذوبة صوته . . سرت فى جسمى . . مع هذه الحلاوة . . انها كلها . . جمال الصوت وهو ينادى بلغة عربية جميلة بعد أن كان يقول

(تنكر بيوك)
رحماك يارب أسبغت على العرب فضلا لا يعرفون قيمته . . ونشرت لغتهم فى كل مكان وهم يجهلونها ولا يقدرونها حق قدرها .

حقا إنها لشىء غريب وأمر ما كنت أتصور أن تكون استانبول راقدة تحت غطاء كثيف من الثلوج . . انها غير تلك البلدة ذات المناخ الجميل اللطيف والهواء العليل . . فالرياح تصفر وتكاد تمزق جلد الوجه فقد احمرت الأنوف واحتقنت الوجوه من شدة البرد . . ومن حسن الحظ كنت أرتدى ملابس الشتاء وألبس حذاء مبطنا بالفراء ومعى لفاف ألف به رأسى وعنقى وصدرى . . جلبتها معى من أوربا .

وقد سمعت بأن هناك من تجمد من شدة البرد . . وأوقفت حركة الطيران رحلاتها . . فقد ارتفعت الثلوج إلى نصف متر فى الشوارع . . وبدأت حملة رسمية من الجيش لتنظيف هذه الشوارع وكانت آلات الكسح ورفع الثلوج تعمل بكل قوتها لفتح الطريق لمرور السيارات التى لم تعد قادرة على السير برغم ما وضع فى أطرها من سلاسل لتغرز فى الثلج وحتى لا تتزحلق . . كثرة الثلوج أوقفت حركة العمل فى المحلات الرسمية والجامعات ، وتابعت الجرائد بأخبار مفصلة وسبب الثلج مشكلات كانهيار الأبنية . . وحجز وسائط السفر داخل الأنفاق ، وإيقاف مسيرة القطار .

وشدة سقوط الثلوج أدت إلى اضطراب فى الرأى العام ، وجر إلى بلبلة فكرية غريبة . . وكأنها حادثة جديدة . وخشى الناس من استمرار سقوط الثلوج وانقطاع الطرق . . ومعناه على حد قول الجرائد أن الطحين لن يصل إليهم وبالتالى فسوف يشح الخبز من المخابز . فقامت الجهات المسؤولة بارسال كميات كبيرة من أكياس الطحين إلى المخابز لبعث الثقة فى النفوس . . لكن تجارب الماضى حالت دون أن يصدق الجماهير قول الدولة . . .
وتلك بلية الشرق كله ، ضياع الثقة بين الدولة والشعب . . . لأن الدولة تكذب دائما ولم يصدقها حتى وإن كانت صادقة . .

هل تقدر الدولة فى الغرب على الكذب والضحك على شعوبها وأن تتحايل عليه ؟ فى الحرب العظمى الثانية تساوى ملك بريطانية مع أى عامل فى المنجم فى المخصصات الغذائية والقماش .

وعندما أرادت ولية العهد أن تتزوج (الملكة الحالية) . . لم تجد أن مخصصاتها من الأقمشة كافية لجهاز عرسها . . فتبرع الشعب البريطانى لها بالبطاقات من أنحاء بريطانية حتى تستكمل جهازها . . ولم تكن الأسرة المالكة أو رئيس الوزراء يأخذ من الحليب والزبدة والبيض إلا ما يأخذه كل الشعب البريطانى . . وحكام الشرق يرون المجاعات فى ديارهم ويتمرغون على الحرير و السندس ويأكلون ما طاب لهم من طعام وشراب . .

الثقة المتبادلة بين شعوب الغرب والحرية الكاملة التى حصلتها هذه الشعوب من حكامها دعامة من أقوى دعائم الحكم . . ولن يقدر الحاكم أن يخطو خطوة واحدة تسىء إلى الحرية الفردية لهذا الشعب فقد كانت تجاربه مريرة . . أخذت الشعوب حريتها بالقوة . . وأذعن الحكام برغم أنوفهم لهذه الرغبة . . ومتى خرجت عن مصلحتها .

ومن المضحك أن نسمع أن رئيس الوزراء فى دولة منح الشعب حرية التجمع وتشكل الأحزاب وإصدار المجلات . . وأن رئيس الدولة تفضل فأمر باصلاح الأمور . . انها سبة للشعوب . . ألا يكون فيها إلا شخص واحد عبقرى وانه الوحيد المصلح . . ويلغى دور كل المفكرين والمصلحين الذين حوله . . بل سبة للحاكم نفسه أن يرضى أن يوصف بكل هذه الأوصاف . . ويسكت عنها ويستمرىء هذه النعوت . . . انه علم شعبه الكرامة ، والاعتزاز بالنفس ، فهل كان الشعب بلا كرامة أم يكون هو من الشعب المفقود الكرامة ؟

ولا تختلف تركية عن غيرها من بلادنا ألم يحكمها شخص واحد وساقها بالعصا وغير حياتها السياسية والفكرية والاقتصادية . . وأراد أن يغير حياتها الدينية فأفلح فى المظاهر ولولا تغلغل الدين فى النفوس لحولهم إلى دين جديد اطاره عبادته . . وطقوسه الحمد والثناء عليه . . أليس هو الحاكم الفرد انه أبو الأتراك . . فمن هى أمهم ليت شعرى ؟

لا أنكر أن للغرب أثرا فى هذا التوجيه بعد أن اشترط عليه أن يبعد عن الاسلام وعن العرب فى المعاهدة التى عقدها معه وأن قوة الما سونية والصهيونية ازرت الرجل ضد الشعب التركى المسلم إلا أننى لا أشك بأن الشعب لو كان قويا . . وكان غنيا وكان متماسكا لما قدرت قوة فى الأرض على السيطرة على مقدراته ، ولكن الفقر والجهل والمرض آفات لو سلطت آفة منها على أمة لدمرتها . . فقد خرج العثمانيون منهوكى القوى بعد الحرب . وضعيفى القوة وممزقى الأوصال .

كانت صفوف الناس أمام المخابز شهادة كبيرة الحجم تدين الحكام مهما حاولوا سترها فقد نشر الوالى تصريحا فى الجرائد قال فيه : بأن البلد فيه كميات كبيرة من الطحين والحنطة وان مخازنهم مملوءة من هذه المادة الضرورية . . ورجاهم أخذ ما يحتاجون دون إسراف . . ومبالغة .

لكن الأمور كانت على خلاف وصايا الوالى . . قد كثرت الصفوف بعكس ما أراد الوالى . . وأشهد أن كميات الخبز والطحين كانت كثيرة . . والناس كانوا يأخذون أكثر من حاجاتهم وما شحت المخابز على الناس . . أما الفئة المترفة فقد استغلت تساقط الثلوج . . للتمتع والترفيه ونشطت الرياضة والتزحلق واللعب والمرح على الثلوج . . والتسلى بعمل كرات من الثلج والعبث بها ومن طريف ما رأيت صورة فى إحدى الجرائد الهزلية (آق قابا) ومعناه الأبيض . . رسم كاريكاتور فيه صورة فتاتين ووراءهما شاب تركى يلاحقهما .

قالت إحداهن للأخرى . .

لا تتكلمى باللغة التركية السليمة . .

فقالت الأخرى لماذا ؟

قالت لأن هناك شابا يلاحقنا . . ومتى عرف أننا من تركيا فلن يلاحقنا . كانت هجرة المسلمين المجريين تصل إلى استانبول من جراء الضغط على الدين . . إن حب الأتراك الزواج من الأجنبيات المجريات الجميلات . . وغرام الشباب بهذا الجمال العذب بارت فيه التركيات . فتناولت الجريدة جانبا من حياة الشباب الجديد .

كنت أقضى وقتى فى المقهى المجاور لجامعةاستانبول لوجود الطلاب العراقيين وكان فيهم زميل من العراق جاء الاسكندرية لأخذ شهادة الطب من استانبول من كرام (الحلة) . . وكان حفيا بى كريما كل الكرم وكان نعم المساعد والمعين فى المرة الأولى عندما جئت إلى استانبول وهذه المرة . . الثانية . غمرنى بطيبة أنسانى بها ألم الغربة .

علقت معطفى ولفاف الرقبة فى محل تعليق الملابس بالمقهى وبالرغم من أن المحل كان قريبا جدا منى . . إلا أننى لما تركت المقهى لم أجد اللفاف فقد أعجب به أحد الجالسين . .

قلت انه حقا يستحق الاعجاب فى مثل هذا اليوم البارد أين حاتم الطائى الذى كان يقول :

أوقـد فـإن الـليـل لـيـل قـر   والـريـاح يـا غـلام ريـح صـر

نحن بحاجة إلى النار . . غفر الله للسارق . . فقد عانيت من البرد كثيرا . . وكنت بعدها أضع المعطف على ركبتى . . خوفا من أبقى بلا معطف وتلك مصيبة كبرى . . لو جاء معجب بالمعطف . . وأخذه منى . .

لم أقدر على زيارة المكتبات . . التى زرتها فى المرة الأولى وكأنى شعرت بما أعانيه من الورق والكتب . . وكان رد الفعل من الكتاب عميقا فى نفسى . . فمازلت أحس بالألم النفسى . . والوجع فى كل كيان جسمى . . فقد هزلت وأضعت الكثير من وزنى من جراء الأيام الطويلة الشاقة التى سهرت فيها من أجل كتابة الرسالة ومع كل ذلك وبلا شعور قلت لصاحبى فاتنى أن أرى مكتبة واحدة فقد كانت مقلقة عندما كنت فى استانبول فى ذهابى إلى أوربا . .

أريد أن أتمتع فقط فى رؤ ية المخطوطات العربية ففيها أبى وأمى وجدى . . فيها تراثى وحضارتى . . انها ركن من أهم أركان الدين الإسلامى الذى خفقت راياته فوق ربوع العالم

ولولا الاسلام لما احتفظ الأتراك بهذه المخطوطات . . إنهم ينظرون إليها نظرات التقديس والاعجاب ففيها فنون العرب وتراث الإسلام والفكر الحضارى لكل الشعوب . .

كم من المخطوطات ضاعت هذرا فى الغرق أو الحرق أو عبث الجهال فقد نشر داود الجلبى (مخطوطات الموصل) وعندما أردنا أن نجد هذه المخطوطات فى الجوامع والمدارس التى ذكرها لم نجد من بقاياها شيئا يستحق الذكر .

ان اجراءات الحصول على المخطوطة مصورة فى استانبول من الأمور العسيرة . . ولعل مرد ذلك إلى فقر الدولة وعدم قدرتها على تزويد الباحثين بصور المخطوطات . التى يحتاج الباحث إليها بعد أن كانت مركز الحضارة الاسلامية . . فجمعت استانبول ذخائرها وعلمها وفضلها فى المخطوطات .

وفى بلدية استانبول وثائق لا تقدر بثمن فقد حوت مراسلات العالم الاسلامى والغربى التى كانت تجرى بين الأستانة والانبراطورية وقد حدثتنى الدكتورة البرتين جويدة عن أهميتها ولما ذهبت إليها أكثر من مرة هالنى هذا العدد الكبير من الوثائق التى لا يعرفها أكثر الباحثين الذين يدرسون تاريخ العراق فى العصر الحديث وأيام الدولة العثمانية . .

إلى بغداد

كنت أعد الساعات للسفر إلى بغداد . . كان الشوق يزداد كلما تقدمت خطوة نحوها . . والحب يستعر كلما وجهت وجهى نحوها . . ما أحلى أن يعود الانسان ظافرا . . ان حلاوة الانتصار بعد الكفاح حلاوة لا يعد لها متعة . . ولذة ما بعدها لذة . .

وبالرغم من المحن التى قاسيتها والظروف الصعبة التى مررت بها والمرض الذى أنهك جسمى وأذاب الشحم واللحم منى حتى صدق قول بشار بى عندما قال :

كفى بجسمى نحولا أننى رجل   لولا مخاطبتى اياك لم ترنى

لأول مرة أحس بحلاوة هذا البيت وصدقه وان كان بشار كالثور حجما وشكلا . . إلا أنه رغم عماه فقد أصاب الهدف وأحسن الوصف . . رحم الله بشارا عن صدقه هذه المرة .

وقد كان اخوانى من أهل العراق مدعاة مساعدة كبيرة فقد جاءوا معى إلى المحطة . .

وتلك هى المشاعر الصادقة والحب الصافى عندما يقدم لـك إنسان خـدمته راضيـا . . ويسارع فى تسهيل أمورك مرتاحا دون منة أو فخر . .

كنت أخاف من أن يعرقل الثلج مسيرة القطار أو أن يؤخر ساعات السفر . . فإنى أريد أن أطير . . إلى بغداد حيث الأهل والأولاد وحيث الإخوة والأحباب .

وما ان أهلت على الموصل . . حتى حمدت الله على العودة سالما وشكرته على أن منحنى الصحة والشهادة العلمية

وقبل يومين أو ثلاثة أيام كان موزع محلة الفضل يحمل رسالة إلى أم أسل العزيـزة مكتوب عليها . . أسرة الدكتور يوسف عز الدين

سرت بعدها موجة من الغبطة والسرور فقد تحول رجل البيت إلى أستاذ فى جامعة بغداد وتناثر الخبر بين الأسـرة والأحبة . . وفـرح الأحباب وحـزن الحساد الـذين حالـوا دون سفرى . . بأوهى الأسباب . .

كانت خطواتى وثقتى بالله وبنفسى كبيرة . . فلما أن راجعت وزارة المعارف التى كانت أخبرتها السفارة بتخرجى . . حتى أحاط بى الموظفون بكل ضروب الاحترام والـرعايـة والنفاق الاجتماعى وقد كان واحد منهم إذا دخلت مجلسه . . لا يرفع رأسـه ليخاطبنى ويستمر يقرأ الجريدة . . كان يحدثنى وهو يقرأ فى جريدتـه اليوميـة استعلاء . . وعـدم اكتراث بهذا الزائر الصغير . .

دكتور . . دكتور . . صاح بكل قدرته وركض يفتح يديه
أخذنى بين أحضانه وبحرارة عجيبة وقبلات غريبة وأقسم أن أعود معه إلى حجرته . . حتى يتشرف بى . . ويباهى الناس بأننى زرته . . ولأشرب الشاى عنده .

سبحان الله بعد سنتين . . هكذا البشر . . أم هذه حلاوة الانتصار .
جـاملت الرجـل . ولولا الحيـاء والخجل والآداب لقلت أكـثر مما قـاله مـالـك فى الخمرة . . فقد تذكرت علامات الاحتقار والاستياء التى قابلنى بها منذ سنتين . . وقارنتهـا بالذلة والهوان والتوسل الذى قابلنى به اليوم . . فانصرفت عنه بأدب فقد قابلنى رئيسه وهو صديق . . وأخذنى معه . . إلى مقابلة الوزير لأنه سمع بقدومى . . ورجاه أن أقابله . . قبل أن أترك الوزارة ولما دخلت على الرجل وهو من فضلاء الناس ولى به صلات قديمة وجدته قد كتب رسالة إلى ثلاث كليات للاستفادة منى . . انه عبد الحميد كاظم رحمه الله .

والغريب كل الغرابة . . ان الكليات الثلاث التى رفضتنى قبل سنتين طلبتنى كلها . . سبحان مغير الأحوال . . وصدقت وأنا أقول :

عفـالله عن قدومى فلقـد كنت هائـا   تـغـنى أغـاريـدى الـعـنـادل

اخترت كلية الآداب فوجدت صفوة الأحباب والزملاء ولم أتركها وان تركتنى . .

المحتويات

من مؤلفات
الدكتور يوسف عز الدين

١ ـ الشعر العراقى فى القرن التاسع عشر : خصائصه وأهدافه .
بغداد ، وزارة التربية، ١٩٥٨ .
القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٥ .
القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٧ .

٢ ـ الشعر العراقى الحديث والتيارات السياسية والاجتماعية :
بغداد ، وزارة التربية ١٩٦٠ .
القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٥ .
القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٧ .

٣ ـ خيرى الهنداوى حياته وديوان شعره :
القاهرة ، معهد الدراسات والبحوث العربية ، ١٩٧٥
بغداد ، جامعة بغداد ، ١٩٧٤ .

٤ ـ فى الأدب العربى الحديث (بحوث ومقالات نقدية) :
بغداد ، جامعة بغداد ، ١٩٦٧ .
بيروت والقاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٣ .
بيروت ـ دار العلوم فى الرياض ، ١٩٨١ .

٥ ـ داود باشا ونهاية المماليك فى العراق :
بغداد ، دار البصرى ، ١٩٦٧ .
بغداد ، جامعة بغداد ، ١٩٧٦ .

٦ ـ مخطوطات عربية فى مكتبة صوفية الوطنية :
بغداد ، المجمع العلمى العراقى ، ١٩٦٨ .

٧ ـ الاشتراكية والقومية وأثرهما فى الأدب العربى الحديث :
القاهرة ، معهد الدراسات والبحوث العربية ، ١٩٦٨
بغداد ، جامعة بغداد ، ١٩٧٦

٨ ـ شعراء العراق فى القرن العشرين (جـ١) :
بغداد ، جامعة بغداد ، ١٩٦٩

٩ ـ الرواية فى العراق ـ تطورها وأثر الفكر فيها :
القاهرة ، معهد الدراسات والبحوث العربية ، ١٩٧٣

١٠ ـ فهمى المدرس ـ من رواد الفكر الحديث :
القاهرة ، معهد الدراسات والبحوث العربية ، ١٩٦٩
بغداد ، جامعة بغداد ، ١٩٧٦

١١ ـ القصة فى العراق ـ جذورها وتطورها :
القاهرة ، معهد الدراسات والبحوث العربية ، ١٩٧٤ .

١٢ ـ تطور الفكر الحديث فى العراق :
بغداد ، دار المناهل للترجمة والنشر ، ١٩٧٦

١٣ ـ إبراهيم صالح شكر وبواكير النشر الحديث فى العراق :
القاهرة ، معهد الدراسات والبحوث العربية ، ١٩٧٥

١٤ ـ قلب على سفر (رواية) :
القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٨ .
القاهرة ، دار الشروق ، ١٩٨٨

١٥ ـ مخطوطة شعر الأخرس .
بغداد ، مطبعة العانى .

١٦ ـ النصرة فى أخبار البصرة (للأنصارى) :
بغداد ، المجمع العلمى العراقى ، ١٩٦٩
بغداد ، جامعة بغداد ، ١٩٧٦ .

١٧ ـ فى ضمير الزمن (الشعر) :
الأسكندرية ، دار الطباعة الحديثة ، ١٩٥٠ .
القاهرة ، مطبعة الرسالة ، ١٩٧٠ .
الرياض ، دار أمية للنشر ، ١٩٨٥ .

١٨ ـ ألحان (شعر) :
الأسكندرية دار الطباعة الحديثة ، ١٩٥٣ .
القاهرة ، دار العلم للطباعة ، ١٩٧١ .
الرياض دار أمية للنشر ، ١٩٨٥ .

١٩ ـ لهاث الحياة (شعر) :
بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦٠ .
القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٧ .

٢٠ ـ من رحلة الحياة :
بغداد ، مطبعة أسعد ، ١٩٦٩ .
القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥

٢١ ـ فصول فى الأدب الحديث والنقد :
دار العلوم ، الرياض ، ١٩٨١ .

٢٢ ـ Modern Iraqi, Poctry Social and Political Influence
القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧١

٢٣ ـ Poetry and Iraqi Society: 1900-1945
بغداد مطبعة العانى ، ١٩٦٢ .

٢٤ ـ قضايا من الفكر العربى :
القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٨ .

٢٥ ـ الحركة الفكرية فى العراق :
القاهرة ، جامعة بغداد ، ١٩٨٤ .

٢٦ ـ التحدى الحضارى والغزو الفكرى .
الرياض ، دار أمية للنشر ، ١٤٠٥هـ .

٢٧ ـ Sengs from Baghdad- London 1984

٢٨ ـ التجديد فى الشعر ، بواعثه النفسية وجذوره الفكرية .
الرياض نادى جدة الأدبى ١٩٨٦ .

٢٩ ـ ثلاث عذارى : قصص قصيرة
الرياض ، دار أمية للنشر ١٩٨٧ .

٣٠ ـ Spontaneite ترجمة الدكتورة درية نجم ١٩٨٥
(تلقائية) إلى اللغة الفرنسية .

٣١ ـ قول فى النقد وحداثة الأدب .

الرياض ، دار أمية للنشر ، ١٩٨٧ .

٣٢ ـ همسات حب مطويه

القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧

٣٣ ـ وعادت الذكرى بغرائبها وطرائفها

القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨

٣٤ ـ تراثنا والمعاصرة .
القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧ .

الدكتور يوسف عز الدين

عضو المجمع العلمي العراقي ــ بغداد
عضو بمجمع اللغة العربية ــ القاهرة
عضو بمجمع اللغة العربية ــ عمان
عضو بمجمع اللغة العربية ــ دمشق
عضو بيت الحكمة ــ تونس
عضو الجمعية الملكة الأدبية ــ لندن
عضو الأدب المقارن ــ امريكا
عضو شرف رابطة الأدب الحديث ــ القاهرة
عضو اتحاد الأدباء ــ بغداد
عميد الدراسات العليا ــ الصين

كشـــاف الاعـــلام والبلـــدان

كشاف الأعلام

(أ)

(ب)

(ح)

(خ)

(د)

(ش)

ـطـ

(ع)

(غ)

(ف)

(م)

كشاف البلدان

(أ)

محتويات

وعادت الذكرى بطرائفها وغرائبها



مطابع الهيئة المصرية العامة للـكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٨/٨٠٨٢

ISBN ٩٧٧ - ٠١ - ٢٠٠٤ - ٩



يوسف عز الدين

المؤلف من رواد النهضة ، الفكرية ، الحديثة ، ومؤرخ للأدب العربى الحديث فى العراق فقد وضع أسس النقد الحديث وتاريخ الأدب فيه .

شاعر وكاتب وناقد كتب عنه أكثر من سبعة كتب أربعة باللغة العربية وثلاثة باللغة الإنكلزية والفرنسيه والبولونية . هذه مذكراته أثناء الدراسة ، فيها صدق العبارة ووضوح الرأى ، سجل فيها أجمل الطرائف وأحلى الغرائب مع حياة الجد والكفاح والصبر والمعاناة فى أوربا وما فيها من متناقضات وعجائب .

الناشر